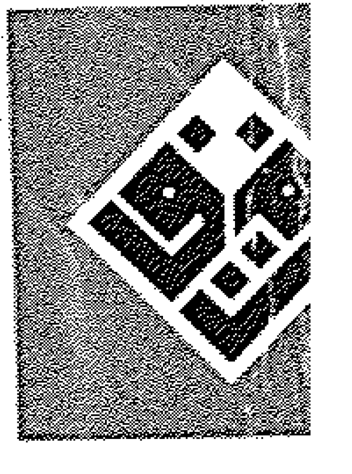




جيريمي سيبروك

ضحايا التنمية

المقاومة والبدائل

ترجمة: فخري لبيب

المشروع القومي للترجمة

20

المشروع القومى للترجمة

ضحايا التنمية
المقاومة والبدائل

تأليف

جيريمى سيبروك

فيرسو

لندن - نيويورك

ترجمة

فخرى لبيب



المحتويات

مقدمة المترجم

القضية التى تشغل بال المؤلف هى قضية التنمية الجارية ، وله منها - منذ البداية - موقف ؛ هو أنها ليست عملية تولد الإفقار والضرر فى جانب هو جانب الأغلبية ، وتركز السلطة والتميز والثروة فى الجانب الآخر وهو جانب الأقلية.

وقد يجادل أحد فى رفض نظام يولد الإفقار فى جانب والثروة فى الجانب الآخر ، غير أن الأمر يختلف عندما يدخل المؤلف فى التفاصيل والرؤى والبدائل ، غير أنه لهذا الكتاب أهمية خاصة ؛ إنه يطرح رؤية قد تكون جديدة على الفكر المحلى ، رؤية تدخل فى باب الخضر أو قطاع من الخضر ، رؤية قد نختلف أو نتفق معها جزئيا أو كليا ، لكنها رؤية متنامية عالميا ، وعلينا التعرف عليها .

وقد أقام المؤلف كتابه - فى الأساس - على شهادات الشهود من أطراف العالم المختلفة ؛ من مانيلا ودلهى إلى ريو دى جانيرو وساو باولو مع تركيز خاص على الهند، ولمحات أوروبية مع ذكر خاص لبريطانيا ، وتكاد الشهادات أن تتماثل ؛ فنموذج التنمية الذى يطبق واحد ، ومن هنا تماثلت نتائجه ، ضحايا فى كل مكان ، آلاف وآلاف من البشر ، بدو ورعاة وأبناء قبائل وصيادو أسماك وساكنو غابات وفلاحون وعمال وفقراء الحضر تطاردهم وتطردهم المشروعات الكبرى ؛ السدود والمشروعات الكهرومائية والمطارات والمدن السياحية والتقنية فى الزراعة وارتفاع أسعار المدخلات وتزايد الآلية فى الصناعة ، كل هؤلاء يطردون من مواطنهم ليدفع بهم إلى الأحياء الحضرية المكتظة القذرة ، ويتناول المؤلف عددا من القضايا أبرزها:

قضية الأرض وماعليها من زراعات وبشر :

الثورة الزراعية :

يرى المؤلف فى الثورة الخضراء عملية توسيع وتكثيف لزراعة مصنعة ، لاتقوم على العمل مع الطبيعة ولكن على قهرها بواسطة مدخلات عالية التكلفة من المخصبات والمبيدات وأنواع البذور المهجنة ، إنها استبدال للقدرة على الحياة فى توازن مع الوسط المحيط الطبيعى بمعرفة كيفية ممارسة بديلها التكنولوجى ؛ المجتمع الصناعى يسعى كى يحل محل الطبيعة ، ويجبر الناس على امتداد العالم على التخلى عن الطعام المحلى والتقليدى ، حتى يمكن للشركات عابرة القوميات أن تقوم بتغذيتهم طبقا لما تراه .

إن الطعام التقليدى هو جذر الهوية ، والتخلى عنه تخلى عن كل شئ ، ويصبح الزراع أمام وطأة الديون وارتفاع تكاليف الزراعة عمالا بلا أرض ثم عمالا فى المصانع ، الفقراء يتركون الأرض والأثرياء يلتهمونها ، ثم يحولونها إلى محاصيل نقدية تباع نقدا.

إن تحويل الفلاحين إلى عمال هو عمل من أعمال العنف الذى يتضمن تمزقا وانقطاعا وانفصالا جذريا عن الثقافات التقليدية ، إنها عملية إعادة تجميع الناس فى صور المجتمع الصناعى وإعادة تكييف قسرية من إيقاعات العالم الطبيعى إلى تلك التى للصناعة ، وكل ذلك يؤدى إلى تخريب الاعتماد على الذات وتقويض المقدرة والطاقة ، والبدائل المحلية والتخلى عن الخبرة والمعرفة والتجربة المتراكمة ، مما يتسبب فى فقدان الهوية والقدرة على التطوير محليا .

العمل المرهون :

يتناول المؤلف ظاهرة غريبة فى الهند ، ظاهرة وثيقة الارتباط بعمليات الافقار فى الريف ، إنها العمل المرهون ؛ إن الفلاح الذى يضطر للاستدانة لدفع أثمان المدخلات ومواجهة زيادة النفقات ، ثم يعجز عن السداد يسقط فى فخ العبودية ، أى يصبح عبدا لمن أقرضه ؛ يعمل لديه ويصبح عمله مرهونا مقابل دينه . لكنه يظل عبدا أبديا لأن عمله لايكاد يسدد فوائد القرض ، وهو إن مات دون سداد أورث العبودية لأبنائه وأحفاده من بعده .

الغابات :

كان الناس يعيشون حياة تكافلية مع الغابة ، يشيدون منها منازلهم ويعتمدون عليها فى شئون معاشهم ، ولما قطعت الغابات اقترض هؤلاء الناس ليعيشوا ، ثم عجزوا عن السداد فدخلوا عبودية الرهن ؛ الشقاء بديلا عن الجوع والشقاء ثمنا للبقاء .

يجب وقف المسيرة الحزينة من الريف إلى المدينة حيث اليأس والعجز عن تحقيق المعاش ، والظلم الاجتماعى والطبقية ، بحثا عن حياة أفضل فى المساكن القذرة المكتظة .

يجب وقف تلك المسيرة فى المكان الوحيد الذى يمكن ان تتحقق فيه الحياة الأفضل ، فى المنبع . إن تدنى الأرض يسير جنبا إلى جنب مع تدنى الإنسان ، والتقنية القادمة من الخارج لم تستطع القيام بنصف ماقام به الناس أنفسهم حينما كانوا مسيطرين على أرضهم .

الصناعة:

– الصناعة الآلية :

هنالك من يقترحون المزيد من تصنيع الهند ، وهؤلاء سيضاعفون فقط من إنهاك الأرض وتقويض قاعدة الموارد وتاكل مناسيب المياه والمزيد من تحطيم القاعدة الاقتصادية للبلاد . إن المجتمع الصناعى ينصب نفسه بديلا لما دمره ، وتصبح الرأسمالية ليس مجرد نظام بين أنظمة عديدة ، لكنها النظام الشرعى الوحيد الذى يسود العالم ويحتله .

إن العمال فى اليابان يحصلون على أجور تعادل عشرة أضعاف مايحصل عليه العمال فى ماليزيا ، وهذا هو سبب ذهاب الشركات اليابانية إلى ماليزيا ، إن هذه هى المرة الثانية التى تقوم فيها اليابان بغزو ماليزيا خلال نصف قرن ، غير أنهم يستخدمون فى هذه المرة أسلحة اقتصادية .

أصحاب الأعمال يضغطون على العمال بالعمل المكثف فوق الطاقة والاعتزال المبكر فوق سن الأربعين ، والعمال يتشبثون بعمل يزداد استغناء عنهم بازدياد الآلية ، إن التنمية التى تؤدى إلى تسريح الناس من العمل واستنفاد الموارد ليست تنمية ، إنها غباء قاتل ، إن الشبان العاطلين موارد محذوفة من الإنتاج .

إن تحطيم الاعتماد على الذات ، وإحلال الاعتماد على مايمكن أن تنتجه الآلة محلها قد تسبب فى أنماط من البؤس بعيدة عن أدوات القياس الاقتصادية ؛ إذ عندما تتآكل روابط الأخوة والقرابة والصداقة والجيرة يقف الناس فرادى عرايا ويتعرضون لأشكال من الحرمان والعوز يندر أن توجد الكلمات التى تصفها .

إن التنمية عبر التغيير التكنولوجى قد تتسبب فى فقدان المهارات التقليدية أو تدنيها ؛ هنالك مثلا حرفة النقش التقليدى وصناعة الخشب (فى الفليبين) والتى تتسم بالمهارة ، إن ٩٠٪ من الرجال العاملين فى هذه المهنة يعملون الآن فى الخليج كعمال بناء ، والنتيجة اندثار هذه المهارات الحرفية مما يؤدى إلى الحط من الثقافة ، وكل هذه الخسارة الفادحة لاتدخل أبدا فى حساب التكاليف الاقتصادية .

لا أحد ينكر أن قطاع الدولة لم يكن ناجحا ، غير أن القطاع الخاص (فى الهند) ليس مثال الفضيلة ، سواء من ناحية دفع ماعليه من ضرائب أو من ناحية مراعاة قوانين التلوث والحد الأدنى للأجور وقوانين العمل والبحث والتنمية والتخطيط طويل المدى ، إن المزيد من عدم التنظيم لن يكون غير برنامج للكارثة .

كنا نقترض فى السبعينيات لتمويل التنمية ، أما الآن فإننا نقترض لتسديد الديون ؛ لقد ارتفع الدين رغم برامج تخفيض الدين ، لأننا نمول هذه البرامج بنفس طريقة الديون ذاتها بواسطة قروض أخرى .

– صناعة الجنس :

لايقف التصنيع عند حدود الصناعة الآلية فقط ، إنه عملية أكثر شمولا بكثير ؛ عملية لاتترك غير مناطق قليلة من الخبرة الإنسانية دون مساس .

إن صناعة الجنس تعنى نقودا كثيرة دون حاجة إلى استثمارات كبيرة ، إنها لاتقتضى أى تدريب أو مهارات ، إنها صناعة عامرة بمزادات علنية للحم البشرى .

لقد جاءت السياحة الجنسية فى تايلاند كتطور طبيعى لاستخدام تايلاند مركزا لراحة واستجمام قوات الولايات المتحدة الأمريكية أثناء حرب فيتنام ، بل وحتى أثناء حرب الخليج حيث سُمح للجنود الأمريكيين بالذهاب إلى هناك دون تأشيرة دخول أو جواز سفر ، ومع كل منهم ألفا دولار وهى مبلغ يكفى لشراء عشرة نساء .

إن صناعة الجنس صناعة استثمارية للحصول على عملة أجنبية ، ويعتبر السادة الأثرياء أن ممارسة الجنس من خلال صناعة الجنس إنما هى جائزة ومكافأة لهم يستحقونها عن أعمالهم « البطولية» فى صناعة الثروة .

– صناعة السياحة :

تقوم المشروعات السياحية على تدمير الطبيعة وتلويث الأنهار والإخلال بالعلاقات الإحيائية والطبيعية ، إنها تخريب للجمال الطبيعى وفرض جمال مصنوع عليه ، وقد أدت هذه المشروعات إلى ارتفاع اسعار الأرض ، مما دفع الناس إلى بيع أراضيهم التى تقام عليها الأبنية وتنتهى زراعتها ، إن من يزرعون طعامهم يمتلكون أثمن الحريات ، إن من يعمل لحساب غيره ليس حرا ، والعمل فى الفنادق عبودية .

كان السابقون يحصلون على سمك مجانى من البحر وغزلان من الجبل ، غير أن أفضل الأسماك تذهب الآن إلى الفنادق ؛ على المرء أن يشترى الآن ما كان يحصل عليه فيما قبل بالمجان ، وعجز الناس عن شراء الطعام الذى ينبتونه إذ احتكرته الفنادق الكبرى .

إن فى وسع السياح أن يذهبوا الى أماكن أخرى ، غير أنه ليس فى وسع الناس هنا أن يفعلوا ذلك .

– النموذج الغربى :

قدمت المستعمرات لبريطانيا مخرجا لأزمتها فيما يتعلق بالمواد الأولية اللازمة للتوسع الصناعى ، وأيضا ملاذا لهجرة فائض سكان بريطانيا ؛ لقد قامت ثروة الغرب على إخضاع أراضى الشعوب الأخرى .

واليوم يعمل الغرب جاهدا لطمأنة كل العالم أن الكل يستطيع بلوغ مستواه هذا من الثراء والغنى إن هو امتثل للتوصيات والنصائح التى تصدرها المؤسسات الدولية الغربية : صندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى .

إن تجربة الغرب تجربة لايمكن تكرارها فى باقى العالم ، وهذا لايمنع قادتها من تكرار أنه لاخيار غيرها أمام الدول ، إن الوصفات الغربية للحرية تعنى السير قدما فى

الطريق الوحيد الذى تقره وجهة النظرالغربية الدولية ، بل وينظر إلى غياب البدائل باعتباره الضامن المؤكد للحرية ، وتلك الحرية تعنى فتح أبواب بلدان الجنوب لرأس المال والاستثمار والنفوذ الأجنبى ، إن طريق الغرب يرقص الآن على القبور ، ليس فقط قبور الاشتراكية ، ولكن أيضا تعاليم غاندى .

إن تطبيق النموذج يقتضى فرض اقتصاد السوق الذى يجرد الناس من طرائق حياتهم التقليدية ، ويفرض العنف الاقتصادى والتنموى : البطالة والطرد من الوظائف والركود والمخدرات والجرائم ؛ إنهم يدفعون الناس إلى السرقة والنصب ، ثم يشكلون- كما فى ساو باولو - فرق الموت التى تقتل المجرمين التافهين والنصابين الصغار تحت اسم تنظيف المدينة ، وفرق الإبادة - فى ريودى جانيرو - لقتل الأطفال المشردين باعتبار أنهم يسيئون إلى الأعمال ويخيفون السياح .

ويُنظر إلى الفقراء فى المدينة باعتبارهم عائقا أمام التنمية ؛ فتهدم منازلهم ويجرى استخدام المأجورين لشن حرب نفسية عليهم وإخافتهم وإشعال النار فى منازلهم ، إنها الحرب العالمية الثالثة ضد الفقراء .

إن ٦٠٪ من سكان البرازيل تحت خط الفقر الجائر ، والأطفال يتحولون إلى شحاذين ، والناس يبيعون كل شئ حتى أنفسهم وأبناءهم .

الإنهاك اليومى فى العمل والإعياء الشديد والجوع يستهلك طاقة الناس ، وغدت الصحة ترفا لايقدر الفقراء عليه ، وتستهلك بلدان العالم الثالث - فى ذات الوقت - ماقيمته ٥٠ مليار دولار أمريكى سنويا فى شراء أسلحة حتى تحارب الواحدة منها الأخرى ، وتنفق الهند أكثر من ٦٥٪ من ميزانيتها الخاصة بالعلوم والتكنولوجيا على البحث وجهود التنمية المرتبطة بالنشاطات الدفاعية ، وتحول الصين وباكستان من ٦ الى ٨٪ من إجمالى ناتجها القومى إلى نشاطات تقوم على الحرب .

إن تطبيق هذا النموذج جعل طريق الاقتصاد النقدى للأشياء هو كل شئ ، والأشياء غير القابلة للتسويق بلا قيمة ولاوجود لها ؛ السوق بلا رادع أو مقاومة ، حتى غدت المدن قاعات بضائع يسكن بالمصادفة أناس فى الجوار منها ، والمطارات مراكز تسويق تعلو فيها - من وقت لآخر - نداءات الطائرات والمستشفيات منافذ تراخيص حيث يبرأ الناس عرضا ولايبرأون ، والكنائس بازارات يتعبد الناس فيها أحيانا ، ويحل اقتصاد الإنفاق محل اقتصاد الاستبقاء والادخار .

إن تطبيق هذا النموذج يدفع بالناس من الريف إلى المدينة ، إنهم يعتقدون أنهم سيحققون مايكفى من النقود حتى يعودوا إلى ديارهم ، إنهم يعتقدون أنهم - على

الأقل - سوف يأكلون فى المدينة ، غير إنهم سيجدون أنفسهم - بعد سنوات قليلة - وقد أكلتهم المدينة .

إن الناس - وهم يديرون ظهورهم لأشكال من الفقر معروفة - لايعرفون أنهم على موعد مع أشكال من الحرمان لاحدلها ولايمكن تلافيها ، وهى أشكال لا اسم لها ولاثمن .

إن الذين فى القاع سوف يدفعون إلى أسفل أكثر فأكثر ؛ يدفعون من الفقر والعوز إلى الإملاق والعدم ، وسوف يلى ذلك اضطراب اجتماعى ، سوف تصبح القضية هى القتال من أجل البقاء ، سوف يكون هنالك المزيد من الجرائم والمزيد من الدعارة والمزيد من أناس يموتون فى الطرق والشوارع ، ويقود الاضطراب إلى المزيد من العسكرة والمزيد من الإرهاب والمزيد من الانفصالية والمزيد من سك النقود والقليل من النقود للفقراء .

إن أيديولوجية الغرب الاقتصادية مصممة لتخليد امتيازات الظلم الاجتماعى والمد فى أجله وهى تطبق فى العالم بخشونة لا رحمة فيها .

- البيئة والنموذج :

يتعارض هذا النموذج الغربى مع البيئة والوسط المحيط ، إن الأثرياء عندما يتحدثون عن البيئة فإنهم يقصدون كنس الفقراء ، إن الأغنياء وقد اطمأنوا لعدم وجود مايهدد مصالحهم يسعون الآن لتحميل الفقراء التهديدات البيئية .

إن قضايا البيئة تتجسد فى تقطيع الغابات وتدمير التربة وتجريف الأراضى الزراعية وتلويث المياه وإبادة الحياة المائية والصناعات الملوثة ، وهنالك أيضا المحطات النووية التى يوجد بها مستو عال من التسرب الإشعاعى ؛ فالتقنية غير متقدمة وغالبا مايكون قد بطل استعمالها .. هنالك مخاطر تقنية مجهولة ؛ إذ لاتوجد البنية التحتية لقياس آثارها ، الفقراء يجيئون للعمل فى تلك المحطات فيتعرضون للإشعاع وينصرفون ، فإن أنجبوا أطفالا مشوهين قالوا هذا قدرنا ونتيجة أفعالنا ، وليس هنالك من دليل على تعرضهم للإشعاع ، ولذا فإن قضايا البيئة هى قضايا العدالة الاجتماعية أيضا .

إن المناخ المطلوب حمايته هو مناخ الأعمال وجو الثقة ورفاهة أحاسيس السوق وليس المناخ العالمى ، وليس الهواء الذى نستنشقه وليس أحاسيس الناس ، إن التكاليف البيئية والتكاليف الاجتماعية لاتدخل فى الحسبان الاقتصادى .

– البدائل :

يهاجم المبشرون بتوسيع الاقتصاد العالمى كل من يقف فى طريق تلك التحولات الشرهه المدمرة بأن له نظرة متخلفة وعتيقة أمام «التقدم » ، ويصمونه بالمحافظة والإصابة بعلة الحنين إلى الماضى إرهابا لكل مخالف باحث عن بديل .

ويصيب اليأس البعض فيتساءل لماذا القتال من أجل شريحة من الكعكة مادامت الكعكة ذاتها مسمومة؟ ولماذا القتال من أجل فرص متساوية إذا كان ذلك لايعنى غير فرص متساوية لاستغلال الآخرين وإيلامهم ؟ . إن ذلك اليأس يفقد الناس إيمانهم بأنفسهم وقواهم الخاصة ، مما يعنى بداية الانحطاط .

ومع ذلك يجب :

البحث عن نموذج بديل للرأسمالية لايضحى بالديمقراطية أو بحقوق الإنسان أو بالطبيعة من أجل التنمية .. يجب البحث عن بديل للنظام القائم ، بديل يمكنه تجنب عبودية التقنية ، ووقف الدمار البيئى والعمل الاستغلالى ، ورفع وضع المرأة ، واستنباط الوسائل الملائمة لتعزيز العمل الإنسانى بدلا من إزاحته . يجب البحث عن نموذج هو خليط من غاندى وماركس ، من التنمية مع العدالة والتوازن بين التقنية والطاقة البشرية.

يجب أن يقوم هذا النموذج على التواصل ، والنظام الحالى متواصل لكن من الذى يدفع ثمن هذا التواصل ؟ إن التواصل الحقيقى يكمن فى السرعة التى يمكن بها لأى مجتمع أن يصحح أخطاءه ، إن أى مجتمع سوف يقع فى أخطاء أثناء استخدامه للموارد ، وأفضل من يستطيع تصحيح الأخطاء هم من يعانون من تلك الأخطاء ؛ ومن ثم فإنه لتحقيق التواصل أو نظاما أعلى للتواصل يجب تمكين عناصر المجتمع التى لها مصلحة فى التصحيح الذاتى .

يجب أن يحقق هذا النموذج توازنا فيما يتعلق بقاعدة موارد الأرض ، ألا يؤخذ منها أكثر مما يعاد إليها ، إن من يفعل ذلك هم السكان الأصليون والقبليون وزراع ضرورات العيش ؛ إن الحفاظ على أشجار الغابات مثلا وحمايتها إنما يحدث كى يمكن استخدامها بطريقة معتدلة لاتسبب أضرارا، إنه استخدام عملى للموارد وليس ذلك الاستخدام الفظ الجائر ، يجب رفض الاعتداء المنظم على قاعدة الموارد باسم التنمية ، يجب أن يقول هذا النموذج لا لسداد الديون . لقد دفع المدينون أضعاف أضعاف ما اقترضوه ، إن الغرب قد أخذ منهم أكثر بكثير مما أعطاهم .

يجب أن يتجه هذا النموذج للاعتماد على الذات ، يجب الانسلاخ من الارتباط الوثيق بالاستيلاء الجائر على الخبرة الإنسانية وتقدير قيمتها نقدا ثم بيعها للناس مرة

أخرى .. يجب العمل على استرجاع طرق تلبية الحاجيات خارج اقتصاد السوق ، واكتشاف كل مايمكننا فعله وصنعه وإبداعه بحرية لأنفسنا وللواحد منا للآخر ، يجب العمل من أجل الكفاية للجميع وأن يكون هنالك مكان للإبداع والعبقرية البشرية بهدف العثور على إجابات تفى باحتياجاتنا واحتياجات الآخرين .

ان مايحاوله الناس هو التمسك بالصلات التقليدية ، بروابط الاعتماد على الذات ، بالقرابة وبالقربة والجيرة ، وهذا هو سبب البحث فى نهاية القرن العشرين عن قيم الشعوب الأصيلة والمجتمعات القبلية وقاطنى الغابات والمزارعين الذين يعملون من أجل ضرورات العيش والذين يشعرون أن لديهم شيئا حيويا يقولونه للعالم .

إن هذا لايعنى محاولة الحياة مثل هؤلاء ، لكنه محاولة لرؤية كيف يمكن تطبيق القيم التى يحملونها فى سياقنا المختلف غاية الاختلاف .

ويختتم المؤلف كتابه بضرورة أن يكون المرء راديكاليا ومحافظا فى ذات الوقت ، على أن يكون أكثر راديكالية من السعى إلى مجرد تغييرات فى وسائل الإنتاج ، وأقل راديكالية من هؤلاء الذين يسعون إلى اختزال كنوز الأرض إلى معيار نقدى ، وأن يكون أكثر محافظة من هؤلاء الذين يرفعون رايات تعلن الارتياح إلى مايقوم به المحافظون من أعمال تمزيق وتقطيع عنيف ، وأن يكون أقل محافظة من هؤلاء الذين لايرون خطأ فى أنماط التمييز.

مرة أخرى : تلك رؤية يجب أن نطلع عليها ونراها ، إننا نمر بحقبة البحث عن مخرج ، وعلينا أن نمعن التفكير فيما نقرأ وفى واقعنا وانحيازاتنا حتى نتلمس الطريق إلى نهاية النفق .

فخرى لبيب

ديباجة

إن طريق التنمية الغربى مهما كانت مزاياه قد جلب على الأقل مشكلتين عسيرتين : المشكلة الأولى منهما هى ازدياد الظلم الاجتماعى تفاقما واتساع الفجوة بين أثرياء العالم وفقرائه ، والثانية هى الضرر الذى أصبح من غير الممكن إبطال أثر بعضه بالفعل والذى وقع على الموارد الأساسية للأرض ، تلك الموارد التى تعتمد عليها كل أنظمة التنمية .

وقد بدا – مع كسوف الشيوعية ومن واقع بحث تحليلى يقوم على دراسة مايهدد السلام الاجتماعى بسبب اتساع التفاوتات والتباينات – أن الذين سُلبوا وجُردوا لم يعودوا يشكلون أى عقبة خطيرة أمام «التنمية» ، إن الأغنياء – وقد تخففوا من هذا الهاجس وهم واعون تماما للتهديد البيئى لرفاهيتهم هم فقط – قد يغريهم رؤية القضايا البيئية وقد حلت على حساب من هم أكثر فقراً .

إن تجنب هذا الاحتمال القاسى إنما هو هدف هؤلاء الذى يبحثون عن شكل آخر للتنمية : كفاية تليق بالجميع – بهذه الأجيال وأجيال المستقبل – فى حدود ماتستطيع الأرض تحمله .

إن الكتاب يعتمد على بعد نظر وأعمال العديدين من الناس الذين أدين لهم بالامتنان وخاصة : وينين ، ونيخيل بيريرا ، وسارا دميلو ، وشارو ، وموكول ، وبهارات دوجرا ، ودهيرندرا شارما ، وسوزان دهافل ، واليتافرناندز ، وسليست ، وجوجو سامبالس ، وڤاندانا شيڤا ، وأورفاشى بوتاليا ، وكاتى ، وتونى مككورماك ، وتيتوس كويبوين ، وجريج دل بيلار ، وڤيم -- ڤيم سانتوس ، والفليبين للتبادل العالمى ، وصوفى ديك ، وشانتا وبيا أبيسوك ، وناتى ، وأفيد كاڤالير ، ومحمد إدريس ، ومارتين خور ، وجمعية المستهلكين فى بينانج ، ومارى أسونتا ، وأشوك رو–كاڤى ، وراندولف دافيد ، وسوندرلال باهاجونا ، ورامشوار براساد ، وراجندراسيل ، وشاشى سيل ، وليونور بريونز ، وديريك هوبر ، كما أننى ممتن لساتيش كومار من «رسورجنس» ، وإيان جاك من الـ «إنديبندنت أون صنداى» ، وخاصة ستيف بلات من «نيودستيتمسان آندسوسيتى».

هذا الكتاب كتب تكريما لناوورلى ، وتولسى وجاجات نيجى ... مع حبى ومودتى

جيريمى سيبروك

لندن ، مارس ١٩٩٣

سد تيهرى

يقع إقليم «تيهرى -جارهوال» أسفل جبال الهيمالايا ، وهو واحد من أفقر الأقاليم فى الهند ، إن لكل ٦ .١٧من الناس ، فى تلك التلال هناك ، هكتارا واحدا من الأرض ، والقليل للغاية من تلك الأرض مستو يمكن سقيه وريه ، لقد كان فى وسع السكان - على أى حال - الحصول ، تقليديا ، على العلف والوقود ومنتجات أخرى من الغابات دون مقابل ، كان هنالك احدى عشر هكتارا من الأشجار والأرض العامة المتاحة ، فى مقابل كل هكتار من الأرض المزروعة ، كان الناس لأجيال مزارعين يعتمدون على أنفسهم ، هنا ولدت حركة «الشيبكو» ، والجهود الناجحة للنساء للحد من الشراسة التجارية ، وإعادة زراعة الأنواع التقليدية المألوفة من الأشجار ، غير أن الناس مازالوا يعانون من فرض اقتصاد السوق عليهم ، والذى لايمكنه إلا أن يجردهم من طرائق حياتهم التقليدية ، ويدفع بهم إلى السهول : إلى «دلهى» «ولوكناو» . إن جمال التلال الفائق يخفى الفقر ، وتشكل مصطبات الزراعة على المنحدرات ، فى شمس الشتاء الساطعة ، درجاً زمردياً ، بينما قمم التلال الزرقاء العارية ، الحادة كالأنصال ، تنفذ عميقا فى السماء .

ان تيهرى هى الموقع المقترح لبناء سد سيزيح ٨٦٠٠٠ من الناس ، إنه نصب تذكارى ، ولد بعد وفاة والده الاتحاد السوفيتى السابق ، لقد أمضى المهندسون والخبراء الروس اثنى عشر عاما فى الهند ، كما أُنفقت بالفعل ستمائة كرور روبيه (الكرور الواحد = عشرة ملايين) ، إن أيديولوجية قهر الطبيعة عن طريق المجتمع الصناعى (وهى بالمناسبة ، أسلوب اشتراكى) صُدِّرت بنجاح إلى منطقة من العالم كان الناس يعيشون فيها ، فى توازن مع نظام بيئى ، بطريقة فى الحياة اكتسحتها الآن المصالح الإمبريالية للتنمية .

يناير ١٩٩٢ : سيارة ركاب من دلهى ، غاصة بحجاج من «راجستان» ، ذاهبين إلى مدينة «هاردوار» المقدسة ، حيث يهبط نهر «الكنج» من جبال الهيمالايا ، وينساب فى السهول ، إنهم سوف يحتفلون بعيد «ماخار سانكرانتى» - اليوم الذى تعود فيه الشمس إلى مافوق مدار السرطان فى رحلتها جهة الشمال - وقد تدثر أثرياء المزارعين بمضربيات اتقاء البرد ، وارتدت النساء السارى المتلألئ البرتقالى والقرمزى والأخضر الليمونى ، والخلاخيل الفضية الثقيلة ، وتأخرت السيارة طويلا عند إحدى نقاط التفتيش البوليسية فى ضواحى دلهى ، عندما طلب الموظفون نقودا ورفض السائق دفعها ، استغرقت الرحلة حتى هاردوار حوالى ثمانى ساعات ، ومن هنالك اتجهوا إلى «ريشيكش» ، حيث ينساب الكنج سريعا فى ضوء الشمس الزائل ، والناس يشعلون الشموع فى قوارب صغيرة من أوراق جافة مكومة مع الأقحوان وأوراق الزهور ، الشموع مستدقة الأطراف تحملها المياه الجارية سريعا إلى بعيد ، شاحبة فى الضوء الزاوى ، إنها تطفو عشرين أو ثلاثين مترا قبل أن تنقلب فى الأمواج ، إن الفيضانات سوف تصل إلى ريشيكش - إن تفجر سد تيهرى - خلال ساعة ، وإلى

هاردوار خلال خمس وسبعين دقيقة كما يقدرون ، حيث يكتسحهما جدار من الماء ارتفاعه مائتين وخمسين مترا .

إن قيادة السيارة الثمانين كيلومترا إلى تيهرى تستغرق ثلاث ساعات ، وقد أدى إنشاء الطريق إلى تدمير أسفل جبال هيمالايا الهشة ، ووقعت هنالك انهيارات أرضية فى كل مكان ، البلدوزر يخلى - عند أحد النقاط - المكان من صخور سقطت حديثا ، وفتت الجبل عند انزلاقها إلى غبار وقطع صغيرة من الأحجار وتراب وجلاميد متناثرة ، والمزيد من صفائح الصخور الوافرة ، ويجرف الفتات الصخرى مرة أخرى إلى جانب الجبل .

لقد حُرثت الأرض بكثافة ،زرع كل سنتيمتر مربع قابل للزراعة فيها ، قطعت فيها المصاطب ، ودُعمت بالأحجار ،وتُركت بعض المصاطب العليا على حالها ، وأعيدت إلى سابق أصلها مزروعة بعشب قليل الكثافة ، غير أن الارتفاعات الأولى تشكل درجات خصيبة من القمح الربيعى ، وفى الوديان رقعات صغيرة من حقول يحددها خط من الأحجار الرمادية ، وتتساقط المياه فى نهيرات أو جداول وشلالات صغيرة رذاذا باردا صافيا لروابى باكية ،وفى المدن الصغيرة أكشاك وجبات الطعام الخفيفة ، وغلايات الشاى سوداء فوق النيران ، وبائعو «الدال (*) والمونجفال (**) وأسواق صغيرة بها قرنبيط فى لون القشدة ، والبرنجال(***) والفلفل الأرجوانى ، النساء فى كل مكان يجمعن خشب الوقود ، والبعض منهن على رؤوسهن أحمال من العسلوج والأغصان والأوراق وفروع الشجر يقطعن رحلات طويلة فوق المنحدرات الجرداء العارية ، ورقعات من ثلج ذائب مع ذرى جبال مرتفعة معرقة بخطوط بيضاء ، ووراء تلك الهيمالايا العظمى روابى زرقاء تغطيها ثلوج أبدية مؤطرة تواجه سحبا متخثرة.

إن الهبوط إلى تيهرى يجرى عبر منظر طبيعى ريفى مختلف كل الاختلاف ، إن نهر «بهاجيراتى» وهو واحد من روافد الكنج يظهر فجأة فى هوة كبرى من الدمار والضجيج حيث تجرى أعمال حفر سد تيهرى ، إن لنهر بهاجيراتى عند شعب الهند دلالة روحية عميقة ، إنه يذكرهم بالأفكار السامية عن التوبة والخدمة التى تقوم على إنكار الذات والتى ترتبط بها قصة أصله ومنشأه، لقد قُطعت جوانب الروابى ، وحُول النهر عبر نفق حجرى ليصب مياهه الزرقاء المضطربة فى مدخل قناة الصرف ، وقد أدى هذا إلى أن يصبح مجرى النهر السابق فارغا ، وفى القاع هناك بعض الامتدادات من المياه الراكدة الصفراء التى تغطيها الطحالب عند الأطراف ، لقد نُسفت الروابى لتوسيع منطقة تجميع المياه ، وسقطت الجلاميد والحصى والأحجار المشققة فى قاع الوادى ممزقة الغطاء الأخضر الهش للنباتات الريانة الغنية بالعصارة والأدغال

---

* العدس ** الفول السودانى *** الباذنجان (المترجم) .

الشوكية «والكارو» والشجيرات الصغيرة ، حتى إن جوانب الروابى كشفت عن العروق الرقائقية التى ماتزال تشكل الرابية ، لقد سوى المقاولون طرقا كمداخل عبر الأنقاض من أجل عربات الشحن ومزيجات التربة .

وقد سدت الطرق - منذ ١٤ ديسمبر ١٩٩١ - مجموعة من المحتجين ضد السد يقودها عالم البيئة النشط سوندرلال باهوجنا ، وبعض النسوة من مدينة تيهرى الصغيرة ، والتى ستغمرها المياه تماما عندما يكتمل السد ، وأقاموا معسكرا لهم ، مأوى هش مؤقت وسط مشهد غاية فى الاهمال ، وقد اختزلت الجبال إلى محتواها المعدنى المجرد ، مثلما غدت الغابات مجرد أخشاب ، ومياه الأنهار مجرد مصادر وموارد ، المأوى مكون من معدن متغضن ، له سقف من البوليثين ، وسط الطريق الذى يشكل المدخل ، حتى تُشل حركة البلدوزورات ومزيحات التربة ، وهناك ، على مستوى أدنى وعلى نفس الطريق المتعرج ، مطبخ وبعض الخيام الصغيرة حيث يعيش باهاجونا وزوجته ، وبعض الخيام الأكثر فجاجة للمتعاطفين الذين يجيئون كى يبقوا ، هنا ينام فى غالبية الليالى ، مابين ٢٠ الى ٣٠ شخصا ، وهنالك سهر دائم للتيقن من أن شيئا لن يزعج المعسكر ، وقد تحدث المقاولون عن طردهم بالقوة ، غير ان ذلك ليس بالأمر المتيسر الى هذا الحد فى مدينة صغيرة كهذه ، حيث هنالك تعاطف مع المحتجين ، رغم وجود عدد قليل من النشطاء فى «الدهارنا» (*).

هجر العديدون دورهم فى ضواحى المدينة ، حيث الجو كئيب : «الكاشيرا» (الدبش) والغبار من أعمال التفجير والحفر يتصاعد فى سحب خطرة ، تعلق فوق الكوبرى المعدنى ، الذى هو الممر الضيق الوحيد الذى يقطع البهاجيراتى .

هز تيهرى جارهوال ، فى أكتوبر ١٩٩١ ، زلزال كان مركزه «أوتار كاشى» على بعد حوالى ستين كيلو مترا من موقع السد ، وقتل الزلزال ثمانمائة شخصا ، وترك حوالى ٢٥٠،٠٠٠ بلا مأوى ، وكانت احدى الاعتراضات الرئيسية الموجهة إلى سد تيهرى أنه فى موقع يتميز بنشاط زلزالى عال ، ومن ثم يمثل خطرا على المناطق المحيطة ، وتصور الذين احتجوا أن هذا الزلزال سوف يضع نهاية لبناء هذا المشروع ، الذى سوف يكون أعلى سد فى آسيا ، إذ يبلغ ارتفاعه ٢٦٠،٥ مترا ، ولكن بدلا من الإذعان لما كان يقوله الجيولوجيون وخبراء الزلازل وحركة الناس بالمثل ، أشار المهندسون الى حقيقة عدم وقوع ضرر فى الأبنية القائمة ، ورأوا فى ذلك علامة مؤكدة على أنها مضمونة ضد الزلازل ، ووافقوا على المزيد من تقوية السد ليكون محصنا حتى ضد اهتزازات تفوق درجة ٦،٥ التى سجلها مقياس ريختر فى اكتوبر ، وقد أفرجت الحكومة المركزية ، بعد الزلزال عن ٣٠ كرور روبيه لاستكمال الأعمال .

---

* حالة اللاعنف كشكل من أشكال المقاومة بالجلوس والانتظار (المترجم).

إن الناس فى المعسكر يعملون خلال النهار فى جمع الوقود اللازم للطبخ ، يغنون ويدبرون الاستراتيجيات التى تدعم مقاومتهم ، ويجلس العمال الذين استأجرتهم شركات التشييد على أسطح سيارات الركاب يلعبون الورق فى شمس الشتاء الباردة ، ويتجمع الحرفيون فى مجموعات حول مزيجات التراب التى يعملون عليها ينتظرون عاطلين ، على عكس أناس المعسكر الذين هم فى شغل دائم ، يطبخون ، يلفون الصوف ، يقوون مآويهم فى مواجهة شتاء الهيمالايا البارد ، ويتحرك المساحون فوق أكوام الجبل المدمرة ، حيث يحدث انهيار صخرى صغير مع كل خطوة يخطونها . ويحييهم باهاجونا فى لطف ودماثة ، فلا يستطيع غالبيتهم إلا أن يردوا بالمثل، مايزال هنالك احترام وتقدير للقوة المعنوية للاحتجاج عن طريق اللاعنف ، ورغم أن المعسكر يقع عند قاعدة أول ظهور لليابسة ، إلا أنه يمكن محوه وإبادته ، فى أية لحظة ، إن حدث انزلاق تلقائى لجلاميد الصخور .

اليوم هو ماخارسانكرانتى - تظهر مجموعة من النساء والأطفال عند قاع الوادى، قادمات من إحدى القرى البعيدة جنوب الوادى . إنهن يرتدين السارى يتألق فى صف من الألوان الزاهية ، فوق اللون الأحادى الحزين للجبل المهدر . ويتناول باهوجانا بوقه ويصيح : «جانجا باكاو ! هيمالايا باكاو !» . (انقذوا الكنج ! انقذوا الهيمالايا !) . كانت الأصوات تأتى من أسفل ، يدوى صداها حول جدران الرابية العارية ، إن كل سكان أكثر من مائة قرية سوف يزيحهم السد .

إن اعتراف الخبراء والمهندسين والمهنيين ، وقد استثمر الآن قدر كبير من المال والهيبة فى المشروع ، بأن ذلك لم يكن غير خطأ فادح التكلفة ، لن يكون غير فقدان لاعتبارهم واحترامهم لأنفسهم ، الأمر الذى يتجاوز طاقتهم وقدرتهم على الاحتمال ، وبالتالى فإن الحجج التى يستخدمونها أصبحت الآن أكثر تهذيبا وخداعا . إن السد سوف ينمى المنطقة الفقيرة ، منطقة «أوتارخاند» . إن من يقاومون السد هم أعداء الفقراء ، إن أولئك الذين فى الغرب ، والذين يقولون بأن السد خطر ، وأنه قد صور بطريقة خاطئة ، لايودون رؤية الهند وهى تتطور إلى قوة اقتصادية عظمى .

إن السد ، على أى حال ، لن يزيد منطقة الرى فى الروابى . إن ١٢٪ فقط من الأرض هو الذى يجرى الآن ريه ، وتلك النسبة لن تتغير ، إن السد فعليا مصفاة ، إنه ليس فى الأساس لحفظ المياه بقدر ماهو من أجل نقل الثروة خارج المنطقة . يقول سوندر لال باهاجونا : «إن محطة القوى سوف تكون فى «ميروت» لتقدم الطاقة التى يحتاجها وقت الذروة فى الحزام الصناعى لأوتار براديش . إن المياه سوف تذهب إلى المزارعين الأثرياء فى السهول ، لتساعدهم على زراعة قصب السكر ، الذى هو أشد مستهلكى المياه شراهة ، إن صناعة السكر تستهدف معاونة صادرات الهند ، إنها فى كلمات أخرى ، وسيلة لتصدير مياه الهند ، أكثر مصادرها ندرة وقيمة ، لقد قدر معهد

ووردوتش ، إن الفرد فى الهند سوف يعانى عام ٢٠٠٠ نقصا قدره ٢٤٪ مما يحصل عليه الآن : وهم هنا مشغولون بتحويل المياه من أجل أشد المحاصيل ، التى يمكن تصورها ، خطورة فى غزارة استهلاكه.

إن الرحلة كلها من دلهى إلى تيهرى تقدم فى الحقيقة ، بانوراما تنمية ضارة ، إن كل شئ قد صمم لإثراء حقول الآجر ، القوية بالفعل . وتلك وسيلة لتصدير خصوبة تربة المنطقة ، وكعكات الوقود المصنوعة من روث البقر ، وتلك وسيلة لاستهلاك سماد ثمين ، وكذا لإثراء المساحة المتنامية لقصب السكر إن مدينتى «مظفر نجار» و«مودينجار» إنما هما مولدان مرعبان للتلوث ، الذى يجب أن يمتصه الفقراء وأن يدفعوا ثمنه .

لقد غدا السد بالفعل مصدرا مربحا للفساد والتبديد ، ازدهر نشاط بناء منازل غير مكتملة فى منطقة الغمر ، وبذا غدا فى الإمكان رشوة المسئولين كى يقرروا أن تلك المبانى إنما هى ممتلكات أسرية مشيدة منذ زمن طويل ، وبذا فإنها تساوى ١٠٠,٠٠٠ روبية ، وحينئذ يطالب الملاك بالتعويض ، إن الموظفين يتوقعون أن يضعوا فى جيوبهم ربع الريع ، ويقدر عدد المبانى المزيفة التى شيدت بحوالى خمسة آلاف مبنى ، إن المطرودين من أرضهم فقط هم على الأرجح لن يستفيدوا من المشروع ، رغم الوعود بإعادة التوطين هنالك خطة لتشييد تيهرى جديدة ، إلا أنها سوف تكون على ارتفاع أعلى ، حيث الأرض أشد فقرا والهواء أشد برودة ، وبذا فإن تكاليف جديدة سوف يتكبدها هؤلاء الناس .

إن هذا لايعنى أن المحتجين يقفون ضد «التنمية» غير أنهم يتصورونها فى ضوء اعتبارات جد مختلفة ، يجب أن يكون الناس المحليون هم المستفيدون من التنمية ، وليس لوردات السكر وأصحاب المصانع فى السهول . يقول سوندرا لال باهاجونا ، إنه يمكن للمشروعات العامة المائية للنهر ، على نطاق ضيق ، أن تكون كافية لسد الاحتياجات الكهربائية المحلية من مساقط المياه السريعة والسدود الصغيرة كما يمكن أن تغذى الصهاريج الفاكهة المزدهرة ، على نطاق ضيق ، وزراعة الجوز على جوانب الروابى ، حيث تنجح هنا فواكه المنطقة المعتدلة كالكريز والكمثرى وعين الجمل ، ويمكن ضخ المياه إلى أعلى الروابى غير أن سد تيهرى لم يشيد بقصد خدمة الناس المحليين ، إنه يقوم على خدمة حاجة اقتصادية بعيدة ، لاتتضمن غير الخسارة والألم والتمزق لوادى بهاجيراتى .

الغداء يعد على النار– من المطبخ الفقير – أرز وعدس وخضراوات تُنضج بالبخار فى دنان وجرار ، وتقدم للزائرين فى أطباق معدنية ، المعسكر يزوده ذوو النوايا الحسنة من مدينة تيهرى بالقرنبيط والسبانخ والجزر والبصل ، وقد أعطيت المضربيات للذين ينامون فى العراء فى ليالى يناير القارصة ، ولقد تقدمنا بهبة غير أنها رُفضت ، وقال

سوندر لال باهاجونا :« إن زيارتكم هى الهبة ، يجب علينا نحن أن نقدم لكم الهدايا لأنكم جئتم لرؤيتنا » .

يقول دهوم سينغ نيجى ، وهو مزارع صغير من كوماون ، إنه التحق بالدهارنا فى منتصف ديسمبر «لقد بدأوا نسف الروابى مرة أخرى فى غضون أسابيع قليلة من الزلزال . كان الناس فزعين . وبدلا من الالتفات الى نذر الطبيعة ، زادوا من جهودهم . إن السد إذا انفجر فسوف تمحو المياه كل الأماكن فى ريشيكش وهاردوار ، إننا نستحثهم كى يعيدوا التفكير فى كل السياسة الخاصة بالهيمالايا ، إن الروابى هشة للغاية ، وفكرة أن جبال الهيمالايا جبال لايمكن زحزحتها فكرة تقوم على الوهم ، وهى فى أفضل الأحوال حقيقة شعرية لقد وقعت بالفعل حادثة فى المنطقة ، لقد هبطت فجأة قرية «جاماخ» ، التى شيد نفق أسفلها ، وقتل وجرح سبعون شخصا ، إن العمر المتوقع للسد ، على أى حال ، لايزيد عن خمسين عاما بسبب الترسيب الغرينى ، لقد ظهرت منذ الزلزال العديد من الشروخ فى الروابى وحيث إن تلك الشروخ تمتلئ بالمياه ، فسوف يحدث الكثير من الانهيارات الأرضية ، إن السد حل مؤقت لمشكلة دائمة ».

الحرب هنا بين الاقتصاد والبيئة على أشدها ، يقول سوندرلال باهاجونا : «كانت المعركة ، فيما مضى ، بين البيئة والتنمية ، إنها الآن بين البقاء والفناء ».

كان الصوت يرتفع فوق الوادى الصامت ، ونحن نسير عبر مجرى النهر الذى جرى تجفيفه عودة نحو مدينة تيهرى . «باكا جانجا ، باكاو هيمالايا» ، وكان الصوت الآخر هو فقط صوت الشلالات الصغيرة للصخور والتربة التى يجرى تحويلها ونقلها من جوانب الروابى المدمرة .

وبدأ بهاجونا ، فيما بعد صياما صامتا ، كف عنه فقط عندما وعدت الحكومة بإعادة النظر فى مشروع تيهرى ، وما أمر رئيس الوزراء ب.ف ناراسيمها راو بوقف التفجير فى الموقع بأمل أن يحمل ذلك سوندر لال بهاجونا على إنهاء إضرابه عن الطعام . وبدا – فى منتصف ١٩٩٣ – وكأن المشروع سوف يستأنف حقا ، بأى حال من الأحوال ، إن منطق شكل «التنمية» القائمة ، والذى تلتزم به حكومة الهند الراهنة ، لم يدع للناس أى خيار آخر.

يضار المزيد والمزيد من الناس ، على امتداد العالم كله ، من جراء تطبيق تنمية تتركهم ولديهم إحساس بالخسارة والإفقار رغم أنها تُولد الثروة ، وهم عندما يقاومون العنف الذى يقع عليهم باسم التنمية ، فإنهم غالبا ما يوصمون ، من حكوماتهم ، بأنهم «متطرفين » و«مجرمين» و«مدمرين» ، وفى أفضل الأحوال ، أعداء للتقدم والتحديث .

ومن بين هؤلاء المهمشين ، على هذا النحو ، هنالك العديد من الجماعات الأصلية من أبناء البلاد ، هؤلاء الذين يقطنون الغابات والنجود ، حيث يطردهم الحطابون وشركات التعدين ، إن هؤلاء الذين يُكرهون على الخروج من أراضى الأسلاف والأجداد ، ليس لديهم من خيار غير الحياة فى مأوى المدينةالمكتظة القذرة الفقيرة المعدمة ، حيث يموتون هنالك كمدا بسبب طريقة حياتهم البائدة المنقرضة ، أو يدمرون أنفسهم بالعزاء المهلك بتعاطى الخمور والمخدرات ، التى يقدمها لهم المجتمع الصناعى من أجل تلفهم وضياعهم ، إن البدو والرعاة ، ومجتمعات صيد الأسماك ، هؤلاء الذين طردوا من الوجود ، أو هؤلاء الذين يعتمدون على أنفسهم فى الزراعة ، يُنظر اليهم باعتبارهم عقبات أمام التنمية تماما مثلما ينظر بحق إلى فقراء الحضر أنفسهم ، إن فقراء الحضر قد هربوا إلى الملجأ القاسى للمدن تحديدا ، لأنهم لم يعودوا بقادرين على كسب معاشهم من الأراضى المخربه والمدمرة ، لقد أجبر الكثيرون على التوقف عن الزراعة بسبب التكاليف المرتفعة للمدخلات أو ضغوط الأعمال والمشروعات الزراعية .

وحتى عندما وصلوا إلى المراكز الحضرية لم يجدوا سلاما ، إذ تحطم الشرطة والجيش مآويهم الهشة بطريقة روتينة ، فالأرض التى يحتلونها مطلوبة لنوع آخر ممن «يقومون بالتنمية» ، هنالك على امتداد العالم ، المزيد والمزيد من لاجئى البيئة ، أناس أزيحوا بسبب التنمية ، هؤلاء الذين أحاطت الحروب بهم ، حروب تسببها العديد من النزاعات حول الموارد أو بسبب الاختلافات الإثنية ، حروب إناس عاشوا دون صدام لمئات السنين ، حقا ، إن ضحايا التنمية أكثر بكثير للغاية من هؤلاء الذين أزاحتهم المشروعات الكبرى من موطنهم مثل السدود والمشروعات الكهرومائية والمطارات والمنشآت العسكرية ، إن الزعزعة والإزاحة والحركة التى لانهاية لها ، إ نما هى جزء لايتجزأ من عمليات يكمن فى القلب منها تخريب الاعتماد على الذات ، وتقويض المقدرة والطاقة ، وتحطيم القناعات الموجودة خارج ساحة السوق العالمى التى تتمدد وتتسع.

ما الداعى لهذا النمط من «التنمية» ، مالم يكن من أجل نموذج التصدير المرتبط بأيديولوجية اقتصادية ، خدمت الغرب جيدا لأكثر من مائتى عام ؟. يقول أنيس الرحمن إن «التنمية» ، كانت فى الأساس وعدا غربيا للجنوب ، صمم لمقاومة الاشتراكية ، «إن تهديد الثورة البلشفية ، الذى أوحى بثورات اجتماعية فى العالم الثالث ، قد واجه المقاومة بوعد «التنمية» ، و«معونة التنمية» لمساعدة المجتمعات المتخلفة ، كى تلحق بالمجتمعات «المتطورة» . لقد حُددت التنمية وعُرفت كلية باعتبارها التنمية الاقتصادية ، واختزل قياس درجة التقدم وبلوغ النضج فى مجتمع ما إلى مستواه الانتاجى ، إن

جاذبية التمويل الخارجي والتقنية المبهرة قد أوجدت حكومات موالية فى العالم المتخلف ، حيث تستطيع القلة الخاصة الحاكمة (الأوليجاركيات) القابضة على أجهزة الدولة ، أن تثرى نفسها وتحقق تمكنها باعتبارها طبقة نسبيًا للمجتمع الأكثر اتساعا . وهى التى قدمت لها خطط التنمية ، واحدة بعد الأخرى ، وفيما بعد على المستوى العالمى ، باعتبارها الأمل الأبدى للرخاء والرفاهية .

«والنتيجة : أن الفوائد الاقتصادية لمثل تلك التنمية لم ترشح إلى أسفل ، إلى الغالبية العريضة من الناس ، فى البلدان التى يشار اليها تكريما بالبلدان «النامية» ، لكن الخسارة الأساسية الأكبر كانت تعويق تطور البدائل المحلية للتعبير الذاتى المجتمعى والتقدم الاصلى الحقيقى».

إن النظام الاقتصادى الغربى - والذى ربما يجب أن يسمى العالمى ، حيث أعلن أن كل البدائل غير فاعلة وغير ضرورية - إنما هو بناء أيديولوجى ، إنه آلية لتحويل كل أنواع الثروة على الأرض إلى نقود ، لتركيزها فى أيدى هؤلاء الذين يمتلكونها بالفعل ؛ وأخيرا لإضفاء الشرعية على عملية توفر عائدا عن طيب خاطر .

إنها عملية منطقية من أجل الظلم الاجتماعى العالمى ، ولجعل الاستغلال عملية مؤسسية ، إن اتحاد منطق التوسع الرأسمالى والعمل على نجاح التقليد الكولونيالى الغربى ، عملية يجرى إكمالها وإنجازها .

إن الاقتصاديات ليست بالعلم ولا بالفن ، لكنها ايديولوجية ، إن نظامها الحسابى فيما يتعلق بما تشتمل عليه وماتحذفه ، وفيما يختص بكل من التكاليف والفوائد ، الارباح والخسائر ، المزايا والعقوبات ، نظام انتقائى للغاية. إن هذه النظرة الجزئية والمتشظية لشئون الانسان هى الآن بؤرة الحماس التبشيرى الذى تقوم به الحكومات الغربية والمؤسسات المالية .

حقا إن دعم الأساس الأيديولوجى لنظامها الاقتصادى ، هو الذى يحمل الآن مهمة غربية عالمية بعيدة القدم ، كانت هذه المهمة تُنفذ فى الماضى بطريقة أقل تعقيدا ، وهى الآن رسميا عقيدة معيبة ؛ كانت هذه المهمة تقول ، تحديدا ، إنه قدر الغرب أن يُحضر شعوب الأرض المتخلفة ، ويحولها ويهديها إلى الحقائق التى أُنعم بها على الغرب وحده، إن الحقائق اليقينية التى أنعشت المبشرين والمستعمرين وحاملى لواء التبصير والتنوير، من الأجيال السابقة ، تعمل الآن من خلال ناقلات للهيمنة أكثر فاعلية ، إن صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومفاوضات الجات والشركات العابرة للقومية ، وتلك الحكومات الغربية التى تصر على أن من يتلقون معونتها يجب أن يقدموا الدليل على وجود «حكم صالح» و« سياسات اقتصادية صحيحة» ، هم الآن الناقلون المتحمسون لرسائل الخلاص الاقتصادى .

إن إيديولوجية الاقتصاديات ، داخل البلدان الغربية ذاتها ، عميقة الجذور ، حتى أن الراديكاليين والمخالفين لهم فى الرأى ، نادرا مايرتابون فى تلك الإعلانات الآلهية التى هجرت الأناجيل والأسفار المقدسة ، واتخذت لها مقاما فى وصفات وفرمانات الاقتصاديين ، هؤلاء السادة لما يسمونه «بالعالم الحقيقى».

إن تقديس «علم الاقتصاديات» يخدم فى طمس طبيعة نظامه الحسابى الضيقة والجزئية ، والموثوق بها قبل كل شئ ، إن عمليات الإبعاد والعنف والتجريد ، التى يفرضها الآن النظام الغربى على الجنوب ، يراها مناصروها لاشئ أكثر من نواتج ثانوية مؤسفة لعمليات ضرورية ، بقدر ماهى ، فى نهاية الأمر ، نافعة وخيرة ، ومع ذلك، فإنها ببساطة تجتث كل شئ لايلائم رؤيتها للربح والخسارة ، تدمير قاعدة موارد الأرض ، إنقاص التنوع الحيوى ، إنزال الضرر بجزء كبير من شعوب الأرض ، الأشكال المتعددة للإفقار والتى تصاحب نسختها المحدودة من الثروات ، إن نتائج أعمالها تلك يشار إليها باعتبارها أعمال «خارجية» ، لاعلاقة لها بالاقتصاديات ، ومع ذلك تواصل الاقتصاديات استعمارها وتوسعها فى المزيد والمزيد من مناطق تجاربنا وخبراتنا .

إن العنصر شبه الدينى فى العقائد الاقتصادية ، لصندوق النقد الدولى والبنك الدولى نادرا مايكون جديدا ، إن «اليد الخفية» ، التى يجرى السعى بها وراء الكسب الخاص ، وتحويله إلى فضيلة عامة ، كانت دوما ، وعلى الأرجح ، يد الله .

لقد نُظر إلى قوانين الإقتصاد السياسى باعتبارها آلية منظمة ، يمكن بواسطتها لطبيعة بشرية هابطة أن تستنفذ رغم ذلك ذاتها من خلال خلقها للثروة ، إن تلك القناعات الراسخة ، وقد غدت أشد قسوة يخفيها تبرير ذاتى ، وحسابات اقتصادية مبهمة غير قابلة للاختراق ، تشكل أساس العقائد الجارفة التى تجرى عولمتها ، والتى تُفرَضُ الآن على العالم كله ، بالرغم من الدمار الإنسانى والبيئى الذى تسببه ، ومن ثم، فإن صندوق النقد الدولى ينظر باستحسان إلى «سياسة الإصلاحات الحاسمة التى تمت فى الوقت المناسب فى الهند » ، ويوافق جون ميجور ، رئيس الوزراء البريطانى على إعفاء محدود لديون العالم الثالث ، بشرط أن تذعن البلدان المفضلة لنصيحة صندوق النقد الدولى . ويصر وزير خارجيته دوجلاس هيرد على ضرورة أن تكون شروط إنفاق ميزانية معونة الجماعة الأوروبية هى «إتباع سياسات اجتماعية واقتصادية صحية » ، حقا ، لقد كان أحد «اشتراطيات» القرض ، أثناء المفاوضات بين حكومة الهند وصندوق النقد الدولى ، فى صيف ١٩٩١ ، والتى قاومتها الحكومة ، هى تخفيض منحة الغذاء «إن كلمة «اشتراطيات» تعبير لطيف مثير ، ويبدو أن جرسها أقل فظاظة من «وضع الشروط» ، والتى عادة مايفرضها المنتصرون على المهزومين» ، إن تقديم ممثلى المؤسسات المالية الغربية خيار تخفيض المنحة الغذائية ، فى بلد لايحوز

٤٠٪ من شعبه على القوة الشرائية الكافية لتزويد أنفسهم بالغذاء المناسب ، إنما يدل على أن هنالك شيئا ما فى أولويات صندوق النقد الدولى ، إن الجوع ، كما هو واضح ، إن لم تكن المجاعة قد غدا أداة للتكيف الاقتصادى .

لقد غدا واضحا ضرورة تغيير التبريرات السابقة للهيمنة الغربية ، إن ادعاءات مهمة نقل الحضارة ، والتى قامت على التفوق العرقى ، قد عانت نكسة حادة فى سنوات منتصف القرن العشرين ، نتيجة التخريب والدمار الذى أنزلته النازية والفاشية فى قلب الحضارة الغربية ذاتها .

إن كون تلك المداخل زيفا وضلالا دائما فى أيديولوجية الغرب مسألة يمكن أن يصل اليها أى امرئ حسن الاطلاع على الأعذار المقدمة بسبب العنف الغربى ضد تلك الشعوب التى سعت قرون من الاستعماريين وبناة الامبراطورية إلى قهرها عسكريا ، «إن الحمال رغم ولعه بالنقود ، يفضل الكسل الكامل . وكثيرا مايلزم دفعه خارج قريته لإجباره على كسب أجور يومية جيدة فى أعمال السكك الحديدية المجاورة» ، لقد قالوا ذلك بصراحة تعلم أحفادهم تجنبها ، لقد كف هذا التعبير الصريح على أى حال عن ذلك الشكل من العجرفة ، عن أن يكون أداة محترمة لدفع شعوب العالم المتخلفة والمعارضة إلى الاعتراف بتدنيها وتبعتيها وخضوعها .

غدا المطلوب شكلا آخر من الهيمنة أكثر مراوغة وفاعلية . وماذا يمكن أن يكون أكثر قبولا ولطفا من وعد بمشاركة العالم كله القدرة الرائعة للغرب ، للإثراء الذاتى؟ إن احتواء هذا السر على قرون من اذلال وتطويع ونهب وسلب الجنوب ، لم يردع العديد من حكومات العالم الثالث عن القبول المتلهف للنصيحة والتعليمات ، وفى الحقيقة الأوامر ، من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والحكومات الغربية ، لما كانت الأنظمة الشيوعية التى تآكلت وزال الوهم عنها ، وأحيانا أقاليم مستقلة كولونيالية فيما مضى تستعجل بالمثل تطبيق تلك الوصفات والارشادات ، فإننا بوضوح أمام تحولات بالجملة فى النظام والمدى ، تحولات لم يتصورها البتة هؤلاء الآخرين ، حاملى الوحى والإلهام ، الماركسيون ، فى أحلامهم المعنة فى الخيال والاشتراكية العلمية ، إن رؤاهم للتحول كانت مقارنة بغيرهم ، أكثر اليوتوبيات عبثا ، إن أنيس الرحمن يصف كيف أن «الغالبية العظمى من الشعب ، قد صنفت فى ظل هذا الوعد «بالتنمية» كفقراء ، ومن ثم كأشياء تثير العطف والتدخل الأبوى والمساعدة ، إن الكثيرين من هؤلاء الناس ، فى ظل هذا الضوء المبهر من المراعاة العاطفية التى ومضت عليهم متوهجة ، قد أضفوا على هذه الصورة السلبية عن الذات ، وضعا داخليا ، إنهم وقد وضعوا أنفسهم فى الموضع «الأدنى» بحثوا عن الأعلى كى ينميهم ، متنازلين عن قيمتهم الخاصة ، وثقافتهم ومعرفتهم وحكمتهم المتراكمة ، وأجبر آخرون على فعل ذلك بالقوة المحضة لمسعى «التنمية» ، والتى ركزت هى بذاتها السلطة والتميز والثروة فى أيد قليلة مع قدرة

على الاخضاع واستغلال الجماهير الأعرض ، وهى التى استأصلت كتلا واسعة من الناس من حياتهم التقليدية وأساليب حياتهم ليصبحوا مواطنين أدنى فى بيئات غريبة عليهم ، ومن ثم فإنهم لايعانون فقط من الافقار الاقتصادى ، ولكن أيضا من فقدان الهوية والقدرة على التطور محليا ، بصورة أصلية حقيقية فى اطار ثقافتهم هم وقدراتهم هم ؛ انه «بؤس إنسانى أعمق مما اعتدنا كاقتصاديين معرفته».

إن النصيحة المنتعشة الواثقة بذاتها ، والتى يعرضها الآن ، صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، يجب النظر إليها كجزء من الفرحة الغربية بوفاة كل منافسى تحديدها وتعريفها للتنمية ، إنها يقينا ليست إحتفالا بنهاية الشقاء والظلم ، إنها بعيدة عن ذلك ، إنها تعنى فى بساطة ان الشقاء والظلم لم يعد لهما قوة تهدد المصالح الغربية ، وهى تطرح أشكالا اخرى من الفقر لايمكن تخيلها ، أشكالا ربما ماتزال معدة ومخبأة من أجل هؤلاء الذين يرون أنفسهم لاشئ بالفعل حقا ، لقد غدا الغرب قويا إلى حد أن أصوات مخادعة ترتفع مرة أخرى ، تعلن أن عدم المساواة والظلم الاجتماعى ليسا فقط أمران لاعلاج لهما ، لكنهما أيضا ضروريان ، بل حتى إنهما لازمة ضرورية ، لخلق هذا الشكل من الثروة ، والذى أمسكت صناعته المزوقة للأيقونات بتلابيب خيال الشعوب .

إن كوننا مواجهين بثقة عمياء فى «معجزات» الاقتصاديات الغربية أمر واضح من حقيقة أنها لاتتزعزع لمجرد دليل أو برهان ، إن تلك البلدان التى تبعت باخلاص خطط صندوق النقد الدولى للتكيف الهيكلى والسياسات التصحيحية للاقتصاديات الكبرى (إن لبعض تلك الخطط جرس ماركسى بطريقة آليه ، فكأن المنتصرون ايديولوجيا قد تعلموا شيئا أو اثنين من هؤلاء الذين قهروهم) كالبرازيل وبيرو والفليبين مثلا – والتى رأت مناظرها الطبيعية الريفية الرائعة وقد دمرت مواردها ونهبت خلال جهودها لخدمة ديونها التى لاغور لها ، لقد رأت تلك البلدان غاباتها تتعرض للهلاك ومدنها تعج باللاجئين ، ومؤشرات الرداءة الصحية ونقص التغذية ومعدلات الوفاة تزداد سوءا ، إن هذا لم يمنع حكومات أخرى يائسة ، فى العالم الثالث ، من إتباع نفس الطريق ، آملة فى النجاة بصورة ما ، من النتائج التى لامهرب منها لسياسة الاختيارات التى فرضوها .

كان هنالك وجه آخر لأيديولوجية الاقتصاديات ، وجه يتخلى عن تواصله مع الادعاءات السابقة للتفوق العنصرى ، باقتراض ابتذالها ، إن أثرياء العالم مايزالون فى الأساس بيضا وغربيين (أو يابانيين) ، بينما تظل الغالبية العظمى من الفقراء غير بيض وغير غربيين ، إن السد الذى يحرص عليه المبشرون الاقتصاديون ،هو أن هنالك صدى حقيقى لآثار الجهر بالعقائد العنصرية ، فى ناتج أعمال الضرورة الاقتصادية الموضوعية ، إن الايديولوجية الاقتصادية ، فى الحقيقة أكثر تأثيرا ، حيث تقدم أقلية

من غير البيض بين الأثرياء ، ومن ثم تسمح للغرب بأن ينأى بنفسه عن تهمة العنصرية، بالإعلان أن الاقتصاديات ، على غير مثال الاداريين الاستعماريين - مصابه بعمى الألوان ، بينما تظل أبنية الهيمنة على حالها .

ربما بسبب هذا الموضوع ، كان موضوع الأبارتهيد أساسيا فى السنوات القريبة الآبار تهيد الذى ظل هناك مجمدا فى الزمن ، أثر شبحى لمقبرة عقائد التفوق العنصرى ، ظل هناك ليذكر العالم بتلك المبادئ العالية السابقة والتى انتصبت ذات يوم فى قلب مهمة التمدين الغربية ، لم يكن مصادفة أن من بين من كانوا تواقين لمحو الأبارتهيد من جنوب افريقيا بعضا من أكثر الرأسماليين بروزا : إن بصيرتهم وفهمهم لقيام الاقتصاد العالمى بعمله ، مكنتهم من التنبؤ بأن أعمال العقيدة الاقتصادية سوف تحافظ على أشكال الهيمنة المعتادة ، وتؤمن بقاء التفوق الغربى فى العالم .

إن هذا الانقلاب فى الايديولوجية يخدم دعم وتبرير الأنماط العالمية للقوة ، إن هؤلاء الذين يتحدثون عن التعددية والمجتمعات المفتوحة والحرية وصراع الآراء فى المجتمع الغربى مبالغين ، إن كل المجتمعات فى حاجة إلى وجهة نظر عالمية ، متماسكة ومترابطة ، تمسك بهم معا ، والايديولوجية الاقتصادية الغربية تخدم هذا الغرض ، إن حقيقة عدم رؤيتها بالمرة ، كأيديولوجية ، سوف يؤدى فقط إلى تقوية قبضتها علينا ، وعندما تنتشر بمثل هذا الحماس ، إلى باقى أنحاء العالم ، فإن هؤلاء الذين فى قلب المشروع الامبريالى ربما كانوا آمنين أكثر فى مواجهة رؤية ، ماأخذوه نسبيا كأمر مسلم به وما قوضوه ، وما الذى تحدته المعتقدات الأخرى .

لقد تعرفت روث بنيديكت ، فى الثلاثينيا ت ، على الآثار النفسية لعولمة الزخم الغربى على الغرب ذاته ، وكتبت فى «باترنز أوف كلتشور» تقول :

«ان الحضارة الغربية قد نشرت نفسها ، بسبب أحوالها التاريخية العفوية ، على نحو أكثر اتساعامن أى مجموعة أخرى محلية معروفة منذ زمن بعيد .إن النتائج النفسية لهذا الانتشار للثقافة البيضاء ، قد تجاوزت كل حد مادى . إن هذا النشر الثقافى الواسع ، على نطاق العالم ، قد حمانا ، كما لم يحم الانسان من قبل ، من ضرورة تناول حضارات الشعوب الأخرى بجدية ، لقد منح ثقافتنا عالمية ضخمة ، توقفنا تاريخيا عن وضعها فى الحسبان ، تأملناها أكثر مما اعتبرناها ضروريه ولاغنى عنها . لقد فسرنا اعتمادنا على المنافسة ، طبقا لحضارتنا ، باعتباره الدليل على أن هذه المنافسة هى الباعث الأول الذى يمكن للطبيعة البشرية الاعتماد عليه ، أو نظرنا بعناية إلى سلوك الأطفال الصغار ، كما هو مصاغ فى حضارتنا ، ومسجل فى عيادات الاطفال ، باعتباره نفسية الطفل أو الطريقة التى أصبح الحيوان البشرى الصغير ملتزما بسلوكها . والأمر سيان ، سواء كانت المسألة مسألة اخلاقياتنا أو مسألة تنظيم . أسرتناإننا ندافع عن كل حافز مألوف لايمكن تفاديه ، محاولين دوما مطابقة سبل «سلوكنا» الخاصة والمحلية ، أو عاداتنا التى جُعلت اجتماعية ، بالطبيعة البشرية. إن طرق الهيمنة الغربية مرنة ومتغيرة ، لقد انتقلت من مجموعة من المعتقدات

الى أخرى ، غير أنها لم تغير خصائصها الأساسية ، ربما كان هذا هو السبب فى أنه يمكننا الآن ، فى العقد الأخير من القرن العشرين ، رؤية قوى اجتماعية متباينة متواجدة معا فى الغرب ، قوى مكرسة للحفاظ على أنماط الامتياز فى العالم ، وقد غدت الحكومات الغربية ، من ناحية أخرى ، مشغولة البال بابعاد هؤلاء الذين يشار إليهم باعتبارهم «مهاجرين إقتصاديين» لتمييزهم عن «اللاجئين السياسيين» ، إن المهاجرين الاقتصاديين هم أنفسهم من خلق السياسة الغربية (انسياب الثروة من الفقراء إلى الأغنياء ، واجتثاث وافقار شعوب العالم الثالث)، وكذا من خلق الصناعة الغربية لأيقونات الوفرة ، والتى صُورت بطريقة مغرية وبكثافة متنامية فى كل أنحاء العالم ، إن إقامة الحواجز أمام هؤلاء الساعين لدخول أوروبا أو الولايات المتحدة ، إنما هو اعلان قوى عن نية الاحتفاظ بالثروة حيث هى الآن مركزة ، لقد رأينا رد الفعل على المستوى الشعبى : إلقاء القذائف النارية على مساكن المهاجرين فى المانيا ، وصعود النازية الجديدة ، وادعاء الجبهة الوطنية فى فرنسا ، أنها تمثل الآن مشاعر وأحساسيس ثلث الشعب ، كما يوجد الآبار تهيد ، كأمر واقع ، فى بريطانيا ، فى بعض عقارات الاسكان ، والذى لايسمح فى ظله للأسر السوداء بالحياة فى العقارات البيضاء الخالصة ، وليس ذلك نتيجة سياسة حكومية ، لكنه بسبب رفض السكان السماح بذلك ، وبهذه الطريقة فإن بزوغ قوى عنصرية واضحة متزايدة فى المجتمع الغربى ، ييسر فقط تعزيز قيم وسياسات المؤسسات المالية الغربية ، مما يضمن استمرار هيمنة الغرب .

لاشئ يقف الآن ، كما هو ظاهر فى طريق التوسع الغربى فى العالم ، لاشئ يمكنه منع غزواته العنيفة لحياة الناس وأرزاقهم : طرده واجتثاثه للناس ، وإعادة صياغة العادات والتقاليد بطريقة فعالة حفاظا على انسياب الثروة من فقراء العالم إلى أثريائه، أما عن وعد الغرب لباقى العالم بتحقيق ذات مستوى الوفرة الغربية له ، فسيتضح أنه ليس إلا وهما ، وان تجربة الغرب ، التى اعتمدت ، بشكل قاطع ، على قرون من الاستغلال والسلب والنهب ، والنقل المتواصل للثروة من الجنوب الى الشمال ، ليست تجربة قابلة للتكرار فى تلك البلدان التى تتبع الآن الوصفات والإرشادات الغربية ، ومن ثم ، يمكننا فقط توقع رؤية الاضطراب الاجتماعى المكثف ، والمزيد من المداخل إلى العنف والانفصالية والارهاب والطائفية والنزاع الطبقى والاختطاف والقاء القنابل والقمع والكبت ، وسوف ينظر إلى هذا فى الغرب باعتباره فقط دليلا على وجود حكام فاسدين ، وعدم استقرار تلك الشعوب التى ابتليت بهذه الأمور ، ودونيتها . ويظل النموذج الغربى للتنمية طاهر الذيل ، لاتُضعف إيمانه بأيديولوجيته دمدمة فضائح بعيدة أو وحشية تجئ عبر شاشات التليفاز ، إن متعته القلقة بامتيازه المسموم ، لن تمس.

هنالك تناقض ظاهرى غريب ، أنه فى ذات اللحظة التى لم يعد يرى الغرب فيها أية عقبات أمام توسعه غير المحدود فى العالم ، فإنه يبدو واضحا أيضا أن تلك الرؤى لا تتحقق بهذا القدر من السهولة ، ليس بسبب موانع أخلاقية أو سياسية ، ولكن بسبب القيود التى تفرضها القدرة المحدودة لتحمل الأرض .

لقد دخل تعبير «العوامل الخارجية» منذ زمن قريب مفردات الاقتصاديات ، إن هذه الفكرة تعنى الاشارة إلى تكاليف بيئية معينة ، مُستبعدة حتى الآن بصراحة من الحسابات الاقتصادية ، إن هذا هام ، لأنه يميز بصورة بارزة أول اقرار ، بأنه يمكن أن يكون هنالك مبالغة فى المطالب الكلية المتزايدة للاقتصاديات ، حيث يعترف الآن بأنه لايمكن الاعتماد على الطبيعة كمصدر لاينضب للموارد - والتى كان يطلق عليها دوما فى معجم القاهرين فى المجتمع الصناعى ، «المواد الخام» - خارجى للنفايات ، وكماص صامت وغير ايجابى ، إن إدراك ذلك ، كان صدمة كبرى للنظام الاقتصادى ، صدمة تسببت فى إثارة مناقشة صعبة للغاية حول «الاقتصاديات المتواصلة» ، والحسابات البيئية والاستهلاكية الخضراء ، وبُذلت الجهود لتضمين تكاليف البيئة فى النموذج الاقتصادى ، لتثمين مالا يقدر بثمن ، ولإعطاء قيمة نقدية لتلك الأوجه المستبعدة حقا ، وذلك حتى يُدفع بقوة ، فى السترة الاقتصادية المقيدة ، الأشبه بسترة المجانين ، بالكثير من ذلك الذى أهمل نبضه الكلى ، وصرف النظر عنه أو قُمع . وفى كلمات أخرى فإن الغرب قد نظر ، على الأرجح بطريقة تنبؤية ، إلى الاقتصاديات من أجل علاج الضرر الذى سببته الاقتصاديات .

إن مانراه إنما هى فى الحقيقة الخدعة السحرية للألفية ، وهى تحديدا محاولة الحاق «العوامل الخارجية» بالنظام الحسابى القائم . فإن أمكن فعل ذلك فإنه سوف يحجب كل المعجزات الاقتصادية السابقة التى نبعت من الغرب ، وإن عجز عن فعل ذلك ، فإن النظام الاقتصادى قد يحتاج بعض التحوير شديد الأثر حتى أنه لن يكون فى الإمكان التعرف عليه بعد اليوم ؛ إنه حقا قد يتحول ، إن قوانين الاقتصاديات التى لاتقبل التعديل مليئة بالثقوب فى مواجهة كل نسيج الكوكب الذى لايستقر على حال إلى حد كبير ، يجب على واحد منهما أن يذعن ويستسلم .

إن خيانة ثقافية عميقة تدعم جهود الغرب إنقاذا لما هو مجرد بناء أيديولوجى (ربما كان هذا هو المثال الوحيد لإعادة التدوير والتشغيل التى يمكننا الاستغناء عنها) ، إن هذا المشروع قد يكون فاجعا أكثر من المحاولات «الاجتماعية» المعيبة لامتصاص الوجود الانسانى فى نموذج ماركسى اقتصادى اجتماعى ، إن تحلل تلك التجربة البائسة قد اخفى تشابك الغرب فى وضع مماثل ، لقد استخدم الغرب تصدع الشيوعية كحجة لإدعاء أن نظامه الاقتصادى هو النظام الوحيد والعالمى الذى يتمتع بالصلاحية ، والذى يسير فى طريق فرضه على العالم أجمع .

إن الغرب ، كما يوسع نفوذه بشراهه فوق الأراضى التى أصابتها الخيبة ، والتى كانت توجد بها الاشتراكية فيما سبق ، وكذا العالم الثالث بالمثل ، فإنه يعلن أيضا عن تحوله إلى «القيم الخضراء » ، ويعبر عن لهفته لادماج «التواصل» والحفاظ على الموارد فى خططه للعالم ، والآن ، فإن هؤلاء الذين اشاروا الى أن التواصل فى خلاف مع النظام الصناعى قد اخطأوا الهدف . إن الغرب عندما يتحدث عن التواصل فإنه يعنى ، أولا وقبل كل شئ ، تواصل أنماطه هو للحياة والامتياز، وثانيا ، لأن مثل ذلك النظام الجائر متواصل بالفعل ، وممتد حتى المستقبل الذى يمكن التنبؤ به ، يقول عالم البيئة الهندى أنيل أجاروال ، «إن هؤلاء الذين يقولون بعدم تواصل النظام الحالى ، يهذون ، إنه متواصل ، لكن السؤال الوحيد هو من الذى سيدفع الثمن للأقوياء حتى يتواصل ثراؤهم وتميزهم ؟ ؛ هذا هو السبب فى أن قضايا البيئة هى أيضاً قضايا العدل الاجتماعى وعدالة التوزيع ، غير أنه لايوجد داع موضوعى يجعل النظام الحاضر غير قادر على الاستمرار فى تجريد الفقراء ، مع المزيد والمزيد من إصابة البيئة بالكوارث، والمزيد والمزيد من التحول الى الحضر والتفسخ الاجتماعى والفساد والانحطاط بكل معنى».

هنالك وسيلة اخرى تكون فيها الاقتصاديات أداة للاستعمار ليس فقط فى البلدان الفقيرة ، ولكن أيضا داخل الغرب ذاته ، حيث إن «التنمية» فى البلدان الغنية تعنى إدخال المزيد من مجالات الخبرة الانسانية تحت تحكم العلاقات الاقتصادية . لقد تضمن ذلك ، فى فترة مبكرة من النمو ، خصخصة العامة . كما يحدث الآن فى بلدان كثيرة فى الجنوب ، إننا نرى مؤخرا ، تكافل العامة الانسانى ، والقدرة على عناية الواحد بالآخر ومساندته ، وعودة ظهور ذلك فى حياتنا كسلعة أو خدمة .

إننا نرى أنفسنا ، فى العالم الثرى ، وبدون امكانيات المال التى تمكن من السلطة ، ضعافا بصورة متزايدة ، إن قوانا البشرية تتآكل وتهوى إلى الإهمال وعدم الاستعمال، وإبداعنا وقدرتنا على فعل الأشياء ، من أجل بعضنا البعض ، قد غدت لغوا . إننا نرحب بانتشار التصنيع الذى يعد بالتحرير من العمل التكرارى المدمر أو القاصم للظهر ، ولكن تجئ نقطة يصيب التلف فيها الاستقلال الذاتى الانسانى وقدرتنا على الفعل وعمل الأشياء لأنفسنا ، يجئ هذا تحديدا من ذلك التقسيم للعمل ، تم نجد أن المزيد من التصنيع إنما هو عمل عدوانى نازع للسلطة ، مانع زاجر ، وتنشأ صناعات غريبة فى هذا النسق من الاشياء - صناعة الجنس ، صناعة الرعاية الصحية ، صناعة المعلومات ، صناعة المتعة والتسلية ، وهى كلها تغتصب ، شيئا فشيئاً ، قدراتنا وتوظفها فى خدمات ومؤسسات ومشروعات ، بما يعنى أنه يتوجب علينا شراؤها مره أخرى ، إن هؤلاء الذين لايمتلكون مايكفى من النقود للمشاركة فى هذه اللعبة هم الفقراء ، إن هذه العملية الديناميكية هى التى تغطى احساسا بالحركة والتغيير فى

المجتمع الغربى . إنها تقتضى زيادة سرعة استخدام الموارد المادية ، وإهمال متزايد للموارد البشرية ، ويجب أن يبدو هذا ، بالنسبة لفقراء الأرض هؤلاء الذين صودرت طاقاتهم كلية فى بحث بائس عن البقاء والطعام ، وكأنه تحرر . لكنه يصبح فى العالم الثرى ضرورة ، والتزام ، عملية آليه يصبح فيها فك الارتباط ، مسألة لاتخطر على بال، إنها التبعية وفقدان الحرية .

هنالك تكاليف باهظة متضمنة عندما يجرد البشر من تلك النشاطات التى تتلاءم تماما وقيامهم بها من أجل أنفسهم ، ومن أجل بعضهم البعض بحرية ، خارج اطار اقتصاد النقود ، ان المهارات تنزع من أيدى وخيال النساء والرجال ، ويسلب الناس من الأداء والهدف . إن واحدة من مشاكل نمو ساحة النشاط الاقتصادى ، يعنى أن تلك التكاليف يجب أن يتحملها عدد متناقص مما هو غير اقتصادى ، وهذا بدوره يضع المزيد والمزيد من الضغوط على النساء ، وعلى هؤلاء الذين يجب أن يتحملوا معا التغييرات التى غالبا ماتكون عنيفة ومثيرة للاضطراب ، والتى تحدث كلما ذهبنا أكثر عمقاً فى اقتصاد النقود . ولنأخذ مثلا معينا من الجنوب : امرأة صغيرة ، ابنة مزارع أرز ، تهاجر من المنطقة الفقيرة فى شمال تايلاند إلى بانجوك ، حيث ترج هنالك صناعة الجنس ، إن تكلفة تغير الشعور من امرأة فردية إلى عاملة بالجنس يتضمن قدرا كبيرا من العنف عليها ، وتتحمل هى هذه التكلفة ، وهى سوف تكسب مالا ، ربما فى سنوات قلائل ، فى بارات باتبونج ، وترسل كل شهر ، شيئا ما إلى والديها . إنها لن تخبرهم بعملها مومسا ، إنها تعمل مضيفة استقبال فى فندق وهى التى ستتحمل تكلفة هذه الأكذوبة . إن المظهر الوحيد لنشاطها فى الاقتصاد الرسمى سوف يكون آلاف «الباهت » التى ارسلتها كل عام ، وكذا، وبدون شك ، فى الدخل الذى يولده السائحون الأجانب ، والأرباح التى ذهبت إلى أصحاب الحانات والقيّمين على المواخير. وتصبح هى مريضة بعد أعوام ثلاثة أو أربعة ، وتسعى للعلاج بالعقاقير والعلاجات الخاصة ، وأخيرا يشخص مرضها باعتباره «الايدز» .

وهنا تعود إلى بلدها ، مستهلكة يجللها العار وهى غاية فى المرض ، يجب عليها أن تعترف لوالديها واخوتها بحقيقة حياتها فى المدينة ، إنهم لن يطردوها بل سيرحبون بعودتها إلى العائلة . إنهم عاجزون عن كسب أى شئ ، لكنهم سوف يعملون ، بصورة ما ، على إطعامها وملاطفتها والتخفيف عنها وهى تموت ، من الذى سيتحمل العبء الذى يفوق الطاقة لفعل هذا ؟ يقينا أنه لن يظهر أو يبين فى الفوائد الاقتصادية لأى أحد ، حقا إن النقود البائسة التى كسبتها أثناء شوطها القصير تحدد طريقها الوحيد فى الناتج القومى الاجمالى لتايلاند ؛ والمنطقة المتناقصة لغير ماهو اقتصادى – العائلة التى اعتنت بها ، والأبنية الريفية المتشققة ، والأحياء المشتتون ، – سوف تتحمل نصيبا أكبر مما كانت تتحمله فى المجتمع التقليدى إن ظل على حاله ، إن الأم والأخوات ، بشكل خاص ، سوف يكن هنالك فى مرضها الأخير .

وتصف فاندانا شيفا هذه العملية:

«لقد اعتمد السوق على النساء وجهدهن ليبقى سائرا فى طريقه ، لقد واصلت النساء عيش حياة لاتباع فيها مساهمتهن ولاتشترى ، لقد عاون عملهن غير المرئى النظام على تخليد ذاته . النساء يعلمن أنه لايوجد سوق يستطيع احتضانهن جميعا ، إن دور النساء هو العمل فى المناطق المستبعدة التى انتجها السوق .

يجب عليهن تحمل أثقال من المهانة أكثر ، أثقال فرضت على المورد الاساسى والانسانية ، إن نفس الدور قد آل إلى العالم الثالث ، فى الاقتصاد العالمى ، يجب علينا أن نجعل الأشياء المتماثلة فى عالم الطبيعة ودور النساء والعالم الثالث فى هذا النسق أشياء مرئية ، إن مهانة الثلاثة إنما هى دليل للتكاليف التى لايمكن حسابها والتى يجب أن يتحملها العالم باعتبارها ثمن نجاح اقتصاد السوق ، وحتى يضع الجنوب نفسه على امتداد خطوط تماثل وتحاكى المراجعة النقدية النسائية ، فإننا سوف نقع فى مصيدة صور جديدة من القهر والاخضاع ».

ويعلن الغرب فى ذات الوقت عن تكريسه تنظيف بيئة لوثها دون مبالاة مدة قرنين من الزمان ، إن هذا لايمكن فهمه إلا فى إطار نواياه نحو الجنوب .

إن مالا يجرى الحديث عنه فى هذا المشروع ، هو أنه يمكن انجازه فقط بتكلفة كبيرة . إن الغرب ، بينما يقوم بتجديد مواقعه الصناعية المضارة والمتآكلة وتحسين مظهرها الطبيعى وتظيفها وتطهيرها بطريقة شعائرية ، فإنه يحول تكاليف تواصل العمل كالمعتاد ، إلى الآخرين ، إلى الاجزاء الأقل مناعة من العالم ، وتحديدا باسم «التنمية»، هذا هو معنى دفن النفايات السامة فى ثلثى العالم ، وأيضا تصدير التقنية الخطرة الممنوعة فى الولايات المتحدة أو اليابان والجنى الكثيف لمصادر ثروة البحار ، والغابات والاراضى الخصبة فى الجنوب ، والنهب المتزايد السرعة للتربة ، ان أعمق خيانة تكمن فى استماله شعوب الجنوب – أو قادتها على الأقل – انه باتباعهم الطريق الذى كان الغرب رائده ، فإن شعوبهم أيضا سوف يكون فى وسعها المشاركة فى ثمار النمو الصناعى ، التى تتمتع بها شعوب الغرب بصورة واضحة تماما.

إن الفقراء لايستطيعون الحصول على مالدى الأغنياء دون خسارة لايمكن تعويضها فى قاعدة الموارد إن الوعد بأن ذلك الأمر فى وسعهم ، ليس إلا وهمًا . وبينما يسعى قادة ثلثى العالم السذج إلى ملاءمة أنفسهم مع المواعظ والنصائح القادمة من الغرب – فإن شعوبهم ، وخاصة الأشد فقرا ، تدفع تكاليف تلك الاكذوبة .إن انتشار عقائد الغرب لاتحرر تلك البلدان ، حيث يتوجب على شعوب الجنوب ، فى ظل تلك العقائد أن تقلل من مطالبها حول مواردها حتى يمكن للغرب أن يستمر على نهج الحياة التى

اعتادها : الحياة التى أقامت شعوبه عليها تبعية مثيرة للرعب حقا ، إن التحسينات البيئية الواضحة للعيان فى الغرب ، مثلها مثل نمط الحياة الظاهر للعيان ، والذى يواصل مغالاته وتجاوزه للحدود ، يدفع ثمنها عن طريق إزاحة شعوب الجنوب من المواقع التى توجد بها المعادن الثمينة ، عن طريق الطرد من غابات «ساراواك» ، اندونيسيا أو الفليبين ، وعن طريق افقار «ليما» والعنف فى «ساوباولو» ، وأحياء الفقراء المدقعين فى كلكتا ، وعن طريق النمو الفوضوى للاجوس أو القاهرة او نواكشوط ، وعن طريق تسميم شعوب جنوب شرق آسيا بالتقنية اليابانية وبتخصيص جمال بينانج وجوا الطبيعى للسياح .

إن دور بلدان الجنوب فى النظام العالمى الجديد ، يثبت أنه دور قديم للغاية : توريد العمل ومحصولات نقدية والمسرات والملذات وملاعب للأثرياء ، لقد جرى تسمية ذلك عادة بالاستعمارية لكنه يتواصل - حتى الان- تحت مسمى أقل إثارة للجدل هو مسمى «التنمية»، إن خدمة الدين وانسياب الثروة من الفقراء إلى الأغنياء وشروط التجارة واستنزاف العقول وتسعير النقل ومناورات السوق العديدة للشركات عابرة القارات ، إنما هو قليل من الآليات التى بدلتها الأنماط القديمة للقهر والهيمنة إلى أشكال أكثر فاعلية وأكثر عتامة ، وقد رفع قدرها الآن باعتبارها وثيقة الصلة ومتحدة بالضرورة الاقتصادية .

إن المزيد والمزيد من الناس قد أوقع بهم فى هذا الهول وهو يمضى يفرخ النفاية ويدك الارض ، ليس مجرد سطح الأرض ولكن كل المجتمعات والعلاقات البشرية التى تقف فى طريقه ، وكل السبل الأخرى التى تلبى الحاجات ، وكل العادات والتقاليد التى تشكل عقبه ، أمام المزيد من توسعه ، إن مانراه هو مواجهة بين نسخة شاذة من الثراء وشكل قبيح من الفقر ، فى عالم يمكنه ، ومازال يمكنه تزويد الانسانية بوفرة وكفاية لائقة ، بل وحتى سامية رفيعة .

إن الاقرار المتردد والغامض من الغرب بما فى قوانينه الاقتصادية من عوامل القصور له بعض النتائج التى لايمكن التكهن بها ، إنه ما إن يسلم بمجموعة من «العوامل الخارجية» (التأثير البيئى) للنظام الاقتصادى حتى يظهر فى سرعة أن هنالك العديد من العوامل الأخرى ، ومن الواضح أن هؤلاء الذين قبلوا المقاييس الاقتصادية «لتكاليف» العمل ، قد زيفوا أيضا ، وبصورة جذرية ، التكاليف الحقيقية للعمل ويخسوها قدرها ، حتى قبل أن تظهر فى السوق الصناعى ، إن كون تكلفة العمل هى فى بساطة أقل قدر من النقود يقبل به العامل ، لاتحمل أيه علاقة بمعاناة هؤلاء الذين يجدون أنفسهم واقفين خارج بوابة المصنع ، من الذى حسب الثمن الحقيقى للعنف الذى وقع على الفلاحين وهم يحولون إلى عمال صناعيين ؟(إن كنت محظوظا ، فالأمر قد وقع هكذا ؛ إذ إن العديدين قد تمدنوا حتى دون منافع التوظف الصناعى المشكوك

فيها) ، إن طريق الناس إلى وضع حضرى يتضمن تمزق وانقطاع وانفصال جذرى عن الثقافات التقليدية . إنه يعنى تحطيم حساسية البشر واعادة تجميعهم فى صورة المجتمع الصناعى ، وإعادة تكيف قسرية من ايقاعات العالم الطبيعى إلى تلك التى للصناعية .إن الهجرات من الموطن إلى المدينة ، والطرد من سبل الحياة المستقرة واعادة التوطين الجبرية فى كفالة وألم حياة أحياء المدقعين فى المدينة ، لم تقدر تكلفتها أبدا ، لأنها أعظم من أن تحصى حقا ، إنها لاتقع فى حيز مايمكن حسابه بالنقود ولايمكن التعبير عنها على الاطلاق ، بتعبيرات اقتصادية ، ومن ثم فإنها ببساطة اختفت من الحسابات الاقتصادية ، إن العبء يتحمله «المجتمع» ، وكأنه موقع يجرى التخلص فيه من المشاكل والتكاليف التى لايعترف بها الاقتصاد . حقا إنها منطقة آخذة فى التناقص ، حيث تغزو الهجمة الاستعمارية للاقتصاد آخر ملاجئ الاقتصاد غير النقدى ، المناطق القليلة التى يعطى فيها الناس ويأخذون ، يتبادلون ، ويقدم الواحد منهم للآخر ، بحرية.

لقد كُتب الكثير فى حينه ، وفيما بعد أيضا ، عن الثورة الصناعية فى بريطانيا ، وعن إذا ماكان الناس قد مارسوا هذا الخلل باعتباره صعودا أم هبوطا فى مستواهم المعيشى ، لقد افتقد الكثير من هذا النقاش الهدف : إذمهما كان مقدار التغييرات التى حدثت فإن غالبية الناس قد عانوا من الاضطراب العنيف والافتقاد الشامل لاتجاه حياتهم . إن القول بأن دخلا نقديا أعلى يمكن أن يكون عوضا عن ذلك قول سخيف ، وعلى أى حال ، فإن اعتمادهم العميق على الاقتصاد النقدى ، وخسارتهم للكثير مما جمعوه واخذوه بحرية من الريف ، ومازرعوه وانبتوه من أجل استهلاكهم الخاص، قد دل على أن المزيد من النقود كان لازما ، وإلا كان عليهم أن يقاسوا استنزافا خطيرا لوجود ، هو بالفعل على حافة البقاء . كانوا واعيين تماما ، كما يعى فلاحو الجنوب ، فى ايامنا تلك ، أنهم يفقدون السيطرة على العديد من أوجه حياتهم ، والتى كانت تقوم حتى ذلك الحين على الاعتماد على الذات ؛ ولأن ذلك يتحدى أيضا «التكاليف» المألوفة فإنه أخفق إلى حد مؤسف فى أن يسجله نظام كان مسئولا عن أعمال الاسقاط والحذف والقهر تلك .

هنالك اعتبارات مشابهة فى أمثلة التحول التى تتعرض لها كل شعوب الجنوب ، إنها أيضا معرضة للإضطراب والخلل وفقدان تحكمها فى حياتها ،إن واحدا من أهم تلك الخسائر هو الانتقال القاتل من حدود لأخرى حيث يتم بشكل مباشر الانتقال من الاعتماد على المجال الإحيائى إلى الإعتماد على المجال التقنى الصناعى ، وما إن يقع هذا التغيير حتى يصبح المجال التقنى ، بشكل ظاهر ، هو المصدر الأول للبقاء البشرى ، ويختفى من الصورة ذلك الاعتماد العميق للمجال التقنى على قاعدة الموارد الطبيعية . ليست هنالك من وسيلة موجودة لحساب تكلفة بنود مالية ، إذ ما أسهل تجاهلها !

إن تصنيع العالم قد سار شوطا بعيدا للغاية ، أكثر من أى شئ عرفه أوائل القرن التاسع عشر ، لذا فان مقداره وكثافته قد ازدادتا فى العالم المعاصر ، إن حركة

نساجي الانوال اليدوية من روابى لانكشاير إلى أحياء المدقعين فى مانشستر ، تبدو كاضطراب صغير نسبيا إن قورن بهجرة أطفال مزارعى الأرز ليدخلوا صناعة الجنس فى «فوكيت» . أى تغييرات عميقة حلت بمفهومهم عن أنفسهم والأهداف التى ينشدونها من تحويل سبل أرزاقهم . (ربما مع تفشى مرض الايدز ، الذى يجب تسميته بالمهلك المميت) . ربما يجب أن يتحدث بعض المدافعين المتحمسين عن التوسع العالمى للنموذج الغربى ، إلى أطفال الفلاحين فى بارات بانجوك ، وقد تجاوزوا بالكادسن المراهقة ، حيث غدوا سلعة يستهلكها السياح الأجانب الشهوانيين الغربيين واليابانيين ، والذين ينظرون إلى هؤلاء الإطفال «كمكافأة» شرعية حلال لهم يشترونها ، مثل أى متعة أخرى يعدها المرء لنفسه كعزاء وسلوى عن أعمالهم البطولية فى صناعة الثروة ، حقا إن وجود صناعة الجنس ، فى حد ذاتها ليوحى بأن قوانين العرض والطلب إنما هى قوانين لا نهائيه التوسع ، قوانين قابلة لغزو كل أنوا ع مناطق ممارستنا ، صناعة لم تكن فى الحسبان ، فى الحقبة الصناعية المبكرة .

ليس هنالك من حد لمواصلة الكولونيالية لأعمالها ، وتحولها من الشكل العسكرى إلى الساحة الاقتصادية ، وليس هنالك أكثر وضوحاً من مصير الذين فى الهند ، وقد أجبرتهم بريطانيا العظمى على زراعة الأفيون فى القرن التاسع عشر ، لقد أرادت بريطانيا خلق سلعة تدمر اعتماد الصين على ذاتها . وقد جُرد قهرا ، خلال تلك العمليات ، مئات الآلاف من زارعى القوت ، وخاصة فى «بيهار» ، من سبل أرزاقهم ، وفرضت عليهم زراعة خشخاش الأفيون .

وقد عانى الكثيرون منهم المجاعة . وقد كفت بريطانيا فى الثمانينيات من القرن العشرين عن أخذ زادها الشرعى من المورفين من الهند ، والتى كانت - حتى ذلك الحين - هى المورد الأساسى لها . وتأخذ بريطانيا زادها الآن من استراليا التى اتقنت ، فى السنوات الاخيرة ، طريقة عالية التقنية لاستخراج المخدر من خشخاش الأفيون ، وكانت نتيجة ذلك سلب مزارعى الخشخاش فى بيهار من مصدر رزقهم مرة أخرى ، ذلك الرزق الذى لم يسعوا هم إليه فى المقام الأول ، إن الأرض التى زرعوها خشخاشا قد حذفت ، نظريا ، من عملية الانتاج . وحيث أنهم ، لم يعوضوا فى الحقيقة التعويض الكافى فإن الكثير من الفائض قد وجد طريقه إلى السوق المحلى فى الهند . وأصبح هنالك نتيجة ذلك مائة الف مدمن هيروين فى شوارع بومباى وحدها .

وماذا عن شعب «جوا» «ولانجكاوى» أو «بينانج» ، أو أىّ من الأماكن الأخرى التى غدت مواقع للاختراق السياحى الغربى الكثيف ، وحيث لم يعد الناس بقادرين على شراء الطعام الذى ينتجونه ، وقد احتكرته الفنادق الكبرى ؟ وماذا عن تلك البلدات التى كانت تعتمد فى غذائها ، حتى وقت قريب على نفسها وقد اجبرت على تحويل الأرض

إلى محاصيل نقدية من أجل زيادة التبادل التجارى لسداد ديون ، لم يستفيدوا هم البتة منها ، وماذا عن شعوب اجبرتها الممارسات التجارية المجحفة لتقلع عن طعامها التقليدى لحساب أنماط غذائية أجنبية ؟ إن الفليبيين بفواكهها المحلية المتنوعة بمنجوستينها * ولانزونها ** ووفرة موزها الحلو وسفرجلها ورامبوتانها ** ، تُرى الآن وقد امتلأت أكشاك فواكها بتفاح واشنطن الأحمر ، وبرتقال وأعناب كاليفورنيا ، وقد أُنتجت كما يبدو من مظهرها ، بطريقة الهندسة الوراثية ، بغرض جمالى وليس لأغراض غذائية .

هنالك العديد من العوامل الخارجية للنظام الاقتصادى ، وخاصة تلك المرتبطة بالزمن . إن رؤية بعيدة المدى فى الاقتصاديات تعنى خمس أو عشر سنوات على الأكثر؛ إن الاهتمام المباشر ينصب على الميزانية الجارية ، إنه لايبالى بالإثقال التى يمكن أن يخلفها للأجيال القادمة . كما إنه لايعترف بأى أخطاء داخلية ، أخطاء افقرت ودمرت سبل حياة قديمة موقرة دامت آلاف السنين ، وأصابها الاضطراب فقط بسبب الغزوات الغربية العنيفة . يجب علينا بدلا من تهنئة بريطانيا لذاتها ، عن كرم معوناتها للهند ، أن نتحدث عن التعويضات التى لاتحصى والتى تدين بها لذلك البلد ، كيف يمكننا تعويض الدمار الذى أصاب الزراعة المتواصلة والممارسات الصناعية التى دمرناها ، حتى تغرق الهند بالبضائع البريطانية رديئة الصنع ؟ كيف يمكننا ان نكافئ هؤلاء النساجين الذين ماتوا منذ أمد بعيد ، والذين قطعت أصابعهم الابهام حتى يجردوا من مهاراتهم فى صناعة ملابس أكثر رقة ومتانة من أى شئ تعرفه لانكشاير؟

هنالك أمر مايزداد وضوحا ، فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين : أن من بين «العوامل الخارجية العديدة» للنظام ورؤيته «للتنمية الاقتصادية» ، هنالك تزايد فى أعداد البشر ، وتلك الزيادة كلها على أية حال ، فى بلدان الجنوب ، إن هذا لايعنى غير شئ واحد – أن حياتهم وموتهم لايدخل سجل تدابير القياس الفظة والمخادعة التى تُقدر بها الثروة ، إن هذا الكتاب مَعْنى بهؤلاء الناس الذين هم «خارج» هذا النظام ، أو الذين سيصبحون خارجه ، إنه معنى بحياتهم ومقاومتهم وجهودهم من أجل بناء بدائل له .

* فاكهة لها رائحة الخوخ والأناناس .   ** فواكه استوائية (المترجم).

مانيلا

هنالك بلدان مسيحية قليلة ، تصل فيها الحماسة الدينية ، إلى مثل تلك القمم التى تصل إليها فى الاسبوع المقدس فى الفليبين – حيث تسير مواكب الشموع المشتعلة فى الغسق ، وتُحمل الصلبان فى الشمس المرهقة ويعيد أبناء الريف تمثيل أسبوع الآلام ، وهم يرتدون ملابس الحواريين والجنود الرومان ، وتصدر تقارير فى كل عام عن عمليات صلب حقيقية ، لها فى بعض الاماكن جاذبية سياحية ، وقد جاء فى تقرير عام ١٩٩١ :

إن بائع سمك فى الرابعة والعشرين من عمره كان يبكى ويحملق فى السماء ، بينما كان هو ومؤمنون آخرون يدقون بالمسامير فى صلبان خشبية يوم الجمعة فى شعيرة دينية مرتبطة بصلب المسيح ، إن ستة رجال ، بما فيهم بائع السمك شيتو سانجالانج ، كانوا يدقون بالمسامير فى حقل أرز فى بامبانجا . ومئات ممن يضربون أنفسهم لنيل رضى الرب ، كانوا يضربون ظهورهم بسياط البامبو ، بينما يقودون الموكب إلى الحقل حيث جرى دق المسامير .

إن الوجود فى الفليبين أثناء عيد الفصح ، هو معايشة لما كان يمكن أن يكون الحماس الشعبى عليه فى اوروبا القرون الوسطى ، كما يجعلك ذلك تدرك فى ذات الوقت قوة القوى الكولونيالية التى أدخلت فى الأصل الدينى المسيحى فى البلاد بمثل ذلك العنف الذى لاينمحى .

وقد استفاد فقراء الحضر فى مانيلا ، فى السنوات الأخيرة من قوة الاسبوع المقدس وأثره فنظموا «كالباريو» بديلا عن الـ (كالفارى) * ، مطابقين بين معاناة فقراء اليوم ، وتلك التى عاناها المسيح .

احتشد خارج كنيسة «مالاتى» ، المكرسة لسيدة العلاج حوالى خمسة آلاف شخص تحت الشمس الحارة ، وعربة شحن تحمل جوقة المرنمين الذين ستصاحب أصواتهم الموكب ، وجماعة ممثلى الكالفارى على الأقدام ، حشد من الباعة وسائقى الجيب والعمال والعاطلين يرتدون ثياب قادة المئة الرومان والمسيح وتلامذته بما فيهم يهوذا ، وهنالك سبعة أشخاص يرتدون أقنعة سوداء وتى شيرتات ملطخة بالدماء يحملون صلبان خشبية ثقيلة حفرت عليها مصادر الألم الذى يحمله الفقراء : الدين ، البطالة ، الفساد ، العسكرة ، المحسوبية ، الشركات عابرة القوميات ، صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، ويؤخذ المسيح ، فى هذا الكالفارى خارج السفارة الأمريكية حيث يصلب خارج مبناها ، ثم يقوم من بين الأموات عند كوبرى «منديولا» وهو أقرب مكان

---

* جبل الجلجثة ، جبل الجماجم . مكان صلب المسيح (المترجم).

يُسمح فيه للمتظاهرين بالاقتراب من قصر «مالاكانانج» ، ويجئ خلف الممثلين ، القساوسة الراديكاليين والراهبات -وهم ليسو بالعديدين- ثم ممثلو الجماعات الحضرية الفقيرة ، وبعدهم الزوار الأجانب ، وكان هنالك خمسة منا .

تقوم القوات العسكرية بحماية السفارة الامريكية ، وهى قوات كل أفرادها بدناء ، يشدون الأبازيم المعدنية الحادة على كروش جيدة الامتلاء ، إنهم على نقيض هؤلاء الذين يسيطرون عليهم ، والذين يبدون نحافا بلا حول ولاطول ، وتجرى مفاوضات حول إذا ماكان سيسمح للموكب بالوقوف والأداء خارج السفارة ، وقد مُنح التصريح لأول مرة هذا العام .

الموكب يمرق عبر شارع «تافت» الشبيه بوادى مرصوف ، تمسك فيه الأحجار بالحرارة فتضرب الناس من أعلى ومن أسفل ، وتدوى أبواق سائقى السيارات فى نفاذ صبر ، ويسوق البعض منهم بصورة خطرة قرب الناس ، ويتوقف بعض المارة يصفقون ، ويلحق آخرون بالموكب ، حتى أنه عندما يقترب من مقصده يكون عدده قد تضاعف قياسا بمبتداه . ويتقدم الحشد بطيئا من مشاهد المدينة المتهدمة التى يخيفها الكساد والفقر والإهمال . ويكّون التلوث الصادر عن عربات الجيب والاوتوبيسات شبورة معدنية دائمة . وتنمو مستوطنات وضع اليد فى ظلال الفنادق الفاخرة ، ويحمل بعض الناس راية ، ويحتجون على اطلاق الرصاص على قاطنى حى قذر مكتظ بالسكان ، أثناء عملية هدم وتدمير فى فبراير ، وعند الكوبرى ، فوق «الباسيج» حيث تزاحمت الاكواخ والعشش تطل على المياه الراكدة الزجاجية ، تعلق قبة المسجد التى موهها ماركوس بالذهب كامتياز للمسلمين خلال أيام سلطته الآفلة مثل شمس كاذبة فوق الحى القذر المكتظ كريه الرائحة أسفلها .

الحشد صامت . حُسْن الشبان والشابات يزداد حدة وصرامة بما يضعون على رؤوسهم من اكاليل الشوك وضفائر النباتات دائمة الخضرة والزهور ، البعض يرتدى قبعات قش ، ويضع قماشا فوق افواهه حماية لنفسه من التلوث ، ويزداد ارتفاع الانفعال خشية أن يدير العسكريون بنادقهم اليهم . إنهم يعتقدون أنهم فى مأمن خلال الأسبوع المقدس وإنه في وسعهم إدارة دين الأقوياء ضدهم ، محتمين بالأسبوع الأكثر جلالا فى العام المسيحى .

يتوقف الموكب عند كوبرى منديولا ، ويشكل شبه دائرة فى مكان أوجده تقاطع الطرق ، ويجرى تمثيل القيام من الأموات . وتُتلى الصلوات من أجل حكومة للفقراء ، والجنود يراقبون الكالباريو دون انفعال ، هم يعرفون أنهم لو تذبذبوا فى دعمهم لهؤلاء الذين فى السلطة ، فإنهم أيضا سيجدون أنفسهم فى نفس الوضع غير المأمون لفقراء الحضر ، الذين انحدر غالبيتهم منهم ، على أية حال

إن دولوريس واحدة من منظمى مسيرة اليوم ، امرأة واهنة داكنة الشعر فى الثلاثينيات من عمرها ، وهى تقول أنه لوكان قادة فقراء الحضر واقعين تحت السيطرة ، وهم يقينا كذلك ، فإنه لا اختيار أمامهم غير مواصلة العمل من أجل العدل الاجتماعى ، إنها تقول : إن فقراء الحضر فى مانيلا مهددون دوما بالهدم والتدمير ، بالإخلاء والطرد والسجن ، إننا ننتمى لواحدة من أكثر المجموعات عرضة للهجوم ، إن الآخرين يشكلون جزءا من شبكة دولية - النقابيين والنساء والمدافعين عن البيئه ، إن لكل مجموعة نظيرها فى الغرب ، غير أنه ليس لفقراء الحضر مجموعات دعم فى الخارج ، إننا معزولون ، إن كان فقراء الحضر فى حاجة إلى شئ واحد ، فذلك الشئ هو الأصدقاء .

لقد جاءت دولوريس إلى مانيلا من «بيكول» عام ١٩٦٤ : «لقد وضع مغتصبو الأرض أيديهم على أرضنا عندما كان أبى يعمل فى مانيلا ، ثم جئنا نلحق به ، وأقمنا فى منزل مملوك لمن يعمل لديهم . كان يعمل فى مصنع للآلات الثقيلة ثم مات بعد عامين من مجيئنا ، من أزمة قلبية ، أثناء العمل ، وتسلمت أمى ٤٠٠٠ بيزوس (حوالى ٨٠ دولارا) كتعويض لنا عنه ، كنت فى الثانية عشر من عمرى ، أكبر ستة أطفال ، كانت أمى تحيك الملابس وكنت أعاونها ، كنت أقوم بعمل العراوى وخياطة الخرز فى الملابس .

«كان علينا مغادرة المنزل والذهاب للحياة فى «توندو» قرب أرصفة الميناء ، فى أكبر المناطق ازدحاما بالمساكن القذرة فى مانيلا ، كنت أعمل فى الصباح وأذاكرفى المساء، كان يُنظر إلى فقراء المدينة حتى فى ذلك الوقت باعتبارهم عقبة أمام التنمية ، كانت المنازل تهدم دوما وتدمر . لم يكن ينظر إلى الفقراء كمورد ثروة للمدينة ولكن كعبء وعائق . عندما كنا نحتج كنا نشد انتباه العسكريين الذين كانوا يرسلون مأجوريهم كى يشنوا علينا حربا نفسية ولبث الخوف فينا ، كانوا فى بعض الأحيان يحرقون المجتمعات الفقيرة ، تبدأ النيران لتتفشى بشدة عبر المناطق الفقيرة فى لمح البصر .

ان دولوريس تعيش الآن فى «داكوتا» فى تجمعات عنقودية مزدحمة من العشش والأكواخ الفقيرة خلف شارع «مابينى» ، فى حى اللهو الرخيص ، ومكان بارات «الكاراوكى» ، وعيادات الأمراض التناسلية ، ومحلات الصرافة وعروض العرى والبارات الرثة ، ويقع منزل دولوريس على الطريق الرئيسى ، وهو منزل له حديقة فى شريط دقيق فى الواجهة ، بناء من الخشب والخرسانة ، طابق أعلى وسقف معدنى مضلع ، وقد طالبت بالأرض منذ وقت قريب شركة «لاندكوم العقارية» المملوكة للشيوتان ، أحد خلصاء ماركوس ، وواحد من أغنى الرجال فى مانيلا ، وقد قدمت الشركة وثائق مزورة إلى المحكمة تأييدا لدعواها ، إنهم يخططون لهدم وتدمير المجتمع الذى تأسس منذ زمن طويل واحلال عملية تنمية تجارية محله ، إن هذه المنطقة منطقة

استراتيجية سياحيا وتبلغ قيمة المتر المربع من أرضها ١٥٠٠٠ بزوس (٣٠٠ دولارا) . «إن وضعت الأعمال الكبيرة يدها على الأرض فإن الناس سوف يعاد إسكانهم بعيدا لعدة أميال ، فيما وراء مترو – مانيلا ، بلا عمل ، ولا وسائل نقل ولا مدارس ، وإن الناس يرغبون فى البقاء هنا ، لقد تكبدوا الكثير من الجهد والألم كى يجدوا أعمال لهم هنا».

إن أهالى داكوتا يقدمون خدمات حيوية للمدينة : باعة خضراوات وجرائد وأسماك وخبز ، وتعمل النساء فى الفنادق والمغاسل وكخادمات ، والعديدات يعملن فى صناعة الجنس ، كفتيات تحت الطلب فى الشوارع ، او العمل كراقصات فى البارات والنوادى التى يمتلك غالبيتها أصحاب مصالح أمريكيين ويابانيين وألمان ، وتعمل المرأة منذ الثامنة وطوال الليل ، ويدفع الزبون النصف للبار والنصف الآخر للمرأة ، والتى عليها أن تُشرك بعدئذ قوادها معها فى نصيبها ، أو أن تسلمه له كاملا فى بعض الحالات. وأسأل أنا النساء احيانا ، «عندما تجلسن إلى البار وتشربن مع أحد الزبائن ، من الذى يحظى بالفوائد؟ » . هنالك بالطبع مالك البار ، وكذا القواد ، وشركات الكحوليات ، وسقاة البار ، والحكومة والسياح ، كل امرئ ماعدا النساء ، إن مستقبلهن المهنى يمكن ان ينتهى فى الخامسة والعشرين ، إنهن يبدأن صغيرات للغاية والكثيرات منهن يحلمن بالزواج من أجنبى ، والبعض منهن يخرجن مما هن فيه عن هذا الطريق ، لكنهن عند ذهابهن إلى بلدان أخرى يواجهن صدمة ثقافية كبرى ، ان الفليبينيات ودودات وحساسات للغاية ، وهن غالبا مايجدن الحياة فى الغرب خشنة قاسية بصورة مختلفة . إن العلاقات الاجتماعية فى الفليبين مجمدة ، ذات علاقة بالمستعمرات وقديمة . إن المرأة تحس ضرورة أن تكون سهلة القيادة صاغرة ، وأن الرجل سيدها . إن هذا هو مايجذب بعض الغربيين للمجئ والبحث عن عرائس فليبينيات . فالمرأة الغربية قد غدت واثقة بذاتها أكثر مما يلزم .

وقد انجبت دولوريس ثلاثة اطفال . كان زوجها اكيلينو قد شب فى مالاتى ، كما ان والدته تعيش معهم ، كان والد اكيلينو نجارا ، لكنه مات عندما كان اكيلينو فى السادسة من عمره ، وقد عملت والدته غسالة وطباخة لعائلة أمريكية ، وقد بدأ اكيلينو العمل وهو فى العاشرة من عمره ، أولا فى حراسة السيارات ، فى اماكن وقوفها ، ثم بائعا للصحف .

إن داكوتا تتكون من ٧٠٠ مأوى و٩٠٠ عائلة و٤٥٠٠ فردا على مساحة قدرها ١١/٤هكتارا . وقد يوجد فى المنزل الواحد ثلاث أو اربع أسر ، تحتل كل واحدة منها حجرة ، كما يجب على هؤلاء الذين ليس لديهم توصيلات مياه أن يدفعوا ٥٠ سنتافو للباعة مقابل صفيحة ماء . وتحصل أسرة واحدة على توصيلة كهربائية قانونية ، ثم تقوم الطرق غير القانونية بخدمة خمس أوست أسر أخرى.

وقد اصيبت دولوريس منذ عشر سنوات مضت بالتيفود والسل ، فالسل مرض شائع فى المناطق القذرة المكتظة ، وكان عليها ان توقف عمليه التنظيم التى تقوم بها مدة عام ، وذهبت الى العربية السعودية لتعمل خادمة ، وظلت هناك عشرين شهرا، «الناس تحلم بكسب الدولارات . إنهم يظنون أن ذلك سوف يغير حياتهم . لقد عدت لأن زوجى فقد عمله بسبب أحد الاضرابات ، إننى أعرف صناعة الملابس ، لذا عملت فى متجر هنا . لكننى لم احتمل رؤية صاحب الحانوت يصرخ فى السيدات الخياطات كأنهن لسن آدميات ، ثم حصلت على عمل فى برنامج «المجتمع المسيحى الأساسى» فى كنيسة مالاتى .

بدأ فقراء الحضر التنظيم فى «توندو» فى أوائل الثمانينيات ، عندما بدأ الإعداد لمشروع ماركوس «مدينة الانسان» ، والذى اتسم بالمبالغة الحمقاء ، كان ذلك يقتضى شق طريق رئيسى عبر منطقة توندو لتوفير إمكانية نقل الوارد والصادر بواسطة حاويات من أرصفة الميناء ، إن خطة تنمية الميناء المحلى تقتضى طرد ٢٧٠٠ عائلة . وشكل الفقراء أول مظاهرة تحدث فى مانيلا فى ظل القانون العسكرى ، ووعد ماركوس بالا يهدم أو يدمر ، وقال أنه سينمى الموقع ذاته للنهوض بالمنطقة المزدحمة القذرة ، إن الحكومة سوف تشترى الارض وتبيعها بسعر خمسة بيزوات للمتر المربع ، وإن كل ماعلى الناس أن يفعلوه هو الدفع من أجل البنية الأساسية ، وقد موّل صندوق النقد الدولى والبنك الدولى المشروع.

غير أن نظام الصرف تمت إقامته بطريقة غير ملائمة ، بسبب الفساد كانت الانابيب ضيقة للغاية فانهار النظام ، وكانت إحدى نتائج هذا الانهيار أن غدت الشوارع فى حالة طوفان دائم ، وامتدت فوق المنطقة صفائح مياه راكدة ، تغطيها طبقة طحلب أخضر أشبه بالبساط ، وكانت المنازل تتلوث أثناء الرياح الموسمية الجنوبية الغربية بقاذورات البلاليع.

إن مشاكل داكوتا معقدة بسبب قربهامن حى اللهو ، المخدرات هنالك متاحة فى أى وقت . الشابو (احد مشتقات الهيروبين) ، والماريجوانا والانفيتامينات والغراء وشراب السعال .ويعيش الكثير من الناس على المكر والخداع ، ان روميرويعيش على تقديم سعر صرف أعلى للنقود الاجنبية - ٤٠ بيزو للدولار ، انه يعمل من كشك لبيع الوجبات الخفيفة ، داعيا الأجانب لمبادلة نقودهم بأعلى سعر فى مانيلا ، وهو يستخدم بعض الصبية لمتابعة هؤلاء الزبائن ونشل مامعهم من نقود ، إنهم لا ينجحون دوما ، لكنه يحقق بشكل عام ربحا جيدا .

جاء كاريسيما بالاترايو إلى مانيلا من «فيساياس» ، منذ واحد وعشرين عاما ، إنها تقول إن الأمور قد غدت أكثر سوءا فى ظل اكينو ، ولم يحدث أى تغيير فى ظل

راموس . كانت هنالك اثناء حكم ماركوس ، عمليات «انقاذ» للناس «من الغرق» مدفوعة الثمن وبطالة ومخدرات ، اما الآن فإن لوشيوتان يطالب بأرضنا ، إننا مجتمع صغير ، ماالذي في وسعنا فعله ضد ثرواتهم ؟ كانت هنالك جلسة تحقيق أولى فى المحكمة حول ملكية هذه الارض واعد كمين لمحامينا وقتل .

ليس هنالك من عمل للشباب . لقد وعدت اكينو بالمنازل لمن لامنازل لهم ، وبالارض لمن لا أرض لهم ، وبالعمل لمن لاعمل لهم ، ولم تتحقق أيّ من تلك الوعود . ليس هنالك من أمن ولاسبل للرزق والاسعار ترتفع . إن ابنى يعمل فى مصنع للخزف فى الامارات العربية المتحدة . وزوجي مصاب بأميبا الكبد وعاجز عن العمل .

إن الضرورات الأساسية تتجاوز قدرات الناس ، إن أسطوانة الغاز تكلف ١٣٢ بيزو ، وهى تكفى بالكاد مدة أسبوعين ، إن لدى خمسة اطفال وحفيداً ونحن نحتاج الى ١٤ كيلو أرزا فى الاسبوع ، إلا ان أرخص أرز يباع بسبعة ونصف بيزوات للكيلو وهو أرز سيئ الرائحة ، وتكلف حزمة الفاصوليا الصغيرة خمسة بيزوات وحفنة من أوراق الكاموت (البطاطا) ٢ بيزو ، ونفس السعر بالنسبة للكانج كونج ، ان سمك الجالونجوج هو السمك الذى فى وسع كل امرئ فى مانيلا أن يأكله ،إنه يكلف ٨,٥ بيزوات للكيلو المجفف ، اما الطازج فيبلغ سعره اربعة اضعاف. وثمن سعر الزيت ٢٠ بيزو ، إننا ندفع ١٢٩ بيزو شهريا للكهرباء ، و٣٣بيزو للمياه وضغطها منخفض على الدوام . إن بعض الأطفال هنا يعانون من سوء التغذية ، وعلينا تشكيل فرق اطلاق نار تدافع عنا ، إذ أننا نخشى تدميرهم لنا بإشعال النار فى منازلنا ، يقول الناس إن هذه الأرض كانت جبانة زمن الاسبان ، من سوء حظ المرء أن يعيش هنا ، كانت الأرض ، عندما جئنا لأول مرة ، مستنقعات وأعشاب طويلة لقد انشأنا هذه الارض ، وحسناها ، هى الآن ثمينة ، وهم يودون انتزاعها منا .

إن جريجوريو جيمبايان من «سيبو» ، أصغر سبعة أبناء ، إنه يدير متجرا صغيرا لبيع الطعام المطهى على الطريق الرئيسى ، لقد بدأ والده ووالدته حياتهما فى مانيلا ببيع المياه . وتوفى والده عام ١٩٧٨ ، إن والدته تستيقظ فى الرابعة صباحا لشراء الطعام ، ويفتح المتجر حتى الثامنة مساء . كان جريجور يعمل فنيا ، غير أن راتبه اليومى وقدره ٨٠ بيزو فى اليوم ، ونفقات المواصلات ، جعلت هذا العمل لا يستحق هذا الجهد ، يقول أن حلم حياته هو الحصول على وظيفة مستقرة حتى يستطيع الزواج وتكوين أسرة ، إنه يقول ، فى حرارة ، ليس هذا تطرفا أو إسرافا لكنه مستحيل فى ظل الظروف الحالية .

لقد ظل جريجوريو متخفيا طوال حقبة ماركوس ، وعاد إلى الظهور عندماجاءت اكينو إلى السلطة ، لقد دفع إلى التخفى بسبب مصادرة أراضى أسرته ، والآن

يتساءل أصدقاؤه إذا ماكان يجب عليه البقاء فى الخفاء ، هنالك الآن انتهاكات أكثر لحقوق الانسان وعمليات قتل أكثر ، وابتزاز دائم من الشرطة للفقراء .

إن كاميلا تتجاوز الستين من عمرها ، غير أنها ماتزال تبيع الجرائد فى الصباح ، وتغسل الملابس فيما بعد الظهر،حيث تعمل اثنى عشر ساعة في اليوم ، لقد اشترى ابنها مركبة تدار بالاقدام ، دراجة «ريكشاو» ، وهى شكل من أشكال النقل اخترعه الفقراء كوسيلة لأخذ الركاب إلى مسافات قصيرة من الجوار ، إن زوجته من «ايلويلو». جاءت من هناك وهى فى السابعة عشر للعمل فى الحانات ؛ إلا أن لديهما الآن طفلاً ، وقد توقفت عن العمل ، وتتساءل كيف يمكنها البقاء حية «بنعمة الرب» ، غير أن دولوريس تقول لها ، لايمكنك أن تأكلى نعمة الله.

تعمل أربع نساء فى الحانات ، وتتشاركن الحياة فى حجرة واحدة ، يكاد يقتصر الوصول إليها على سلم رأسى ، الوقت باكوره بعد الظهر ، وقد استيقظن لتوهن ، انهن يتثاءبن ، يدفعن بشعورهن بعيدا عن عيونهن ، ويجلسن يعانقن لعبة على شكل دب أو وسادة يهزهزنها جيئة وذهابا ، إن الاثاث الوحيد الموجود فى الغرفة الخشبية هو منضدة من البلاستيك ووسائد متناثرة ، ورق ملابس - بلوزات مزينة بالترتر ، وتنورات قصيرة تثير الاغراء ، وتنورات «را - را» لاتتناسب وهذا المحيط الاجرد الموحش ، وهنالك تقويم العائلة المقدسة على الحائط المعدنى المضلع ، ليس هنالك من إمكانيات للطهى ولامياه جارية . وسلطانية حمراء بلاستيكية بها بعض الأطباق . وهنالك صف من زجاجات بيرة «سان ميجيل» وعلب بها فحم الكوك . إن ميرل امرأة نحيلة ، تبدو شابة فى الواحد والاربعين من عمرها ، تحس المرارة من معاناتها ، إن لديها عشرة ابناء تركتهم مع زوجها العنيف الذى هجرته . كانت فى نزاع مع إدارة الحانة التى تعمل بها ، لأنهم يودون طرد النساء الأكبر سنا ، واحلال من هن اصغر سنا ، واللواتى يصلن إلى مانيلا طوال الوقت ، إن ميرل تكسب من الحانة ، فى مقابل انتظارها ، سبعمائة بيزو وعليها أن تعوض الباقى من الزبائن ، لايوجد وسائل لراحة العمال ، ولاحتى حجرة لراحة النساء .

كوليت فى الثانية والعشرين ، إنها راقصة، ليست راقصة تحت طلب الراقصين ، لكنها موديل تقدم سلسلة مشاهد فى ملهى ليلى. هنالك ترتيب هرمى صارم للتمتع بالإحترام . إنها ، كما تقول قد «سئمت حياة الرقاد فى فراغات مابين الأسِّرة» ، إنها حبلى لكنها لاتفكر فى أن تجهض نفسها كما فعلت فى المرة الأخيرة . لقد وعدها والد الطفل برعايته ، رغم أنه متزوج ولديه أبناء ثلاثة ، ان كوليت تود الإقلاع عن هذه الحياة، لكنها لاتعرف إن كان فى وسعها الثقة به . إن ميرل تسخر مما تسميه «غرام العضة» - «المزدوجة»، إن الرجال يقدمون لك الوعود فى الفراش ، ثم لاشئ بعد ذلك ، ما إن يكون الرجل فى حضن المرأة حتى يقول أى شئ. هل أؤمن بالحب ؟ نعم أؤمن به

عندما أحب ، إلا أن هذا لايدوم طويلا ، ولذا كلا ، إننى لاأؤمن به غالبية الوقت ، تقول ميرل :«لقد جعلتنى الحياة أنانية ، لأن العالم غبى للغاية».

تعمل كورا نادلة خلال الليل ، إن أغلب الفتيات يتعاطين المخدرات «الشابو » ، شراب الكحة ، بل وحتى الكوكايين ، يمكنك إن أنت تناولت المخدرات ، نسيان العار ولايهمك ماتفعلين ، إنها تستند إلى الحائط وقد سقط شعرها فوق كتفيها ، عيناها مغلقتان منتفختان من قلة النوم ، تحتضن لعبة على شكل دب كهربى أزرق ، مايزال ملفوفا فى لفافته البوليثينية الواقية ، هدية من معجب ، تقول كورا ، إنها دمية لأنهم يعتبروننا دمى أيضا .

يجلس دينج دونج فى قفص شبكة نافذة منزله المصنوع من السلك ، وقد التف حول نفسه فى المكان الضيق الذى يوفره الإفريز ، إنه يرتدى قميص كرة قدم أحمر ، وسروال حريرى أحمر قصير : إنه فتى جميل فى الرابعة عشر ، يعيش فى احلام اليقظة . هو أخرس . ولُد ، كما تقول أمه ، فى ظل القانون العسكرى ، فى الوقت الذى بدا فيه ، إن اطلاق اسمَ ماركوس عليه مسألة حكيمة ومدعاة للأمل ، وقد اطلقت الأم على ابنائها أسماء منى وليزا ورونالد يكمنا برونالد ريجان ، إنها تطمح ، كما تقول ، فى رفعة شأن أبنائها ، إن زوج فيلى يعمل طاهيا وخادما عند عائلة تمتلك مصنعا للخمور . لقد جاءت فيلى من «ليبت» (مثل اميلدا) عام ١٩٦٤ وعملت كخادمة بأجر قدره ٦٠ بيزو فى الشهر ، لم تكن أسرتها تمتلك أرضا لكن افرادها كانوا مستأجرين يفلحون الارض بنظام المشاركة فى المحصول ، حيث يزرعون الأرز والحبوب والقمح والكاموت (البطاطا) ، لقد جاءت فيلى الى مانيلا لتحسن أوضاعها ، هنالك على الحائط صورة لامعة ، مكتوب عليها ، «انظر إلى قوس قزح ، ومجد الرب الذى صنعه» . وهنالك أيضا رسم بيانى توضيحى عن اطوال الاطفال الذين يتغذون بطعام ماكدونالد ، وعلى إفريز النافذة علبه تى ان تى قاتل الصراصير والبراغيث ، إن فيلى مقيدة بدينج دونج الذى لايستطيع إطعام نفسه أو الذهاب إلى التواليت بمفرده ، وهو رغم عدم استطاعته الكلام ، غير انه يتواصل باللمس مع هؤلاء الذين يعرفهم ويثق فيهم ، إنهاتقول ، هو يعيش فى عالم مختلف ، نأمل أن يكون عالما أفضل من عالمنا.

ريكى فى الثامنة ، وقد بلغ الحلم مبكرا ، مراهق صغير غريب ، إخشّن صوته ونبت الشعر على شفته ، إن والده يعمل نادلا فى «السايبان» . وأمه ليس فى وسعها ان تعمل ، لأنها لاتستطيع تركه ، غير أن جدته تبيع السجائر فى «روكساس بوليڤارد» ، خارج السفارة الأمريكية ، إن الأسرة تدفع ٧٠٠ بيزو شهريا لمالك الكوخ ، رغم أنه مشيد فوق أرض عامة ، ريكى غير مسموح له بالخروج بمفرده ، حيث تشكل رغباته الجنسية خطرا على باقى الأطفال ، هنا ، شئ غريب ورمزى ، لقد أُجبر أباء كثير من العائلات على السفر إلى الخارج للعمل، كان عليهم أن يتركوا ديارهم ويهجروا أطفالهم ، فبدا الأمر وكأن على ريكى الطفل أن يسعى كى يحل محل الجوار الغائبين .

فى داكوتا ، شأنها شأن كل المجتمعات الفقيرة ، الكثير من المرضى والمعوقين ، ويقع عبء رعايتهم بصورة غالبة على النساء ، إن كثيرا من المرضى يجدون الحماية المفرطة ولايخرجون خارج ديارهم ، يعيش ادواردو فى حجر مظلمة بلا نوافذ ، فى الدور الارضى لكوخ يقع فى قلب شبكة من الممرات الضيقة ، خلف الشارع العمومى للمساكن المكتظة القذرة - إنه مصاب بسرطان نما فوق العمود الفقرى ، لايغادر الكوخ ابدا ، يجلس على مصطبة خشبية حيث ينام ، وفوطة وجه تغطى قدميه الذابلتين ، إنه يخجل من الظهور أمام الناس ، إذ أن أحد نتائج مرضه ، فقدانه التحكم فى مثانته . إنه شاب ذكر فى الثامنة عشر ، يهتم بشدة بالامور السياسية ، إنه فى حاجة إلى عملية جراحية تكلفه ٤٥٠ دولارا ، لكنها تبدو وكأنها ٤٥ مليون دولار ، إن أمه مصابة بالسل ، وأخاه الذى انهى لتوه دراسته فى الهندسة بلا عمل .

تيسى تعمل مانيكيرا ، إنها تقول ، «سمنى تيسى المجنونة . لقد ولدت فى المطهر وأعيش فى الجحيم ، ولذا لن يثير أى شئ خوفى » ، إن تيسى اخصائية تجميل ، تصفف الشعر وتزين النساء ، إن الناس عندما يغادرون بيوتهم ، يودون الظهور فى أفضل حال ، إن العمل على أية حال ، لاينقص تيسى مع وجود كل تلك النسوة فى صناعة الجنس ، إنها تقول «إن أحد لايقدم لنا عملا ، علينا نحن أن ندبر معاشنا».

إن أبهاء فنادق مالاتى تمتلئ فى الواحدة صباحا وتستعرض النساء أنفسهن فى بلوزاتهن المزينة بالترتر ، وتنوراتهن القصيرة ، عبر أرضية الديسكو المضاءة ، بينما السياح الأجانب يمتدحونهن مقرظين ، ويحتارون مع من فيهن يعقد الواحد منهم صفقته ، ولايخطر ببال الزبائن أنهن يعشن فى أكواخ فقيرة لاتبعد أكثر من مائتى أو ثلاثمائة مترا من الرفاهية المصنوعة والتبريد المريح للفنادق التى يعملون بها .

اللقاء على قيد الحياة

جون هو واحد من مئات آلاف الشبان الذين يحلمون بترك الفلبيين . إنه يقول وكذا يقول العديدون ، «لامستقبل لي هنا ولانقود ، لابد أن أغادر وأنا مازلت شابا» ، إن جون في التاسعة عشر من عمره ، شاب ذكي ماهر ، يدرس للحصول على شهادة في التجارة. انه ينفق أكثر وقته في ستديو للرقص والتشكيل في «ماندالويونج» وهو مكان تتدرب فيه الشابات ليصبحن مضيفات في اليابان ، المبنى عبارة عن نافذة متجر ، غطيت بألواح خشبية ، مع بدروم خانق حيث تتدرب الشابات، ومكتب ومطبخ . يعد جون في بعض الاحيان وجبات للراقصات ، إن صديقه الذي يدير الاستديو يقرضه النقود أحيانا . وجون مبهور بسحر هذا المكان الرث . هو ذاته ليس خفيف الحركة أو موهوبا بما يكفي ليكون راقصا ، إن حماس وملاحة وأمل هؤلاء الشابات وشعورهن بالإيثار تُسّوق كلها بواسطة هؤلاء الذين يعرفون كيف يبيعون هذه السجايا ، فإن نجحوا ، فبعقود قصيرة (ستة اشهر في كل مرة) لمواسم قليلة ، ثم العودة ، وقد استنفدن وخابت آمالهن ، دون مهارات ، إن إعداد الفتاة لرقص – الديسكو ، أو أن تكون مضيفة إنما هو إعداد لمهنة غامضة مبهمة مرهونة بالظروف ، دون دوام أو مال ، غير أنها تمثل فرصة للقاء أجنبي غني أو الزواج من ياباني ، إنه وهم بالهروب إلى الضوء الخداع لوكيلهن الذي يسلبهن ويجردهن . إن جون حريص على اسعاد صديقاته في الاستديو وهو يولم لهن جميعا وليمة من الايس كريم والبيرة ، كلما كان لديه نقود .

كانت أم جون واحدة من أربعة عشر طفلة جئن من ايلويلو للعمل كخادمة عندما كانت في الرابعة عشر من عمرها ، ثم عملت فيما بعد في مصنع للملابس والتقت بصورة ما بابن محام وتزوجته ، وقد واجه هذا الزواج معارضة عنيفة من والديّ زوجها اللذين لم يسمحا لهما بالحياة معهما في ڤيلتهما الحجرية الموسرة في «ماندالويونج» ، وقامت أم جون بتشييد بناية ملحقة على مقربة من المنزل ، اشبه بعربة سكة حديد طويلة ذات سقف من البيرسبكس ، إن الوقوف داخل هذا المأوى مسألة مستحيلة ، وهو قد أُنشئ فوق بالوعة تحمل المياه القذرة من المنازل المجاورة . وتغمر المياه عند سقوط الأمطار حجرة المعيشة، ويلطخ العفن والرطوبة الجزء السفلي من الحوائط ، هنالك اريكة ومقاعد بلاستيكية أصابها التسلخ . المطبخ يرتفع درجة ، والمياه لاتصل إليه بسبب انحدارالأرضية . غرفة النوم الوحيدة على نفس مستوى المطبخ ، إلا أن المياه تتسرب من سقفها وهنالك صفائح معدة لتلقي وابل المياه من أكثر الامطار شدة .

إن جون هو أصغر أخوة ثلاث ، هنالك اختان أكبر منه سنا ، إن واحدة منهما قد تركت المنزل الآن وذهبت لتعيش فى مصنع دهانات التجميل حيث تعمل . وقد فر والدهم مع صديقته . ونما الاطفال وهم يعرفون أن هنالك خطأ ما : إن ما – لقد اعتاد أباهم أخذ الأرز والخضراوات ليطعم بها صديقته وأسرتها تاركا إياهم جوعى فى أغلب الاحوال ، إنه يعمل الآن فى مصنع فى تايوان ، ولا اتصال به . وقد توفى جد جو ، وغدت العلاقة بالجدة أكثر سوءا . إنها تبغى إبعادهم عن المنزل ، وبالكاد تتسامح فى وجودهم . وتهددهم بالطرد دوما . كما يوجد فى المنزل أيضا ابن عم آخر . ولد فى العشرين بلا عمل لكنه يساعد فيما هو حول المنزل . وتعتنى أم جون بطفلتين توأمتين لابنه شقيقتها ، شارمين وشارلين ، وهما فى الشهر الحادى عشر من عمرهما . لقد ذهبت امهما إلى اليابان للعمل كمضيفة أو مؤانسة ، وهجرهما الأب . إن التوأمتين طفلتان ذابلتان واسعتا العينين . وشارلين التى أصيبت للتو بالتهاب رئوى ، نحيلة خائرة البدن . إن جدتهما تعمل فى مصنع للبسكويت ولاتستطيع رعايتهما ، ولذا تقوم أم جون ، والتى لاتمارس الآن عملا دائما برعايتهما .

إنها تعمل ماشطة فى المنزل ، وإن كان عملها غير منتظم . إن كاتى اخت جون الاخرى تنهى الآن دراستها . إنهاتقوم بأعمال المحاسبة مثلما يفعل الكثيرون من الشبان الذين يدرسون التجارة والاعمال والمحاسبات . إنهم يأملون أن يعود تعاملهم مع النقود بألفة ، ببعض منها عليهم بطريقة سحرية .

إن المكان الذى ينام فيه الجميع ، والمراتب على الأرض ، مكان بلا نوافذ ، أبعاده مترين فى ثلاث ، إن جون يذهب إلى الكلية فى المساء .لأنها أقل ازدحاما ، ولأنه يستطيع التركيز هكذا بطريقة أفضل ، إنه فخور للغاية بإنجليزيته ، التى ينطقها بسلاسة ، إنه ساحر ودافئ للغاية ، ويفكر فى أن يجد عملا فى العلاقات العامة ، لقد رأى اعلانا يطلب نادلا براتب شهرى قدره ٤٠٠٠ بيزو فى الشهر . وعندما تقدم بطلب للوظيفة قيل له أن الوظائف الوحيدة المتاحة هى للعاملين فى الاستقبال ، أى الذين يستقبلون الزبائن فى نادى الشواذ ، فرفض الوظيفة .

لم تكن أسرته تعرف شيئا عن عمله ، إنهم كاثوليك أتقياء ، ولابد أن يصيبهم هذا العمل بحزن عميق . لقد فعلت أمهم كل شئ لتمكن أبناءها من إنهاء دراساتهم ، وهو يحس بواجبه يملى عليه أن يقدم لها وييسر عليها . إنه يحلم بترك الفليبين ، إنه يقول ، «سوف أفعل أى شئ ، أى شئ ، سوف اتخلى عن دراستى سوف أصبح حاجبا أو بوابا ، أو أعمل فى مصنع أى شئ» ، إنه يقول ، «لو كان مقدرا لى أن أكون تعسا ، فعلىّ أن أذهب بعيدا حيث لايروننى ، وحيث أكون قادرا على الأقل على ارسال نقود لهم ».

جبل الدخان

كان على شعب مانيلا ، فى يونيو ١٩٩١ ، أن يعيش مع ماينهمر من ثوران بركان بيناتوبو فى «بامبانجا» ، كان الهواء كثيفا بما يحمله من رماد وأتربة ، وكادت الحياة فى المدينة التى سادتها الفوضى والإضطراب أن تكون غير محتملة ، والناس يحاولون حماية منازلهم وأجسادهم من التلوث وسحب التراب الخانقة ، ورغم ذلك فإن عددا قليلا من الناس استخلص النتيجة وهى أن مايحدث لهم كان شديد الشبه للغاية بما تعانيه ٣٥٠٠ أسرة - ٢٠٠٠٠ فردا على الاقل - يعيشون بشكل دائم على جبل مانيلا الملئ بدخان من صنع الانسان ، والذى ربما يكون واحدا من أشد مناطق الحياة على الارض تدميرا .

إن الجبل الملئ بالدخان ، هو مستودع قمامة واسع ممتد ، وهو بصورة ما مستودع بشرى أيضا - لاجئون من مزارع حل الضرر بها ، ومن أنظمة بيئية منحطة ، ومن العسكرة والظلم الاجتماعى - حيث البشرية يعاد استخدامها أيضا مثلها مثل الاشياء التى عليها كنسها ، استمرارا للبناء اليومى ، إنهم يعملون على المنحدرات الكبريتية المليئة بالدخان ، لمنطقة ظلت ربع قرن تتلقى ٢٥٠٠ طنا من الزبالة التى تفرزها مانيلا يوميا .

إن بلوغ الجبل المئ بالدخان ممكن بواسطة طريق ماركوس العمومى والذى يقطع «توندو» ، الطريق مغطى بطبقة كثيفة من التراب ، حتى أن سيارات الجيب فضية الطلاء تثير ، عندما تمر ، دوامات من الرمال التى تنزل بالرؤية إلى الصفر تقريبا ، حقا أن الطريق العمومى المهجور ، بالتواءات خطوطه الكهربائية ، وأكواخه وأكشاكه المعدنية وأكوام النفايات على جانبيه ، له مظهر مدينة حدودية مهجورة ، إن غطاء التراب يجعل الوان كل الأشياء باهته مثل صور فيلم قديم شاحب وحيد اللون .

رست أسفل الجبل بعض أكواخ مصنوعة من المعدن الذى أُعيد استخدامه ، رست على امتداد واسع مديد من مياه البحر اللزجة ، الساكنة حتى أن الانعكاسات فيها تبدو أكثر ثباتامن الكيانات ذاتها ، والتى لايمكن الوصول إليها إلا عبر مسالك من النباتات العطنة ، إن منحدرات التل السفلية قد شُغلت كلية .

وهنالك حوالى أربعين درجة خرسانية مشيدة فى الجانب الصلب المصمت من الجبل وهى تقود الى الطريق الذى يحيط بالمستويات العليا حيث تجئ سيارات النقل لتفرغ حمولتها من النفايات ، كذلك هنالك رصيف قرب هذا الطريق ، حيث توجد طبقات مضغوطة من النفايات ، مازالت تكشف عن مزق من بلاستيك لم تتفسخ بعد ، وأجزاء

من معادن صدئة ، وشارات الشركات عابرة القوميات التى لاتفنى - سانيو ، بيبسى ، توشيبا . وتغطى القمة هضبة وعرة ، بما فيها من سلاسل تلال ووديان متحركة ، حيث تجد القمامة التى تفرغ عشوائيا مستواها الخاص بها ، وتنقض طيور البحر الفضية وتدور ، وتسود رائحة الميثان وثانى اكسيد الكبريت والدخان خاصة والذى ينتشر فى لفات لا نهائية من أبخرة لاذعة ، تكثفها حرارة الشمس .

إن كل مافى منازل الناس مكون من أشياء تم تخليصها من السفن الغارقة ، حوش خردة غريب ، مجال واسع للتدريب على عملية إعادة الاستعمال ، الاكواخ ذاتها تبدو كأشياء منبثقة من الجبل الزائف ، صفائح مدببة ، وصدأ وأخشاب وبلاستيك متآكل . إن الكثير منها محاط بقوائم من زنبرك المراتب التى تعطنت وتعفنت ، ولفائف المعدن اللولبية تقدم سياجا مليئا بالخروم والفتحات ، تترعرع حوله النباتات المتسلقة واللبلاب ، والزهور الزرقاء الزاهية الأشبه بالأبواق ، وقد امتلأت قلوبها بالعروق التى تتحدى الدخان الملوث ، الأعشاب تنمو فى صفائح وعلب حساء «ماجى» الموصوف للأطفال ، بعض الرجال يلعبون القمار على منضدة مغطاة بجوخ بال وقد ارتكزت على قواعد من احجار ، والبعض الآخر يلعب لعبة الكاسيتات الصغيرة للغاية ، وصبى يجلس فى ظل كوخه ، يغنى لأصحابه «لحن بلا قيود» على جيتار مهشم .

لاشئ بلا نفع هنا غير الناس ، أجسادهم تتآكل بفعل العمل المفرط وسوء التغذية ، ورئاتهم تتلف من الحرارة والأبخرة ، ويصيب الضعف الأطفال من الأمراض النفسية والإسهال والديدان.

ما أن تلقى سيارات النقل المكتوب عليها بالطلاء رسالة «البيئة والتحسين الصحى» (منحة يابانية للمعونة) - بحمولتها من قمامة اليوم الجديد ، حتى يصطخب بعدها حشد من الناس ، يبحثون بقضبان معدنية ذات خطاطيف ، يقلبون المادة النتنة ، يلتقطون منها أى شئ يمكن بيعه ، إن فيرجيليو ، من «بامبانجا» ، يملؤ زكيبة من الخيش بملابس داخلية لطختها الفضلات ، سراويل تحتيه للنساء وحشو نحاسى وصيدريات وسراويل بجوارب ،إنه يأخذ تلك الاشياء إلى زوجته فى المنزل لتغسلها وتنظفها وتبيعهاإلى سكان بامبانجا القبليين ، وهو يحقق من وراء ذلك ربحا يوميا قدره ٢٠ بيزو ، وسوف يعينه هذا المبلغ مع ماتنتجه قطعة أرضه الصغيرة ، سوف يعينه هو وأسرته المكونه من ستة أشخاص على مجرد الحياة .

ويبحث البعض فقط عن أشياء خاصة ذات قيمة - كالزجاج والزجاجات غيرالمكسورة ومعادن حديدية أو نحاس ، ويملؤ آخرون أجوله أو سلالا بأى شئ يمكن أن يكسب القليل من السنتافوات - مثل الدوائر المطلية ، وصناديق الراديو البلاستيكية

وعلب أناناس «ديل مونت» ، وزجاجات بيرة «سان ميجيل» ، ويحوم فوق المشهد سرب كثيف من الذباب ، الذى يمكن بالكاد تمييزه من ذرات التراب فى ضوء الشمس الوحشى ، إن طنينه هو الصوت الوحيد المسموع إلى جانب خشخشة الزجاج والمعدن عند تقليب النفايات ، الأطفال أيضا يعملون ، عيون العديدين منهم حمراء يغطيها غشاء من التراب ، إن فى وجه واحد منهم ، يبلغ العاشرة من عمره ، دملاً كبيراً شوه أحد الجانبين ، إنه الوحيد فى عائلته القادر على الكسب ، ليس له أب وأمه مصابة بالسل .

روبرت ، من «زمباليس» ، فى الثالثة والعشرين من عمره ، إنه يضع حول رأسه علماً أمريكيا كمنديل ملون كبير ليحميه من الشمس ، يوجد فى كوخه باحة صغيرة مليئة بالقمامة . وهنالك داخل الكوخ على أرضيته مشمع أخضر ونتيجة بيبسى لعام ١٩٨٨ ، الجدران صفائح مطروقة من أوعية زيت قديمة ومبرشمة معا ، والسطح سدابات خشبيه غير مستوية ، وهنالك أريكة بلاستيكية مشققة وقد خرج منها حشوها الاسفنجى ، الصيانه داخل المنزل جيدة. المفردات الإستهلاكية التى استغنى البعض عنها تلقى من المحرومين تقديرهم لهؤلاء الذين كان فى وسعهم الإلقاء بمثل تلك الأشياء ، إن ثلاجة عديمة القيمة تستخدم خزانه للطعام . لقد عاش والدىّ روبرت ثلاثين عاما فى مانيلا ، عمل والده فى جبل الدخان حتى أصيب منذ عامين بجلطة فى المخ . وأمه ضريرة ، امرأة نحيلة ترتدى ثوبا أحمر زهرى وذراعين أصابهما التلف ، وعينين لونهما أصفر مائل إلى البياض ، لقد صدمتها سيارة نقل حكومية أثناء هدم المساكن المكتظة القذرة (البارانجاى) حيث كانوا يعيشون ، وكان ماحل بها نتيجة لما أصابها . وقد كتب روبرت على باب الكوخ بقلم أسود من الفحم «فليبارك الرب دارنا» . ليس هذا تعليقا تهكميا ، إنه يعنى ماكتب .

يجلس الفين لوبيز فى مجموعة منزله الأكثر يسرا . إنه يشترى الزجاجات ، التى يجمعها الأطفال ويبيعونها له ، إنه يدفع لهم ٢٥ سنتافو لكل واحدة ويبيعها هو إلى مصنع زجاجات فى مانيلا ، فى مقابل ٣٥ سنتافو للواحدة ، إن تأسيس مثل هذا العمل البدائى يحتاج إلى حوالى ٥٠٠٠ بيزو (حوالى ٢٠٠ دولار امريكى) ، حتى يمكن توفير مكان للتخزين والنقل ، إن چينا رينى من «نيجروس أورينتال » ، حيث تعمل عائلتها وتعيش على زراعة قصب السكر . إنها الآن فى الخامسة والعشرين ، وتكسب حوالى ٣٥ بيزو فى اليوم ، تكفيها إطعام أطفالها الثلاث ، والذين يبلغ أصغرهم شهرا واحدا . لقد ولدوا جميعا هنا ، على جبل الدخان . إن زوجها يكسب ٥٠ بيزو فى اليوم. إنه وزوجته يحصلان على نصف الحد الأدنى الرسمى لأجر شخص واحد .

ربيكا سيبيليا فى التاسعة والعشرين من عمرها . إنها تقوم بجمع الأخشاب التى تبيعها كوقود للطبيخ ، كونسيولا تحرق الأخشاب قرب الشريط الساحلى وتحيلها إلى

فحم نباتى ، إنها تشعل نارا تغطيها بالرمال فتحترق باللهيب ، فى وسعها أن تعد جوالين من الفحم النباتى يوميا ، وتبيع كل منها بأربعين بيزو ، إنها من «بيكول» حيث يعمل أفراد عائلتها مزارعين بالمشاركة فى المحصول ، فيعطون المالك ٧٠٪ من محصول الأرز وجوز الهند . كانت تكسب هنالك ، عشرة بيزوات فى اليوم ، وكانت على الدوام مدينة ، إنها تقول أن الحياة فى جبل الدخان أفضل من الحياة فى الإقليم ، ويعمل زوجها فى البركة الراكدة ، حيث مخرج المياه الفاسدة إلى البحر إنه يصطاد الضفادع لعائلته كى يأكلوها .

وُضع تابوت فى مساند خشبية ، داخل الكنيسة الموجودة إلى جانب الطريق ، بصليبها النحاسى وصورة زيتية للعذراء ، المرأة المتوفاة فى السادسة والعشرين من عمرها ، ماتت بسبب عدوى رئوية يوم الاثنين ، واليوم يوم الجمعة ، إنهم فى إنتظار وصول أمها من «سامار» .والزوج يجلس مخدرا فاقد الوعى وقد تعلق به أطفالها الثلاثة وكلهم دون السادسة . أخوه هناك أيضا ، غير أن لديه هو أيضا ستة أطفال ، كيف يمكن لزوجته أن تأخذ ثلاثة آخرين ؟

اتسع جبل الدخان ، فضم إليه شاطئ «أروما» عند نهاية توندو ، الزبالة والورق والخضراوات العطنة خلقت أرضا موحلة ، سدت هذه الاشياء مخارج مياه توندو الفاسدة إلى البحر ، فغمرت المياه شوارعها بصورة دائمة ، وأصبحت بها قنوات مياه سوداء ، فأطلقوا عليها اسم «فينيسيا الصغيرة».

شركة «بروكتور وجامبل» هى واحدة من أكبر أماكن التوظيف فى تورندو . الوظائف هنا تعطى أجرا جيدا ، ولذا يسعى الناس حثيثا وراءها ، الشركة توظف حوالى الف شخص إنها ترسل على أية حال بملوثاتها الصابونية إلى الهواء ، رذاذا زلقا رقيقاً ، يثير الحلق والصدر ، إنه الاضحوكة الكبرى لسكان تورندو . المصنع الملوث هو واحد من أكثر المنشآت تلوثا فى مانيلا ، وهو منشأة تعمل فى صناعة المنظفات للإستخدام الخاص .

أعلن الرئيس راموس فى مايو ١٩٩٣ ، غلق جبل الدخان كموقع للقمامة . كان الغرض من هذا الاعلان هو منع مجموعات التليفاز الأجنبية من تصوير واحد من أكثر مواطن سكنى البشر ، على الأرض ، إثارة للخجل ، غير أن هذا الإعلان لم يقدم شيئا لهؤلاء الذين طردوا مرة أخرى من معاشهم الهش .

جزيرة الحرية

هنالك ، فى خليج مانيلا ، جزيرة صغيرة تبلغ مساحتها ٦٥ هكتارا ، ظلت دون أن يحتلها أحد حتى أواخر السبعينيات ، إنها شريط سبخى ، مستنقع من الأرض تغطيه الأعشاب الخشنة والنباتات الزاحفة والشجيرات ، وقد أطلق عليها الإثنى عشر ألفا الذين يحتلونها الآن اسم «جزيرة الحرية» ، حيث قدمت للكثيرين منهم حلا للمسيرة الجبرية الطويلة التى دفعت بهم من أماكن إقامتهم ، منذ خمسة عشر أو عشرين عاما ، كانوا على هجرة متواصلة محفوفة بالخطر منذ ذلك الوقت الذى دفع بهم فيه من جزيرتهم «لييت » و «سامار» إلى داخل العاصمة ، حيث تعرضوا للتحرش بلا انقطاع ، وحيث هدمت منازلهم مرارا وتكرارا ، وأخيرا «أُعيدت اقامتهم فى «بولاكان» ، وهى منطقة صخرية بلا عمل ولا أرض توفران لهم مادة للحياة ، وهم عندما اكتشفوا جزيرة الحرية ، بدا لهم أنهم قد عثروا ، أخيرا ، على مكان يمكن ، أن يعيشوا فيه فى سلام .

تبعد جزيرة الحرية عشر دقائق عن البر الأصلى ، إن أُستخدمت القوارب المثبتة بأطر من البامبو ،إن الجزيرة تُرى بوضوح من «أجو ينالدو هاى واى» ، الطريق الساحلى ، وهى ليست بعيدة من الكتل الخرسانية للمركز الثقافى لاميلدا ماركوس» . هنالك جسر من أكياس الرمل والجلاميد ، حيث يصعد ركاب القوارب الصغيرة (بانكاس) أو يهبطون؛ والشاطئ منطقة مليئة بقشر جوز الهند الصلب والأجزاء العليا من الأناناس والأكياس البلاستيكية والعلب والصنادل القديمة ، إنه يبدو كمستودع للقمامة ، غير أنه فى الحقيقة بدايات زحف من الأرض على البحر ، إنها تفسح طريقا لأشجار التين الهندى الملحية الشوكية الخضراء بلون الزيتون حول حافة الشاطئ ، المياه الراكدة التى تحيط بها القمامة كالمصيدة خضراء فى لون الزمرد بسبب الطحالب النامية فيها ، إن تربة الجزيرة ذاتها رملية مع كسر من قواقع غير مسحوقة تبرق بنار لؤلؤية فى ضوء الشمس .

خلال الثمانينيات ، جاء إلى هنا المزيد والمزيد من اللآجئين الذين طوروا المكان ، عاشوا مطمئنين فى السنوات القليلة الأولى من مجيئهم ، حفروا الآبار التى وفرت لهم مياها للغسيل والإستحمام ، رغم أنها مالحة للغاية كمياه للشرب ، كان عليهم جلب مياه الشرب من البر الأصلى، كانت توضع فى خزانات ويباع ملئ علبة البترول البلاستيكية منها بـ ٢٠ بيزو .

تعيش الآن فوق الجزيرة ١٧٥٦ أسرة ، فى أربع قرى (باراناجايات) فى كل منها ساحة عامة مركزية مترية ، بها كنيسة وعدد قليل من المتاجر العامة (سارى ، سارى) وعدد من المنازل متباينة المتانة ، إن بعض المنازل أساسية ، منازل «بارونج»* تقليدية بسيطة مصنوعة من البامبو ومقامة على عمد خشبية مع أسقف من «النيبا» ** ، والبعض الآخر من معدن متخضن يكثف حرارة الشمس ، أو من الخرسانة .

---

* كلمة فليبينية تعنى السكين أو السيف سميك الخلفية دقيق الطرف . (المترجم) .

** كلمة ماليزية تعنى النخيل . (المترجم) .

وقد واجه سكان جزيرة الحرية إنتقاصا من حرياتهم الهشة ، إن سياسة الحرب الشاملة لحكومة اكينو ، ضد أعمال العصيان فى الفليبين ، قد أدت إلى إقامة أربعة وعشرين برجاً للحراسة على أرض الجزيرة ، إن تلك الأبراج مقامة ظاهرياً لمنع المزيد من «الإستحواذ» على أرض الجزيرة ، غير ان الناس يعلمون ، أن القصد من إقامتها ، هو قهر أى نشاط يمكن أن يتناقض وما يرونه مصالحا للحكومة ، هنالك إحساس ، بأنه يمكن أن تكون جزيرة الحرية مع التزايد الكبير لعدد المهاجرين إليها ، مخبأ لأعضاء «جيش التحرير الجديد» ، إن القاطنين يشكون فى أن هنالك غرضا آخرا للرصد الكثيف لحياتهم ، لقد غدت جزيرة الحرية مكانا مرغوبا لعقارات حقيقية ، يمكن أن يكون قد تم الوعد بها بالفعل ، إن لم يكن قد بيعت فعليا «للتنمويين» ، كموقع مستقبلى لمزيد من فنادق الخمسة نجوم ، أو ملكيات فردية لأبنية متعددة الوحدات لليابانيين ، الذين يجب أن توفر لهم جولات جولف نهاية الأسبوع المتسمة بالظرف واللطافة ، أو السياحة الجنسية، مساعدة لهم فى دعم ومساندة معجزتهم الإقتصادية .

هنالك تماثل مثير فى شهادة الناس ، لقد غادر غالبيتهم أرضهم ، عندما أدى قطع أشجار التلال التى كانوا يعيشون عليها إلى أن تصبح جرداء ؛ إذ جرفت الأمطار حقولهم ، أو حولتها إلى أرض سلتية ، تلك الحقول التى زرعتها عائلاتهم منذ أجيال ، لقد استقرت ، فى الأصل ، مجموعة من العائلات من «بيكول» فى «ماكاتى» فى مانيلا ، ذلك الحى الذى أصبح فيما بعد مركز الأعمال والمال فى المدينة . لقد شغلوا فى الاصل أرضا خاصة غير مستعملة وكسبوا عيشهم كبائعين وعمال بناء وخدم . وقد هدمت مآويهم لشق طريق يكسر الحصار الكبير والغريب لماكاتى ، التى هى منطقة أشبه بجزء لم ينته بعد من القسم التجارى «بأطلانطا» ، شتلة زرع نقلت إلى وسط المدينة ، لتتناقص المنطقة إلى أرض ضئيلة وهجران للحضر ، فقد ذهب الناس ، فيما بعد إلى «باراناك» على ساحل خليج مانيلا ، حيث تعلموا كسب رزقهم من البحر ، من الصيد أو حرفة المحار والصدف . وعندما أُنشئ الطريق العام وبدأ الزحف على المزيد من الخط الساحلى ، أُعيد نقلهم جبرا إلى «بولاكان» ، بعيدا من شمال مانيلا ، حيث لاتوجد وسائل لكسب الرزق . وجاءت فى أواخر السبعينيات مجموعة ، من ثمانين عائلة إلى الجزيرة ، ومنحوا إذنا بالبقاء هناك .

قاموا بزرع الأشجار ، وكان للعديدين منهم سياجات شوكية ، حيث زرعوا الفاكهة والخضراوات والأعشاب الطبية ، هنالك المانجو ونبات آذان الجدى والإيبيل - إيبيل وأشجار الاكاسيا ، ليس هنالك من طرق على الجزيرة ، الهواء النقى نسبيا ، مع نسيم بحر دائم . بعض الناس يعملون فى البر الأصلى بائعين ونجارين أو سائقين ، غير أن أجر الانتقال عبر المياه عشرة بيزوات يوميا ، ولما كان العديدون يحصلون على أجر أقل

بكثير من الحد الأدنى للأجر ، فقد شكل هذا مشقة حادة على دخلهم الشهرى ، والبعض يحصل على رزقه من البحر بالصيد فى مياه خليج مانيلا الملوثة والمستنزفة .

لقد رأيت جزيرة الحرية للمرة الأولى ، يوم عطلة عامة ، ٩ ابريل ، يوم باتان ، اليوم الذى تحى فيه ذكرى «مسيرة الموت» ، من «باتان» إلى «تارلاك» ، إثر الغزو اليابانى للجزيرة . لقد خاضوا هم أيضا نوعا من مسيرات الموت ، وقد اجُتثت جذورهم، وطُردوا ودُفع بهم حيث مات الكثيرون من أطفالهم خلال هيامهم جبرا وبلا عمل يؤدونه ، حقا هنالك فى داخل جزيرة الحرية ذاتها العديد من الأطفال الذين يعانون سوء التغذية حيث يسقط العديدون منهم مرضى ثم يموتون ، إن السؤال الوحيد الآن ، كما قالت إحدى السيدات هو إذا ماكانت مسيرة الناس الجبرية تلك نتاج تحريض الفليبينيين أنفسهم ، أم نتاج تحريض الأجانب؟ . إنها فى الحقيقة ، جزئيا ، بواسطة اليابانيين أنفسهم والذين يلعبون مثل هذا الدور الهام فى إملاء مثل تلك الأنماط للتنمية فى الفليبين والذين يدعوهم البعض بآخر الغزاة الكولونياليين .

يقول بيتر بيانيتا، «عندما جئنا إلى الجزيرة فى البداية ، كانت خالية ، لم يكن بها شرطة حينذاك ، كنا أحرارا فى إنشاء موطن إقامتنا ، أن نزرع «الكاساقا» و«الكاموت» (البطاطا) الفول السودانى والطماطم . لقد عشنا فى سلام جاءت السلطات فقط بعد عام ١٩٨٧ ، شرطة الباراناجاى (القرية) وحراس الأمن الذين استأجرهم العسكريون » ، كان بيتر يعمل مشرفا فى مطعم فى مالاتى غير أنه توقف عن العمل عندما أصيب بورم فيما وراء العينين مما أضر بقدرته على الإبصار ، إنه يتذكر كيف قامت الشركات عابرة القومية فى «بيكول» موطنه ، بقطع أشجار المنحدر، «لقد اخذوا كل النارا والماهوجنى وألداو و الابيتونج، والتى هى أشجار أخشاب صفراء صلبة وجميلة ، لقد اعتدنا زراعة الأرز فى التجاويف التى كنا نعدها على المنحدرات المنخفضة للتلال ، ولكن ما أن ذهبت الأشجار حتى اكتسحت مياه الامطار ببساطة حقولنا المزروعة أرزا ، وكانت الشركات التى قطعت الأشجار قد غادرت أيضا ، وبذا لم يكن هنالك أحد نتجه إليه طلبا للتعويض .

«كان كل الناس ينتمون إلى مجتمع واحد ، خلال الأزمنة الأسبانية يمنحون اسما إضافيا يبدأ بنفس الحرف أ أو ب او أى حرف آخر ، كان اسم كل واحد فى قريتنا يبدأ بحرف الباء ، وكان ذلك يساعد السلطات الكولونيالية على التحكم فى الناس ، إن فى وسعهم معرفة من أين جاء أى شخص بواسطة الحرف الأول من اسمه ، إنهم ، على الأقل ، لم يتظاهروا حينئذ بأننا أحرار ، هذا هو الفرق عما يحدث اليوم».

يقول بيتر بيانيتا أنه محظوظ رغم أنه لم يحقق أبدا طموح حياته ، بأن يصبح طبيبا لقد علم جميع أبنائه ، وهو فخور بأنهم جميعا ملتزمون بتغيير المجتمع الفليبينى.

إنه يقول «الحكومه ترغب فى ذهاب الناس إلى الخارج ، حتى تكسب عملة أجنبيه ، أى سياسة تلك التى تقوم على تصدير شعبك ، شأنه فى ذلك شأن أى محصول ، إننى أرغب فى بقاء أبنائى وعملهم هنا ، من أجل إصلاح وتحسين المجتمع هنا ، حتى لاتعانى ملايين العائلات الفليبينية مستقبلا لوعة فراق الهجرات الكبيرة ووداعها».

لاتوجد مدارس بالجزيرة وقد أنهى هذا العام ، ستة من أبنائها دراستهم الثانوية ، وثلاثة دراستهم فى الكليات ، «ياله من إهدار للموارد البشرية المستقبلية » ، يقول بيتر بيانيتا . إن ٨٠٪ من الاطفال ينهون دراستهم بعد الصف الثالث لأن آباءهم يعجزون عن دفع نفقات إرسالهم إلى البر الأصلى .

وتدير دايزى الڤاريس متجرا للسارى سارى (السلع العامة) ، إنها تبيع الزيت والسمك والكيروسين والصابون والسكر والملح والبن ، إنها أيضا تحيك الملابس بحذق ومهارة ، إنها تحدد المشاكل الكبرى التى يواجهها سكان الجزيرة ، مشاكل استقرار وأمن مكان اقامتهم ، وانتهاك الحراس لحقوق الإنسان وسبل معاشهم («إذ كيف يمكن لجماعات الصيد الصغيرة أن تحقق معاشها ، مع دخول سفن الصيد اليابانية إلى خليج مانيلا عمدا») ، والصحة («لقد وجدنا تسع وستين طفلا يعانون من سوء التغذية حتى الدرجة الثالثة») ، إنها تقول «إنهم يسموننا بمغتصبى الأراضى . كيف نكون مغتصبين للأراضى فى بلدنا ؟ وإن كنا نحن مغتصبى أراضى فمن يكون كل الأجانب الذين جاءوا واشتروا الأراضى الممتازة ؟ ومن هم هؤلاء القادمين بكل أموالهم من هونج كونج واليابان والولايات المتحدة ؟ لقد قيل لنا أننا قذى فى العين : والحقيقة أننا لاجئون فى أرضنا ، لقد كنا سعداء فى بيكول ونحن نزرع الأرز والموز وجوز الهند لكننا لا نستطيع الزرع الآن ، إن كل مايُزرع الآن تذروه الرياح ».

كانت الحكومة تقدم للناس ١٠.٠٠٠ بيزو كى يتركوا جزيرة الحرية ، غير أن زعماء الجماعة يشكون فى أن يرى أى شخص أُغرى بالذهاب تلك النقود ، لقد نظم المواطنون أنفسهم مسحا للآراء ، لقد اقترحنا ثلاثة خيارات : العودة إلى الاقليم مع أخذ العشرة آلاف بيزو أو بدونها ، السكن فى عمارات مقسمة إلى عدة مساكن ، حيث يصل الإيجار إلى ٥٠٠ بيزو شهريا ، بالإضافة إلى تكاليف الكهرباء والماء ، أو البقاء فى جزيرة الحرية مع إنجاز تنمية محلية . وقد فضل ٩٠٪ من الناس الإختيار الأخير ، وإن كانوا سيعجزون ، حتى فى هذا الإختيار ، عن مجابهة نفقات البنية التحتية التى يتوقع منهم دفعها ».

جاءت دايزى إلى الجزيرة من «لاس ماريناس» فى «كاڤيت» ، حيث أعيدت اقامتها وأسرتها هنالك ، بعد سنوات عديدة من الإقامة فى مانيلا ، «عندما نقلونا ، وعدونا بإمكانيات كاملة ، لكننا ما إن وصلنا حتى لم نجد شيئا ، إنهم يلقون بك ، معيدين

استيطانك ، فى منطقة بلا إضاءة ولامياه ولاعمل ، وكان على الناس أن يعودوا إلى مانيلا ، لم يكن أمامنا خيار آخر، إلا أنهم مايزالون يعيدون إقامة الناس . يلقون بهم مرة أخرى فوق جوانب التلال ، حيث لاخيارات أمامهم فيتضورون جوعا ويعودون إلى المدينة مرة أخرى».

يجلس باعة السمك ، فى الميدان الملئ بالتراب ، على أقفاص خشبية مقلوبة وأمامهم أكوام صغيرة من «الجالونجونج» «والميلكفيش» – إن سعر كيلو السمك منها يصل إلى ٦٠ بيزو و ٤٠ بيزو للأسماك الأقل نوعية ، إن سعر الكيلو من أرخص أنوا ع الأرز الآن ٨ بيزوات ، وهو فى الغالب لايصلح للأكل ، إن سعر الأرز الجيد يتراوح من ١٢ إلى ١٤ بيزو للكيلو .

ويلعب بعض الشباب العاطلين فى حرارة الظهيرة التى بلا ظلال ، البلياردو أو تنس الطاولة على مناضد فقيرة للغاية ، إن بونى انيانو ، فى الرابعة والعشرين من «سامار» وهى واحدة من أشد جزر الأرخبيل فقرا . إنه يقول إن الرحلة للانتقال من نوع من الفقر إلى نوع آخر رحلة طويلة . إنه يعمل موزعا لمنتجات أحد المصانع على البر الأصلى . إن لديه وزوجته طفلين ، ويقوم كوخه على عُمد خشبية حتى لاتجرفه السيول أثناء الرياح الموسمية ، إنه يحضر جيتاره ويلعب عليه ، أولا وقبل كل شئ أغنية معادية للكولونيالية فى الحقبة الأسبانية ، أغنية عنيفة وجميلة ، تحكى عن عدم تمتع الناس بالحرية ، إنها أغنية ذات صدى معاصر . ويتجمع الناس فى ظلال برج المراقبة القبيح يشاركون فى الغناء . ثم يلعب «لحن بلا قيود» . والكل من حوله فوق التربة الرملية وورود فيتنام القرمزية بلون الكرز والمتفتحة فى الشمس ، وامرأة تقف بعتبة دارها وقد شدها الغناء وفى الداخل العارى ، يتأرجح طفل فى شهره الثانى فى حمالة من الموسلين ، وبطن المرأة ما تزال منتفخة : إنها مصابة بسرطان فوق مبيضيها . سخرية تثير الضحك من الحمل ، غير أنه ليس هنالك من نقود لعلاجها ، إنها فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها ، وحلقات سوداء حول عينيها . وهى تتساءل «من الذى سيعتنى بطفلى بعد ذهابى ؟» .

إن العديد من الناس يعتمدون على الأعشاب والنباتات التقليدية كدواء : «الأوبو» يُزرع فى بعض الحدائق ، وخضار من نوع القرع تفيد أوراقه فى علاج التوتر المفرط ، وأشجار «التاليساى » بأوراقها العريضة التى تستخدم لمنع الإسهال ، «والإراتيليس» كمسهل ، بينما يستخدم «الإيبيل – ايبيل» للحمى .

تمتلك كونسبسيون بخريتا منزلا تقليديا لطيف البرودة من الخيرزان والبامبو قرب الشاطئ . لقد عرض عليها ٢٥٠٫٠٠٠ بيزو كى تكف عن الحديث بإسم أهل الجزيرة ، ثم هُددت أخيرا بالاختطاف . قال الحراس لها «ألا تخافين مما قد يحدث لك ؟» .

فقالت كيف أخاف وقدرى بين يدى الله؟» ، إن زوجها يعمل فى البر الأصلى ، فى مصنع للمحار والصدف ، حيث يكسب ٢٠٠٠ بيزو شهريا ، إن لها أربع بنات وهى تقول ، «إن مانريده هو البقاء هنا وتحسين حياتنا . هنا لا توجد جرائم ولامخدرات ولاسرقة ولاتجارة جنس ، إن سُمح لنا بالبناء بجهودنا الخاصة ، فإن هذا المكان سوف يكون مكانا طيبا لأبنائنا . لاتوجد لدينا كهرباء ، غير أن هنالك خطوط مباشرة إلى أبراج الحراسة ، هكذا تستخدم الموارد ، لتوفير إمكانيات للتحكم فى الناس والتجسس عليهم وحرمانهم من فرصة تحقيق حياة تتسم بالوقار».

إن العديد من الناس يرون أن سياسة حكومة اكينو وخليفتها راموس لم تعد تتعرض للتدقيق الذى تعرض له ماركوس فى سنواته الآفلة ، وذلك بسبب مانالته من ثقة دولية «بإستعادتها للديمقراطية» ، إن هذا يعنى أن أعمال القتل والاختفاء والاستنقاذ قد منحت نوعا من الشرعية الصامتة ، هنالك إتفاق على أن مساحات ديمقراطية معينة قد تم فتحها بمجئ اكينو ، غير أن الحرب ضد المخالفين ازدادت كثافة فى ذات الوقت ، إن أهالى جزيرة الحرية لايحسبون حتى من بين المليون ، أو مايقارب ذلك ، من لاجئ الداخل الذين أنتجتهم سياسة الحرب الشاملة ، إن الناس يحسون أن الإدارة قد اتبعت أشد السياسات خبثا معرضة الناس لفقر وحطة أكثر ، تزيد حتى عن تلك التى عرفها الناس فى ظل حكم ماركوس ، وهى قد تمت تحت عباءة من الإحترام الدولى ، مبررة بإسم الحاجة الاقتصادية .

إن الجو الدينى الكثيف فى مانيلا ، لايصدر فى غالبه عن الكنائس الموجودة فى كل مكان ، ولا عن الكتلة الهائلة من «الإيجليسيانى كريستى» أو بواكى «كيابو» ذات الطابع المحلى إلى حد كبير ، وحيث يبيع سكان الريف الاعشاب الطبية ولحاء الشجر ، ولاعن الشكلية القاسية لما يجرى داخل جدران كاتدرائية مانيلا ، لقد جاء هذاالجو الدينى فى الغالب من حقيقة أن هذه المدينة هى موقع تضحيات بشرية بلا حصر لصنوف الإيمان بنظام اقتصادى قاهر بشكل ظاهر ، إن أشكال الحياة التى يدعيها فى مظهر كاذب أو آخر هى مادة أكثر الاحاديث التى تجرى مصادفة ، والمألوفة الحدوث للغاية فى أى احتفالية كبرى ، إن جيراردو يهز كتفيه ، عندما يحكى كيف طار أخوه عائدا إلى مانيلا بعد عامين قضاهما فى العربية السعودية ، حاملا معه هداياه إلى المطار ، بينما كانت زوجته وأمه وأبناؤه الثلاثة يسافرون من الإقليم للقائه فى الصباح الباكر ، وقد قتلوا جميعا فى صدام مع شاحنة .

إنه لم يغضب لأن رخصة السائق يمكن شراؤها من المسئولين الفاسدين بألفى بيزو. وهو مقتنع بأن الفليبين لاتستطيع توفير الطرق المناسبة للسيارات التى أغرقت البلاد ، وأن صانعى الموتورات يحظون بالربح بينما يتركون حطام الأرواح والعربات

للناس . ويظل صوت جيمى هادئا ، بنفس الطريقة وهو يحكى عن وفاة زوجته منذ ثلاث سنوات بسبب إجهاض غير شرعى ، إنه يحمل شعورا رهيبا بالذنب لأنهما كانا يرغبان فى منح أبناءهما الخمسة تعليما جيدا بتحديد عدد أفراد الأسرة ، إنه يحس أن ماحدث كان عقوبة له ، أن ابنه الأكبر فى الخامسة عشر الآن ، والجميع فى المدارس ، إن جيمى يعمل سائقا ، على سيارة أجرة ٢٤ ساعة فى اليوم ، من السابعة صباحا إلى السابعة صباح اليوم التالى ، حتى يكسب ما يكفى من النقود ، هو يعمل يوم ويستريح يوما آخر ، ويدفع ٧٠٠ بيزو ايجارا و ٢٥٠ للوقود ، إن مكاسبه تبدأ فقط بعد أن يحقق دخلا قدره ١٠٠٠ بيزو ، إن الضغط الذى يعانيه يتمثل فى عمله ٢٤ ساعة متواصلة دون توقف .

يقوم مترو مانيلا على خدمة سدس سكان الفليبين تقريبا . حوالى عشرة مليون فرد، إن عدة آلاف اخرى تصل هنا كل عام تحت ضغط الديون الربوية واغتصاب الأراضى بواسطة المزارع والضياع الكبرى والعسكرة ودمار البيئة ، قالت مومس من مالاتى ، «أنت تعتقد أنك ستحقق مايكفى من النقود حتى تعود إلى منزلك ، وأنت تعتقدأنك سوف تأكل على الاقل فى المدينة ، غير أنك سوف تجد نفسك بعد سنوات قليلة وقد أكلتك المدينة».

ساو باولو

إن إجتياز الحدود الصناعية ليس إلا ممارسة عامة تتم فى كل أنحاء العالم ، إن الوصول إلى المدينة فى ذاته غالبا مالايكون البتة بداية العملية ، لكنه فقط الحركة الحاسمة التى تحدث نتيجة إغارة القوى التى اقتلعت هؤلاء الذين لولا ذلك لما كان لديهم أى سبب كى يهجروا إعتمادهم على المجال الإحيائى .

تمتلئ القاعة القوطية المعتمة لكاتدرائية «ساوباولو دى سيه» فى الساعة العاشرة صباحا . الناس لاتصلى لكنها تنام ، إنسانية مهلهلة تكومت فوق مقاعد الكنيسة الصلبة ، وقد غطوا رؤوسهم ببطاتين خشنة ، إنهم هنا على الأقل فى مأمن ممن يعيشون على السلب والنهب ويتسكعون فى البراسادى سيه» ،فى الخارج ، كاتدرائية الحالمين الفقراء ، الصامتين الذين يعانون من البرد ، «توتنسكيف» بما تحمله من شحنة لاجئين جرفهم العنف الاقتصادى والتنموى .

يمكن قراءة قصة ملحمية ، عن التفكك الريفى والإنهيار البيئى والظلم الاجتماعى الفادح فى وجوه المهاجرين: هنود من الأمازون الموطن الذى انحط قدره ،فلاحون يسعون للبقاء على قيد الحياة ، وقد جردتهم عدوانات أصحاب مزارع تربية المواشى عن ممتلكاتهم ، منقبون «جريمبيروس» أصابهم الفشل ، أُناس هاربون من الدين والجوع من زراعات البن والبرتقال والأناناس ، وكذلك بالمثل ورثة تركة العبودية ، التى تركت ثانى أكبر كتلة سكانية سوداء فى العالم بعد نيجيريا .

إن التصنيع وثلثى شعب البرازيل الآن من قاطنى الريف – لايشبه البتة مرحلة التصنيع المبكر فى بريطانيا . لقد فُرض نظام قاس ، إقتضاه نمط المصنع ، على الإدراك الريفى؛ والآن ربما تكون هذه العملية التى تصاحبها إستهلاكية منطلقة بلا قيود ، أكثر إغراء لهؤلاء الذين تعاد صياغة حياتهم بطريقة جذرية ، كما أنها تطلق أيضا عنان عنف هائل ، خاصة عندما تظل الحياة الأفضل ، المعلن عنها ، بعيدة عن قبضة الغالبية العظمى من الناس .ويسرى فى حياة المهاجرين الى المدينة ، وصف يصور أحلام مخصخصة ، تدعو إلى وجود نظام جديد غريب لتقسيم العمل . إن التنمية الاقتصادية بالنسبة لامرأة فقيرة من «ماتوجروسى» ، تعنى توظيف مدفوع الأجر ، لتنظيف أرضية دار سينما للفجور ، حيث يمارس الرجال العادة السرية فى مصاحبة آلية لصور الجنس البهيمية ، إن الباعة على جسر «سانت افيجينيا» يقفون يحرسون فتات الرأسمالية ، وكأنهم قد ائتُمنوا على أكبر كنوزها – تى شيرتات مزينة بالفحش والمجون ، مواد غذائية تنقصها التغذية ، مجلات تحمل عناوين مثل «الفتيات

اللائى ينقبن فتيات ، الجنس الشرجى ، كتيبات تعد بـ «برازر سيم ليميتى» (متعة بلا حدود) كشف الطوالع ، قراءة التاروت» * «دمى باردى» ولعب الحرب.

إن الميدان خارج الكاتدرائية هو سوق فى جزء منه ومولد فى جزء آخر ، إنه يبدو كمكان لقاء ريفى ، النساء الغجر يرتدين الأخضر الزيتونى وحواشى قرمزية يقرأن أكف المارة السذج ، وباعة الأدوية التقليدية : لحاء الشجر والأعشاب والجذور (التى يجذب الكثير منها علماء السلالات النباتية الذين تستأجرهم الشركات العابرة للقوميات) والتى تقدم العون للمصابين بالزهرى والقرح والسرطان والديدان والاكتئاب والجنون ، ويشد رجل انتباه الجميع بتحطيمه قوارير زجاجية بقدميه العاريتين ، وآخر يفلت من السلاسل الحديدية ، يشد عضلاته الفائقة الاعداد ، وتؤدى النافورة المزخرفة وظيفة حمام لمن لامنازل لهم ، وغسيل الفقراء الذى بهتت ألوانه منشور على الدكك المطلية باللون الأخضر ، والصبية الصغار وقد قرصهم الجوع الذى لايمكن إسكاته يلازمون الأماكن العامة ، يسرعون فى تنسيق وسرعة ، أشبه بالباليه ، يقدمون الجنس أو البضائع المسروقة بذات لامبالاة الباعة الجائلين ، وينشلون فى خفة ومهارة تخدع العين ، وتظهر وجوه الهنود الحزينة المتغضنة فوق طاولات الساندوتشات مثل أوراق لعب حية ، يقدمون إعلانات عن معدلات نقدية جيدة للذهب ، وقراءة الطالع ، والنسخ على ماكينات الزيروكس وعلاج الجنس عن خبراء مشهود لهم .

إن ساوباولو ، بسكانها الأربعة عشر مليونا ، هى أكبر مدينة فى أمريكا الجنوبية . إن ولاية ساوباولو تنتج مايزيدعن ربع الإنتاج القومى للبرازيل . إن وظيفتها كمركز مصرفى وتجارى تضغط على الفقراء الذين يزدحمون أكثر فأكثر فى تقسيمات غير شرعية فى «كورتيكوات»، أو أبنية مقسمة إلى مساكن حيث تحتل أربع عائلات من سبعة أو ثمانية أشخاص شقة واحدة ، إن أكثر من ثلاثة ملايين يعيشون فى مثل تلك الأوضاع .

إن «كورتيكو» واحدة ، فى الـ «بايرو» المركزى أو فى الجوار من «ليبردادى» ، إنما هى مكان به آثار ضئيلة لبقايا مدينة كولونيالية أوروبية أكثر قدما ؛ إنها منازل من طابق واحد ذات أسقف قرميديه وجدران متسلخة وقد غُسل منها لون المغرة ، إن رقم ٩٩ شارع «تومازدى ليما» بناية مخادعة، إنها تبدو مثل فيلا متهدمة ، ذات نوافذ مكسورة وسلم آيل للسقوط يقود الى باب أمامى متماسك ، إنها فى الحقيقة بناء منحوت فى جانب التل ، عمقه أربعة طوابق تكاد تكون كلها تحت الأرض ، وهنالك بئر مركزى فى وسط المبنى هو المصدر الوحيد لضوء النهار للمساكن أسفل ، وعند قاعدة البئر سقف معدنى ينوء بالزبالة الملقاة عليه من الطوابق الأعلى . والفناء الضيق عند القاع رطب وموحل بسبب عواصف حدثت منذ وقت قريب .

---

* أوراق اللعب المصورة ومعرفة الخط (المترجم).

وفى الممر رجل يعد شواء من قطع لحم بقرى شحمى على أسياخ كباب ، إنه سوف يشوى تلك القطع فى الهواء الطلق ، فى المساء المبكر ويبيعه للجموع العائدة إلى منازلها ، وجبه طعام سريعة ورخيصة لهؤلاء الذين ليس فى وسعهم التعامل مع ماكدونالدز ، تعيش لويزا وأدسون مع أبنائهما الثلاثة وأخيه فى حجرة واحدة ملحق بها مطبخ صغير ، إن شقيق أدسون طبال يعمل فى النوادى وقد اعتاد ادسون صناعة السجاد الفارسى صنعة تعلمها من زوجته الأولى ؛ نماذج معقدة رقيقة ذات ألوان زرقاء ذهبية طحينيه مخففة ، إنه لم يعد قادرا على شراء وبر الجمل الذى يحتاج إليه بسبب خطة الحكومة المالية التى جمدت وخفضت قيمة مدخراته ، إنه ولويزا يبيعان الآن تذاكر اللوتريا فى كشك فى الشارع . يقول ادسون أن الفقراء ممنوعون من ممارسة مهاراتهم وحرفهم ، إن كل مافى وسعهم فعله هو الذهاب إلى الشوارع والسرقة ، ثم يلقى بهم فى السجن ، يقول ادسون «لا أحد يعرف من هو مالك هذه البناية» . هنالك وكلاء يجمعون الإيجار الذى يبلغ ٤٠ دولارا فى الشهر ، فى حين أن الحد الأدنى للأجر هو ٥٠ دولارا شهريا ، إن الملاك فى كل ساوباولو يبيعون ممتلكاتهم ، حتى يمكن بيع الأرض مرة أخرى من أجل التنمية التجارية ، ويشير ادسون إلى كتلة من الشقق يبلغ ارتفاعها حوالى ٣٠ طابقا ، تلقى بظلالها على البناية التى يسكنها . هنالك خمس وعشرون شقة فى كل دور ، وكل شقة تعيش فيها أربع أو خمس عائلات ، إنه يقدر أن هذه الكتلة بمفردها تأوى حوالى سبعة آلاف شخص .

وهنالك إلى جوار المسكن ،مجموعة درج حجرى تقود إلى قاع الحفرة التى لا ترى الشمس ، وشقق تتكون من غرفة واحدة دون هواء أو ضوء طبيعى ، رطبة ذات أرضيات خرسانية ، ومراتب وصناديق ملابس وحقائب هؤلاء الذين يزمعون البقاء أسابيع أو أشهر قليلة فقط ، غير أنهم لن يعودوا إلى ديارهم مرة أخرى ، تعيش انجليكا من «باهيا» عند نهاية الممر ، فى حجرة عارية الجدران بلا ملاط ، وقلائد من سلك معزول تحمل كهرباء غير قانونية تمد بها الحجرات ، إن حجرة انجليكا تقع على مستوى أكثر انخفاضا ، عبر بركة آسنة ، مع وجود لوح خشبى سميك فقط يشكل مدخلا إلى حجرتها التى يوجد بها سريران ودولاب كبير، إن زوجها وأبناءها يرقدون على السرير يتابعون مباراة لكرة القدم فى التليفاز ، تقول انجليكا أن العمل الوحيد فى باهيا كان فى المزارع الكبرى ، والانتقال من مكان الى آخر موسميا ، والإقامة فى أكواخ رديئة ، لم يكن مسموحا لعائلتها بزراعة أى شئ من أجل استهلاكهم الخاص كما لم يكن لديهم أى ضمان لعمل منتظم . هل الحياة هنا أفضل ؟ إنها تقول : «إنها سيئة بطريقة أخرى لقد عرفنا الجوع وعدم الأمان هناك ، وهنا يوجد العنف والمخدرات ، إنهم يسمونها «ليبرداد» – إن ليبرداد بناء مهترأ فى مدينة بلا قلب» .

إن العديد من الناس فى الغرب يعرفون الآن بتدمير «امازونيا» ، والنتائج المأساوية التى حلت بالسكان الأصليين مثل «اليانومامى» ، الذين تلوثت طريقة حياتهم وتحطمت بواسطة غزوات «الجريمبيروس» ، الباحثين عن الذهب والحطابين وأصحاب مراعى المواشى والأغنام ، غير أن هذا بعيد عن التضحية الوحيدة التى حتمتهاالتنمية . ففى «الفافيلاس» (مدينة العشش والأكواخ) عند أطراف المدينة الجشعة الكبيرة للغاية ساوباولو ، كما فى ريودى جانيرو ، تعمل فرق الموت ، ويكاد ضحاياها أن يكونوا من الشباب ، من المجرمين التافهين والنصابيين الصغار والذين يدفع لإجتثاثهم هؤلاء الحريصين على «تنظيف المدينة» . مع تغاضى الشرطة ، إن لم يكن بمشاركتها ، إن فرق «البيه دى باتو»، كما يطلقون على أنفسهم هم شرطة أهلية ، جوستيسيروس» ويظل الأغنياء منيعين ، لاتنتهك حرمتهم تحميهم الثروة ، التى هى بذاتها محل توقير وإجلال الذين جُردوا واغتُصبوا .

يقول بادر جايم من «مبوياميريم» فى جنوب المدينة إن هذه هى نتيجة «الحرب العالمية الثالثة التى تشن عالميا ضد الفقراء ؛ هنالك مليون عاطل فى ساوباولو ، وقد تعطل الكثيرون منهم بسبب برامج «التصحيح» الحكومية . ليس فى وسع كل هؤلاء أن يوجدوا عملا لأنفسهم ، لقد وقعت فى نهاية الإسبوع الماضى ، على بعد نصف قطر دائرة قدرها ٥٠٠ مترا من كنيسة بادر جايم ، اثنتا عشر حادثة قتل ، وقد قام بالعديد من اعمال القتل تلك الـ «لادروس دى بيه دى شينيلو» ، كما يسمون أولاد الشوارع الذين يرهبون من فى الجوار . «*الجرائم الأخرى أحدثها الغضب* . أخذ رجلان يتجادلان فى حانه ، تدخل ثالث فقُتل ، هرب الرجلان بعد أن أخذا سيارة القتيل للفرار بها . صدما طفلاً وقتلاه على الطريق. إن بعض أعمال القتل تحدث نتيجة حرب العصابات ، إذ لو سُرقت منازل أحد الشوارع يتجمع شباب المنطقة وينتقمون ممن يعتقدون أنهم قاموا بسرقة جيرانهم ، إن المشكلة بالطبع ، أعمق من ذلك كثيرا إن البلية تكمن فى أن مصير بلدنا لايتقرر هنا ، إنه هنا حيث يتوجب على الناس معايشة النتائج ، حتى سياسة الحكومة لاتتقرر هنا».

وقد دعا بادر جايم الى إجتماع لمناقشة الرعب فى الشوارع ، فوُزع منشور فى المنطقة بعد يومين من هذا ، يهدد أى شخص يتواجد فى الخارج بعد العاشرة بإطلاق الرصاص عليه .

وتجد شهادة بادرجايم صدى لها فيما يقول بادر باول من «كامبو ليمبو» ، فى الجانب الجنوبى من المدينة أيضا . لقد تميز يوم الاثنين الماضى بأربعين جنازة فى الجبانة المحلية ، كان أكثر من نصفها حوادث قتل وقعت خلال نهاية الأسبوع ، والبقية كانت فى غالبيتها ميتات أطفال صغار ، الضحايا الآخرين للعنف الاقتصادى بسبب سوء التغذية وأمراض يمكن تجنبها ، إن النشطاء فى المدينة يربطون بصورة متزايدة

بين حقوق الانسان والاقتصاديات ، يقول بيدروجاكوبى باحث فى «السنترو دى استديوس دى كلتورا كونتمبورانيا»* ، «لقد قسّا الأثرياء قلوبهم . إنهم ينظرون إلى الفقراء بإعتبارهم مخادعين ومحتالين ، غير أن الناس الذين يستيقظون فى الخامسة صباحا ، فى المساكن المكتظة القذرة بحثاعن عمل ليسوا بكسالى أو متشردين ».

لقد قال وزراء الاقتصاد ، خلال فترة الحكم العسكرى الطويلة التى انتهت عام ١٩٨٥ أن قوة عمل المصانع كانت موجودة فى الداخل ، وأن تلك الهجرات قد غذت معجزة البرازيل الإقتصادية ، التى ذبلت منذ زمن طويل ، غير أن الناس مازالوا يجيئون ، وإن كانوا الآن فى أعداد أقل ، على الأقل إلى ساوباولو ، تردهم الصور التى تنشرها وسائل الاعلام عن العنف وأعمال الاختطاف ، والتفكك الاجتماعى .

يوجد فى «نوسا سنهورا دى باز» كنيسة تقع فى كنف طريق سيارات خرسانى مرتفع ، مأوى للقادمين الجدد إلى المدينة ، مكان للنوم يتسع لمائتى شخص ، يمكن لمن هم بمفردهم ، أن يمكثوا فيه ثلاثة ايام ، والعائلات حتى عشرة أيام ، والمرضى مدة أطول قليلا ، ويجلس المهاجرون ، في الموضع الهادئ المنعزل الداخلى تحت أشجار نخيل بالية ، يحملون وجوه فلاحين اقتُلعوا من أصولهم ، وقد لفحتها الأحوال الجوية ، وصبغتها الشمس ، وجوه أناس لم يتكيفوا بعد مع ضرورات الحياة الحضرية ، ومازالوا يبتسمون للأغراب . لقد عانى بعضهم بالفعل أول صدام مُر لهم مع المدينة عند محطة الأوتوبيس ، حيث وصلوا بعد رحلة يومين أو ثلاثة . لقد شدوا إنتباه باحثين عن المغامرة - والعديد منهم أيضا ممن وصلوا حديثا - فتعرفوا عليهم كأبناء بلداتهم ، وعرضوا عليهم أن يجدوا لهم منزلا وعملاً ، ثم اختفوا بنقودهم أو أمتعتهم .

وصلت أوليسيادى سيلفا بالأمس . إنها فى السادسة والعشرين من عمرها . مات زوجها من الشراب ، منذ ستة أسابيع مضت ، تاركا إياها حبلى مع أطفال ثلاث: انجليكا فى السادسة وانجلو فى الرابعة وليد مانو فى الثانية . كان لزوجها كشك لبيع الصحف فى مدينة صغيرة فى الشمال الشرقى ، واشتغلت هى خادمة لتوفير ما يحتاجه الأطفال . ليس لها أقارب أحياء - فقد ماتت أمها وهى فى سن الرابعة والعشرين - والعمل الوحيد الآخرهو فى مزارع البن والبرتقال ، إن الوثيقة الأكثر قيمة لديها هى شهادة من السيدة التى كانت تعمل خادمة لديها ، مذكرة بخط اليد على ورقة مزخرفة ، وأوليسيا على ثقة من أن تلك الورقة ستضمن لها عملا ، إنها تقول ، إنها لن تهجر أطفالها أبدا ، كما تفعل العديدات من الأمهات الفقيرات فى المدينة ، لقد هجر أب ، منذ فترة قريبة أطفاله الستة ، والذين تتراوح أعمارهم من عامين إلى عشرة ، إلى جوار طريق السيارات عندما ماتت أمهم بالسل .

* مركز الدراسات الثقافية المعاصرة . (المترجم).

ويجئ جوسيه كارلوس فيرييرا ، مثل العديدين من المهاجرين من الشمال الشرقى ، عمل فى ساوباولو مدة إسبوع ، ثم صدمته سيارة أحدثت به إصابات بالغة ، وهو سيظل فى النُزل حتى ترفع الشابك المعدنية الموجودة فى ذراعيه ورجليه ، إن جوسيه دوباتيستا من «باهيا» ، فى الثالثة والعشرين من عمره ، يقوم بقيادة سيارات محملة بقصب السكر من الحقول إلى المصنع ، غير أن هذا العمل متاح مرتين فى العام فقط ، وقت محصول القصب ، لقد جاء ومعه زوجته وطفل فى شهره الرابع ، وهو فخور أن وجد نفسه يعمل منذ اليوم الأول لوصوله إلى هنا كعامل بناء يحصل على أجر قدره ٧٠ كروز يريو (حوالى ٦٠ سنتا) فى الساعة ، وقد عمل جوزيه دونا سيمنتو فى العزب الكبيرة ، مسافرا من ضيعة إلى أخرى ، عائشا فى معسكرات العمال ، ممنوعا من إنبات طعام بنفسه ، وعليه أن يشتريه من متجر من يعمل لديه ، لقد ذهب إلى ساوباولو من قبل . إنه يكره المدينة ، ويقول ، إن الناس فى المدينة يفقدون إنسانيتهم ، أما فى الإقليم فإنك تفقد حياتك وأطفالك .

إن نساء «مبويميريم» - أنا ماريا وأنا ليس وافيجينيا - يدرن مركز إطعام للأطفال سيئ التغذية ، إنهم يعرفون جيدا بوقوع مايزيد عن ٢٥٠٠ حادثة قتل فى ساوباولو فى العام الماضى ، لقد رأين قتال العصابات والشباب وقد أفسدته المخدرات . ومع ذلك فإنهن يقلن أن الحياة هنا أفضل من تلك التى فى الريف . كانت أسرهن تعمل هنالك «ميبروس» ، مشاركين فى المحصول ، غير أنهم كانوا مدينين للملاك الكبار أو طردوا من أعمالهم بسبب تحويل المزارع إلى مراعى للماشية ، وتلك تحتاج إلى عمالة أقل ، إن تفاؤلهن من الحياة فى المدينة تفاؤل حقيقى ، يمكن رؤيته فى التحسينات التى أدخلنها فى منازلهن ، بأمل أن يضمن أزواجهن أو أبناؤهن عملا فى شركة عابرة للقومية. يقول بدر وجاكوبى أنه لم تعد هنالك قابلية للحركة والإنتقال من «الفافيلاس» (مدينة الأكواخ والعشش) بسبب سعر الأرض المتزايد الارتفاع ، إن الناس مجبرون على البقاء حيث هم ، إن هذا يعنى أنهم على الأرجح فى وضع أكثر ملاءمة لإستثمار وتحسين ملكيتهم .

لقد نظمت فى مناطق أخرى عمليات احتلال للأراضى الحكومية والخاصة غير المستخدمة ، إن أحد الأمثلة على ذلك هو مجتمع «الميوتيراو» (البناء الذاتى) قرب «كامبو ليمبو» . إن ثمانمائة عائلة- حوالى خمسة الاف فرد - قد أخرجواعنوة من المنازل المكتظة القذرة بسبب إرتفاع الإيجار والبطالة ، فاحتلوا الأرض («إننا لانقول غزونا الأرض ، حيث أن لذلك صدى كأننا أغراب لاحق لهم فى الحياة فى أى مكان») . إنهم يتلقون دعم جون دريكسل ، وهو قسيس كاثوليكى ومؤلف كتاب «الطفولة والفقر» ، وقد حاولت كل من الشرطة المدنية والعسكرية طرد الناس ، فذهبوا إلى العمدة الذى وعد بإرسال بولدوزورات لتسوية الأرض حتى يكون بإمكانهم البناء عليها،

وعندما لم يحدث شئ ، رقد ٢٠٠٠ قاطنا خارج قاعة المدينة وكسبوا حق البقاء فى باكورة ١٩٩٠.

بنى الناس بيوتهم فى مجموعات من خمسة وعشرين - ميوتيراو- ثم سحبوا قرعة لمعرفة من الذى يحتل كل منزل ، ولايدخل أحد منزلا حتى تكتمل كل المنازل ، وبذا يكون هنالك ضمان بأن كل منزل سوف يتلقى ذات العناية والمهارة خلال عملية البناء ، المنازل فى هذه المواقع مقامة على مائة متر مربع ، وهو سخاء يزيد كثيرا عن المساحة التى يقدمها برنامج الإسكان الحكومى المحدود ، والتى تشبه المعسكرات فى بنائها وتكلف أضعاف تلك المبنية بالجهد الذاتى ، والتى تتكلف فقط جزءا من تلك التكاليف التى يحصل عليها البناؤون التجاريون .

لايمكن أن تُرى بوضوح فى أى مكان آخر مثل هذه القدرة الخلاقة للفقراء ، قدرة إناس مثل ماريا لاوسينها ، التى تركت زوجها غضبا منه، لأنها من جيل لم يعد يتسامح مع أنانية وعنف ذلك الشعورالمتضخم بالفحولة . إنها تعيش مع إبنتها ، وهى قد عملت فى البناء بحماس فائق ، إنها تقول «إن نصف العائلات هنا من النساء ، زوجات مهجورات أو أرامل ، إننا عندما ننتهى سوف نكون أفضل مجتمع منظم فى ساوباولو».

إن بعض المواقع التى أُزيلت منها المساكن فى قلب المدينة ، احتلها أناس بنوا أكواخا من الخشب والصفيح لسد الحاجة مؤقتا . لقد جاءت ماريا ، منذ سبع سنوات ، من «ميناس جيرايس» ومعها سبعة أبناء ، عاشوا هائمين على وجوههم حول طرف المدينة ، حتى استقرت بهم فى أنقاض مبنى مهجور فى ليبرداد ، هنالك دوماً فى وسط المدينة أعمال ما وخاصة للأطفال ، إن إبنة ماريا الكبرى ، فتاة فى الثالثة عشر، تعمل فى مصنع للملابس من الساعة الواحدة حتى السادسة والنصف بعد انتهاء مدرستها ، والإبن الأكبر ، وهو فى الحادية عشر ، يعمل منذ عامين ، إنه يحمل النقود والوثائق من المصنع إلى البنك فى كيس قديم برئ المظهر ، إن أحدا لا يتوقع أن يحمل صبى فقير فى الحادية عشر نقودا ، إنه يعتبر أكثر ساعٍ مأمون ومؤمن ضد السرقة .

ويشير بيدرو جاكوبى إلى أن تاريخ ساوباولو قد طمسته سرعة نموها ، لقد شيدت البلدان البرازيلية على صورة تلك التى للسلطة الكولونيالية ، وعلى غير مثال بلدان الولايات المتحدة ، والتى كانت فجة وفعالة ، ويُرجع السبب فى ذلك إلى قيام حياة مستعمرى الولايات المتحدة ، فى الأساس ، على زراعة صغيرة المدى موجهة نحو الريف المفتوح ، بينما كان المستعمرون فى البرازيل ملاك مزارع ، وسكان مدن يحلمون بالعودة إلى البرتغال ، ويسعون فى ذات الوقت إلى إقامة نسخة من رشاقة ولطافة

الحياة الحضرية البرتغالية . إن كل آثار ساوباولو تقريبا قد غمرها على أية حال زجاج ورخام وخرسانة التشييد التجارى ، وفقر الشوارع . «ليس هنالك من شئ رومانسى أو مرغوب فى حياة الشوارع ، إنها مزعجة للغاية . وهى فى الحقيقة إنعكاس أمين للقيم السائدة للجشع والضراوة وتراكم الثروة ، وهذا هو سبب كراهية الطبقة الوسطى للفقراء ، ولذا فإنهم إن قالوا عنهم مخادعين ومحتالين ، فإن هذا مرجعه إلى أنهم يرون فيهم تشويها لقيمهم الخاصة . ولاعجب فى أنهم يسعون كى يكونوا على بعد من هؤلاء الذين يعتمدون على خدماتهم .

إن «البارتيدو دوس ترابالها دروس» أو «حزب العمال» ، يحكم ساوباولو ، غير أنه ليس فى وسعه غير فعل القليل للتخفيف من الفوارق القبيحة ، إن شعارات ورموز الشركات العابرة للقومية : سونى ، تويوتا ، مكدونالدز ، كوكاكولا ، تشتعل حمراء كالدم فى سماء الليل ، ويعيش الفقراء أسفلها شكلا من أشكال الحياة الاستهلاكية المتدنية ، يعيشون ولاءهم وطاعتهم للثروة ، إن فتاة تخرج فى الكاتدرائية ترتدى تى شيرت مكتوب عليه «أضاجعك» ، ورجل يرتدى حلة يراود الصبية فى بواكى اللهو والتسلية فى مقابل وعد بالطعام ، ويجلس فى جزيرة المرور زوجان من الريف على دكة بلاستيكية مهجورة : هى ترتدى تنورة رثة وعمامة بنفسجية فاتحة ، ويرتدى هو قبعة من قش وسروال مربوط بخيط ، وقد كست ملامحهم تلك النظرة المخدرة التى تميز فقدان الإتجاه الذهنى لمن اجتُثت جذورهم ، وينام رجل فى عربة نفاية مستقرا فوق لفافات منبوذة ونفاية الخضراوات وقد تدلت ذراعاه ورجلاه من فوق أطرافها .

إننا ربما نفهم هنا ، لماذا كان قادة البلدان الصناعية الثرية متلهفين للغاية لإطلاق صرخة النصر على الإشتراكية ، لأنهم يعرفون أفضل من الغالبية ، أن موضوع العدل الاجتماعى لم يختف ، حيث يبدو ببساطة أنه لم تعد تظهر أية معارضة ذات شأن للنظام الغربى ، إن خطب التأبين الطنانة للقادة الغربيين حول نهاية الإشتراكية ، إنما هى أيضا موافقة على الأضرار التى لحقت بهؤلاء الذين يهيمون عبر خراب ساوباولو ، التى هى واحدة من أكثر مزارات الرأسمالية وحشية فوق الأرض .

ريودى جانيرو

القرقعة الحادة لإطلاق النار تثير قلق الليل فى الضواحى الشمالية لريو ؛ وتدوى أصداء البنادق القادمة من «كاسابرانكا» و «بوريل» مدينتى العشش والأكواخ (ڤاڤيلاس) عبر غابة «التيجوكا» ، وهى جزء من الميراث الإنسانى ، الذى ميزته الأمم المتحدة ، وأكثر الغابات الحضرية روعة فى العالم ، ويعود الصمت مرة أخرى بعد عدة ليال . أخيرا استقر التحكم فى توزيع الكوكايين فى مجتمعات البيوت القذرة المكتظة على جانب التل .

إن ريو هى مدينة المتعة والكرنفال ، وهى تنافس الآن جوهانسبورج ولاجوس فى عدد القتلى لكل مائة ألف شخص ، لقد عُثر على المزيد من جثث الأطفال قتلى - إذ قُتل أكثر من مائتى طفل فى الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٩٢ - فى أخدود راكد فى مكان يُدعى «نوڤاجيروساليم» ، بواسطة فرق الإبادة التى يستأجرها رجال الأعمال الذين يؤمنون بأن هؤلاء الأطفال يضيرون الأعمال ويخيفون السياح ، إن الكوكايين يباع علنا فى الفافيلاس ، التى تتحكم فيها سلطات موازية شبه فاشية للوردات المخدرات ، إن الفنادق السياحية فى «كوباكوبانا» نصف فارغة ، والناس يخافون إستخدام الأوتوبيسات ، بسبب حوادث السلب المسلحة ، ولن يمضى وقت طويل حتى تصل الكوليرا التى تجتاح شمال البرازيل إلى ريو .

وتعانى الطبقة الوسطى المتاعب فى مقاطعاتها ، ذات المظهر الخادع ، فى جنوب المدينة. أقفاص شوكية تحيط بالفيلات الكولونيالية باروكية* الطراز ، أبواب الشقة تمت تقويتها وحراستها بمواقع مزودة بالمدافع ، وتقوم الخادمات الصامتات السمراوات بخدمة الضيوف العصبيين ، فى الأجزاء الداخلية البرتغالية العتيقة ، فى ظل ستائر للنوافذ من حديد مشغول ، نادرا مايخفى تصميمها الزخرفى وظيفتها . إن الأثرياء يجردون أنفسهم من ساعاتهم ، مجوهراتهم وسلاسلهم قبل أن يغامروا بالنزول إلى الشوارع المشحونه بالتهديد.

إن ٦٠٪ من سكان البرازيل يعيشون اليوم تحت خط الفقر الجائر ، إن الـ ١٠٪ التى تحتل القمة تحصل على نصف الدخل السنوى ، إن ١٪ من البرازيليين يمتلكون ٥٣٪ من الثروة ، التى يزيد تباين توزيعها عما هو الحال فى الهند .

ريو مدينة لاجئين ؛ أناس أزيحوا بواسطة عمليات نزع ملحمية من مورد رزقهم الزراعى بسبب نمو «اللاتيفونديا» ، أى الأعمال المرتبطة بالزراعة والرعى، وبسبب إزالة

---

* اسلوب فنى ساد فى القرن الـ ١٧ يتميز بدقة الزخرفة وغرابتها. (المترجم).

الغابات ، والجفاف وإلقاء الفضلات فى الأمازون ، وازدياد الظلم الاجتماعى سوءاً . إن تلك الاضطرابات قد خلقت مجتمعا ، أكثر من ثلاثة أرباع سكانه يعيشون فى الحضر ، إن الفقر مرئى حتى فى أغنى الأحياء ، قدمت امرأة من «ميناس جيرايس» ، تعيش قرب الشاطئ فى «بوتافوجو» طفلها للأجانب فى مقابل ٥٠٠ دولار ، إنها تود وظيفة خادمة مقيمة ، غير أن وجود الطفل يجعل هذه المسألة مستحيلة ، وامرأة عاجزة عقليا ، بدينة للغاية ، يدفع لها الرجال فى الحانة ، حتى تدخل زجاجة كوكاكولا فارغة فى مهبلها . ويفض صاحب الحانه هذا الحفل ، فتتهادى إلى خارج الحانة تقبض بشدة على الزجاجة فى يد ، وأوراق مالية قدرها مائة كروزييرو فى اليد الأخرى، وامرأة تجلس على محطة الأوتوبيس تكتب على قطع من ورق مقوى لإبنائها كى يقوموا بتوزيعها فى الأوتوبيسات ، «أنايتيم وجائع، أرجو ان تشترى ربطة حلوى بـ ٣٠٠ كروسادو» . تلك هن الأمهات الطيبات ، اللواتى لايهجرن أبناءهن .

إن المجتمع فى «فافيلا» «سانتا ماريا» ، ٣٦٠٠ درجة منحوته فى واحد من التلال التى يطل عليها النصب التذكارى «لكريستو ريدنتور» ، منظم تنظيما جيدا ، غير أنه لايستطيع الإفلات من البطالة والركود والمخدرات . جانب التل مغطى ، هنا وهناك ، بجلاميد ناجمة عن انهيارات أرضية ، قتلت أقربها تسعة وعشرين شخصا ، عندما تدحرجت النفايات السائبة وفتات الصخر على التل كانسة فى طريقها المأوى المزعزعة القائمة على عُمد .

إن ريو ، فى غالبيتها ، قد تم تطهيرها وتنظيفها ، ليس فقط عبر عمليات التحسينات البيئية الفظيعة ، بقتل أطفال شوارعها ، ولكن أيضا عبر التصفية المستمرة للفقراء ، والذين ينفون عند الأطراف ، أسفل الوادى الضيق الطويل الخطر ذى الأزقة العشرة المليئة فى الـ «أڤينيدا دوبرازيل» ، إن هذا الطريق العمومى القاسى بأبخرته وشاحناته السريعة وقطاع طرقه فى أضواء المرور ، أشبه بصورة من القرون الوسطى للطريق إلى جهنم . إنه يقود إلى «نوفا ايجيو اسو» ، القمر التابع لريو ، وهى ذاتها الآن ثامن أكبر مدن البرازيل ، حيث يسكنها أكثر من مليون شخص . مدينة كئيبة هاجعة ، معسكرات للفقراء الذين يعمل الكثيرون منهم فى ريو ؛ وبواكى متاجر مقفرة ، وحلقات من كابلات الكهرباء وإضاءة معتمة ، وهكتارات من العشش والأكواخ والمساكن ، مجردة من الإمكانيات الأساسية دون لطافة أو رشاقة ، يسكن شوارعها أشباح من أبناء الريف سابقا ، مشردين اجتُثت جذورهم ، يائسين يبيعون ولاعات السجائر والبسكويت والصور العاهرة والبضائع النثرية والخردة المستعملة والأحذية القديمة وأنفسهم ، بل وحتى أبناءهم .

يحمل الأوتوبيس من المركز الرسالة الخالصة لما هو «صناعى» ، إنه يذهب إلى طرف نوفا ايجيواسو ، إلى أطراف الأطراف المحيطة ،عبر منظر طبيعى من تلال ازيلت أشجارها ، ووديان عريضة وضحلة ، وأبنية صناعية تحمل شارات الشركات العابرة للقومية ، كوكاكولا ، بيرة كايزر ، فولكس واجن ، فيات ، باير ، بوش ، إنيجا .

«سانتواكسبيديتو» بلدة يسكنها حوالى أربعة آلاف شخص ، بعيدا عن الطريق الرئيسى ، أسفل طريق وعر ، حيث يثير الأوتوبيس سحابة غبار أحمر ساخن .هنالك زراعات صغيرة من البقول والأفوكادو* والإيبيم (نوع من البطاطس) والزهور الصفراء الذابلة للكيابو (البامية) ، المنازل من طابق واحد ، من طوب أحمر مجوف يصنعه الناس بأنفسهم ، وأسقف من ورق مقوى متموج مدموج فى بعضه البعض ، ليس لدى الناس أى شئ . الماء الوحيد الموجود يأتى من أبار ارتوازية ، وقد لوثها الآن الصرف الصناعى من المصانع ، ومن مقالب الزبالة الهائلة حيث تحرث فضلات نوفا ايجيواسو جزئيا فى جانب التل العارى ، وتخيم فوق هذا الريف الرائحة النتنة للنفايات المتفسخة، ليست هنالك تسهيلات طبيه ولاصرف عام ، الخدمات الوحيدة هى الكهرباء ، ليس لإضاءة الشوارع ولكن من أجل توصيلات التليفاز ، الحامل الرئيسى للوعود إلى هؤلاء الذين يعيشون حياتهم عند حد المشقة والأوتوبيسات بالطبع للنقل من العمل وإليه .

يحمل العديد من المنازل كتابات يدوية تعلن عن تقديم بعض الخدمات : مانيكير ، باديكير ، تعليم القراءة والكتابة ، تصفيف الشعر ، وقد حول واحد أو اثنان نوافذهما الأمامية إلى دكاكين صغيرة للحلوى والكوكاكولا والأمشاط والحلى الرخيصة .

إن الرجال الذين يعملون ، يعملون أساسا فى البناء والأمن ، هنالك عدد قليل من النساء يمكن رؤيتهن أثناء النهار ، حيث تعمل غالبيتهن خادمات فى ريو ، وهى رحلة تستغرق ساعتين كل يوم ، تقول ماريا ، أنهن يأخذن من بيوتهن ، التى فى حاجة لهن، للعمل فى منازل أناس لديهم كل شئ ، يجلس اسمائيل فى الشارع أمام منزله ، انه يعمل فى مصنع للحلوى بالحد الأدنى للأجر «حوالى ٥٠ دولارا شهريا» . لقد جاء من ريو ، كما يقول ، لأن هنا أقل خطرا ، هنالك شارعا «ايبانيما» وكوبا كابانا حيث الخطر والعنف . نحن نعيش فى هدوء هنا ، ونعرف بعضنا البعض .

إن المزيد والمزيد من الناس يغادرون ريو خوفا من عنف المجموعات شبه العسكرية ، أو ببساطة لأنه ليس هنالك مكان للعيش ، إن روبنسون من «بيرنامبوكو» فى الشمال يقول مزهوا «تينهو بروفسون ماناوتنكو تراباجو» (لدى تجارة ولكن ليس لدى وظيفة) ، إنه سائق ولكن أين هى الطرق التى يمكن القيادة عليها فى «سانتو اكسبيد يتو»؟ .

---

* كمثرى التمساح (المترجم).

تعيش فى سانتو اكسبيديتد مجموعة نشطة ، قائدها اسرائيل فينسنت راسيلفا ، القادم من «ريسيف» إلى ريو ليلحق بعمه الذى كان يعمل هنا فى البحرية ، وقد شيدوا عن طريق «الموتيراو» (الجهد الذاتى الجماعى) مركزا صحيا : مبنى مدهون باللون الأبيض ، بغرفات باردة لطيفة ، لكن دون معدات أو أدوية أو موظفين ، إنه يقول ، من السهل أن تجعل الناس هنا يحتجون ، لكن الأكثر صعوبة هو تثبيت التضامن لوقت طويل : إن الإنهاك اليومى للعمل ، والإعياء الشديد والجوع ، كل ذلك يستهلك طاقة الناس ، إن الأرض مملوكة هنا «للكايكسا إيكونو ميكا» ، وقد احتلتها العائلات بطريقة غير قانونية .ولم تفعل الشرطة شيئا لإزاحتهم ، هنالك عند حد المستوطنة عدد من الملاك الصغار ، يزرعون الخضراوات والفاكهة من أجل استهلاكهم الخاص .

إن جميعات سكان نوفا ايجيواسو» تنتسب إلى «فريدرا ساو داس اسو سيوس دى بايسو دى نوفا ايجيواسو» (MAB) ، منظمة القاطنين على اتساعهم . ليس لدى الناس أوهام أن أى شئ سوف يعطى لهم دون نضال ، وحتى حينذاك ، فإنهم عرضة أن يسجنوا بسبب جهودهم لتحقيق غاياتهم ، «إننا فى حاجة إلى الـ «اسانيامنتو» ، الأساسية : الصحة والعمل والأمن . الأثرياء يتحدثون عن السكان وليس عن الشعب ، إننا نعلم أن السكان يستقرون فقط عندما ينال الشعب أمنه . غير أن الأمن سيعنى إعادة التوزيع من الأغنياء إلى الفقراء ، إن هذا هو آخر شئ فى جدول أعمالهم – إنهم يؤمنون ، على عكس ذلك ، بالمزيد للأغنياء والأقل للفقراء ، ولذا فإنهم عندما يتحدثون عن تنظيف البيئة ، فإن ما فعلوه فى ريو سوف يفعلونه فى العالم أجمع – سوف يكنسون الفقراء» .

إن كانت نوفو ايجيواسو مكانا كئيبا ، فإن «ديوك دى كاكسياس» مكان جهنمى ، لقد أغلقت الكاتدرائية التى تقع فى مركز هذه المدينة التى تشبه القمر التابع الأصغر ، بحاجز أشبه بالقفص يسد المدخل «الباروكى» ، تمددت الأجساد تحت السقيفة وعلى أرضيات الكاتدرائية ، وأطراف الشباب سئ التغذية ، المرهق للغاية متشابكة متدخلة ، إن الموضع أشبه بأرض معركة أو زيارة لوباء الطاعون . وهنالك فى الجوار القوس المنتصر المزدوج الأصفر لماكدونالدز ، إن إنسانية معدمة بلا جذور تهيم عبر شوارع كاكسياس الموحشة ، فى ظل ملاحظات صادرة عن المجلس البلدى تقول ، «تذكر أن هذا المكان كان مقلبا للقمامة ، باعة صغار لأكثر الأشياء تفاهة ، حلى رخيصة ، وجبات طعام خفيفة ، حلوى ، أمشاط ، فرش ، والمدمنين بنهم للنقود ليغذوا شهوتهم للكوكايين ، فتاة صغيرة فى الثامنة تعمل ، تضع حبات خرز دقيقة فى خيط ، ثم تنشرها تعرضها للبيع على ملاءة خشنة على رصيف الشارع ، وأبوها رجل فى الثلاثينيات من عمره يتمرجح إلى الأمام والخلف فى يأس ، إنها تتوقف عن عملها ، مابين الحين والحين لتواسيه مارة بيدها الدقيقة عبر شعره ورقبته ، لمحة شفقة وحنان .

جاءت عائلة جوزى نالدو من «باريبا» ، من الشمال الشرقى للبرازيل ، حيث كانوا يعملون كعمال زراعة بلا أرض ، نما أبناؤهم فى ظل تغذية متدنية ، ففقد الكثيرون منهم أسنانهم ، ومازالوا يعانون من إختلالات فى الهضم والنمو . إن جوزيه وزوجته ابارا يعيشان فى فافيلا «جاكاريزينها» ، والتى تتمتع بسمعة أنها من أخطر الأماكن فى ريو . إن كثيرا من حالات طوفان الاختطاف التى حدثت مؤخرا ، قد تمت متابعة مصدرها لتصل المتابعة إلى عشش وأكواخ جاكاريزينها المتشابكة ، وقفت تحت خط المترو المرتفع ، بين قناة كريهة الرائحة والسكة الحديدية ، دستة أو قرابة ذلك من الشباب فى صف ، انتظارا لإبتياع الكوكايين من إحدى نقاط البيع فى المساكن المكتظة القذرة ، إن الباعة الموزعين يرتدون مداليات كبيرة وخواتم وأقراط ذهبية مغالى فيها وسراويل قصيرة وحلل تدريب على الموضة . تُلف عبوة الكوكايين فى ورق أبيض وتربط بالقطن – وإعداد هذه العبوات هو فى ذاته صناعة تجرى فى الاكواخ – وتباع الواحدة منها من خمسة إلى عشرة دولارات . هنالك إقتصاد موازى ، فى تلك المساكن المكتظة القذرة ، يُولد طاقة أكثر من أى مكان آخر فى الفافيلا ، كان هنالك اقتصاد بديل ، ظهر مبكرا عبر الـ «جوجو دى بيكسيو» – شكل غير قانونى من «اللوتريا»* ، إقتصاد تتحكم فيه أعمال كبيرة ، وكان يمول العديد من الـ «سكولاس دى سامبا» ، المنظمات التى تنفق ستة شهور فى العام ، تعد فيها للكرنفال ؛ والتى تتعايش الآن مع إقتصاد المخدرات الأكثر نشاطا وحيوية ، ما إن تتكون عصابة المخدرات المهيمنة حتى يصبح أعضاؤها السلطة الفاعلة فى المساكن المتكظة القذرة ، وهم فى الحقيقة غالبا ماينظر إليهم بإعتبارهم محسنين إلى الناس . عندما يمرض طفل ، يذهب الناس إلى أباطرة المخدرات طلبا للنقود ، وهم سوف يعطونهم» . يقول جوزى أن الناس قد أصبحوا مرتبطين بثقافة المخدرات ليس فقط من خلال الإدمان والخوف ، ولكن أيضا من خلال العرفان بالجميل والإقرار بالفضل ، «إن هذا يجعل ماتُقَّوم به حركة الناس من عمل أكثر صعوبة».

إن العمال الذين يعملون فى النضال العام يعيشون فى ظل تهديد دائم، حتى على حياتهم ، ويعيش جوزى نالدو فى ظل حكم غير رسمى بالموت ، وليس أمامهم من خيار غير مواصلة العمل بشجاعة ومثابرة ، «لقد تحدث ماركس عن الإشتراكية أوالبربرية ، ليست تلك نبوءة مستقبلية . فقد تم الإختيار بالفعل . والآن هنا فى البرازيل ، إنها ليست حياة يكرم فيها الإنسان ، إنها واحدة من أغنى دول العالم ، فكيف لمثل هذا الشقاء أن يصدر عن ثروات بلدنا؟ وأسوأ من ذلك أننا محكومون بنظام عالمى معوج فاسد يرى ألا طائل من تغيير أى شئ ».

---

* ورق اليانصيب (المترجم).

يقود الطريق خارج كاكسياس إلى سهل «بايكسادا فلومينس» ، لقد أصابت إزالة الغابات وأعمال التشييد التلال بالندوب وآثار الجراح ، هناك مجتمع صغير قرب الـ «بترو براس» أكبر معمل فى أمريكا الجنوبية ، هنا تعيش والدة ايارا ، التى تجلس مع نساء هذا المجتمع ، فى حرارة مابعد ظهر يوم الأحد ، فى ظلال أشجار«الأماندويرا» . إنه وقت وجيز للسلام والإسترخاء من العمل ، إن إيفونيت ، التى تعمل فى الجوار ، فى مصنع للسجائر ، تأخذنا إلى ورشة زوجها ، حيث يصنع دمى خشبية لمسيح ريو ، للبيع إلى السياح . إنه يعمل بعقد مع مصنع فى كاكسياس ، إن لديه منجلة وماكينة لقطع الأشكال ، وهويتلقى ١٥٠ كروزيرو لكل مسيح ، سوف يباع فيما بعد بـ ١٠٠٠ كروزبرو . تعمل ماريا خادمة ، وتحصل على الحد الأدنى للأجر . إنها تسافر يوميا إلى ريو ، زوجها يعمل فى مصنع للألومنيوم . غالبية الناس هنا يعملون وقد انعكس هذا فى ما ادخلاه من تحسينات على منازلهم : مساحة أكبر ، أثاث أكثر راحة ، تليفاز ، ثلاجة ، ومراكزموسيقية . ايرينيد مطلقة ، إنها تسافر إلى ريو حيث تعمل بائعة فى متجر للملابس ، باتريشيا فى السابعة عشر ، تعمل فى مصنع لصناعة الملابس فى ريو ، مصنع ساعات عمله أطول وظروفه الصحية أسوأ ، وتحصل على أجر أقل من الحد الأدنى للأجور ، تسافر فانيا إلى «يوزينا» للعمل فى سوبر ماركت . إنها تمضى ساعتين ونصف كى تذهب إلى هنالك ومثلها للعودة ، تستيقظ فى الرابعة والنصف صباحا . وتأخذ الأوتوبيس إلى كاكسياس ، ثم آخر إلى يوزينا ، وتعود فى السابعة والنصف مساء ، تقول ايفونيت أن العديد من الرجال يعملون فى عملين ، واحد فى النهار وآخر فى الليل ، كحراس ورجال أمن ، وهى واحدة من صناعات النمو القليلة فى كاكسياس ، النساء هنا منظمات ؛ إنهن يصنعن الملابس بطريقة تعاونية ويبعنها فى الجوار .

إميليو فى السابعة والخمسين ، جاء من ريو عام ١٩٥٧ من الشمال الشرقى ، وهو خباز . كانت لأسرته أرض ، غير أنه بإزالة الغابات ، انحدرت الامطار ، ولم تعد تروى الأرض ، والتر فى السابعة عشر ، وصل من «بارايبا» منذ شهور قليلة مضت عندما ماتت والدته ، وهو يعيش مع أقارب له ، ترك المدرسة وهو فى سن العاشرة .ليس لدية أية مهارات ، يعمل كيفما اتفق وبصورة متقطعة ، كعامل عمومى فى أعمال البناء ، إنه يكره المدينة ، ويفضل العوده إلى بلده ، فى وسعك أن ترى فى عينيه عنف إعادة تشكيل الإدراك الريفى ، فى صورة الحياة الحضرية ، غير أنه لاعودة ، الأسى هو كل مايتبقى فى النهاية ، وفكره ملحة أن الناس قد يكونون أسعد حالا فى مواطنهم ، فقط لو كان فى مقدروهم الإستمرار فى الحياة هناك ، مالم تكن قد تدنت .

الريح الساخنة تثير عاصفة من الأتربة وأوراق الشجر والأوراق المهملة ، وتعود بعض النسوة بمقاعدهن إلى داخل الدور ، ويختفى الطريق فى كتلة من «الكابيم»

(عشب المستنقعات) والمياه الراكدة ، والتى ينمو فيها «الأجواب» بأوراقه العريضة ، إنه نبات يستخدم فى تنقية المياه .

وترسل مدخنة معمل التكرير «بيتروبراس» الفضية بلهيبها الأبدى فى سماء مابعد الظهيرة . وتتشكل السحب الشاهقة ذات التجمعات مثل القشدة فوق القمم الفضية لسلسلة الجبال البعيدة التى تحد السهل ، إن على الناس هنا أن يحفروا الآبار بحثا عن الماء . هنالك خطر التلوث ، ليس فقط بسبب مياه البالوعات الفجة التى ترشح فى الأرض ، ولكن أيضا بسبب التخلص من المواد الكيميائية ، الهيكساكلور. هنالك نهاية واحدة لزريبة البقر التى تمد الناس باللبن ، وكذاالطيور والخنازير التى تنبش فى النفايات المسمومة ، إن خط أنابيب يمتد من بيتروبراس يمر أسفل هذاالمجتمع ، ويمكن أن ينفجر فى أى وقت ، ومع ذلك فإن هذا المكان ، مقارنة بمصير غالبية الناس فى كاكسياس ؛ يعتبر ملاذا يتمتع بأمن ورفاهية نسبية .

تقع محطة السكك الحديدية «جراماكو» على بعد حوالى كيلو مترين من كاكسياس ، محطة سكك حديدية فى الضواحى ، حيث يبيع أفقر الناس أشياء تثير الشفقة – فصوص قليلة من التوم ، كشك به لحمة سقط عفنة الرائحة ، كرشة مواشى مصابة بنفخة البطن ، وامرأة أمامها ستة علب من الكوكاكولا ، وأكوام صغيرة من الحلوى والبسكويت موضوعة على صندوق مقلوب ومجلات مستعملة ، وعلى الجانب الآخر من الطريق ، مستوطنة جديدة طازجة ، وقطع من الأرض محددة بأسلاك شائكة ، وقد كتب على قطعة خشب مدهونة باللون الأبيض ، «بنفيندو آفيلا شيكو منديس» ، هذه أرض لم يتم احتلالها إلا منذ وقت قريب . الاحتلال يجرى دائما ليلة الجمعة ، حتى إذا مااتخذ أى إجراء قانونى ،يكون الناس قد شيدوا مآويهم بالفعل ، لقد استوطنت فيلا شيكو منديس فى الأصل ، ستة وعشرين أسرة ، وهنالك الآن مايزيد على مائة أسرة ، إنها أرض منخفضة ، بها بركة آسنة هى المصدر الوحيد للمياه ، إن بعض المنازل مكونة من الورق المقوى والأبلكاش فقط ، لكن الغالبية موضع عمل نشط . الناس يشيدون ، يخلطون الأسمنت ، يحضرون حمولات من الطوب الأحمر والرمل والقطع رقيقة من الأحجار للأرضيات ، إن أوريليو يتوقف أثناء عمله : إن منزله بالفعل أكبر منزل فى المجتمع الجديد ، أربع حجرات يحيطها سلك شائك يحدد حدودها ، حجرتان مسكونتان بالفعل ، مع ثلاجة هرشها الإستعمال ، وأريكة بلاستيكية وفرش للسرير وفرن غاز صغير ، تكلف الواحدة من التيجول – قرميد البناء الأحمر– ١٠٠٠ كروزييرو (حوالى ٦٦سنتا) وتحتاج حجرة السكنى المعتدلة ٥٠٠ واحدة . ويبنى بعض الناس فى مجموعات ميوتيراو – العون المتبادل ، ويبنى البعض الآخر منفردا .

الأسطح مصنوعة من الحديد المجعد ، وفى الداخل تكون حرارة مابعد الظهر فى السهل خانقة ، وقد أخذت بالفعل وصلات إضاءة غير قانونية ، لفات سلك ولمبات عارية ،

بعض الناس يحفر خنادق توضع فيها أنابيب مياه ، لتأخذ المياه ، أيضا بطريقة غير قانونية من الأنابيب الموجودة على الطريق الرئيسى ، جاء اوريليو من الشمال الشرقى . كان يعرف شيكو منديس قائد دقاقى المطاط والنشط اجتماعيا ، والذى أُفرج عمن اغتالوه من السجن ، اوريليو يعمل طباخا فى السجن المحلى ، وزوجته خادمة ، الأجور فى الشمال الشرقى ٢٦ دولارا فقط فى الشهر -نصف الحد الأدنى القانونى الحالى ، كان يعمل فى زراعات القصب والدخان ، الحياة هنا أفضل رغم شدة العنف الاجتماعى ، إنهم هنا على الأقل يأكلون ، لاعودة إلى حياة العمل الزراعى الجوالة المتقطعة ، إنه لايود أن يرى بطون أولاده منتفخة من الجوع ،وجلودهم تغطيها القروح وشعرهم يتساقط .

جاءت الشرطة ، صباح اليوم التالى الذى احتلوا فيه الأرض ، لتواجه ستة وعشرين أسرة ، شيدت مآويها خلال الليل ، لم يكن لدى الشرطة إذن رسمى بتدمير المنازل لأن اليوم كان السبت ، قيل لرجال الشرطة إنهم إن هدموا المآوى ، فسوف يهاجمهم الناس بالزجاجات والحجارة . وقال رجال الشرطة «ونحن لدينا بنادق» ، فقال الناس ، «هيا أطلقوا الرصاص - سوف تقتلون النساء والأطفال دون إذن» ، ودمر رجال الشرطة المنازل التى لم يكن بها قاطنوها وانصرفوا ،لقد تم تحديد حدود قطع الأرض خلال أربع وعشرين ساعة ، وأنهى الناس البناء الأولى : إن المائة أسرة الموجودة الآن هنا جاءت من بليم » أو «بارايبا» وعاش آخرون بالفعل فى ريو ، غير أنهم أُزيحوا بسبب أعمال الهدم والخوف من العنف - توجد ڤيلا اسبيرانزا (الأمل) خلف فيلا شيكو منديس ، هى مآوى أكثر جدة ، أساسها من الطوب الأحمر وأبنية مؤقتة من الورق المقوى.

تعمل غالبية النساء فى أعمال خدمية بينما يعمل الرجال فى التشييد أو المصانع ، والبعض منهم يشتغل بالكهرباء أو السباكة . فاندو حرفته خباز ، غير أنه يعمل فى مواقع البناء والتشييد ، إنه من بارايبا ، وواحد من القادة الجدد للمجتمع . إنهم يخططون لإحتلال جديد ، فى نهاية الأسبوع المقبل ، موقع على بعد ٢ كيلو مترا . لقد ناقشوا شراء الخشب وتسليمه الآمن فى مكان ناء ، حيث يمكن أن يبقى دون إزعاج خلال الليل حتى يستطيع الناس البناء بعد الظلام يوم الجمعة ، لقد بحثوا ملكية الأرض ووجدوا أنها ملك للحكومة ، ومن ثم فإن احتلالها أيسر من احتلال الأرض الخاصة .

إن لدى فاندو قائمة بخمسين عائلة أو أكثر ترغب فى المشاركة ، ولكن عندما تتأسس آلفا فيلا فإن عديدين آخرين سوف يجدون الشجاعة للالتحاق بهم .

تجلس «سيلما» خارج منزل تم تحويله إلى دكان أولى ، إن لديها ابنا ذهب إلى المانيا ، ولم تعد تسمع عنه ، منذ سنوات عديدة . إنها تعمل خادمة فى كوبا كابانا ،

ومن تعمل لديهم يدفعون لها أجر إنتقالها إلى العمل ومنه ، وبدون هذا ، فإن ذلك العمل ماكان يستحق السفر . إنها تقول أن النساء يعشن ظروفا أصعب من الرجال ، إنهن يستيقظن قبل الفجر لإعداد الطعام ، وعليهن عندما يعدن من العمل إلى منازلهن ، رعاية الأبناء وتنظيف المكان والطبيخ ، إنها من الولاية المجاورة لميناس جيرايس ، لماذا جاءت إلى ريو ؟ لترى كيف تبدو ، وكيف الحال بها ؟ إنها تأتى بحركات من رأسها تنظر إلى الأرض القاحلة غير الممهدة والأتربة والذباب.

كانت هناك شبه معركة حول صورة ريو فى السنوات القليلة الماضية ، كان هذاانعكاسا للصراع بين قوى «بريزولا» الإشتراكى الديموقراطى الشعبوى ، الحزب الحاكم وتلك القوى التى يجسدها مجمع «روبرتو مارينهوسو» الإعلامى ، والذى كون ثروته فى ظل الديكتاتورية العسكرية : تشكل محطة التلفاز التابعة له ، والصحف ومحطات الإذاعة واحدا من أكبر المجمعات الإعلامية فى العالم ، إن هذا المجمع مهتم بتعزيز ثقافة الخوف التى تهيمن على ريو ، حيث يساعد هذا على تدمير بريزولا ، كما أنه بدوره يؤدى إلى مطالبات «برجل قوى» ، «بالعودة إلى القانون والنظام » ، والذى لا يعنى غير شئ واحد - الجيش ، إن الحديث داخل الصالونات الحصينة ، أماكن الرشاقة الكولونيالية القديمة ، فى جنوب ريو غامض ورائع بالفعل ، أشبه بسفر الرؤيا : يوجد هنالك تحت العنف الحقيقى ، نضال ايديولوجى ، يسعى بنشاط إلى تعزيز صورة المدينة غير الخاضعة لقانون والتى لاسبيل للسيطرة عليها ، إن فقر ويأس اشد الناس فقراً ، فى هذا النضال ، إنما هو مجرد سلعة اضافية للاستغلال فقط .

إنها مكان متوتر مخيف ، لقد سُرقت مرة واحدة فقط ، وكان رجال الشرطة هم من سرقنى كنت خارجا من واحدة من الفافيلات ، وأراد شرطى فيدرالى رؤية أوراقى . قلت أنها «فى منزل صديقى» ، قال: «وماذا تفعل هنا ؟» قلت «أزور بعض الناس» . قال، «لقد جئت من أجل المخدرات» ، قلت «لماذا لاتفتشنى؟» أخذنى إلى مقهى وأعلن أننى إن لم ادفع له فإنه سيأخذنى للتفتيش فى مركز الشرطة ، أعطيته الأثنى عشر دولارا التى كانت معى ، الشرطة تمنح أجورا ضعيفة ، لذا عليهم أن يمارسوا عملا صغيرا خاصا حتى يحققوا دخلا يتلاءم والحياة .

يعمل كانديرو جزريبوسكى ، فى مجال حقوق الإنسان مع «المعهد البرازيلى للتحليل الإجتماعى والاقتصادى» (آى بى إس إى) ، فى ريو ، إنه يقول إن حقائق شروط مفاوضات صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والجات تدل على أننا قد دخلنا أشد مراحل التدمير الكولونيالى فى تاريخ بلده ، «إن آليات تحويل الموارد من الفقراء إلى الأغنياء لم تكن أكثر وضوحا مما هى عليه ، هنالك مقاومة محدودة لما هو مفروض علينا ، بسبب عدم وجود أنماط محلية للتنمية ، مما ينتج عنه تآكل إجتماعى وعنف : إن قتل أطفال الشوارع ليس إلا جزءاً من عملية التجريد هذه ، لقد كانت هنالك عملية

إفقار واسعة للناس عبر العقود الماضية. إننا لو أخذنا الرقم مائة كقاعدة للقوة الشرائية للحدالأدنى للأجر عام ١٩٥٦ فإن المعادل اليوم حوالى الثلاثين ، هذا الوضع جاء بعد ماسُمى بالمعجزة الاقتصادية ، حكومة عسكرية عنيفة ووحشية وتراكم دين لاينتفع به .

«ونحن نرى أيضا ، فى ذات الوقت ، دولية جديدة ، تضامنا لم ينظم بعد ، غير أن فى وسعنا رؤية شكل نضال كونى جديد : نضال الإنسانية ضد السوق الحرة ، هذا هو مايجب أن نبنى عليه ، هنالك العديد من المبادرات الصغيرة فى البرازيل وأماكن أخرى ولكن لاتوجد حتى الآن ، حركة جماهيرية ، هنالك عدد من القضايا يمكن أن تتبلور حولها مثل تلك الحركة ، مثال ذلك ، أن يدور أحد هذه النضالات حول الطعام. إن الناس ، على امتداد العالم كله ، يجبرون على التخلى عن الطعام المحلى والتقليدى ، حتى يمكن للشركات عابرة القوميات أن تقوم بتغذيتهم طبقا لقيم - مضافة لحاجيات يحددها الغرب .

إنك عندما تكف عن الطعام التقليدى ، فإنك تكف عن كل شئ لأن تلك هى جذور الهوية ، إن البرازيل تصدر قُوْتَها بينما يعانى الشعب سوء التغذية .

على الحدود : دلهى

الفقراء الذين ينامون فى الشوارع يتجففون بعد ليلة هطل المطر فيها مدرارا : ملابس وطيات فرش السرر على سياجات وحبال غسيل مرتجلة بين الأشجار . لقد سقطت فاكهة «الجامون» الأرجوانية التى تصطف أشجارها على جانبى الشوارع فى نيودلهى ، فيقوم الأطفال بجمعها لبيعها :إنها غنية بفيتامين سى ، وتوفر رزقا لهؤلاء الذين يتمتعون بالصبر لالتقاطها وفرزها.

العديد من الناس ينامون أثناء النهار ، فهطول الأمطار يقلق ليلهم : امرأة تنام وطفلها داخل ساريها ، ومنديل يخفى وجهها .دراجات «الريكشو» ذات العجلات الثلاث تقف ساكنة ، والسائقون نائمون على المقعد البلاستيكى ، وقد توازنت أجسادهم فوق القضبان العرضية وأقدامهم فوق جدونات الدراجات ، وخلفت الأمطار حفرا موحلة منتشرة فى كل مكان ، وتحول تراب الصيف الطويل إلى عجينة .

إن الأمطار فى «وازير بور» ، إلى الشرق من المدينة قد اختلطت بما سال من المصانع لتغمرالشوارع بطين شديد الزرقة ، هنالك فى هذه المنطقة حوالى ٤٥.٠٠٠ شخصا يعملون فى صناعة الصلب والطواحين والمسابك والمصانع التى تصنع الأوعية والأكواب والقوارير والسكاكين من الصلب . هنالك أكثر من ١٥٠٠ مصنعا منها ٢٠٠ مصنعا تصنع الأدوات والأوانى ، إن غالبية العمال من الرجال غير أن الأطفال والنساء يستخدمن فى تنظيف الصلب ، فى أوعية الحامض الضخمة، العمل خطر ، غير أن الحوادث تطمس ولايعلن عنها ، كان هنالك - مابين اغسطس ١٩٨٨ وفبراير ١٩٨٩- ٨٣ حادثة : مات ثمانية عمال وأصيب خمسة وسبعون بالعجز ، إلا أن الإحصاءات الرسمية لم تعلن غير ٥ حوادث فقط خلال ذات الفترة .

إن الصلب يعد فى شرائط طولها من ٣٠ إلى ٣٢ بوصة ، ويقطع ويضغط فى ماكينة هيدروليكية ، ثم يمد فى أحواض الحامض ، ويوضع بعد ذلك فى اللهب ، ثم يضغط بواسطة ماكينة باردة «قوية» إلى ٩٠ً بوصة ، وتصعد أبخرة سامة من أوعية الحامض الضخمة ، وينخر الحامض فى ايدى وأرجل العمال ، إن العمال الذين يعملون فى سبك الصلب يلفون أكياس حول أيديهم ومناشف حول رؤسهم ، ويرتدون قفازات من قماش حماية ضد النار ، والدخان ، والتراب ، ويسبك الصلب فى شكل الأدوات والأوانى ثم يضغط ويشذب ويصقل ، إن حوادث كثيرة تقع مع الماكينة الباردة «القوية» ، اذ عندما تضغط أجزاء الصلب فى هذه الماكينة ، تنطلق منها جزيئات كالطلقات وتخترق أجساد العمال . الماكينات بلا غطاء ، ولايترك المكبس الكهربائى غير مساحة محدودة للعمال حتى أن أيديهم وأكفهم وأصابعهم تتحول إلى كتلة من الجراح. التشذيب يحتاج إلى جهد بدنى لاكمال شكل الآنية ، والآلات قديمة وخطرة .

العديد من العمال بلا مهارة أو شبه مهرة ، والعمل على الماكينات يقتضى تدريبا ومهارة . ولأن العامل رخيص ، ويمكن استبداله ، فإن جهدا لم يبذل بخصوص التدريب ، والمهارات تكتسب عبر الملاحظة والتجربة والممارسة . ليس هنالك سجل عن حياة العمال وبالتالى فإن موتهم غير مسجل بالمثل .

لايمكن فى الغالب اجتياز الطرق بين المصانع الصغيرة و«الجوجيس » (الاكواخ) ، بعد أمطار أغسطس ، وتستخدم ألواح خشبية واهيه لعبور امتدادات الطين ، كما تستخدم بعض الأحجار كموطئ للأقدام باعتبارها الوسيلة الوحيدة للوصول إلى مداخل المصانع ، إن «سنجالبور» مستوطنة جيدة التأسيس ، تكاد منازلها أن تكون من الآجر ، وتظل أبوابها ، فى المساء مفتوحة تستقبل الحرارة الرطبة ، وتحتوى الحجرات الصغيرة التى تبلغ مساحتها امتار مربعة قليلة ، ستة أو ثمانية سرر خشبية حيث يعيش العمال المهاجرون ، المنازل متقاربة ، لاتفصلها غير ممرات ضيقة فيما بينها ، وتكاد الأسطح المعدنية الرثة ان تتلاقى عبر الممرات ، وتوجد فى الشارع الرئيسى ، الذى لايزيد إلا قليلا عن حارة من الحارات ، زريبة مواشى بها أبقار وجواميس تأكل فى أحواض حمامات مكسورة، والروث الذى يجب أن يكون موردا ثمينا فى الريف ، يمتزج هنا بالمياه القذرة ليُكَون جداول ملتوية عبر الأراضى غير المستوية ، المتاجر الصغيرة مجهزة بما يرفه عن الفقراء -«بان» (نبات متسلق كالفلفل تمضغ أوراقه مع الجوز) ، و«بيديس» (سجائر ، دخان مغلف بأوراق الشجر) ، حلوى وبسكويتات ، معاجين الأسنان والحلاقة والكولونيا التى تحمل أسماء الشركات عبر القومية ورجل يحلب بقرة فى أحد الأزقة ، ونفثات من حليب أبيض تطرطش فى طاس مترية من صلب ، وقد وضعت بعض الأسرة المصنوعة من حبال خارج الأكواخ ، والرجال ينامون فى المساء المبكر ، قبل وردية الليل التى تمتد اثنتى عشرة ساعة - ٨ساعات ، وأربع ساعات إضافى «اجبارى».

وتتدلى لمبات الكيروسين من اسقف بعض الحجرات ، تلقى بضوء أخضر فاتح فى الغسق شديد الزرقة ، لاتوجد هنا خصوصية ، الناس يستحمون ، يطبخون وجبات المساء ، وينامون على مرأى كلى من بعضهم البعض .

إنه مجتمع ذكرى فى غالبيته ، من مهاجرين إلى دلهى من أجزاء أخرى من أوتار براديش ، من «مادهيا براديش» و«بيهار» و«أوريسا» . إنهم يتركون النساء ليسسن أمورهن بأفضل مافى وسعهن .وتحمل الأماكن التى يعيش فيها الرجال طابع الترتيبات المؤقتة ، غير أنها تتحول إلى أوضاع دائمة ؛ الحقائب استهلكها الاستعمال ، والصناديق تحتوى على ملابسهم وأمتعتهم ، البعض منهم يجئ موسميا ، ويعودون شهرين أو ثلاث وقت الحصاد . إنهم لايعتبرون أنفسهم ، بالضرورة ، من قاطنى

المدينة، إن كل مايعرفونه عن دلهى هو هذه المنطقة الصغيرة وطريقة العودة بالأوتوبيس إلى «باريلى» و«لوكناو» و«بهوبال» ، إنهم جميعا يعملون فى بيئة خطرة ، وأحيانا فيما يشبه الظلام فى ضوء المصهر . ويمكن رؤيتهم فى الأمسيات ، يكادون أن يكونوا عرايا فى الوهج الأحمر ، للهب النيران ، التى تنعكس على جزوعهم التى تسيل عرقا ، إن أجسادهم واهنة عرضة لشظايا المعدن التى تتطاير من أسطوانات الصلب المتأجج .

إن غالبية الرجال لايمتلكون أرضا ، أو لديهم قطعة أرض صغيرة للغاية لاتكفى إعاشة . أسرهم إنهم يرسلون بنقود إلى منازلهم ، غير أن أجورهم منخفضة إلى حد كبير عن الحد الأدنى «القانونى» . وفى أحيان أخرى يهاجر كل الرجال - الأب واخوه وابن فى الثامنة عشر وأخر فى الثانية عشر ، وتنتظر الزوجة والبنات فى القرية يعشن على نصف أكر من الأرض ينتظرن مجئ الرجال إلى المنزل لشهر فى العام . إن كل العمال تقريبا يحملون ندوبا ، هى آثار المعدن الذى فاض من المكبس أو بكرات الاسطوانات وأصابهم فى الصدر أو البطن أو الذراع ، ويغطى البعض منهم اللمعان السطحى للندوب العديدة كما يوجد عند البعض حفر فى البطن أو الصدر أو الوجه .

إن الأوضاع فى المصانع تعيد إلى الذاكرة ، وصف انجلز لانجلترا عام ١٨٤٤ . الوحدات قذرة وعسيرة ، ولايوجد فى غالب الأحوال ماء للشرب ، ودرجة الحرارة داخل المصنع تزيد بكثير عن درجة ٤٠م الموجودة فى الخارج ، إن عشرة أو اثنى عشرة شخصا يعملون فى مكان مظلم مغلق ، يغذون بكرات الاسطوانات أو الضواغط بالمعدن ، يطرقون ويدقون رقائق الصلب الساخن فى حظائر معدنية مليئة بالدخان ، لايكاد يوجد بها مكان للوقوف بعيدا عن فيض الشرارات واللهب المستمر ، إن الفضلات الصناعية «والكاشيرا» (النفاية) الناتجة عن عملية التبريد تنساب إلى الشوارع . هنالك أسلاك معقودة فى عروات وكابلات وخطوط كهربية فوق الأبنية ، وتتزاحم كالحشو فى الفراغات لمصانع أكشاك الشاى وأكشاك الوجبات الخفيفة ، ومنازل صغيرة . وتنعكس سماء الريح الموسمية فى برك المياه الراكدة والفضلات الصناعية ؛ الملاريا والدوسنتاريا والكوليرا أضعفت الناس بالفعل وأوهنتهم بسبب العمل المفرط وتلوث أماكن معيشتهم، البيوت الصغيرة مزدحمة من الداخل بطريقة مفرطة وخانقة ، إن المروحة تحرك فقط الهواء الساخن بصورة أسرع ، إن طفلا فى التاسعة يتعافى من الملاريا ، عيناه كبيرتا الحجم ، فى وجه هزيل ، ذراعاه وقدماه هما ذراعا وقدما طفل فى الرابعة من عمره .

ربما كان أكثر مايصدم المرء هو قرب منازل الملاك من أماكن معيشة العمال التى تثير الخجل ؛ أبنية جديدة ذات شرفات من الحديد المطاوع وقرميد مزخرف وبلاط من السيراميك وزجاج ، أزواج يجلسون يقرأون أو يشربون ، فى مقاعد مريحة فى

الشرفات التى تطل على الجوجيس «الأكواخ» ، حياة الأثرياء يمكن رؤيتها بوضوح من الأزقة الضيقة ؛ حيث يجلس الناس يبيعون القليل من الخضراوات أو الموز أو البصل البائس ، على قصعة من الخيش حيث يحيل سائقو الريكشو ، الشوارع العمومية الضيقة إلى خليط معقد من المعدن والأطراف النحيلة ، وحيث يتلكأ العمال بحثا عن لحظة من المؤانسة قبل الذهاب إلى منازلهم للنوم ، هنا حيث يتباهى الأثرياء ، توجد ظاهرة غريبة ، نوع من الاقطاعية الحضرية ، حيث يخضع القادمون من بيهار ، والذين اعتادوا صلف الملاك وسلطة الطبقة الاجتماعية المتميزة والثروة ، للظلم الفادح ، لملاك المصانع بفيلاتهم المسرفة ، تلك التى بنُيت بالنقود السوداء ، والعمل المستغل ، إن حياة المدينة صدى ، من أوجه عدة ، لحياة الريف ، رغم أنها فى شكل أقل وطأة .

إن خمسة أخوة يعيشون معا فى منزل واحد صغير ، به ثلاث غرف ، يدفعون أجرا قدره ٥٠٠ روبيه ، أربعةمنهم يعملون ، اثنان فى مصانع الصلب ، واثنان فى التشييد . إنهم فخورون بقدرتهم على الانفاق على شقيقهم الأصغر لينهى دراسته حتى يكون فى وسعه الحياة حياة أفضل ، إن كرمهم ، وفخرهم بما يحققه من انجازات مؤثر للغاية ، انها رقة تقى وتحمى فى هذا المكان الفظّ ، أراد المالك أن يرفع إيجار الكوخ ، فأرسل «بالجونداس» «القتلة المأجورين» ، ليعتدوا عليهم ، نفس الشئ حدث لهم فى بيهار .

المنزل قرب العنابر الخرسانية لصناعة الصلب واحتفالياتها ، هنالك على الأرض ، خيش للفة الفراش ، وكيس مطوى كوسادة ، وشمعة تشتعل فى ، زجاجة وكتاب كان يقرأ فيه الفتى وسقط على الأرض ، من المستحيل أخذ الشاربوى » (سرير الحبال) إلى الخارج ، رغم الحرارة ، فالمياه السوداء تلعق الرابية الصغيرة التى بُنى الكوخ فوقها . ويقف شاربوى فى أحد النقاط ، فى الماء وعليه خمسة أطفال نائمين ، فوق جزيرتهم الصغيرة الموحشة فى بحر قاتم .

الأجساد ترقد ، حيث الأرض جافة ، فى صفوف فى الهواء الطلق ، مثلها مثل ضحايا كارثة طبيعية فى انتظار التعرف عليها ، وهذا هو ماهم عليه بالفعل ضحايا ، لاجئون بسبب البيئة والاقتصاد .

إن هؤلاء الذين يؤمنون بأن كل ماتحتاجه الهند هو المزيد من الليبرالية ، لن يكونوا على خطأ بأكثر مما هم كذلك بالفعل ، إن عدم تدخل الدولة فى الشئون الاقتصادية بصورة مفرطة يعمل عندما تكون المسألة هى مسألة استخدام البشر وعملهم والإساءة إليهم ، إن النظم الرسمية وقوانين العمل تعطى انطباعا بأن الرسميين ، كطبقة ، يشلون حركة البلاد ، وهو مايسميه البعض اشتراكية ، غير أن ذلك وهم ، إن تلك ببساطة رسالة ميتة ، إن هذا مايعنيه د.ل.شيت من «مركز دراسة المجتمعات النامية» ، عندما يقول إن الهند ، «اشتراكية بمرسوم ورأسمالية بالقصور والتقصير » ، خلال

الأربعين سنة الماضية . إن الفكرة القائلة بأن حماية أقل وأجور أدنى ، لهؤلاء المعرضين لأشكال من إذلال وهوان واخطار وازيربور ، يمكن أن تكون ، بصورة ما ، مفيدة للبلاد – فكرة تكشف فقط عن المدى الذى غدا به الناس مُستهلكين ، والمدى الذى غدوا به «خارج» التنمية.

إن هذه المدينة من الرجال تحتوى ، مع ذلك ، أقلية كبيرة نسبيا من النساء أيضا . إن العديد من هؤلاء الذين لايمتلكون أرضا ، ولا أمل لهم فى العودة إلى القرية ، يحضرون العائلة بأسرها إلى تلك الأكواخ المكتظة القذرة . ويخوض الأطفال فى «الكاشيرا» (النفاية) ، ويلعبون بقطع معدنية مسننة : لفائف ، لوالب ورقائق من المعدن مكومة خارج الوحدات الصناعية .

إن قلاع المصانع الخرسانية الجرداء ووهج الأفران الأحمر المائل للبياض ، ومخض الفضلات الصناعية يحدد حدود أفقهم ، إن كل شئ صلب وقاس ، ماعدا العذوبة والرقة التى بلا حدود ، والتى يتعامل بها الناس مع بعضهم البعض ، والقدرة على الاستيعاب الصامت لمثل تلك التكاليف والفروض التى لاتوصف ، وقوة تحملهم وعزة أنفسهم ، التى تلطف من هذه الكآبة البشرية المصنوعة .

إن شيفساجال فى الخامسة عشر ، كان يعمل منذ عام كمعاون ماكينة فى مصنع للصلب – وهذا يعنى حمله لرقائق الصلب إلى العاملين على الماكينة ، ويبلغ طول تلك الرقائق مترين ، وهى قاتلة ، وأجزاء من المعدن حادة النصل ، يحملها فى حِزم ، كل منها عشرين واحدة – إنه يكسب ٦٠٠ روبيه فى الشهر (حوالى ٢٠ دولارا) .ويكسب أخوه البالغ من العمر اثنى عشر عاما ٥٠٠ روبيه . لتأديته ذات العمل ، إن أمهما تمتلك هكتارين من الأرض قرب «بارييلى » فى «اوتاربراديش» . لقد جاءا إلى دلهى عندما توفى والدهما . ويرسل شيفساجال إلى المنزل بمائتى روبيه ، ويرسل اخوه بمائة وخمسين روبية .وهما يدفعان ٢٥٠ روبيه إيجارا لحجرة واحدة ، مسكن صغير يثير السخرية حيث تدخله الأمطار . ويعد الصبيان الطعام ، أرزا وخضراوات وعدس ، ويكلفهما الطعام حوالى ٤٠٠ روبية شهريا . ويستهلك كل ذلك كل دخلهما ، إن الصبيين يعيشان صورة ممسوخة لعالم حقيقى ؛ عالم أطفال يقلدون حياة بيتية راشدة .

موتا فى الثامنة عشر جاء مع أبيه وأخيه من بيهار ، بدأ العمل وهو فى التاسعة وهو يكسب الآن كعامل ماهر ١٢٠٠ روبية ، ويدفع الرجال الثلاث ٣٠٠ روبيه أجرا لغرفة ، ويحصلون على شهر واحد أجازة سنوية ، إن له اختين مع أمهما فى المنزل ، جسده ملئ بندوب الإصابات من المعدن الساخن . المصانع خطرة ، والمستخدمون للعمال قساة ، لكنهم ليسو بدرجة السوء التى عليها هؤلاء الذين فى بيهار ، حيث يسرق المرابون الفقراء ويغتصب ملاك الأراضى بناتهم ، إن آرون فى الخامسة

والثلاثين ، يجر ريكشو ويكسب حوالى ٤٠ روبيه يوميا ، إن عائلته التى لاتمتلك أرضا تعيش فى بيهار الغربية، ويكسب سانجييف ٩٠٠ روبيه فى مصنع للصلب . يدفع ٣٠٠ روبيه ليتعلم صناعة واصلاح التليفاز . و٢٠٠ روبيه أيجار الحجرة ، ويرسل ٢٠٠ روبيه إلى منزله . إنه ما إن ينتهى من وردية الاثنى عشر ساعة الصباحية ، حتى يذهب للعمل فى دكان لإصلاح التليفاز ، حيث يعمل حوالى ست أو سبع ساعات ، وينام بقية الوقت ، إن أعمال انكار الذات والتضحية ، وماتوقعه تلك الأعمال بالناس من ضرر ، نادرا ماتحسب فى تكاليف إنتاج مصانع الصلب. العمل الزائد عن الحد والنضج المبكر والتقدم فى السن والاستنزاف والنضال لتعويض السعرات التى تستهلك كل يوم بحثا عن الرزق : الموارد البشرية تستنزف مثلها مثل الموارد المادية ولكن مع هذا الفارق : هنالك فى المكان الذى جاء منه هؤلاء الناس ، توجد كثرة أكثر منهم . وفيما يتعلق بالموارد فإن أحدا لايبالى بقابلية الناس للفناء ، ربما لاينتهى احتياطى العمل ، غير أن حياة الناس هنا تتآكل ، وتدمر قواهم ، وتستنفد طاقاتهم بطرق لايمكن للمكافآت المالية أن تعوضها أبداً ، مهما كانت تلك المكافآت مسرفة أو سخية .

عمل راجكومار فى «مصنع جيندال» فى وازير بور .أصابه العجز نتيجة إصابته وفصل دون تعويض ، إنه لايعمل الآن . ولدى عائلته فى بلده ٢بيعا » (١/٤ أكر) بائسين حيث يعيش ابناه وزوجته ، الذين توقف عن ارسال النقود إليهم . إنه يخجل من مواجهة أسرته ، ويعيش مع خمسة رجال آخرين فى غرفة واحدة . كان يعمل فيما سبق على ماكينة ، وكان فى وسعه أن يكسب ١٦٠٠ روبيه ، لقد طلب تعويضا ممن كان يستخدمه ، وكانت النتيجة اخباره بأنه لن يعمل ألبته ، مرة أخرى ، فى هذه المنطقة .

ب.ك. شاهى هو سكرتير «جبهة مازدور العامة» فى دلهى ، والمنضمة إلى «الاتحاد الهندى للنقابات» ، إنه يعمل فى مكتب غير رسمى فى وازير بور ، على قمة درج من سلالم حجريه ، حجرة كالحة بها لفافة سرير ، ومكتب وملفات فى خزانة معدنية ، هنا يحتفظ الاتحاد بسجل للإصابات والأضرار التى لحقت بالعمال فى صناعة الصلب ، ولولا ذلك لذهبت دون تسجيل .

هنالك فى هذه المنطقة ، حياة مرتبطة بالمصنع ارتباطا تاما ؛ والناس يستخدمون بانتظام ، غير أنه لاتوجد سجلات ، ولايوجد سجل مجمع ، وبالتالى لاوجود رسمى للعمال أو الرواتب شهرية ، غير أنها عرضة لاقتطاعات استبدادية . إنهم يعملون اثنى عشر ساعة فى اليوم ، والحد الأدنى للأجر لايطبق هنا ، حيث يتراوح الأجر مابين ٤٥٠ ، ٥٥٠ روبيه (أسبوع العمل ستة أيام) ، ولاخدمات ولاتعويض عن الحوادث .

«هذه المنطقة مغلقة أمام التنمية الصناعية ، أمام صناعة الجوارب والأثواب ، أمام الصناعة غير الخطرة والصناعة غير الملوثة ، أصحاب المصانع ينتهكون السياسة الرسمية . عندما يموت عامل بسبب حادثة صناعية ، مع تغاضى الأطباء المحليين ، والشرطة ومسئولى الإدارة الصناعية ، يغرون العمال بقبول من ١٠.٠٠٠ إلى ١٥.٠٠٠ روبيه كتعويض ، فى حين أن لائحة التعويض تقدم «لاخا» واحد (١٠٠.٠٠٠ روبيه) للموت بسبب المصنع .

«لقد دخل الصلب ، فى الأسبوع الماضى ، فى صدر أحد العمال ، ومات ، وجاءت الإدارة بطبيب خاص ، وأعلن الطبيب وفاته ، وأخذته الإدارة مرة اخرى إلى المصنع ، حدث هذا فى الصباح ، ولم يبلغ أحد الاتحاد ، الذى اكتشف الأمر فى المساء فقط ، عندما جاء بعض العمال ليخبرونا ، إن العامل المتوفى عضو فى لجنة «البوستى» (الكوخ) ، وعندما ذاعت الأخبار حاصر ٣٠٠-٤٠٠ عاملا المبانى . كان هناك كونستابل واحد . وسأل القائد الشرطة ، «ماذا تفعلون ؟» ، فقالوا ، «هذا العامل لم يمت ، وهم يأخذونه إلى المستشفى الحكومى ، لماذا تثيرون أنتم هنا هذا الزعيق والصراخ؟» . وجاءت عناصر معادية اجتماعيا مأجورة من قبل الإدارة وأصحاب المصانع ، وحاولوا نقل الجسد الميت قائلين ، «ليست هنالك أية مشكلة ، سنأخذه إلى المستشفى» ، غير أن المئات من العمال كانوا هناك ، فأصروا على أخذ صور وعلى إشراف الشرطة .

«أُخطر مخفر الشرطة المحلى ، وجاء مفتش الشرطة يصطحب مصورا ، والتقط صورا للجسد . كان واضحا ان العامل قد مات ، ولم ترفع قضية ضد الإدارة ، بعد الفحص الطبى للجثة ، وطالبنا برفع قضية رسمية ، كان عاملا مهاجرا من بيهار ، وماكان فى وسع والده المسن وزوجته وابناه الصغيران الحياة بدونه .و ذهبت الإدارة والشرطة إلى العائلة وسألتهم ، لماذا تتورطون فى هذا الشئ النقابى ؟ ستطول القضية، اقبلوا قيمة التعويض التى يحددها السوق ، سندفع ١٠٠٠٠ فوق المبلغ ، سوف نعطيكم ٤٥٠٠٠ روبية . فقبلوا لأنهم كانوا فى حالة من الفقر البائس.

«هنالك ، فى كل يوم فى مصنع الأدوات والأوعية ، اصابات فى الصدر والبطن وبعض تلك الاصابات قاتل ، إن المشكلة تكمن فى التقنية العتيقة ، آلات بها عيوب تفتقد الأمان ، إنهم يستخدمون آلات وقتية الصلاحية ، وغالبية العمال مهاجرين ، إنهم فى القرية لايمتلكون أرضا ، أو يمتلكون قطعا صغيرة ، كانوا فى بيهار ، منذ عشر سنوات مضت ، مزارعين صغارا ، وحولتهم المصاعب الاقتصادية إلى عمال بلا أرض. وأصبح العمال الذين بلا أرض عمال مصانع ، وأصبح عمال المصانع يجرون الريكشو، إن المزارعين لايقدرون على المدخلات التى تحتاجها البذور الجديدة ، ولذايذهب الناس إلى دلهى وبومباى ومدراس ، ويلتهم الأثرياء أرضهم .

«سعر السلع الأساسية فى ارتفاع ، والحد الأدنى الرسمى للأجر لايزاد ، بل وحتى لاينفذ ، بأى حال من الأحوال ، وتخفيض قيمة العملة سيؤدى إلى أن تصبح قدرة أجورنا على الشراء أقل فأقل ، ولايحوز كل العمال بطاقة جراية ، إذ إن الحصول على واحدة يقتضى معرفة «الجوجى دادا» (رئيس المساكن المكتظة القذرة) . ويتحكم فى «الجوجيس» «الكونجرس(١)» وجونداس الـ بى جيه بى ، إن سعر الأرز فى السوق المفتوح ٦ روبيه ، إلا أنه ردئ للغاية ، ويكلف كيلو الدقيق ٥ , ٤ روبيه ، وثمن خمسة كيلو جرامات من البطاطس الآن ٢٦ روبيه ، بينما كانت تكلف منذ ثلاثة شهور مضت ١٠ روبيه ، إن مصنع البيبسى ، فى البنجاب ، يأخذ الآن أفضل البطاطس والمانجو والطماطم . إن البطاطس التى كانت ذات يوم طعام! رخيصا ، تتحول اليوم إلى رقائق البطاطس (شيبسى) .

«لقد حاول أصحاب المصانع تحطيم الاتحاد ، وماليك (رئيس) المصنع يهدد الناس بترك الإتحاد أو الفصل أو الإيذاء ، لقد حاصر جونداس (القتلة المأجورون) الكونجرس المحلى (١) هذا المكتب ، فى باكورة هذا العام ، وهاجموا المبنى ، مع تواطئ الشرطة ، لقد ضربونى وأخذوا كل الملفات ، بما تحتوية من أدلة افتئات على قوانين العمل . ثم حاولوا اختراق الاتحاد والاستيلاء عليه ، إما بمؤمرات يوعزون بها إداريا ، أو يقومون بها هم أنفسهم ، وهنالك من يؤسس اتحادا باسم العمال ليحصل على نقود منهم ، إننا الاتحاد الوحيد الذى يناضل من أجل حقوق العمال ، الإدارة ترشو وتهدد على التوالى . إن لدينا هنا ١٢٠٠ عضوا ، غير أن المشاركة النشطة أكثر من ذلك بكثير ، إن العديد من الناس لا ينضمون إلينا جهارا ، لأنهم خائفون .

«هنالك بُعد آخر لنشاطاتنا، إذ أنه من الصعب عمل تنظيم داخل مبنى مصنع صغير ، ومن ثم ، فإننا أيضا فى البوستيات (الأكواخ) ، حيث الضغط هناك ليس بهذا القدر من الكثافة ، فالمكان أرحب، وأكثر حرية من أماكن العمل ، إننا نقوم بحملات ضد الخمر ، ومن أجل جلب وسائل الراحة الأساسية ، الماء ، وضمان حق الملكية والتعبير الثقافى ، والأغانى والمسرحيات ، إن هذا لايعنى أن البوستيات آمنة ، ليس هنالك أمن حيث يمكن هدمهما فى أى وقت ، غير أن التنظيم فى البوستيات ، يجعل السلطة تتردد قبل أن تدمر منازلنا » .

لقد جاء شاهى نفسه من بيهار . كان ابن مزارع صغير ، أوقع به زورا فى نشاط اجرامى بسبب نشاطه السياسى ، فجاء إلى دلهى هربا من القهر الاقتصادى والسياسى ، وعمل فى مصنع يصنع قطع السيارات ، وبدأ تأسيس اتحاد فى سينجالبور ، ثم عمل فيما بعد ، فى مصنع يصنع الأوانى من الألومونيوم . وهاجمه ، ذات يوم ، ابن صاحب المصنع ، فجعله ذلك يدرك أنه على العمال أن يحموا أنفسهم ضد الهجمات والاستغلال والإفقار.

«لقد آلمنا أن نرى ابتهاج الغرب بسقوط الاتحاد السوفيتى ، إنهم سعداء لأن النضال قد حل به الضرر ، وليس لأن الظلم الاجتماعى قد تخفف أو سكن . العكس صحيح تماما ، الأمر ، بالنسبة لنا ، يوحي وكأنهم يحتفلون بحالنا الذى يزداد سوءا ، كان هنالك اثر عكسى على حركة الطبقة العاملة فى الهند ، غير أن تلك ليست هى الصورة كلها ، إن كل امرئ يقول الآن إن طريق الولايات المتحدة الرأسمالى هو أفضل الطرق للحياة ، إنه ليس طريق الهند ، المفروض أن تكون الهند ديمقراطية ، غير أننا بعد أربعين عاما من الاستقلال لانجد علاقة للديمقراطية بالعمال ، إن هنالك الكثير للغاية من التشريعات المصممة لقهرهم - قانون صيانة الخدمات الأساسية (إى إس إم إيه) ، وقانون الأمن القومى (إن إس إيه) ، والقانون المضاد للإرهاب (تى إيه دى إيه) تستخدم كلها ضد العمال .

لقد فصل تيلكو للتو من مصنع الكيماويات الذى كان يعمل به . إنه يقول الآن بدأ أصحاب المصانع تكتيكات جديدة ، إنهم يستخدمون اسما لبعض الوقت ، ثم يغلقون المصنع ، ثم يفتحون آخر باسم جديد . وهم بهذه الطريقة يتهربون من دفع مستحقات العمال ، بما فيها أجورهم ، عندما أغلق المصنع طالب بمستحقاته القانونية ، فرفض طلبه . وتقدم حينئذ إلى الاتحاد ، ومنذ ذلك الحين غدر به صاحب المصنع ، وهدده بأنه لن يجد ألبتة عملا آخر فى صناعة الكيماويات . لقد جاء تيلكو من «اوتاربراديش» قرب «لوكناو» ، وليس لديه مدخرات ، ومات طفله الوحيد منذ فترة قريبة ، وقد مضى عليه اربعة شهور دون عمل .

فصل رامبابو لمطالبته بالحد الأدنى للأجر ، فى مصنعه الهندسى ، إنه يقول ، أنت تعمل فى مكان واحد لمدة طويلة . وتصبح عاملاً ماهراً ، غير أن مايُدفع لك من أجر يُدفع طبقا لمعدل العامل غير الماهر ، كان يعمل على ماكينة ، وله الحق فى أجر قدره ١٤٠٠ روبيه ، غير أنه كان يحصل على أجر ٧٠٠ روبيه . لقد ظل يعمل فى ذات المكان ثمان سنوات .

فى سبتمبر ١٩٩١ سار معا ، حوالى عشرة آلاف عامل من عمال اتحاد نقابات آى اف تى يو (اتحاد نقابات الهند) فى مسيرة عبر نيودلهى ، وكان بينهم بعض من الناس من أكثر من استغلوا وأُسئ إليهم فوق سطح الأرض ، كان هنالك عمال لايمتلكون أرضا من «أندهرا براديش» ، يكسبون من ١٥ إلى ٢٠ روبية فى اليوم ، مدة ستة أشهر فى العام - وكان هنالك الناجون من فظائع الطبقية فى بيهار ، وعمال من ورش إصلاح صغيرة من «بنجالور» و«تريفاندروم» ، مزارعون اضطروا للرحيل من البنجاب ، ويعملون الآن فى مصانع الصلب ، ويحسون بالمرارة من «الثورة الخضراء » ، التى ينظرون إليها باعتبارها من سلبهم أرضهم . عمال من ورش صغيرة منخفضة الأجور ، رديئة الأحوال الصحية ، ومن أوتاربراديش يعملون فى المنسوجات والمستحضرات

الصيدلانية والالكترونيات ، وعمال صلب من دلهى ، وسائقو ريكشو ، عمال يعملون فى إعادة تصنيع الزجاج ، وأيديهم وأذرعهم مغطاة بجروح تتقيح فى حرارة الرياح الموسمية الرطبة ، وطلاب من «ناجبور» ، وأولاد الذين لايمتلكون أرضا من «حيدر آباد»، ومجموعة من النساء من «كيرالا» ، وعمال صناعة الحبال من ليف جوز الهند ، وعمال «الكاشيو،» * على رأس الموكب باعلامه الحمراء التى تتطاير متحدية كل ماكتب من نعى حول وفاة الاشتراكية .

إنه موكب جليل للغاية ، مثير للعواطف ، إن الكثيرين من المشاركين شباب صغير للغاية مثل راجو وكومار وكلاهما فى الخامسة عشر ، وراجنيش فى الثامنة عشر ، من «هاربور» فى أوتار براديش ، وهم يعملون فى السلع الجلدية وصناعة الملابس ومصانع الكيماويات ، لقد جاءوا لأنهم رأوا أباءهم وقد شاخوا قبل أوانهم من الفقر والاستغلال ، عاجزين عن البقاء على أرضهم المحدودة ، غارقين أكثر فى الديون . لم يكن ماركس هو معلمهم ، لكنه كان ايقاع الأذى باللحم والدم الجدير بالحب ، والظلم الذى يدفع شبابهم وطاقتهم إلى مصانع قذرة وخطرة ، إن ذلك ، على عكس الإيمان بالقضاء والقدر ، هو الذى قاد امرأة عجوز ، بائعة خضراوات من أحمد آباد ، فى الخمسين من عمرها ، لتسافر ١٠٠٠ كيلو مترا من أجل مسيرة كيلو مترات قليلة من «تيلاك مارج» إلى بوابة الهند» .نسيج خشن ، نحيل ودون الحجم المعتاد ، من إنسانية مهانة من أجيال من الفقر وسوء التغذية ، وطوقهم رجال الشرطة ، مليئى الكروش ، من الجانبين ، رغم أن أحدا لم يعط لهم مبررا لاستخدام خيرزان البامبو (لاتيس) ضد الحشد المهيب الصامت والذى يشق طريقه ببطئ ، عبر تشوش وفوضى هذه المدينة العتيقة ، راجيف فى السابعة عشر من عمره ، مات أبواه قبل أن يبلغا الخمسين ، وقد قهرته حياة القرية وأفترسته ضوارى دلهى ، حيث يعيش راجيف على الرصيف ، إنه بأظافره المقصوفة وسراويله الرثة ومحاكاة مدربين يحملون بطاقات «ريبوك» الزائفة ، وندوب على اليدين حيث عمل فى بالوعات دلهى ، رأى أبناء مدن أخرى كثيرة وقد حطمهم الكحول والمخدرات ، إن الشئ الوحيد الذى يحميه من التقصير والإهمال هو ايمانه بالاشتراكية ، إن شعاراتهم يسقط صندوق النقد الدولى ، يسقط الكونجرس (١) ، عاش نضال الشعب – وسيارة اللورى البالية ، بنظامها الصوتى المسوخ ، تذيع أغان ثورية ، تبدو غير مؤثرة فى مواجهة مدينة فى حالة من الهياج ، بسبب هذا العائق للمرور فيها ، هذا الذى يؤخر أعمالها اليومية .

هنالك مستوى أخر للحزن هنا . إن استعمار الناس بالايمان الغريب بالماركسية اللينينية ، كامل على نحو يماثل التسليم الكلى لخصومهم بالمبادئ المقدسة لصندوق النقد الدولى والبنك الدولى ، إن غربتهم غربتان ، إنهم يؤمنون بعقيدة أجنبية فقدت الآن

* أشجار استوائية تعطى الجوز والصمغ (المترجم)

سطوتها في المكان الذى نمت فيه ، لقد فُقد احتمال أن تجد الهند طريقا آخرا بتراثها الغاندى القائم على الاستهلاك المتواضع والتقشف الاختيارى ، وكفاية ملائمة للجميع ، فُقد بين العقيدتين الأجنبيتين المتحاربتين ، والتى بقيت منهما واحدة فقط هى الرقص على القبور ، ليس فقط قبور الاشتراكية ولكن ايضا تعاليم غاندى وقد سحقتها الوعود الخادعة غير القابلة للتحقق ، بأن طريق الغرب قابل للتطبيق هنا .

إن قلب دلهى هو «كوناوغت بليس» وهو دائرة واسعة مفتوحة ، مثال بارع لعاصمة اللوتينيين الامبراطورية ، والتى يحد طرفها الخارجى بواكى بيضاء من المطاعم والمتاجر ومكاتب خطوط الطيران ، وهنالك فى الوسط ، بناء مستدير كثير الحشائش والأعشاب ، يستعمره الآن هؤلاء الذين جذبهم الوجود السياحى المتنامى فى دلهى ، والذى يقطنون عالما مختلفا تمام الاختلاف عن عالم العمال المهاجرين فى وازيربور . إن «كوناوغت بليس» لاتبعد غير مئات قليلة من الامتار عن بعض الفنادق الكبيرة ، وقد فتنت بسحرها خلقا ممن دُفع بهم قسرا ، ومن بقوا على قيد الحياة ، والعرافين والشحاذين والسريحة ، وبالمثل النُدل والغسالين والخدم الذين يستريحون تأهبا لعملهم فى خدمة الأثرياء .

الأمل منقوش فى الأعمال النشطة لنحت ايقونات عن المدينة فى صور من الروعة الخلابة والفتنة ، فى السيارات الليموزين الوزارية ، فى ملصقات الأفلام الجذابة ، والأسواق ، بل وحتى فى بزات الخدم الغريبة ، هذا هو المكان الذى تتحطم فيه حساسية المهاجرين من الريف ليعاد تشكيلهم فى صور أحلام وأوهام حياة سكان العاصمة ، وكل ماهو مثير فيها ، هنالك على الدوام تجمعات عنقودية من أناس يقفون خارج الفنادق الفاخرة ، يراقبون ببساطة النزلاء الأثرياء العابرين ، وربما يتساءلون فى دهشة عن تلك الصفات والمناقب الغامضة التى تفرق هؤلاء الغرباء عن هؤلاء الذين يطلبون عملهم دون جهد أو مسعى .

فى وسعك أن تجد فى كوناوغت بليس أى شئ تريد : من يخبرونك بالطالع ، من يقرأون الكف ، المنجمين ، مدلكين (بما فيهم من يقومون بتدليك الرأس ، وهى عملية حك عنيفة تتركك وقد فقدت معرفة وجهتك وقد خف عقلك) ، منظفى الآذان – وهم شبان يرتدون عمائم حمراء مهندمة ، يحملون حزماً من براعم القطن على أعواد . وهنالك من يجمعون المال من أجل الأيتام ، ومن أصابهم العمى و إرساليات البر والإحسان ولأنفسهم ، وباعة الفاكهة والخضراوات ، والملابس وخشب الصندل ، والمجوهرات والسجاد ، والأسورة والخلاخيل ، ووجبات الطعام الخفيفة ، «بهيل» ، «بورى» ، «بهاجيس» ، «شانا» ، و«اجارباتى» ، والجنس والمخدرات والنقود بمعدلات غيررسمية ٦٠ روبية للجنيه ؛ هؤلاء الذين يمكن أن تسألهم إن أردت القيام بعمل ما ، أو أى أعمال أخرى ، مثل ماذا تفعل بعد نهاية جدول اعمال اجتماع إحدى اللجان ،

سوف يجدون لك تاكسيا أو دراجة ريكشو ويأخذونك إلى المواخير ، حيث توجد فتيات من ١٠ روبيات إلى ١٠٠٠ روبيه ، وسوف يلعبون دور الدليل فى جولة فى دلهى ، يدلونك عن مكان العثور على الذهب والطيور الملونة من جنوب الهند ، وأين تجد الأحجار الكريمة ، وأعمال الفن الثمينة التى جاءت إلى السوق من اطلال «فاتهبور سيكرى» أو اقتطعت من تاج محل ذاتها .

إن الكثيرين ممن يعملون فى الفنادق جاءوامن «اوتارخاند» ، الجزء الشمالى من اوتار براديش ، عند سفوح جبال الهيمالايا ، إن كل شئ ، وكل شخص ، جاء من الجبال والتلال قد تحول ؛ الغابات غدت أخشابا ، الرجال غدوا صبية ، النساء فقط هن من بقين نساء .

لقد جاءوا من مناطق «جارهوال» و«كوماون» ، إلى السهول بلغاتهم وهويتهم المتميزة ، خدم ، صبية ، يعملون فى المنازل ، نُدل ، طباخون ، دخلوا صناعة الخدمات تحديدا للصفات التى جاءوا بها من ثقافتهم الجبلية التى أوقع الضرر بها ، لصراحتهم وأمانتهم ؛ إن مايثير السخرية هو أن صفات قليلة فقط ، استنقذت من الثقافة القديمة ، هى التى يجرى استغلالها ، بينما تتفسخ البقية ، ربما يكون ذلك هو السبب فى وجود مثل ذلك التيار التحتى القوى من الكآبة فى منفاهم ، التوق الشديد بعد العودة ، ومع ذلك فهنالك إحساس بأن شيئا ما قد تغير ، ولايمكن استرجاعه عند الانتقال إلى السهول : إنه تسطيح النفس أيضا ، إن مماله دلالته ، أن النساء اللواتى بقين هن اللواتى تغلبن على المصاعب وقاومن ، لقد هرب الرجال ، فقد هزموا ، إنهم يفرون ، وكان على النساء أن يبقين وأن يخلقن حياة لائقة ، من تلك المناظر الطبيعية الريفية التى تدنت ، والغابات التى أضيرت .

إن «تاينيتال» ، فى كوماون ، العاصمة الصيفية القديمة للأقاليم المتحدة «لأجرا» و «أوده» ، ولقد تأسست فى أربعينيات القرن التاسع عشر ، ومازال العديد من الكنائس البريطانية والمدارس والفنادق موجودة ، وان كان بعضها فى حالة محزنه من الدمار ، إن فندق «الفينستون» ، والذى يطل على بحيرة نابنيتال ، بناء ملئ بالنقر والتجاويف ، به أجنحة عتيقة متشامخة ، حيث أقامت يومازوجات وأطفال الرسميين البريطانيين ، إن له رائحة الرطوبة ، وقت الرياح الموسمية والأمطار ، به مرايا يغطيها وسخ الذباب ، واثاث كولونيالى ، وخزائن للأطباق وأدوات للطهو منحوته ، وعفن يزدهر، ينتشر على جدران تتقشر وتتسلخ ، كان المسئولون البريطانيون يجيئون إلى هنا وقت الصيف ليتجنبوا الحرارة شديدة الوطأة فى السهول : كانت المستوطنة كلها فى الأصل من البيض ، وكان الحمالون الأجراء من الهنود ، يعانون وهم يعملون على الدروب المنحدرة لجانب التل ، يحملون نساء الرسميين البريطانيين وهن فى مقاعدهن وهوادجهن ليضعوهن قرب البحيرة الباردة الصافية . وجاءت السكك الحديدية إلى

أسفل التل فى تسعينيات القرن التاسع عشر ، إلا أن حركة السفر باستخدام السيارات لم تظهر حتى العشرينيات من القرن العشرين ، لقد غدت ناينيتال مكانا تتردد عليه أفواج السياحة الكبيرة منذ عشرين سنة فقط ، إن الأجانب مازالوا يجيئون فى أبريل – يونيو ، غير أنه عندما يبدأ حلول موسم الأمطار فإن من يجيئون ، فى الأساس هم من الهنود ؛ كل شئ فى أغسطس مشبع بالرطوبة ، ويخفى الضباب ، الذى لاينقطع ، الأنهار الجليدية الكبرى الوردية والزرقاء ، ويستقر فوق المصاطب الرخامية والأشكال الحجرية المزدانة المحطمة .

لقد غدت البحيرة الآن مكانا ملوثا كئيبا ، أخضر بلون الزيتون . إنها محاطة بجماعات من باعة الوجبات السريعة والتذكارات والملابس والمصنوعات اليدوية والمنتجات الفنية . العمال النيباليون يحاصرون ، فى موقف الأوتوبيس ، كل اتوبيس وكل سيارة تاكسى قادمة من «هالدوانى» ، بحثا عن زبائن للفنادق الخالية ، أو يحملون أمتعة هؤلاء الرجال الذاهبين من السهول إلى منازلهم لقضاء الأجازة السنوية .

جاجات صبى جبلى ، لم يعش أبدا فى الجبال ، كان أبوه مزارعا قرب ناينيتال ، غير أنه توفى وجاجات فى السنة الأولى من عمره ، ولم يترك أخو الأب ، الزوجة وطفليها كى يبقوا حيث هم ، ولذا جاءت مع جاجات وابنتها تولسى البالغة من العمر خمس سنوات إلى السهول ، إلى هالدوانى ، وهى المدينة المتاخمة قبل أن يصعد المرء إلى ناينيتال ، ووجدت مأوى فى سقيفة فى أرض عائلة چوچيراتية غنية ، تمتلك ١٠٠اكرمن الأرض الزراعية الخصبة ، وكذلك مصانع فى بومباى ودلهى ، عملت لديهم طباخة ، وكذلك فى الأرض ، وخاصة فى موسم الحصاد ، إن نارولى ديفى الآن فى الثانية والخمسين ، امرأة ضئيلة ، قوية اليدين بطريقة غير متجانسة بسبب سنوات من العمل اليدوى . لقد استطاعت ، بالعمل احيانا لستة عشرا وثمانية عشر ساعة يوميا ، أن توفر ، عبر السنوات ، بعض النقود . كان مستخدموها ، كما تقول ، طيبين معها ، فاستطاعت بمعاونتهم أن تشترى خمس بيغات من الأرض (أقل قليلا من اكرواحد) . وقد عملت ابنتها أيضا فى الحقول مع أمها ، غير أن جاجات سُمح له بالدراسة . ذهب إلى الجامعة وحصل على درجة فى الاقتصاد والتجارة ، ونال دبلوما فى التربية البدنية، والتحق بقوة أمن الحدود ، إنه يتمرن ، بعد تدريبه الأساسى ، على لقاءات الألعاب الرياضية التى تحدث فيما بين فرق الجيش . إنه عداء مسافات قصيرة جيد ، وقد بلغ ، وهو فى الخامسة والعشرين أوج لياقته ، ونادرا ماكان يتخلف عن الفوز فى سباقات ١٠٠ مترا ، ٢٠٠ مترا ، ٤٠٠ مترا ، إنه يطمح فى أن يكون مدرسا للتربية البدنية فى كوماون ، حتى يمكن بذلك العودة إلى منطقته .

يستغرق الأوتوبيس ثمان ساعات من دلهى ، وتتخذ دراجة الريكشو من هالدوانى طريقا جانبيا ، تحده الورش الصغيرة ، والذى سرعان مايتدنى إلى درب وعر قذر

تنتشر فيه الحفر والنقر المليئة بماء الأمطار . ويقود هذا الدرب إلى مزرعة رانى ، التى يجب اجتيازها قبل الوصول إلى قطعة الأرض الصغيرة التى تعيش عليها أسرة جاجات . وتبين الآن السقيفة المهجورة التى شب فيها ، تقطع النساء والأطفال العلف للماشية فى الحقول ، إن مزرعة رانى مزروعة بالصويا والبقول والأذرة .

وتحوم فراشات حمراء وبيضاء وسوداء فوق الأعشاب العطرة ، والزهور البرية على حافة الحقول والبرسيم وبرتقال «الكارو» الحلو ، يفصل صف من اشجار الأيوكاليبتوس* قطعة أرض نارولى ديفى الصغيرة عن المزرعة الرئيسية ، هنالك زريبة مواشى عند الطرف ، توجد بها ثلاث جواميس وبقرة . وفوق السقيفة نبات «اللوخى» المتسلق ، وهو نوع من القرع ، أزهاره صفراء مثل القشدة ، وعنزتان مربوطتان إلى عوسج أسفل الأشجار .

بدأت نارولى ديفى بناء المنزل الذى سيسكنه جاجات عندما يتزوج ، إنه مبنى مكون من طابق واحد ، بأرضية خرسانية وحوائط من القرميد وسقف من «الباكا» ، سوف يختزن فوقه حطب الوقود الذى يحتاجه فى موسم الأمطار ، لايوجد به حتى الآن حمام أو كهرباء ، إن البيغات الخمسة تلقى العناية الفائقة منها ومن ابنتها . إنهما يزرعان الأذرة والصويا والأرز لاستهلاكهما الخاص ، لقد اشترت تلك القطعة الصغيرة من الأرض منذ سبع سنوات مضت بمبلغ ٢٥٠٠٠ روبيه ، والآن تضاعف ثمنها أربعة أمثال . هنالك إلى جوار المنزل أشجار المانجو و«البابايا» ** و«الآرو» و«السيتافول» . وهنالك أعشاب طبية وأزهار الفلفل الأحمر النجمية البيضاء ، وتظهر الأم ، شخصية رقيقة هشة ، وفوق رأسها حمل من العلف . ترى ابنها ، غير أنها لاتسرع الخطى حتى تضع حملها إلى جوار الزريبة ، ويلمس رأسها فى ولاء وتقدير فتبتسم ، ويحى شقيقته بنفس الطريقة ،ثم تذهب لتقطع الخضراوات من مزرعة رامى ، التى سُمح لهما بأن تأخذا منها ماتحتاجان لاستخدامها الخاص .

البيت مرفوع على رصيف مدهون بالأحمر والأسود ، حتى لاتدخله مياه الفيضانات، هنالك ثلاث حجرات ، احداها خاصة بجاجات ، بها سرير خشبى ، ومنضدة صغيرة ، لها مقعدين من الألونيوم والبلاستيك ، وهنالك خزانة كتب صغيرة ، وأرفف عليها جوائز انتصاره فى العدو ، كؤوس صغيرة علاها الصدأ ودروع من معدن أدنى . الحقل اخضر زاه بنبت الأرز الذى مازال صغيرا ، وضوء الشمس المتقطع يتلألأ على قطرات المطر ، التى أمسكت بها أوراق الشجر ، مثل البلورات ، ويحط طائر ضئيل دقيق على نصل ورقة الأذرة ، فلاتكاد تنحنى تحت وزنه .

---

* تستخدم أوراقه وأزهاره طبيا (المترجم).

** شجرة استوائية ثمرتها صفراء مستطيلة صالحة للأكل (المترجم).

العائلة تنتمى إلى الراجبوتيين ، وهى فخوره بأنها احتفظت بوضعها الاجتماعى حتى عبر سنين الفقر ؛ وجاجات يحس بأن واجبه يملى عليه استرداد ثرواتها ، إنه لايؤمن بالتمييز الطبقى ، لكنه يقول أن أمه لن تسمح بدخول «منبوذ» إلى مطبخها . هنالك نبات «الجوبارجاز» للطبيخ ، وهو يكلف ١٠٠٠٠ روبيه يجئ نصفها من حكومة الولاية ، إن نارولى ديفى تشير إلى أشجار «الخيمو» و«الأمروث» ، ونبات «الكاريلا» الزاحف ، وأشجار الليمون والنعناع التى تزرعها لتصنع منها« الشوتى»، وتطير فوق الرؤوس «الشينتولا » والبلابل ، وفراشات رمادية فاتحة فى لون الزعفران ، فى مواجهة سماء رمادية –فضية ، وهنالك إلى الوراء ، الجبال تحف بها الأشجار ، ويخفى الضباب القادم مع أمطار الرياح الموسمية التى لاتنقطع معالم الجبال الحادة، وتسير بحذاء قطعة الأرض قناة رى تمدها بالمياة طوال العام .

تستيقظ الأم والابنة فى الخامسة صباحا لحلب الجاموس. إنهما يأكلان الأرز والعدس فى منتصف النهار ، والشاباتى والخضراوات فى المساء ، إن الأم ترتدى ساريا ورديا وأخضر اللون مع غطاء وردى . لقد بدأ اللون الرمادى يغزو شعرها . تولسى ديفى مريضة ، إنها تعانى من آلام جادة فى جنبها ، ويجب أن تذهب لإجراء عملية فى الأسبوع القادم ، إنها تريه الدواء الذى أُعطى لها: مضاد حيوى فى كبسولات برتقالية شاحبة اللون ، وزجاجة كبيرة من دواء منشط ، إن جاجات سوف يظل معها فى المستشفى يأخذ إليها الطعام ، ويبقى بصحبة والدته ليلاً .

تجلس المرأتان تنظران إليه طوال الوقت ، ان أملهما وحبهما ملموسان بصورة موجعة فى سكون مابعد الظهيرة ، إنهما يُريانه الأدوية ، هل سيكون كل شئ على مايرام ؟ إنه يحس بعيونهما عليه ، يحاصره ثقل مشاعرهما التى تملؤ الحجرة بكثافتها، وحاجتها القلقة للإطمئنان ، إنه ينهض ويسير حول المنزل ، عيونهما تتبعانه ، إن جاجات يعرف أنه يجب عليه العودة إلى هنا ورعاية أمه وشقيقته ، لقد تزوجت تولسى ديفى ، لكن زوجها كان سكيرا وتركها ، لايوجد أحد آخر يعتنى بهما ، إنه أيضا يحس بقوة علاقته بهما . إنه يشبه أمه ذات العيون التى يتمتع بها أناس الجبل، نفس الأيادى رغم أن يديه ليستا مصابتين بالندوب ، ونفس الثغرة بين السنتين الأماميتين ، لو كان فى وسعه أن يختار ، فربما اختار البقاء فى دلهى ؛ إلا أن الخيار لاتحكمه حرية الاختيار عندما يكون اللحم والدم مرتبطين معاً بقيود الضرورة تلك ، سوف يحس بحياته محاصرة متناقصة ، بعد حماس كونه عداء بطلا ، والرحلات إلى كلكتا ومدراس من أجل المباريات التنافسية داخل الجيش ، إنه يسير إلى السقف الخرسانى ، وقطرات مطر ثقيلة تطرطش فوقه ، ثم تجف للحال من الحرارة الخافتة لشمس مكفهرة ، إنه يشير إلى الكوخ الموجود على قطعة الأرض المجاورة ، هنالك ، يعيش رجل يعمل بالمشاركة فى المحصول ، فى أرض تنتمى إلى مالك متغيب يعيش

بعيدا عن الأرض ، ويتلقى نصف المحصول ، إنه يدرك حسن طالعه بسبب كد أمه وتفانيها ، إنه لايستطيع التعبير عن مزيج الألم والحب ، والرغبة فى أن يغادر ، يهاجر إلى الخليج ، والحاجة إلى البقاء .

إنهم يتحدثون اللغة الكوماونية ، إن لغة الهند الشمالية لغة أجنبية بالنسبة لنارولى ديفى . إنهم ينزلقون بسهولة إلى اللغة المحلية ، إنهما تسألانه إن كان سيتزوج فى السنة القادمة ، فيقول إنه على استعداد لذلك . لقد وفر ٥٠٠٠ روبيه من راتبه الشهرى وقدره ٣٠٠٠ روبيه ، يرسل بثلثه إلى المنزل . تولسى تعد الطعام رغم مرضها ، إنها ترتدى ساريا أبيض به دوائر صفراء ووردية ، إن وجهها نحيل وأجوف . إنها تغسل الأطباق الألمونيوم فى دلو من الزنك ، وتفرز حبوب الأرز التى فى لون القشدة ، المنزل عادى وبسيط ، وهنالك إلى جوار الباب أدوات فلاحة الأرض – معزقة وفأس ومنجل ، جاجات ذكى ، ليس بالمثقف ، طبيعى للغاية ، فخور بمهارته التى يتناولها بجدية بالغة ، له وجه جبلى ، يراه الناس نيباليا فى الغالب ، جلده ذهبى وعيناه كالعنب . كان محظوظا بالمرأة التى تحبه ، غير أن الجانب الآخر لهذه الميزة هو أن يشارك أمه واخته مشاعرهما ، وأن يفعل ماهو متوقع منه ، مهما كان مردود ما يفعله عنيفاً على رغباته الخاصة ، لقد دمر العالم الحديث وعيه بذاته ، لكنه لم يدمر إحساسه بالواجب ، المنزل فى انتظار تحسين أحواله ، وجسد أمه المتعب وحصة الأرض الصغيرة التى اعتنى بهاعناية جيد ة من ناحية، وما يثير فى المدينة ، والمنافسة الشديدة للقاءات الألعاب الرياضية والعلاقات الاجتماعية الأوسع من ناحية أخرى . يمكنك أن تحس بإغراء الهروب والفردية من ناحية أخرى ، وجذب كل ماله علاقة بالجذور والتقاليد ، فى ذات الوقت ؛ إن هذا التوتر الذى يتكرر لايحدث فقط مع هؤلاء القادمين من أسفل جبال الهيمالايا ، ولكن أيضا مع أبناء الريف من كل أنحاء العالم .

يعيش شيخار باثاك فى ناينيتال ، ويقوم بتحرير «باهاد» ، وهى مجلة عن حياة وثقافة الجبال ، إنه يعيش على أحد سفوح الجبال التى تطل على البحيرة ، درجات منحدرة وممرات ضيقة متعرجة تملؤ الجبال ، وقد نمت عليها الأخشاب والسراخس ، والأقحوان الأبيض والعشبة المُرة الزرقاء ، إن المنحدرات تتراكم ، فى بعض الأماكن فى ارتفاعات تصل إلى ٢٠٠–٣٠٠ مترا ، غير أنها هشة للغاية فى أماكن أخرى . لقد اختار شيخار العيش والعمل هنا فى جامعة كوماون . إنه يقول عن التنمية فى كوماون، «التنمية ضرورة هنا – غير أن لكوماون سمات خاصة ، مما يعنى أنه لايتوجب علينا مجرد اتباع الطريق الغربى . إن ستة «لاخ» (٦٠٠٠٠٠) من الناس يجيئون هنا كل عام ، خاصة من شمال الهند ، هذه المنطقة هى واحدة من المناطق الآمنة ، حيث لاتوجد متاعب مثل تلك التى فى كشمير أو البنجاب . غير أن أعداد الناس أكثر مما تستطيع البنية الهشة احتماله . لقد حول البريطانيون اقتصادا غير نقدى إلى اقتصاد

نقدى ، الغابات والمعادن لم تكن بالنسبة لهم غير مصدر للدخل والإيراد ، وحولوا العديدين من شبابنا إلى جنود ، قاتلوا فى الحرب الأفغانية ، وفى الحربين العالميتين ، إن الصوف والجلود والفراء والأحجار والمعادن والنباتات - ثقافة الجبل كانت فى كل وجه من الوجوه معتمدة على ذاتها ' لقد غزلت التقنية المحلية الصوف ، وصنعت أدوات وأوعية من النحاس والحديد ، وقدمت فنونا ومهارات فنية يدوية ، وأشغال خشبية ، إن نزوح الرجال إلى السهول حكاية قديمة ، إن القليلين منهم يرغبون فى العودة ، كما إن المجتمع الريفى لايرحب فى الحقيقة بعودتهم ، إنك إن عدت كمهاجر ، فمعنى ذلك انك قد فشلت ، والأرض التى ستحصل عليها سوف تكون أرضا رديئة النوعية ، إن شبابنا يذهبون فإن حصلوا على وظائف جيدة أرسلوا نقودا إلى ذويهم ، مما يساعد فى الإبقاء على سكان «اوتارخاند» - ٦٠ «لاخا» هنا ، غير أن نصفهم مرة أخرى ، يعمل مثل الكثيرين فى الخارج ، هذه هى المساهمة التى تقدم إمكانية تواصل واستمرار تلك الجبال الهشة - ماكان فى إمكانهم جميعا العيش هنا ، إنهم يحلمون بالفعل بالعودة ، غير أن السهول غيرتهم ، وظلت العودة حلما.

البيئة شئ ما يجب الحياة فيه . العيش والبيئة يتفاعلان ، إن أنت حافظت على البيئة دون تغيير ، فإن ذلك يستلزم ضرورة إبعاد الناس ، لقد بدأت «الشيبكو» فى الأصل كحركة اقتصادية . كانوا يريدون أخشابا بصورة متواصلة من الغابة لبدء صناعة صغيرة المدى ، فإن أنت تحدثت عن الوسط المحيط كبيئة خالصة ، فهنالك إمكانية أقل لمشاركة الناس ، إن الشبيكو حركة فلسفية ، وممارسة للاقتصاديات المتواصلة ، إقتصاديات حافظة ، ورؤية للمجتمع فى ذات الوقت ، إن نحن حافظنا على الأشجار وقمنا بحمايتها ، فذلك من أجل أن نصبح قادرين على استخدامها بطرق معتدلة ، لاتسبب أضرارا ، استخدام عملى للموارد، إن الدراسة العميقة للبيئة جذابة فلسفيا ، لكنها مستحيلة اقتصاديا واجتماعيا .

«إن المرأة هى التى تظل باقية ، رغم أن بعض الفتيات اللواتى تعلمن ذهبن إلى الخارج أيضا ، الرجال يحسون بحصولهم على درجة ما بأن لهم حق المطالبة بوظيفة ، أما النساء فليس أمامهن بديلا ، لقد كانت النساء هن حارسات الغابة ، كما أنهن يناضلن باسم الرجال ، الذين يعاونون أيضا فى دعم النساء من خارج المنطقة ، إن المرأة هى من تصون وتنقل اقتصاد وثقافة الجبال .

إن المنطقة قد تآكلت بصورة رديئة ، إن ١٠٪ فقط من الغابات هى التى مازالت غابات عذراء ، أكثر من ٦٠٪ منها أشجار ذات فروع منتشرة كالخيمة ، إن ٢٩٪ مغطاة بالغابات إلا أن تلك المساحة تتضمن غابة مفتوحة ، وأرض بلا أية غابة ، إن الغابة التى يوجد بها أكثر من ٦٠٪ منهاأشجار ذات فروع منتشرة كالخيمة قد هبطت

إلى ١٠-١٢٪ لقد أوقع الضرر الكلى بثمانين فى المائة ، هنالك أجزاء فى دلهى توجد بها الأشجار ذات الفروع المنتشرة بصورة أكثر كثافة من أى من غاباتنا».

إن شيخار باثاك يقظ للغاية للموضوعات الاجتماعية والاقتصادية وعلاقتها بالبيئة . إن عملية «التنمية» ذاتها ليست مسألة محل تساؤل ، بالنسبة لأهالى كوماون ، لكن المسألة هى الاعتداء المنظم على قاعدة - الموارد باسم التنمية .إن الشيبكو ليست نموذجا ، إنها أشبه كثيرا بفكرة ، بفلسفة ؛ ولكن إن لم يكن فى الإمكان تعريف الأساس الاقتصادى للنضال البيئى ، فإنه لن يكسب قبولا شعبيا . إن المشكلة الآن ، هى أن مجتمعات هامشية قليلة تعتمد الآن بوضوح على قاعدة الموارد : إن «التنمية» عن الغرب سعت بالفعل إلى إخفاء تلك العلاقة - الأمر الذى يحدث فى كل المجتمعات البشرية . والنتيجة ان الاهتمامات الوقائية تجئ لتظهر هؤلاء الذين بلا هموم مادية من أجل التنمية ، هؤلاء الذين ينكرون أن تكون التنمية للفقراء ، والذين يدركون بدورهم أن السبيل للإنتاج المادى للمجتمع الصناعى هو الأمل الأكثر إلحاحا والزاما من أجل مستقبلهم .

عندما يجبر الناس ، الذين يدفعهم انهيار البيئة أو الضرورة الاقتصادية إلى ترك القرية أو المزرعة ، فإنهم غالبا مايفترضون أنهم سوف يتحررون من ازعاج المناطق الريفية ، ومايقع فيها من عمليات طرد أو نزع ملكية ، غير أن التجربة الحضرية ، فى الغالب الأعم ، تواصل حكاية الإزاحة والاضطراب الريفى ، ولايقتصر ذلك فقط على الأكثر فقرا.

لقد استوطنت «اشوك بخار» فى جنوب غرب دلهى ، مابين ١٩٧٢ ، ١٩٨٠ ، ٤٥٠ عائلة اشترت قطع أرض باعها الملاك بربح معقول ، لمن سيقومون بتنميتها . تأسس المجتمع بطريقة قانونية ، وتوقع هؤلاء الناس الذين يعيشون هناك بناء مسكن متواضع على أرضهم ، وشكل السكان عام ١٩٨٠ «جمعية رفاهية أشوك نجار».

اتسعت دلهى عبر بدايات الثمانينيات وارتفعت أثمان الأرض سريعا ، إن أكثر من ١٦٠,٠٠٠ يجيئون الآن إلى دلهى كل عام . البعض منهم يجئ لعمل موسمى أو مؤقت، غير أن الغالبية لاتعود إلى القرى ، وألقى هذا بضغوط هائلة على السكان ، وبصورة متزايدة على أثمان الأرض ، بسبب الامتداد الهائل للمدينة ، كان على هؤلاء الذين يعيشون فى الجوجيس (الأكواخ) أن يدفعوا إلى الزعيم أو سيد البيوت القذرة المكتظة، والذى له روابط بالشرطة أو السياسيين ، هنالك العديد للغاية من أعمال هدم المستوطنات غير المسموح بها ، حتى أن تلك الأعمال لم تعد تشكل جديدا ، بالنسبة لأى أحد . غير من وقعت عليهم ، هنالك على الدوام قدر كبير من أعمال البناء تجرى فى دلهى ، غير أن المستفيدين دوما هم الأثرياء ، وحتى مايسمى بالاسكان منخفض التكلفة يذهب إلى هؤلاء القادرين على دفع الإيجار ، وهم من غير الفقراء .

إن الملاك الذين باعوا فى الأصل أرضهم ، أدركوا أنهم لو كانوا استمسكوا بها لحققوا أرباحا أكبر ، ومن ثم خططوا لإعادة امتلاكها بالقوة ، وطرد هؤلاء الذين استقروا عليها قانونيا . وشارك فى هذه المكيدة بعض الموظفين رفيعي المكانة فى «هيئة تنمية دلهى» والإدارة ، رغم حقيقة أن تلك الجهات اجازت فى الأصل بناء هذاالمجتمع ، واستأجر الملاك قتلة مأجورين لإخافة الناس وتهديدهم ، وهوجمت البيوت وسرقت وحُرق بعضها واعتدى على من احتج ، وضُرب موهان سينخ رئيس الجمعية وأصيب بإصابات بالغة - لقد جاء موهان سينغ إلى أشوك نجار عام ١٩٧٨ من «هاردوى» فى «اوتاربراديش» ، وحصل على وظيفة حكومية ، وعاون مع القاطنين الآخرين فى تخليص الأرض والأشجار الشجيرات الضئيلة ، ووطد غالبيتهم وضعه رغم أن الوظائف كانت متواضعة - موظف صغير فى منظمة الصحة العالمية ، فى بنك العمال ، أصحاب أعمال صغيرة ، وأخذ العديدون قروضا أصبحوا غير قادرين على سدادها بعد طردهم ، وتقدموا بشكاوى إلى الشرطة والولاية ثم ا لحكومة المركزية ، وكتبوا إلى رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية ، غير أن شيئا لم يحدث .

وساعدت « هيئة تنمية دلهى» ، بالتحالف مع الملاك على إقامة «مجتمع تعاونى سكنى» ، للذين بيعت لهم قطع أرض ، من مَن طُردوا أو نُزعت ملكيتهم ، لقد أعلنت «هيئة تنمية دلهى» عام ١٩٨٠ ، نيتها الحصول على الأرض بناء على «المصلحة العامة»، وباسم «التنمية المخططة لدلهى» وقانون إحراز الأرض» ، ولم تتبع الإجراءات الصحيحة ، ولم يعرف القاطنون عنها شيئا ، وأعلنت «هيئة تنمية دلهى » فى سبتمبر ١٩٨٢ أنها سوف تقوم بتنمية الأرض ذاتها . وأعدت قائمة مزيفة باسماء اناس تسلموا تعويضات ، وأكملت كل الإجراءات القانونية فى يوم واحد فى سبتمبر ١٩٨٢ ، فى الوقت الذى كانت غالبية الأرض قد تم انتزاعها بالفعل وتحويلها إلى ملكية الآخرين.

وتقدم السكان الأصليين بعريضة إلى محكمة دلهى العليا عام ١٩٨٤ . وأمرت المحكمة بوقف البيع . ولم يحدث شئ ، وانتهكت أوامر المحكمة . كانت اشوك نجار طبقا لهيئة تنمية دلهى مستعمرة غير مسموح بها ، مثلها مثل كثير غيرها ، ومن ثم ، فإنه ليس للقاطنين أى حق أو أرض أو تعويض ، وأفترض أن أشوك نجار ماهى إلا حالة أخرى من حالات الطرد وانتزا ع الملكية من مستوطنة غير قانونية .

إن المستوطنة الأصلية قد أصبحت الآن مكانا معزولا ، بيوتا خربة وقطعا محطمة ، إن «تعاونية الإسكان» تقيم الآن بلوكات متعددة الطوابق ، إن الأرض التى بيعت عام ١٩٧١-١٩٧٢ بسعر ٢٥ روبيه للمتر المربع ، بيعت مرة أخرى فى الثمانينيات بـ ٤٠٠ - ٥٠٠ روبيه للمتر المربع . والعائلات الجديدة التى استوطنت هى عائلات على صلة قرابة بالملاك ، وقد شكلت «جمعية رفاهية أشوك نجار» ، جمعية جديدة عام ١٩٨٧. إن

أرض ومنازل الناس الذين رُحلوا اضطرارا مازالت تباع وتباع ثانية ، فى تحد لقرار المحكمة . ولم يتخذ أى عمل على الإطلاق لحماية حقوقهم ، إن كل السلطات ، بما فيها أعلاها قد خضعت للضغوط الاقتصادية للملاك والسياسيين .

إن دلهى يجب أن تكون من الأماكن القليلة على ظهر الأرض التى يعلن فيها الناس عن خدماتهم ، خارج أعمالهم على لوحات اعلانات باعتبارهم «تجار ومستوطنى عقارات»، إن مطالب أشوك نجار حول ضرورة عودة منازلهم إليهم ، وضرورة وقف النشاطات غير القانونية للملاك ، وضرورة إجراء تحقيق على مستوى عالٍ فى الحوادث التى جرت فى أشوك نجار ، لم تلق غير التجاهل .

استبدال المجال الحيوى

إن غالبية سكان العالم ، المكون من ٥.٥ مليار نسمة ، سوف تصبح كما هو متوقع ، أغلبية حضرية ،فى غضون العقد القادم ، أوما يقارب ذلك . والنتيجة أن أقلية ، فى طريقها للزوال ، سوف تكون مسئولة عن تغذية الباقين ، إن هذا نادرا مايقلق بال سكان العالم الثرى ، حيث أصبحوا معتادين على ارتباط قسم ضئيل من السكان فى مجتمعهم بعملية الزراعة كما أنهم لايحسون بالأسى ، لأن مزيدا من الناس قد اندمجوا فى صناعة الغذاء أكثر من اندماجهم فى زراعة الغذاء .

إن عملية الهجرة الريفية الحضرية هذه كانت تجرى منذ بداية الحقبة الصناعية ، وهى قد اقتضت زراعة للأرض أكثر كثافة . حقا ، كانت كل من الثورة الصناعية فى بريطانيا ومشروعها الكولونيالى جزئيا ، رد فعل لأزمة بيئية مبكرة ،عندما اصطدمت تنمية البلد بحدود قاعدة - مواردها . إن كتلة الأرض البريطانية المحدودة عجزت عن دعم سكانها المتزايدين ؛ إن ازالة الغابات بصورة حادة استنفذت الأخشاب المتاحة للبناء ، وللوقود ولبناء السفن فى بداية القرن التاسع عشر ، كما أن الضغط على الأرض من أجل العلف اللازم للماشية وحيوانات الجر كان ينافس ذلك المطلوب للغذاء . إن مثل تلك الضغوط كان يجرى التغلب عليها بضم أراضى من أجزاء أخرى من العالم ، التى لم تقدم فقط المواد الأولية للتوسع الصناعى ، لكنها قدمت أيضا ملاذا لهجرات «فائض» سكان بريطانيا ، سواء كان ذلك قهريا عبر النقل ، أو كمغامرين مكتشفين لتخوم جديدة .

إن اخضاع أراضى الشعوب الأخرى كان دوما مسألة جوهرية لخلق ثروة الغرب ، سواء كانت «مكتشفة» ، أو تم الاستيلاء عليها من سكانها الأصليين ، كما حدث فى شمالى وجنوبى أمريكا واستراليا ، أو بالقهر العسكرى والاحتلال ، كما حدث فى الهند وأجزاء كبرى فى أفريقيا ، وهذا هو سبب أن تلك الوصفات الخاصة «بالتنمية» والمنشورة بمثل ذلك اليقين الجليل ، بواسطة خبراء غربيين الآن ، هى وصفات مخادعة وغير معقولة .

ليست المسألة أنها لاتحمل إجابة إلى الأراضى المستنزفة المتبقية للقهر والفتح ، عندما تظهر ، كونيا ، فى منتصف القرن العشرين ،ضغوط مثل تلك التى حدثت فى بريطانيا ، تظهر الإجابة على أنها تكمن فى توسيع وتكثيف زراعة مصنعة ، إن وسائل الخلاص والنجاة ، منذ الستينيات، قد غدت معروفة «بالثورة الخضراء » ، والتى لاتقوم على العمل مع الطبيعة ، ولكن تقوم على قهر الطبيعة بوساطة مدخلات مشتراة عالية

التكلفة من المخصبات والمبيدات الكيميائية ، وكان هذا من أجل الحصول على انتاجية عالية من التكلفة من أنواع مهجنة من الأرز والقمح ، إن «الثورة الخضرا» ربما تكون اكثر الانجازات التى تتباهى بها استراتيجيات التنمية المتصورة كرد على خطر السخط الجماهيرى والثورات فى العالم الثالث ، وإلا وضع ذلك السخط وتلك الثورات الحكومات فى موقف معاد للمصالح الغربية ، كما أن القول بإدخال الزراعة المصنعة ، الذى حدث بسلامة نية دون إدراك لنتائجها المحتملة ، قول غير صحيح.

إن فاندانا شيفا يصف فى كتابه «عنف الثورة الزراعية» ، كيف أن العديد من الاقتصاديين الهنود فى الستينيات ، وكذا رئيس الوزراء لال بهادور شاسترى سعوا إلى مقاومة استيراد أنواع جديدة ، أنواع سوف تكون زراعتها عالية التكلفة ، كما أنها ستزيح العديد من صغار المزارعين .

لقد غدا واضحا ، منذ فترة قريبة ، أن انجاز الثورة الخضراء ، لم يكن فقط على حساب خصوبة التربة وتلوث الأرض وانهاكها ، وتسميم التربة والماء ، لكنه كان أيضا بالبطش بالثقافة الإنسانية وتفسيخ المجتمعات الانسانية ، إن فاندانا شيفا يربط بين التمزق البيئى والتمزق الاجتماعى للبنجاب باسم التنمية ؛ إن ماتعدُّ الآن واحدة من أغنى مناطق الهند ، هى أيضا الأكثر تعرضا للعنف والألم بسبب النزاع الاجتماعى وعدم المساواة والخوف ، إن هذا يعزى زورا إلى الطائفية : إن الحرب الدينية الحقيقية تجئ مما اعتقد به هؤلاء الذين فرضوا ورطة تكنولوجية أجنبية على مجتمع ، عاش فيه معا ، أناس مختلفى العقائد فى سلام لعدة اجيال ، إن إيمان الغرب بعلمه «مطلق-القيمة» ، ونظامه الاقتصادى الذى يقوم على العقل والحقيقة الموضوعية ، قد غدا الخلطة الأيديولوجية الأشد خطرا حتى الآن ، والتى أطلق لها العنان فى العالم ؛ كما أنه النظام الأكثر اضرارا لإنكاره الشديد أى شئ من هذا القبيل .

حقا هنالك فى هذا الإيمان فكرة عميقة الجذور للغاية ، هى السعى لمزيد من المعجزات التقنية ، من أجل الإفلات من حدود وقيود هذا «الحل» لمشكلة الجوع ، إن التقنية الحيوية هى محل الرجاء والأمل باعتبارها المحرر الأكثر حداثة للبشرية من تهديد نقص الغذاء . وقد نُظر إلى الثورة الخضراء باعتبارها وسيلة لتجاوز قيود الطبيعة ، والتى نُظر إليها باعتبارها جالبة الندرة ، كان القصد هو تحرير البشرية من الخنوع لتقلبها وتغيرها وعدم الركون اليها ، وفى نفس الوقت ، جلب السلام والاستقرار لتلك البلدان التى يهددها التفكك الاجتماعى بسبب الفقر وعدم الأمن والأمان ، إن الوعود الأخيرة للتقنية الحيوية ، إنما هى مشابه لهذا المشروع المبكر ، وكلاهما يتضمن فكرة أن الطبيعة معادية للبشرية ، وأننا فى وسعنا التغلب على أهوائها بواسطة التسلح الحكيم الفطن بالعلم والتقنية ، إن العلم يُنظر إليه باعتباره

بديلاً عن السياسة والطبيعة ، لأنه يزيل الحاجة الى إصلاح زراعى ، ويمحو الندرة فى ذات الوقت .

لقد غذى المجتمع الصناعى الوهم بأنه فى وسعنا الإفلات من ايقاع العالم الطبيعى ، من الفصول ، ووقت البذر والحصاد ، وكما يبدو تقريبا من الميلاد والموت ، بأنه فى وسعنا العيش متحررين من حدوده الشاقة المرهقة . إن الضمان الملموس لهذا ، يمكن رؤيته فى كل مكان ، فى السوبر ماركت الغربى واليابانى ، حيث يمكن أن تجد ، مثلا تحـديا للمناخ ، وللمـوسم ، والذوق والحس السليم ، أذرة الأطفـال المحـلاة والأسـباراجـوس من تايلاند ، والجـوافـة والمانجـو من البـرازيل ، والكورجـيت من جواتيمالا ، والأناناس من ساحل العاج ، والستار فروت من ماليزيا ، والبقول من كينيا ، والبطيخ والشمام من إسرائيل ، والكريز من شيلى . ياله من إحساس بالحرية الواسعة الشاملة ، يضفيه هذا على تميز الغرب ، الذى يشعر أن كل فواكه الأرض هى واقعيا ملكا له ، قطفا وجنيا .

من الواضح أنه حتى مع تزايد أعداد الناس – الذين يتجنبون على امتداد العالم ، ما أشار إليه ماركس باعتباره «بلاهة الحياة الريفية» – فإن عقلانية وفطنة الحياة العصرية قد بُولغ فيها أيضا ، إن انتقال الناس من الاعتماد المباشر على «المجال الحيوى» ، إلى الاعتماد على وسط محيط من صنع الانسان ،إلى المجال التقنى ، قد غدا يُنظر اليه باعتباره معيار التقدم ، حقا ،ليس على أبناء الريف أن يهاجروا حتى يصبحوا جزءا من المجال التقنى ، فالزراعة التى صارت عصرية ، والثورة الخضراء ، والأنواع الجديدة عالية الانتاجية ، هى عملياً ، منتجات صناعية تستعمر المجال الحيوى، تتحرك خارجة من المراكز الصناعية لتعيد ترتيب الأنماط الزراعية والاجتماعية لحياة هؤلاء الذين ظلوا حيث هم ، وتنشد تلك الأنماط ، خلال هذه العملية ، التمزق والقلق : إن الأثرياء وحدهم هم القادرون على التعامل مع المدخلات ، ويصبح المزيد والمزيد من الفقراء والمزارعين المهمشين ، بلا أرض ، ويطردون بصورة لها وقعها ، من معاشهم التقليدى ؛ وسواء ظلوا قاطنين ريفيين يعانون الإفقار الشديد ، أو شرعوا فى رحلتهم الطويلة إلى المدينة ، فإنهم مايزالون ساقطين تحت تأثير المجتمع الصناعى ، إن أرض المعركة قد تحركت الآن بعيدا إلى الوراء ، إلى آخر مايعتمد عليه فى المصادر الأساسية ، فى الغابات وأماكن صيد السمك وسفوح الجبال .وهذا هو السبب الذى جعل السكان الأصليين فى مركز صراع من نوع خاص ، حيث يتساءلون إن كان هنالك حقا مكان لسبل بديلة للحياة فى العالم ، أم أنه يتوجب على الجميع أن تبتلعهم ثقافة واحدة مفردة تقوم على العولمة ، إنهم فى الواقع يستدعون خداع لغة الغرب المنمقة الطنانة : هل يمكن السماح لبدائل سوقها الاقتصادى بالوجود أم لا ؟ هل ستقمع كل السبل لتنظيم الشئون البشرية ؟ .

إننا عندما ننظر إلى كل هجرات وسفريات وانتقالات الناس عبر العالم ، فى نهاية القرن العشرين ، فإن المسألة الأكثر دلالة من كل تلك الهجرات الملحمية ليس هو الانتقال عبر أى حواجز قومية أو تخوم عبر قومية ، رغم مالها من دلالة ، لكنها الحركة غير المرئيه ، رغم خطورتها ، للإنسانية من العالم الطبيعى إلى الوسط المحيط الصناعى ، إن المجتمع الصناعى يبدو كملاذ وخلاص ، إنه نقلة لايمكن لكثير من سكان الأرض ، كما يبدو ، الانتظار لانجازها ، إن هذا واضح فى رغبة الفقراء الشديدة لكسب مدخل الى رموز وايقونات الصناعة الغربية ، ويندر توقع وجوب وجود مقاومة ذات شأن لهذا العالم ، لحركة السير فى اتجاه واحد لايمكن عكسه ، كما هو ظاهر ، من المزرعة إلى القرية ، ومن القرية إلى المدينة ، ومن البلدة إلى العاصمة (ميثروبوليس)، ومن المدينة إلى المدن الضخمة (ميجابوليس) الدولية .

ومع ذلك ، فهنالك مقاومة . وسرعان ماسيغدو واضحا للعديدين الذين قاموا بهذه الرحلة ، أن هذه الحركة فى أفضل أحوالها غامضة ، وهى فى الغالب ، حاسمة بالنسبة لرفاهيتهم . سيدرك الناس أن هذه الحركة تعنى فقدانهم للتحكم فى مناطق فاصلة فى حياتهم - زراعة طعامهم الخاص ، بناء مآويهم الخاصة ،ترتيب أوقاتهم فى خليط مرغوب من العمل والراحة واللهو ، إن الشباب هم الأكثر استعدادا للتخلى عما يبدو لهم غير مهم ، أو حتى ثقيل وشاق عن الحريات من أجل اشكال التحرير المنقوشة فى الوجود المادى للساعات وأجهزة الراديو والسيارات والدراجات الآلية والجواهر وأجهزة الفيديو ، والموسيقى والملابس العصرية ، الموجودة جميعها فى كل مكان ، فى كل الأوقات ، فى شوارع المدن ، وحيث أن تلك المفردات بارزة للغاية فى عروض الثقافة الغربية ، فإن هذا يعنى ضمنا أن الحاجات الأساسية مثل الغذاء والمأوى قد لُبيت دون جهد : إن المجال التقنى يعد بالتحرر من النشاط المتكرر والمثير للملل ، يعد بالفراغ والراحة من العمل .

غير أن الناس الأكبر سنا ، والذين طردوا من الأرض غالبا ما يعرفون أن الخطوة التى أجبروا على اتخاذها ليست إلا الخطوة الأولى على طريق طويل ، حيث يتخلون ، شيئا فشيئا ، عن استقلالهم الذاتى وتحكمهم فى مصائرهم . هنالك بالطبع ، ارتياح من الخضوع القديم للطبيعة ، «الطبيعة» غير الحانية ، والتى غالبا ماتكون قاسية ، شديدة الايذاء وقادرة على إيقاع أضرار فادحة ، إن العمل مع الضرورات الجامحة للطبيعة ، وليس فى تعارض معها ، مسألة محبطة ، تقصم الظهر ، ويجب أن تبدأ دوما من جديد ، كعمل من أعمال «سيسيفوس» ، ولكن فى النهاية ، يظل الاعتقاد بأنه فى وسعنا أن نتحررمن قوانينها ، وهما .

ولايظهر ، فى المراحل الأساسية ، أن المكاسب تفوق الخسائر : أن تذهب وتعمل من أجل النقود التى تنفقها يخلق فى البداية إحساسا رائعا بالحرية ، لقد التقيت فى

الضواحى ببعض اللاجئين من بيهار الريفية ، الذين فروامن القهر الطبقى والديون وعدم امتلاك الأراضى ، كانوا يعملون كسائقين لدراجات الريكشو ، أو صانعى أوعية وأوانى من الصلب فى مصانع وازيربور ، إن سائقى دراجات الريشكو يستأجرون المركبة - دراجة كبيرة ذات عجلات ثلاث ، بها مقعد محشو للركاب ، وكبوت رقيق رث بيضاوى للحماية من الشمس أو أمطار الرياح الموسمية ، إنهم يستأجرون المركبة من المالك ، إن عملهم ينهك أجسادهم ، وهم يحركونها مستخدمين أقدامهم فوق الطرق الوعرة للمنطقة المكتظة بالمبانى القذرة أو منحدرات دلهى المتواضعة ، أجسادهم تلمع بالعرق ، وعروقهم نافرة ، وعضلاتهم تتقلص تحت اللحم ، وهم يحصلون على روبيتين أو ثلاثة فقط كأجر من الفقراء الذين يستخدمون خدماتهم ، وقد ينام ثمانية منهم أو عشرة فى حجرة واحدة ، تأخذ نصف كسبهم الشهرى . ويُظهر عمال الصلب كذلك ندوبهم ، حيث دخلت أجسادهم قطع من الصلب من مصاهر غير محمية ، لتترك سلسلة من الندوب اللماعة ، والتى أطاحت بعين أو أصبع وجعلت المرء منهم عاجزا طوال حياته ، إن مايُدفع لهم من أجور يثير الرثاء ، إنها مجرد ٥٠٠ روبيه (١٥ جنيها استرلينيا) ، وعليهم أن يعملوا فى ورديات من ١٢ ساعة . ومع ذلك ، فإنهم جميعا يقولون ، بأن مايفعلونه إنما هو أفضل من الحياة التى جاءوا منها .

إن هذا المكسب الآنى ، التحسن المباشر ، غالبا مالا يتواصل ، إن التكاليف الحقيقية لمثل تلك التغييرات ، تصبح واضحة فقط ، فيما بعد ، وبالمثل ، فإنه الآن فقط، يمكننا البدء فى تقييم الثمن الحقيقى الذى دُفع للتخللى ، بالجملة ، عن الأرض واستبدالها بإنسانية مُصنعة ، إن ما أخفى ، بنجاح عبر الحقبة الصناعية ، يفرض نفسه الآن علينا : إن عالما مليئا بأناس ماهرين فقط فى جمع النقود ، هو بالفعل عالم من أناس عاجزين عجزا تاما ، لايستطيعون فعل شئ فى استقلالية عن النقود ، ولايستطيعون تلبية احتياجاتهم شديدة البساطة والأولية ، دون شراء من السوق ، إن القدرة على الحياة فى توازن مع الوسط المحيط الطبيعى ، قد استبدلت بها معرفة كيفية ممارسة بديلها التكنولوجى .

يبدو الآن أنه مُقدر على الوسط المحيط الصناعى ، أن يزيل المحيط الحيوى الذى يرزح تحت ثقله بقوة متنامية ، إن المجال التقنى يعترف ، خلال هذه العملية ، بفضل العالم الذى يحل محله ، إذ إنه يحاكى ويعكس عالم الطبيعة فى داخل الكون الزائف الذى يخلقه ، إن العالم الصناعى قد شكل نسخة صورة معكوسة زائفة للعالم الذى يقضى عليه ، وقد تكون تلك اشارة الى أنه واع بالامكانية الثمينة التى لاتعوض لما يدمره ، إن النسيج المعقد للاتصال فى الطبيعة يتم تقليده والهزءُ به ، فى ذات الوقت ، عن طريق شبكات معقدة من التبعية فى المجتمع الصناعى ، إننا عندما نسمع حديثا عن «مجتمعنا المعاصر المعقد» ، فإن ذلك صدى ، وفى ذات الوقت ، تنصل من العلاقات

الهشة المتشابكة للمجال الحيوى ، إن مؤسسات المجتمع الصناعى تشير الى اقرارها بمديونيتها نحو ماسحقته ، إن اللغة ذاتها تشى بعدم القدرة على الدفاع عن المشروع ، إن الحاجة الاقتصادية تصبح الحد المُحدد «للعالم الحقيقى» ، وتوقف قوانين الطبيعة لصالح الربح والخسارة ، ولايصبح معنى كلمة «الموارد» ، كنوز الطبيعة ، ولا القدرة اللانهائية للبشر هى أن تعمل وتبتكر ، لكنها النقود ، وقد نُظر إلى «البقاء على قيد الحياة» ، لا باعتباره الحفاظ على ميزان المجال الحيوى ، ولكن باعتباره مهارة الأفراد فى حصولهم على النقود التى تشترى لهم ضرورات العيش اليومية ، وأُشير إلى ضرورات العيش ذاتها ، لا باعتبارها المعاش الذى يؤدى إلى التزود الذاتى بالمؤن ، ولكن باعتبارها مبلغا من النقود . أن تكون «مستقلا» ، إنما هو وصف لهؤلاء الذين لديهم ثروة خاصة ، بينما مثل هؤلاء الناس هم ، فى الحقيقة ، أكثر الناس تبعية ، بصورة تامة ، ولا عجب أن امتلاك الثراء يجعل الناس محافظين وليس حافظين : إنهم يودون المحافظة على النظام الاجتماعى والاقتصادى بأى ثمن ، حتى وإن تضمن ذلك الثمن التضحية بالأرض ومواردها الأساسية ، إنهم لايستطيعون ، ببساطة ، تصور حياة منفصلة عن خسة الاعتماد على النقود التى يعيشونها .

إن التفاخر المتسم بالخيلاء للمجتمع الصناعى هو دوما ، بصورة ما ، انعطاف قوة هذا المجتمع إلى محاكاة الطبيعة والحلول محلها ، خذ ، مثلا ، الادعاء بأن المجتمع الصناعى يجعل الاختيارمكملا وفاعلا ومؤثرا . إن توسيع اختيار المستهلك يسير ، فى الحقيقة ، جنبا إلى جنب مع إبادة التنوع الحيوى ، إذ بينما يتقلص التنوع الحيوى ، من خلال حيازة الشركات عبر القومية للجينات ، واحتكار براءة امتياز البذور ، وتوسيع الثقافات الآحادية مع قاعدة خلقية تزداد ضيقا ، فإن انتشار المفردات يزداد اتساعا فى السوبر ماركت الغربى – هنالك اثنى عشر الف منتج معروض فى أى سوبر ماركت متوسط الحجم ، غير أن عدد الأنواع التى تنقرض يوميا ، وإنهاك المحصول ، الذى حماه المزارعون وطوروه عبر أجيال لا عدد لها ، ومناسبته للبيئة التى زرعوه فيها ، يتناقص ويضيع ويسلم للنسيان ، إن المعنى الأكثر عمقا لقوة الغرب فى إضافة قيمة ما ، هو طرحها من قَدرِها وماهى جديرة به ، وقد وصف فاندانا شيفا هذه العملية فى البنجاب :

«إن التنوع يختفى ، عندما نجعل الأراضى الهامشية وأراضى المحاصيل متماثلة ، لقد حطمت الثورة الخضراء التنوع الوراثى على مستويين آخرين ، المستوى الأول ، هو تحويل زراعة المحاصيل المختلطة والمتعاقبة للقمح والباجرا » و« الجوار» والشعير والفول وبذور الزيت إلى زراعة احادية ومحصول متعدد للقمح والأرز ، والمستوى الثانى ، هو تحويل القمح والأرز من أنواع محلية متنوعة تتناسب والظروف المختلفة للتربة والماء والمناخ ، إلى زراعة أحادية لأنواع واحدة مستخرجة من أنواع قزمية أجنبية (سى آى

إم إم واى تى ، و آى آر آر آى .. إن تحطيم التنوع وخلق التماثل يتضمن ، فى ذات الوقت ، تحطيم الاستقرار وخلق الاستهداف للعدوان ».

حقا ، إن الديناميكية الكلية للمجال التقنى الصناعى هى ديناميكية تقوم على النمو والتوسع ، والتى هى ذاتها صورة هزلية لدورة التجديد والتجدد التى تحدث فى الطبيعة ، إن «العالم الحقيقى» الذى يحضنا السياسيون والاقتصاديون على العيش فيه ، هو ذاته بدعة من بدع الخيال الصناعى ، ويصبح دعم الثقة أكثر فأكثر مسألة لاغنى عنها ، حفاظا على أرواحنا التى تعانى الإخفاق من هذا المشروع القاتم الكئيب. ولكن إن كانت «التنمية » ، حينئذ هى فى الأساس رد فعل غربى لتهديد الثورة والاضطراب فى الجنوب ، فلماذا يجب ، وقد تم احتواء تلك التهديدات بنجاح ، أن يكون هنالك أى مزيد من الاهتمام بالتنمية ؟ ، وإن كانت الفكرة كلها قد أصبحت أكثر ابتذالا ، فإن ذلك يرجع إلى أنها لم تعد ذات أهمية كبيرة ، إن المسرح قد أُخلى ليعاد تعريف حقيقة أغراض الأثرياء ، إنها الهيمنة والتحكم .

كان قهر الطبيعة ، فى المشروع الصناعى ، يقوم دوما على أساس أن هذاالقهر يتم لصالح تجاوز حدود الندرة الطبيعية ، وكان وعد السياسة الصناعية أنها سوف تحرر الإنسانية من تهديد الفقر والمجاعة وعدم الاستقرار ، غير أن مارأيناه ، كان مرة أخرى محاكاة للفقر الطبيعى بندرات ملفقة ومشاعر ملفقة بعدم الكفاية ، ترقد فى قلب المجتمع الصناعى وتغذى توسعه .

أن تكون فقيرا ، فتلك حالة خاصة بالوجود ، مثلها مثل أننا جميعا نولد ولاشئ معنا ، ونموت ولاشئ معنا ، الفقر ذاته يوحى بعلاقة مع العالم الطبيعى ، الفقراء هم هؤلاء الذين يتوجب عليهم تحقيق معاشهم من قاعدة - موارد الأرض ، وهم بهذا المعنى ، السكان الأصليون والقبليون وزراع ضرورات العيش ، كل هؤلاء الذين يعيشون دون أى يأخذوا من الأرض أكثر مما يعيدون إليها ، هؤلاء الذين لايترك طريقهم عبر الحياة عجزاً خالصا فى الموارد ، ورغم أن هذا الفقر يمكن أن يكون مأساويا فى أوقات الفواجع الطبيعية مثل الفيضان والجفاف وعجز المحصول ، غير أنه يمثل فى جزئه الأكبر تقشفا عقلانيا ، ليس تقشفا مقبضا أو كئيبا ، لكنه مطالبة محدودة فى مواجهة ثراء موارد الأرض ، إن الناس الذين عاشوا آلاف السنين على هذا النحو ، دائما مايتخذون بالطبع الاحتياطيات التى فى استطاعتهم اتخاذها ضد الندرة . لقد تعلموا كيف يقتصدون ويحافظون على مالديهم فى مواجهة كل المآسى التى يمكن التنبؤ بها ، حقا إن معتقداتهم المتعلقة بالأرض والمياه والأشجار التى تتسم بالقدسية قد ساعدت فى المحافظة على ثراء مواردهم المتجددة - الوسط المحيط الذى ارتبطت به حياتهم بطريقة لاتنفصم ، وقد غدا ذلك الفقر أكثر احتمالا بسبب ثروة من

التقاليد والعادات ؛ البعض منها شديدة العملية مثل معرفة أين يمكن العثور على غذاء تكميلى ، من الغابات فى الجذور والدرنات والتوت .

كما خفف حدة الفقر أيضا مخزون هائل فى الذاكرة ، مخزون من الحكمة والمعرفة والحكايات والمعتقدات ، وإيمان روحانى عابد للطبيعة ، يشارك فيه كل ماهو حى وله معنى فى حياة البشر ، حيث تنسج الآلهه والأرواح والشياطين والكائنات الخرافية الوجود الانسانى ، تخصبه وتثريه ، تقويه وتواسيه ، إن تقديس ما هو مفيد يشكل سرا آخر تسخر فيه المجتمعات الصناعية من سلفها ، إن الشئ الذى ينال كل توقير واكبار الآن هو النقود وما تشتريه .

إن هؤلاء الذين يعبرون الحدود غير المحدودة للوجود المُصنع ، يجب أن يتعرضوا لشكل آخر من الفقر ، الاحتياجات والرغبات المتعددة و المصطنعة والتى تجئ مع نسخة وفرتها ، إن الإفقار هو التعبير الأكثر ملائمة للتطبيق على هؤلاء الذين قطعوا اعتمادهم على العالم الطبيعى بسبب التحولات الغريبة التى يفرضها المجتمع الصناعى .

إن الفقر ، لهذا السبب منتج غريب مصطنع ، إنه أشبه بالفقر الطبيعى ، ومع ذلك فإنه يقدم كأنه جزء من الفقر الجارى ، والذى نتخيل أننا قد نجونا منه .

إن هؤلاء الذين أصابتهم الدهشة لاستمرار الفقر ، حتى فى أغنى المجتمعات ، لم يفهموا دوما طبيعة أعمال نزع الملكية التى وقعت عند نقطة التخلى عن اعتماد أكثر مباشرة على المجال الحيوى ، إذ أن تعميق التصنيع ، يسلب كل الوسائل الثمينة التى تفوق الحصر ، والتى يخلق الناس بها الزراعة والتماسك وماله معنى بالنسبة لهم ، ثم يجب عليهم حينئذ أن يعيدوا شراء كل البدائل والمنتجات الغريبة المصطنعة ؛ كل مايوفر العزاء والسلوى ، ويمكن الحصول عليه بالنقود فقط ، إن الصنعة تقدم منشطاتها هى إلى ماتبتلى به من إفقار ، غير أن تلك الخسائر لم تكن واردة فى مجال أى شئ يمكن حسابه على أسس نقدية . ومن ثم ، فإنه رغم تكديس الأشياء ، واختراع أشياء جديدة وأجهزة وأحاسيس ومشاعر ، وما يُدخل السلوى والرفاهية ، فإن الناس ينخر فيهم إحساس بعدم الكفاية ، حتى أغنى الناس يظلون يشتكون بانتظام ، بأنه ليس لديهم مايكفى ، وهم فى الحقيقة لن يكون لديهم البتة مايكفى ، حيث أنهم يسعون إلى معالجة الأضرار التى لايمكن علاجها فى المنطقة الوحيدة التى يجرى سعيهم فيها ، إن خلق الثروة يضاعف الألم ، وربما كان هو سبب أن يظل هنالك غضب واستياء وعدم انجاز وعنف كثير للغاية فى أغنى المجتمعات الصناعية ، حقا إنهم كلما أصبحوا أكثر غنى كلما زاد إحساسهم بالحرمان ، وكلما أصبحت حوافز إثراء أنفسهم أكثر إلحاحا ودفعاً.

إن كل ماكان دوما حق بالمولد ، لكل الأفراد فى كل المجتمعات ، كل نعم المعانى ، الطقوس والشعائر ، العادات والممارسات ، التقاليد والأساطير ، وعلوم وفنون الزراعة ، التى انتقلت عبر الزمن من أجيال سابقة ، كل ذلك قد تم نزعه وسلبه ، ثم تُقدم لنا «حرية الاختيار» ، لنعيد شراء صورة هزلية لما كان يجب ألا نهدده البته ، إن حرية الاختيار الوحيدة التى لايسمح لنا بها هى ، فى المقام الأول ، ألا نتخلى عنهم . إن المجتمع الصناعى هو منتج قوى لأشكال من الفقر ، تغذى سعيه المحموم وراء شكل من أشكال الثروة ، التى لايمكن أن تستجيب لها البتة ، إن تلك الأشكال من الفقر يجب غرسها وترسيخها ذاتيا ، حتى يحس كل البشر بالقصور والعوز فى ظل وجود وعود لانهائية بكمال تعافى المجتمع الصناعى وانجازه ، لاعجب أننا نرى الغضب والعنف والإنكسار والوحدة والإدمان والعُنة فى المجتمعات الغنية ، غير أن أىّ من تلك الأشياء لم يكن ، بالطبع ، ظاهرا لحظة مرورالناس عبر الحد غير المرئى للمجتمع الصناعى ، إنهم ، هم يديرون ظهورهم لأشكال من الفقرمعروفة ، لايعرفون أنهم على موعد مع أشكال من الحرمان ، لاحد لها ولا يمكن تلافيها ، وهى أشكال لا اسم لها ولا ثمن. حقا إن السعر الحقيقى للأشياء لايدفع لحظة الاستهلاك ، إنه يُؤجل ، ينقل ، إما إلى المستقبل أو الى مكان بعيد ، إلى آخرين غير مرئيين وعاجزين فى أجزاء أخرى من العالم بعيدة عن الأماكن التى يستهلك الناس فيها ويتمتعون بمثل تلك اللامبالاة الزاهية الظاهرة للعيان .

وتوجد هنا خصوصية انثروبولوجية أخرى ، أن كل المجتمعات مهتمة ، إلى درجة ما ، بمسألة التلوث والتنظيف ، إن هذه الطقوس أيضا أساسية داخل الحياة الصناعية الغربية ، إن تلوث العالم الناتج عن عملية التصنيع المكثفة ، يجرى الخداع حوله ، ليس ، فى المقام الأول ، بواسطة التقنية التى تخفض التلوث أو تزيله ، ولكن بجهود شركات إعلان واسعة التنوع ونشطة ، تروج لكل المنتجات باعتبارها منتجات نقية ، ومرغوبة وطاهرة الذيل ، إن الإشادة بالسلع والبضائع هى النشاط الثقافى الأساسى الذى ابتدعه الغرب . إن هذا يعنى أن كل الملابسات الكريهة التى تصاحب إنتاج الأشياء يجب غسلها وازاحتها . يجب ألا يظهر أى ألم أو أى دم أو أى استغلال أو أى عرق أو أى معاناة إرتباطا بمظهرها البراق فى مراكز التسوق فى العالم ، لا أحد جُرد أو طُرد، لا أحد أُسئ إليه ولا أحد لم يكافأ فى صناعتهم ؛ حقا إنهم حتى نادرا ماتحدد هويتهم ارتباطا بالصناعة ، إنهم يذرون فى الهواء كالنفخة فى حالات العرض كأنما بفعل السحر . ومن المفهوم بداهة أن كل العواقب الكريهة لانتاجهم تُزال أيضا - استخدام المورد واستنزافه ، الأضرار التى تصيب الأرض ، مثلا . إن الإلحاح على سمو ونقاء وصدق كل المنتجات هى وظيفة الباعة العالميين . إن لهم دوراً كهنوتيا لاخفاء كل التكاليف المزعجة والمخجلة لنظام يقوم فقط على الكسب والخسارة النقدية ،

والتى تشكل حدود عالمه المعروف ، إن الأرباح كلها ملموسة للغاية ، أما الخسائر الحقيقية فتبتلع فى الظلام الخارجى – مصير قائد سكان الغابات الذى قتله مرتزقة الشركات التى كانت تريد الذهب الراقد فى الأرض أسفل مكان معيشتهم ؛ الموت بالإيدز للمنهكات اللواتى يقدمن الخدمات للضرورات العاجلة ، والتى طال نسيانها لرغبة الذكر؛ عسكرة المناطق التى يوجد بها موارد يجب انتزاعها من قبضة هؤلاء الذين استغلوها وأداروها بحصافة لآلاف السنين ؛ التخلص من المخالفين والمشاكسين اقتصاديا سواء كانوا أطفال الشوارع فى ريودى جانيرو أو النقابيين فى الفليبين ؛ يجب ألا يلطخ أحد هؤلاء قداسة وطهارة السلع والخدمات فى الأماكن التى يذهب إليها الأثرياء أثناء تعطشهم لنوع من الخلاص.

إن المجتمع الصناعى ، فى كل مكان يعرف دَيْنَهَ للطبيعة ؛ فى أشكال المحاكاة الساخرة والتقليد المشوه ، والتكرار الأخرق للأفعال التى طمسها ومحاها ، حقا ، إن المدافعين عن التصنيع العالمى يقدمون ادعاء باليا للغاية دفاعا عن النظام الذى يروجون له ، إنهم ، وقد حلوا محل عالم الطبيعة ، يسعون لإظهار أن المجتمع الصناعى ذاته هو قوة من قوى الطبيعة ، والرأسمالية الصناعية باعتبارها تجسيدا لقوانين الطبيعة ، إن قوانين الاقتصاد السياسى ، ليست إلا إنعكاساً لأعمال الطبيعة البشرية. إسقاط الطبيعة البشرية ؛ الجشع والأنانية هما المحركان الأوليان لكل افعال البشر ، إن هذه الفكرة تستمد شرعيتها من العقيدة المسيحية الخاصة «بالسقوط» ؛ لكن النظام الرأسمالى ، لحسن الحظ ، يعرف وسائل تسخير هذه الصفات الأنانية وتحويلها إلى صالح عام ، وذلك بوسائل خلق الثروة ،إن الضرورة الإقتصادية على هذا النحو ليست إلى حد كبير مغتصباً لقوانين الطبيعة ، لكنها من إنتاج هذه القوانين عبر مؤسسات بشرية ، إن المجتمع الصناعى ، كما هو واضح ، ينصب نفسه كبديل دائم لما قام هو نفسه بتدميره ، إن الرأسمالية تصبح ، بهذه الطريقة عالمية ، إنها لم تعد مجرد نظام بين أنظمة عديدة ، إنها النظام الشرعى الوحيد ، والذى يحتل ، كما يفعل الفضاء الذى أنشأه «الخلق ذاته» ذات يوم .

المدينة غير القادرة على الاستمرار : بومباى

تبدو بومباى وكأنها مدينة تقف دوما على حافة الانهيار ، إن شكاوى الطبقة الوسطى تحتل مكانة لاتكاد تكون قادرة ، كما يبدو ، على تواصل الحياة ، لم يعد فى الإمكان السفر بالقطار بسبب الزحام المفرط ، كما أنك لاتستطيع السفر بسيارة أجرة لأن المرور متوقف غالبية اليوم وهنالك اللصوص وخاطفو السلاسل فى كل مكان ، الناس تتدفق كالفيضان بحثاً عن مايمكن التقاطه بصورة أيسر ، لقد غدت ملاذا للمجرمين والعاهرات والمنشدين ، الذى يجب تخليص أرصفة الشوارع منهم ، إن الأمر يزداد سوءا من عام إلى عام ، ويكاد يكون من يوم إلى يوم .

ومع ذلك لم تنهار المدينة ، إنها مدعومة ماديا ، بالضغط الذى تُلقى به على الموارد فى الأراضى الداخلية المرادفة للساحل والدائمة الاتساع ، إن بومباى تخلق حلقة من الخراب تزداد اتساعا حولها – مشتملة على البحر العربى الملوث ، إن بقاءها يتم على حساب فائض يمكن استخلاصه من الريف ، مما يؤدى هنالك ، إلى زراعة مكثفة تعتمد على المواد الكيمياوية ، وتنخر المنشآت الصناعية فى ذات الوقت بعمق أكثر فأكثر ، فى المناظر الطبيعية المتصحرة ، على امتداد الطريق المترب إلى أحمد آباد ، بأبخرتها الخانقة ، وترابها الأجرد ومياهها المسمومة ، إن الأثرياء ينظرون إلى أحياء بومباى المكتظة القذرة باعتبارها مصدرا لتلوث المدينة ، ومع ذلك فإن قاطنى الأحياء المكتظة القذرة ملوثين تافهين إن قورنوا بهؤلاء الذين يعيشون فى الشقق عالية الإرتفاع ، إن ملايين قطع الأجر اللازمة لتشييد الشقق تصنع من سطح تربة آلاف هكتارات الحقول الخصبة فى نصف قطر يتراوح من ٧٠ إلى ٨٠ كيلو مترا من بومباى ، ولم تعد الأخشاب اللازمة لإنتاج الفحم الذى تحتاجه الأفران متاحة ، فاستخدمت قشور الأرز ، وبقايا الخضراوات كوقود ، بدلا من اعادة توظيفا فى الحقول ، مما يؤدى إلى المزيد من تدنى الخصوبة ، إن استخراج الأحجار الجيرية من محاجرها ، لصناعة الأسمنت ، قد حطم خطوط تقسيم المياه ، التى تقدم لها الأحجار الجيرية المسامية أحواض التخزين ، إن استنزاف امدادات الأخشاب حول بومباى ، قد جعل البناؤون الكبار يحصلون ، حتى وقت قريب ، على احتياجاتهم من سفوح الهيمالايا ، والآن وقد جردت تلك المنطقة أيضا فإنهم وجدوا أنه من الأرخص لهم استيرادها من بلدان أخرى فى جنوب آسيا . إن أحدهم يستورد ١٠٠٠٠ طنا من الأخشاب من ماليزيا كل عام ، والرمال اللازمة لإعداد الخرسانة قد أدت إلى تناثر آلاف الأمتار المكعبة كل يوم من «كاشيلى» ، مما أدى بدوره إلى تآكل وفقدان الأرض الزراعية المجاورة .

إن غالبية مياه بومباى تجئ من بحيرات صناعية ، أُقيمت على بعد أكثر من مائة كيلو مترا من المدينة ، وقد شيدت سدود هائلة لهذا الغرض حلت محل موطن العديد من أبناء القبائل (اديفاسيس) . وبينما يتلقى سكان الحضر وخاصة فى الضواحى الثرية ، امدادات مياه مؤكدة للحمامات والنافورات والمروج العشبية وأحواض السباحة الخاصة ، فإن النواحى الريفية تعانى نقصا حادا فى المياه ، إن مياه المجارى التى يُنتجها هؤلاء الذين يتمتعون بالتميز الكافى لتكون لهم علاقات بالنظام المحلى لبومباى ، يُدفع بها الى البحر ، جنبا إلى جنب مع الملوثات الصناعية والنفايات ، وقد أنقضت تلك المياه والملوثات وأضرت مجتمعات صيد الأسماك التى جرى التضييق عليها والتى مازالت تتعلق متحدية فى بعض أجزاء المدينة ، إن وجود النيتروجين والفوسفات بصورة زائدة فى مياه المجارى يؤدى الى غزارة الطحالب ، إلا أن تلك عندما تموت ، تقتل معها الكثير من المانجروف* والحياة البحرية تلك المرتبطة بالمد والجزر ، حقا ، إن الفقراء الذين يتبرزون فى الأرض المكشوفة يسببون تلوثا أقل ، عند مقارنتهم بهؤلاء المرتبطين بنظام المجارى ، فالفضلات سرعان ماتحولها الحشرات إلى طعام لها ومخصب للتربة ، إن القطع الصغيرة المزروعة خضراوات ، فى كل الأماكن المتاحة فى المدينة ، وخاصة بين خط سكك حديد الأحياء القذرة المكتظة والدروب ، تتألق بخضرة مشرقة .

إن الرياح الموسمية تسبب كل عام ، فيضانات فى بومباى ، تكتسح منازل وممتلكات آلاف الفقراء ،وبينما يتم انفاق ٢٠٠ كرور روبيه (أكثر من خمسين مليون جنيه استرلينى) بالاضافة إلى معونة البنك الدولى ، على اجراءات مواجهة الفيضانات فى بومباى ، فإن هذا لايجدى غير القليل ، طالما لاتجرى معالجة أسباب الفيضانات ، إن تغطية الأرض بالمبانى والطرق الخرسانية ، قد أصبحت كلية حتى أنها منعت مياه الأمطار من التسرب فى التربة ، إنها ببساطة تنطلق مسرعة إلى المناطق المنخفضة حيث يعيش الفقراء .

إن المنتجات الزراعية للمناطق الريفية ، والتى تؤخذ إلى بومباى تمثل تصديرا لخصوبة التربة ، حيث أن الفضلات لاتعود إلى القرية ، إن عشب وكُسْب الريف يغذى أبقار وجاموس «جوجشوارى» ، التى توفر اللبن للمستهلك الحضرى ، بينما الروث الذى تنتجه يلوث أكثر مما يخصب، هنالك زعم بأن المنتجات الصناعية للمدينة تقدم تعويضا أكثر مما ينزح ويستخرج من الريف ، إن النظرية تقوم على أن مايأتى إلى المدينة يتحول إلى شئ يزداد قيمة أو جمالا ، وبينما ذلك صحيح على أسس نقدية ، فإن التكاليف الحقيقية يتحملها ، فى الواقع ، من يحل الافقار بهم فى المدينة ، والوسط المحيط وخاصة فقراء الأراضى الداخلية الريفية .

---

* أشجار أو شجيرات بحرية استوائية ذات جذور عديدة وقوية ، وهامة فى دعم بنية الشواطئ . (المترجم)

إن بومباى بهذا المعنى – أو أى بلد آخر عالمى كبير – إنما هى رمز لعملية «التنمية». إن خلق الثروة يتضمن التغاضى عن التكاليف الحقيقية ، فى أى مكان آخر ، طالما أنها تتعارض والتكاليف النقدية المجردة ، إن رد فعل الأرض والناس الذين عليهم استيعاب تلك التكاليف والتعامل معها ، نضالهم ، حياتهم أومماتهم – مسألة لاتثير قلق هؤلاء الذين يدير أعمالهم هذا النموذج من الدمار والخراب المتزايد .

موضع الزهور
البقاء أحياء فى المدينة

«بوشبافيهار» هى موطن بعض أكثر الناس حرمانا فى بومباى ، حيث يعيش أكثرمن نصف السكان فى مساكن قذره مكتظة وأكواخ .

تقع بوشبافيهار فى «بوريفالى» فى شمالى المدينة ، وقد أنشأتها فى الستينيات حفنة من العائلات التى أصيبت بالجذام ، لقد ترك العديدون منهم قراهم أو دفعتهم وصمة عار المرض خارج ديارهم ، وغدا البعض منهم مقيدا بوجود هائم يقوم على التسول ، وقد فرضه الجذام عليهم ، وكانت بوشبافيهار ، فى ذلك الوقت ، مكانا صخريا قاحلا ، غير مسكون ، يقع فيما وراء حدود المدينة .

إنها مشيدة فوق شريط من الأرض ، بين خط السكك الحديدية وبعض الجروف الصخرية ، يقع على بعض ١٥ مترا من مجرى راكد لمياه ملوثة ، يصبح سيلا جارفا فى الرياح الموسمية ، فى هذا المكان ، فى أشد أجزاء السنة حرارة ، تصبغ المياه القذرة القادمة من الأكواخ عند حافة الجرف ، الصخور باللون الأسود ، وتتجمع أسفل فى برك راكدة ، الناس يغسلون ملابسهم ، والأطفال يستحمون فى هذه المياه ، التى يزداد تلوثها ، بما يتدفق إليها من مصنع للأصباغ ، ووحل زريبه جاموس عند طرف المساكن القذرة المكتظة . إنها بيئة حزينة : أسراب الذباب تعلق فى الهواء ، ورائحة الخضراوات المتحللة تتخلل كل شئ . المتعة الوحيدة هى صف من أشجار ساقطة من التين الهندى الضخم المعمر ،والتى توفر الظلال وترطب الهواء ، إن جذورها تشق طريقها عنوة عبر التربة الصخرية، وقد شيدت عند أسفل البعض منها مزارات صغيرة : سطح من الفسيفساء وقبة بوذية يغطيها مسحوق قرمزى اللون ، وتمثال لكريشنا .

وقد استقرت هنالك ، منذ الستينيات ، عائلات أخرى ، إن الجذام يقدم عمليا للناس بعض الحماية ، والتى تتمتع بها مستعمرات أخرى قائمة على وضع اليد ، إن منازلهم لايهددها التدمير الضيق ، لأن عمال البلدية يخافون من الجزام ، إن المجتمع هنا - والمكون الآن من ٧٥٠ أسرة حوالى ٥٠٠٠ شخصا - منظم تنظيما جيدا . إن البانشايات (الحكومة المحلية) تعمل بصورة جيدة وهى مزودة بأعضاء ستة لجان أخرى ينتخبون سنويا ، لاتوجد جرائم فى المساكن المكتظة القذرة ، ولاقسم للشرطة .

ورغم هذا فإن وسيلة الحياة الوحيدة المتاحة أمام الناس هى وسيلة غير شرعية ، إنها تقطير «الدهارو» أو الخمور ، إن التحامل ضد الجذام شديد عنيد ، حتى أن أحداً لن يستخدم هؤلاء المعروفين بإصابتهم بالمرض ، وحتى أقارب المرضى عرضه لفقدان

وظائفهم إن عُرف أنهم يعيشون في بوشبافيهار ، إن الأطفال يغادرون سيارات المدرسة قبل وصولهم إلى منازلهم ، حتى لايعرف أصدقاؤهم أين يعيشون وهم غالبا مايعطون فى المدرسة عنوانا زائفا .

غير أن هذا يوفر ، على الأقل مكانا فى اقتصاد المدينة ، إذ أن هنالك نقودا تُجنى من صناعة الخمور . إن الخمور تصنع فى «شولهات» (أفران) من الطوب مشيدة فى قاع النهر بعد تجفيفه ، قرب خط السكك الحديدية ، حيث يصبح النهر عريضا وضحلا. إن الدهارو يُخمر فى براميل كبيرة من الزنك ، خلف ستار من خيش ملفوف على عصى من البامبو ؛ وفقاقيع صفراء من زبد على سطح الدن ، تنفجر وتغلى تحت الشمس الساخنة ، إن العناصر الرئيسية هى «الجاجرى» (العسل الأسود) وعدس ماسالا ومواد نباتية أخرى - قشر البرتقال وقشر الموز ، ورغم أن الناس فى بوشبافيهار تنكر أنها تغش الخمر ، فهنالك العديد من الفضائح فى المدن الهندية ، عندما يمرض الناس ، أو حتى يموتون ، بسبب تناول خمور غير قانونية ، تمت تقويتها ، أو تسميمها بإضافة سائل البطاريات أو الكحول الصناعى ، ويقول الناس ، إنه فى مقدورهم إثبات نقاء خمرهم : ضع إصبعك فى السائل ثم ضعها فوق شعلة مفتوحة ، فإن أمسكت النيران بالإصبع فالخمر نقية .

إن بوشبافيهار ، رغم بيئتها القاهرة ، قد نجحت وأفلحت خلال الخمسة وعشرين عاما الماضية . فقد أضاف البعض لمنازلهم دورا ثانيا، أو أعادوا بناءها بالأحجار والخرسانة ، ذات أسطح مفروشة بالقرميد ، والأرز والدجاج والماعز يرعى بين النفايات ، وقد شيدت بعض الأسر غير المصابة بالجذام بيوتا لها هنا ، وافتُتحت أعمال صغيرة فى تلك الأماكن المكتظة القذرة : لقد تغلبت فرصة الكسب على وصمة المرض . هنالك أسرة من الترزية من «التاميل نادو» ، ومتجر بضائع جافة ، ومتجر طعام حيث تُطهى «البيكورات» (الوجبات الخفيفة) فى أوانى حديدية ضحلة .

لابد ، بالطبع ، وأن يُدفع للشرطة . إنهم يطالبون بـ ١٧٥٫٠٠٠ روبيه شهريا ، تقوم اللجنة بتسليمها إلى فرد مهمته التفاوض مع الشرطة ، فإن نجح فى إقناعهم بقبول أقل من ذلك المبلغ ، فإنه مسموح له بالإحتفاظ بالفرق، وقد بدأت الشرطة منذ فترة قريبة غارات إسبوعية ، وأُكتشف أن الرجل المنتدب للتعامل معهم قد قصر فى تسليم النقود ، فاحتجزته الجماعة مدة أربع وعشرين ساعة ، كنوع من العدالة الشعبية غير الرسمية ، حتى دفع المبلغ .

ورغم أن الحكومة تقوم بحملات لإعلام الناس أن الجذام مرض غير وراثى ، وأنه يمكن الشفاء منه ، غير أنه ليس هنالك برامج رسمية لدمج مايقدر بأربعة ملايين هندى

يعانون من المرض . هنالك فقط مبادرات خيرية معدودة لتأهيل من يعانون المرض ، منذ أمد طويل ، لكسب عيشهم ، إن سارة دى ميلو ناظرة مدرسة للبنات ، وهى قد تركت هذه الوظيفة حتى تعمل فى بوشبافيهار ، تقول : «إن الجذام مرض الفقراء ، إنه ليس فقط قابلا للشفاء لكنه قابل أيضا للمنع، غير أن ذلك يقتضى مستوى من الرعاية الاجتماعية والبيئية والعناية الصحية ، لاتستطيع ضمانه أى سلطة حكومية» .

عاش ماروتى بهوسل فى تلك المساكن المكتظة القذرة منذ السنوات المبكرة ، وقد سافر إلى دلهى «وبانجالور» ، لجمع النقود من مجتمعات الجذام الأخرى ، حتى يساعدفى بناء المستوطنة ، «هنالك تضامن بين من يعانون من الجذام ، لأنهم لايتلقون غير مساعدات قليلة للغاية من خارجهم . إننا ننقل خبرتهم لنعاون انفسنا ، هنالك نقود يمكن كسبها من الخمور ، وهذا يجتذب الناس ، النقود لاتحمل أية وصمة ، لا أحد يسأل من أين جاءت ، ولا إن كان قد تعامل بها مرضى الجذام» .

إن نأى وبُعد بوشبافيهار يعنى ، بالمعنى الاجتماعى ، أنه رغم عدم وجود نقص فى النقود ، فإن هنالك مشكلة نقص فى التعليم واحساس بالعزلة . «ربما يكون لدى الناس منزل به تليفاز وثلاجة ، وربما يكون لديهم ذهب ، وربما يكون أطفالهم فى مدارس داخلية ، ومع ذلك ، وفى ذات الوقت ، يمكن أن يكون هنالك فى الغالب نقص فى التغذية فى العائلة وافتقار للفيتامينات أو الحديد ، إنهم نادرا ما يأكلون خضراوات خضراء أو فاكهة ، إن النضال يجرى على عدة جبهات - التغلب على تبلد العادات والتقاليد واستمرار الحال على ماهو عليه ، والتقدير الذاتى المنخفض ، وبالمثل محاربة جهود التجارة الحديثة لبيع الغذاء غربى النمط- البسكوتات والمشروبات الخفيفة والتى لاقيمة غذائية لها ، كما يجرى الإعلان عن الدواء الغربى بصورة واسعة والناس يطلبون الحقن للشفاء من كل الأمراض ، إنهم يعتمدون على عقاقير الشركات العابرة للقومية والتى يروج لها الكيمائيون دون تدريب طبى، وحقق الأطباء الذين يعملون لحسابهم ثروات ، ولا أحد يتحدى البتة تشخيصهم أو وصفاتهم العلاجية».

ويخرج بعض الشباب لأول مرة إلى خارج المساكن المكتظة القذرة للتدريب ، فقد التحقت شابتان داخليا «بمستشفى سيون» حيث تدرسان التمريض ، غير أن هنالك معدلا عاليا من التلاميذ الذين يتركون المدرسة قبل إنتهاء دراستهم ، لم تكن المدارس ، فيما مضى ، تأخذ الأطفال إن أعطوا عنوانا فى بوشبافيهار ، غير أنه يجب على المدارس الآن أن تأخذهم ، إن قدموا شهادة من الطبيب تقول بأنهم غير مصابين بالمرض ، حتى مستشفيات البلدية لم تكن تسمح بإدخال مرضى الجذام ،إن الأطباء الخصوصيين على الأقل لايردونهم .

إن كثيرا من الناس هنا عانوا أشكال من الحرمان والإذلال رهيبة ، إن قصة نارولى ليست بالقصة غير المألوفة ، إنها تشترى دهارو من صانعي الخمور وتأخذه إلى السوق .انها تستيقظ في الثالثة قبل الظهر ، وهو الوقت الوحيد الذى تصل فيه المياه إلى الصنابير العامة إلى بوشبافيهار ، إنها تملأ الأوانى التى تفى بحاجات اليوم ، ثم تذهب إلى محطة «شوركجات» لتبيع الدهارو ، إنها تلحق بالقطار عندما يبطئ (ويحصل السائق ورجل الإشارة على رشوة صغيرة في مقابل هذه الخدمة) ، إن النساء يملأن احيانا ، أنبوبا داخليا بالدهارو ، ثم يلففنه حول وسطهن حتى لايتعرض ، مسئولو القطار أو الشرطة لهن ، إن نارولى تشترى العشرين لترا بـ ٢٧٠ روبيه ، وتبيعها بـ ٤٠٠ روبيه . لقد أُستخدمت النساء تقليديا كحاملاتٌ للخمور لأنهن أقل عرضة لاعتداء الشرطة ، إن في وسع نارولى كسب ٣٠٠٠ روبيه شهريا .

لقد تم فحص نارولى وتشخيص مرضها وهى فى الثالثة عشرة من عمرها ، ولم ترغب عائلتها فى بقائها في المنزل ، فأرسلت إلى مستشفى الجذام فى «دهارافى» فى بومباى. وكانت تدير هذا المستشفى أخوات مسيحيات كن شفوقات عليها ، غير أنهن كن يرغبن منها أن تتحول عن دينها ، وأخبرت عمها ، عندما جاء لزيارتها ، بأنه طالما أن الأسرة قد رفضتها فإنها ستصبح مسيحية . فضربها العم وأعادها إلى القرية ، كانت أمها وأخوها قد ذهبا إلى بومباى ، وهربت هى من بيت عمها لتلحق بهما ، وعندما وصلت ، هدد أخوها بأنه سيغادر إن هى بقيت معهما ، وتزوجت نارولى مسلما ، كان لديه بالفعل زوجة وثلاثةأبناء حتى تجنب أمها المتاعب ، وادعت عائلتها والجيران أنهاتركت المنزل لتتزوج بمسلم ، وليس بسبب مرضها بالجذام .

وعامل الزوج نارولى معاملة سيئة ، وكانت قد أنجبت خمسة أطفال وأخذت هى ، فى النهاية ، أبناءها الخمسة وتركته ، وجاءت إلى بوشبافيهار ، وهى تدفع بما تكسبه من نقود لتعليم أبنائها في مدارس داخلية ، وقد عينها«مركز الجماعة» فى وظيفة ممرضة فى بوشبافيهار ، غير أنها ماتزال تتعامل فى الدهارو ، الذى يحقق كسبا أكبر بكثير من وظيفتها ، إنها الآن فقط ، قادره على الدفع لشخص آخر لتوصيل الخمر إلى محطة شوركجات .

أبعد شيخار أبناءه مبكرا عام ١٩٩١ ، عن بوشبافيهار ، ليعيشوا مع جده وجدته فى «مهاراشترا» الوسطى ، لقد قدر أنه بعمله هذا يجنبهم وصمة الجذام ، وعندما جاءت الرياح الموسمية فى يونيو ، سقطت الأمطار أربعة أيام على القرية ، وامتلأ السد الذى شيد على رأس الوادى بدرجة خطيرة . وأُنذر القاطنون بضرورة ترك منازلهم ، غير أن الجد كان منزله مبينا بالمسلح فقال أن لاشئ قد حدث فى أى وقت يجعله يفكر فى وجود أية مخاطر تهددهم ، وخاف الحفيد الأكبر ، وهو طفل فى العاشرة ، فغادر مع الجيران عندما تركوا منازلهم ، وانفجر السد ، بعد قليل ، بعد منتصف الليل ،

واكتسح القرية كلها ، وكان الجد والجدة واثنان من أبناء شيجار ، صبى وفتاة من بين الضحايا ، وعاد الآن ابن العشر سنوات إلى بوشبافيهار ، إن أباه ، ظاهريا ، يميل إلى التفلسف ، إنه يقول ماذا يمكن أن يحدث لى أكثر من ذلك ؟ غير أنه يحس أنه ماكان يجب عليه إبعاد أطفاله عن الوصمة التى يحملها، ويرى فيما حدث نوعا من العقاب لإيمانه أنه فى وسعه التغلب على هذه الوصمة .

عاشت جيتا قرب «سولابور» فى «مهاراشترا» ، ووجدت وهى تمرض طفلها الثالث ، بقعاً بيضاء على جلدها ، وتشوهت يداها فيما بعد ، حيث يدمر الجذام الجهاز العصبى السطحى ويفقد المريض قدرته على الإحساس ، وذهبت إلى «البهاجات» (المعالج) بحثا عن الشفاء ، غير أن زوجها قال لها ، «عليك أن تغادرى لقد انتهت حياتك ، فلا تدمرى أربع حيوات أخرى»، وتوسلت إليه قائلة أن هذا ليس بخطئها . «إننى لا أعرف لماذا اصبت بالجذام ، لكنك أم ، فإن لم تضحى من أجل ابنائك فمن الذى سيفعل ذلك؟» وأرغمها على الذهاب بعيدا ، غير أنه وعدها بأنه سيعتنى بالأطفال وأنه لن يتخذ زوجة أخرى.

وذهبت جيتا إلى «بيون» حيث يوجد مستشفى للجذام يديرها الألمان . وظلت هنالك حتى شفيت ، وجاءت إلى بوشبافيهار ، حيث تعيش بها الآن منذ خمسة عشر عاماً ، وقد وصل إلى المساكن المكتظة القذرة ، منذ شهور قليلة ، صبى يسأل عنها باسمها ، هل أنت جيتا كومار؟ أنا ابنك ، قالت : «ليس لى أبناء» ، قال : «وأنا ايضا اعتقدت أنه ليس لى أم». فبكت وبكى معها كل الجيران .

إن جيتا ليست بغاضبة أو حاقدة ، إنها تقول : «ان الله لطيف بنا ، كم من مرضى الجذام لم يروا أطفالهم البتة مرة أخرى؟» لقد صدق زوجها فى وعده ولم يتخذ البتة زوجة أخرى ، بل قام بتربية الأطفال بمفرده ، لقد درس الصبى حتى المستوى الثانى عشر ، وجاء إلى بومباى على مسئوليته ، إنه يعمل فى سوق الجملة للزهور فى «دادار» ، بأجر شهرى قدره ٤٥٠ روبيه ، عندما عرف الأب أن ابنه ذاهب إلى بومباى ، قال له: لقد أخبرتك أن أمك ماتت ، إن كانت ماتزال حية ، فهى موجودة فى مكان ما فى المدينة» ، وبحث الصبى عنها ، واستطاع فى النهاية تحديد مكانها ، وعاد إلى المنزل ليُعد باقى العائلة والجيران قبل أخذها معه إلى هناك ، وذهبت جيتا ، ولكن للزيارة فقط ، إنها لن تعود الى هنالك بصفة دائمة ، إنها تقول : أن حياتها الآن فى بوشبافيهار ، حيث يزورها ابنها اسبوعيا.

جاء خوبار وزوجته من «يونى» منذ خمسة عشر عاما مضت ، كان كلاهما مريضا بالجذام ، كان يقتنى فيما سبق جاموسة غير أنها ماتت بينما كان يعالج فى المستشفى فأصبح يعمل نقاش اشارات ، وأجبر على ترك هذا العمل أيضا ، لأن الجذام أثر فى

عينيه ولم يعد بقادر على الرؤية، حتى يقوم بالعمل الدقيق ، وجاء إلى أقارب له فى بومباى ، وهى يتبع الآن سبيل العيش الوحيد المفتوح أمامه ، تقطير الخمور.

لقد اعتاد خوبار ، وهو فى المستشفى ، تعليم الأطفال ، وغدا معروفا بإسم المعلم ، كان حلمه دوما ان يصبح معلما فى مدرسة ، إنه الآن مجبر على عمل يراه مثيرا للإشمئزاز ، إذ ليس هنالك ببساطة شئ آخر متاح ، وقد تبنى هو وزوجته طفلا من الملجأ، لأنه وزوجته عاجزين عن انجاب الأطفال ، حيث أن العقم غالبا مايكون من نتائج الإصابة بالجذام ، إن بانكاج فى الرابعة من عمره ، وخوبار مصمم على أن يمنحه التعليم الذى لم يحصل هو عليه أبدا. وكان عليه أن يدخل الصبى المدرسة ، وأن يدفع رشوة قدرها ١٠٠٠٠ روبيه . إنه يقول :«لاجدوى لاستنكار الناس لصناعة الخمور ، عندما لايكون أمامنا خيار آخر مفتوح لنا »، إن خوبار ينتمى إلى «المهراتا» ، طبقة المحاربين الصناديد «المهاراشتريين» ، إنه فخور بأصوله ، غير أنه يقول :« لقد غدونا مثل الطبقات المدرجة فى جدول بسبب الجذام» ، إنه يقول أن الضراء وحدها هى التى فى مقدروها محو الفروق الطبقية والدينية ، كما حدث فى بوشبافيهار ، إن النتيجة الإيجابية الوحيدة للجذام ، أنه أذاب مثل تلك الحواجز المصطنعة بين البشر «لايوجد أحد فى بوشبافيهار يفكر فى مثل تلك الأشياء».

إنه قَدرَ قاس ذلك الذى دفع بالعديد من الناس القادرين الأذكياء إلى تجارة الخمور ، ورغم هذا الوضع ، فإن مصادفة وصمة الجذام ، وقد القت بهم معا ، جعلتهم يتعلمون الجلَد والإحتمال والتسامح ، فإن تحقق هدفهم ، بعيد المدى ،فى الإندماج فى المجرى العام ، فإنه من المستحيل ألا نتساءل ، إن كانوا سيأخذون معهم الحكمة التى اكتسبوها ، مع مثل ذاك الألم ، أم أنها ستغوص فى النظم الهرمية للفئة الطبقية المتميزة والعقيدة .

الصناعة فى العالم الثالث:
قصة مصانع ثلاثة

تتضمن كل مزاعم الحكومات الغربية ، أن هناك طريقا واحدا على كل دول العالم أن تتبعه ، وهو الطريق المألوف للبلدان الغربية نحو التصنيع وتراكم الثروة ، الذى يلى ذلك ، ومايرافقه من خير ورفاهيه ، من الواضح تماما ، على أية حال ، أن تجربة الغرب لايمكن تكرارها فى باقى العالم ، وهذا لايمنع قادتها من تكرار أنه لاخيار آخر أمام الدول المسماة ، عن إصرار متعمد ، بالنامية ، إن الوصفات الغربية للحرية تعنى السير قدما فى الطريق الوحيد المفهوم لدى وجهة النظر الغربية الدولية ، ومن التناقض الظاهرى ، أن غياب البدائل هذا ، ينظر إليه باعتباره الضامن المؤكد للحرية.

إن مايعنيه هذا فى الممارسة ، هو أن تفتح بلدان الجنوب أبوابها لرأس المال والاستثمار والنفوذ الغربى ، إن هذا لن يؤدى إلى أشكال من التنمية السائدة فى الغرب ، لكنه فقط سوف يزيد من جعل إلحاق تلك البلدان الحاقا مؤسسيا بقوة الغرب وعملائه ، والشركات العابرة القومية .

إن هذا يمكن رؤيته أحيانا ، عبر البلاغة الضبابية للسياسيين الغربيين ، فقد أعلنت ليندا شالكر، الوزيرة البريطانية لتنمية ماوراء البحار ، أنه كان على بريطانيا أن تخصص ٨٠ مليون دولار للمعاونة فى إنجاح «حكومة جيدة» فى العالم الثالث .

وقالت : أنه ليس لبريطانيا مآرب أيديولوجى تسعى إلى تحقيقه ، «إن سياستنا تهدف الى ضمان حقوق الإنسان الأساسية (والتى يجب الإشارة هنا إلى أنها ليست أساسية البتة إلى الحد الذى تتضمن فيه حق المعاش ، ومن ثم حق الحياة ذاتها) ، مع زيادة فاعلية المعونة وتعظيم التنمية» ، وقد قالت السيدة شالكر ، أن الذى تعنيه تحديداً بالحكومة الجيدة ، وهو ضرورة أن يكون هنالك اقتصاد متين وسياسات اجتماعية ، تتضمن ادخال قوى السوق ، وقطاع خاص قوى ، وبالمثل سياسات تعالج الفقر والأمية ، وقالت : فى عنف وجفاء «قد يسمى البعض هذا تعليق المعونة على شرط . لكننى أسميها الإدراك السليم» .

إن الأيديولوجية الغربية إذن ، هى الادراك السليم ؛ إنها عالمية وليست محل شك أو ريبة . إن أكثر ملامح مثل تلك الأيديولوجية خطورة أنها لاتعرف كونها هكذا ، ومن ثم تقترف الأذى بكل براءة ، ولأنها ليست أيديولوجية ، فإنه لايمكن أن تلام البتة على أى من نتائج تدليسها ، إن هذا يوضح كيف أن الإيمان الذى حمله جيل مبكر من المبشرين ، تحول بالمثل إلى بشارة مسيحية ، إن الفرق الوحيد هو أن المبشرين القدامى بالانجيل ، كان لديهم فقط وصفات شفوية لوعودهم عن السماء ، أما حوارى الاقتصادات الغربية ، فلديهم الخيال البراق عن جنتهم الملموسة بصورة أكثر مادية والمنقوشة بصورة لامهرب منها ، فيما يرسلونه عبر وسائل الاتصال العالمية .

إن طاعة وانقياد قادة الجنوب لتلك النصائح والشروط والتحذيرات لن يقود شعوبهم إلى الحرية الموعودة ، إن مانراه فى كل مكان ، هو اساءة مكثفة للجنوب سواء إلى قاعدة موارده أو مواده الخام أو عمله.

إن مصنع «منسوجات وودارد» موجود فى المنطقة التجارية الحرة على «جزيرة بينانج» فى ماليزيا ،إنه مملوك لليابانيين ، وهو أكثر المصانع فى آسيا أوتوماتية ، إن القماش المنتج مكون من ٦٥٪ من التيريلين و٣٥٪ من القطن ، إن التيريلين منتج ثانوى للبترول ، وهو يصل إلى المصنع فى بالات كبيرة ، أكثر بياضا من القطن الخام . يجب تفكيك المادة ، الأمر الذى يتم بواسطة ماكينة تمتصها عبر أنابيب معدنية خضراء ، تنقلها إلى أعلى إلى الطابق الثانى . هنالك حشوات زجاجية فى الأنبوبة ، وتبدو المادة المنفصلة وهى صاعدة مثل عاصفة ثلجية معكوسة ، وتمشط إلى لفافات سميكة البرم تغزل فى خيوط فى المستوى الأعلى ، ويكاد ألا يكون هنالك وجود بشرى فى هذه العملية . والماكينات المانية .

إن الإدارة فخورة على وجه الخصوص بماكينات «ماك للتخريط» ، والتى تلف الغزل على مغازل مخروطية الشكل : حوائط ضخمة من البوبينات سريعة الدوران ، تطن وتئز، تعمل آليا إلى حد أنها إن انقطع الخيط أصلحته بواسطة يد انسان آلية أشبه بالمخلب حقا ، إن الأيادى تبدو هنا وكأنما ابتلعتها الماكينة ، واعادت خلقها بتقليد معدنى براق لها ، هنالك عملية واحدة فقط ماتزال تؤدى يدويا، «السحب» والتى تقوم بها النساء مقابل ١٦ دولارا ماليزيا فى اليوم ، وسوف تؤدى هذه ايضا اوتوماتيكيا ، فى القريب العاجل ، وعندما سُئلت الإدارة عن العمال قالت أنه سوف يعاد توزيعهم ولم يكن واضحا أن كان هذا التوزيع سوف يتم فى صناعة النسيج أم لا.

إن الماكينة الأكثر تطورا هى ماكينة لف يابانية ، تأخذ الخيط إلى فوق البكر ليكون معدا للنسيج .. ويبلغ طول الماكينة حوالى ٢٠ مترا ، وتملؤ البكرات البلاستيكية القرنفلية اللون بسرعة ، ثم ترفع اوتوماتيكيا ، وتوضع فى قادوس عند نهاية الممشى الذى تحتله الماكينة ، العمال هنا فى الأساس مراقبى ماكينات ، وواضعى برامج ماكينة السحق والامتصاص والنفث بمحاكاتها الخارقة للجهد البشرى اللاهث الكادح المتواصل .

ويحتوى عنبر السداة على مُعدة يابانية جديدة ، بجوار طراز أكثر قدما ، إن هذه التجهيزات موضوعة فى صندوقَ معدنى أزرق بلون الثلج ، وهى تنتج السداة بسرعة أكبر ، ويُحمل المنتج على أسطوانة إلى إطار ، حيث يفحص أحد العمال وجود أى عيوب ويصلحها يدويا .

إن فى وسع شخص واحد متابعة أربعين نولا فى عنبر النسيج ، إن النساج فى لانكشاير يشرف تقليديا على ستة أو ثمانية أنوال على الأكثر . الصوت يصيب سامعه بالصمم ، والسرعة التى يظهر بها القماش تخدع البصر ، إن أنابيب الامتصاص ، والمصنوعة من البلاستيك ،مثبتة على قضبان مسننة معدنية مثل أحشاء عملاق منزوعة: إنها تتنزه أعلى وأسفل الطرقات تبتلع ثنيات القطن المحلوج ، وتسرع أسفل ذلك عبر الأرض الحجرية ، وبعيدا عن متناول تلك، توظف النساء كعاملات التقاط للفضلات . من أجل استعادة فتائل القطن الشاردة .

درجة الحرارة غامرة – ٣٥م . الرطوبة العالية مطلوبة حتى لاينقصف القطن ، هنالك أربعمائة نول : مساحة كبيرة من النشاط المحموم ، وإيقاع القوة الاهتزازية العنيف . فى أحد أركان عنبر النسيج ، بعض الأنوال الأكثر قدما ، والتى تنتج فقط ١/٣ انتاج الأنوال حديثة الطراز، إنها أشياء معوقة ذات صليل ، إن قورنت بالطاقة الشيطانية للأنوال الجديدة ، إن دور العمال هو رصد الأنوال ، واليقظة الفورية لأية نتفة أو عطب ، وإن حدث هذا ، استدعى طاقم الصيانة ، وهم أعلى العمال أجرا ، وقد تدرب العديد منهم فى اليابان ، لإصلاح الخلل.

إنه مكان موحش ، قفر بالنسبة لمصنع ، رغم أن الشركة توظف أكثر من الف شخص ، مكان له سيماء مزرعة – صفوف من أشياء متشابهة تنتج منتجات متماثلة ، مما يقلل عدد الناس المتفرقين الخائفين الذين يجب أن يقوموا على خدمتها ، ويذهب القماش الناتج إلى الفحص ، إنه يلف عبر شاشات مضاءة ، حيث يفحص العمال بإمعان كل جزء بحثا عن وجود خدش أو عيب ، ويدونون طبيعة القصور ، ويعاد هذا إلى نقطة البداية ، إلى اطقم الصيانة ، التى تقوم على الفور بضبط الماكينة التى يوجد بها الخلل .

ويطوى القماش الرمادى ، فى النهاية ويوضع فى بالات ويصدر البعض منه على الفور ، ويذهب الباقى إلى الشركات المحلية للطباعة والصباغة ، ثم يصدر البعض منه لاحقا ، وهنالك فى بهو المصنع ، فى صالة العرض ، معروض بشكل واضح جلى قماش معد من أجل ماركس وسبنسر .

إن العمال مايزالون يحصلون على أجورهم مياومة ، رغم مرور خمسة عشر عاما عليهم فى الخدمة ، وهم مزودون أيضا بزى خاص ، سرعان ماتم التخلى عن بعض ممارسات العمل اليابانية ، بما فيها تمارين الصباح المبكر ، لأن العاملين لايحضرون لممارستها ، ويقول أعضاء النقابة أن اكبر عدد من الشكاوى يجئ من عمال أساءت الإدار ة إليهم ، تلك الإدارة التى تقارن تفانيهم للشركة مع نظرائهم اليابانيين بطريقة سلبية « لكن العمال فى اليابان يحصلون على أجور تعادل عشرة أضعاف مانحصل

عليه ، وهذا هو سبب وجود الشركة هنا» ،وقد لاحظ عامل آخر أن هذه هى المرة الثانية، خلال نصف قرن التى تقوم فيها اليابان بغزو ماليزيا ، «غير أنهم يستخدمون فى هذه المرة ، أسلحة اقتصادية» ،هنا يوجد كما يقولون نظام على النمط العسكرى ، إن التجديد المستمر للماكينات يكثف العمل . «كيف يمكنك زيادة الناتج ثلاثة أضعاف ، دون مزيد ومزيد من الضغط على العمال » ، فإن لم يكونوا متعاونين فإنهم ينقلون إلى قسم آخر ، حيث لايمكنهم احتمال العمل، فيستقيلون ، إن مثل تلك الممارسات تثير نقمة العمال كثيرا .

إن الماكينات متزايدة التعقيد ، قد أدت الى طرح العمل جانبا ، إن سياسة جديدة تُقدم الاعتزال لمن هم فوق الأربعين ، بتعويض يعادل أجر ٢٥ أسبوعا ، وقد قبل الكثيرون بهذا ، لأنهم لايستطيعون مسايرة سرعة العمل المتزايدة ، إنه ينشبون بالعمل بأطراف أصابعهم ، يتشبثون بعمل تزداد عمليته استغناء عن البشر .

إن التباين مع مصنع عالم المطاط (ريرووراد) فى مانيلا مثير بطريقة درامية ، إن هذه الشركة تعمل بترخيص من «اديداس» ، وصناعة اديداس للأحذية والملابس صناعة كثيفة العمالة ، هنالك شئون عملية منفصلة فى صناعة زوج من الأحذية ، ونتيجة ذلك أنه لايوجد هنالك نفس النشاط المسعور كما الحال فى وحدة رأس المال ، الكثيف فى بينانج . ورغم ذلك فإن لمنطق السوق العالمى أثره هنا ، أيضا هنالك منذ يناير ١٩٩١ ، ١٥٠٠ عاملا فقط من طاقم العاملين الدائمين ، أما الخمسة آلاف الآخرين فقد غدوا عمالا بعقود ،مما يريح الشركة من مسئولياتها الباهظة نحو العمال.

لقد أنشأ عالم المطاط (ربرووراد) عام ١٩٦٥ مستثمر صينى ، بدأ ببيع العطور فى كشك بالشارع ، ثم لحق بآخرين لإنشاء المطاط الدولية ، وقد تخصصوا فى الأساس فى صناعة الصنادل والوسائد المطاطية وأغطية مقاعد السيارات ، وجاءت طلبيات من الخارج ، وأصبحت الشركة تعمل بترخيص من عدد من الشركات عابرة القومية، إن ٦٠٪ من الناتج يصدر الآن إلى الخارج ، وقد انخفض مستوى الانتاج ، وانخفض عدد الورديات من ثلاثة إلى اثنين بسبب أزمة التبادل الخارجى فى الفليبين ، الإدارة هنا تعترف بالنقابة (هنالك فى مانيلا وحدها أكثر من ١٥٠٠ مشروعا لاتوجد بها نقابات) ، غير أن النقابة قلقة من مضاربة العمالة الأكثر رخصا فى أندونيسيا وتايلاند للفليبين ، «المشكلة هى أن لدينا ماكينات عتيقة الطراز ، إننا لانستطيع ، مهما اشتغلنا بقوة ، رفع الناتج لكنهم إن وضعوا استثمارا أكثر ، فإنهم سيلقون بالناس خارج العمل» ، إن آخر ماتحتاجه مانيلا هو المزيد من البطالة.

هنالك على أى حال ، فرصة محدودة للاستثمار الفورى ، إن على الشركة دين قدره ١.١ مليار بيزو ، وهى تدفع سنويا ٢٤ مليون بيزو، أعباء فوائد فقط ، وهنالك منافسة

من «ريبوك» و«لوتس» ، فى منطقة التجارة الحرة ، فى «باتان» ، ويقول القادة النقابيون أن امبريالية عالمية تمتلك السلطة والثروة ، تتحرك داخل وخارج الكيانات الوطنية كما تشاء ، «إن البلدان لاشئ بالنسبة للشركات عابرة القومية إنها تشكل امبراطوريتها الخاصة التى لاتكبحها حدود جغرافية» ، إن هذا يجعل عملية التنظيم عبر الحدود الوطنية أكثرمن ضرورية لكنها أكثر صعوبة» .

إن غالبية العاملين فى عالم المطاط (ربرووَرلد) من النساء ، وخاصة فى جمعيات تقوم بأعمال التشطيب بالخياطة ، هنالك ممارسة متزايدة لعقود فرعية خارج المصنع وخاصة عمل كلفة الملابس والتشطيب ، وتلك تبعد الشركة الأم عن مسئولية الدفع والشروط ، إن المشروع يغطى ١٥ هكتاراً . إنه أشبه بمدينة صغيرة. هنالك ستة وحدات ، وعنابر طويلة على جانبى طريق مدهون بالقار، إن مجلسا واضحا بارزاً يعلن أي الوحدات كان انجازها الأعلى وأيها كان الأدنى ،وذلك بحساب الناتج منسوبا إلى المستهدف . لقد كان الأعلى فى الشهر الماضى ٧٣٪ وكان الأدنى ٥٧٪ .

العمال يعملون على طاولات فى هناجر مزدحمة ، ذات ستائر معدنية متموجة على النوافذ المفتوحة ، ومراوح تئز وتطن ، وإضاءة فى شقات طولية ، ورغم هذا فإن الحرارة ورائحة المطاط والغراء خانقة ، يُقطع نعل الحذاء باليد ، بسكين ثم تسخينها على الكهرباء ، وتشد النعال إلى ظهور الأحذية على قوالب من الألمونيوم ، ثم تربط معا فى درجة حرارة عالية فى اوتوكلاف ، وتجرى مابين النعل وظهر الحذاء عملية تشكيل بالحقن ، يُدخل خلالها مزيج من المطاط والـ بى ڤى سى فى قا ع الحذاء ، إن المزيج يكون سائلا عند الحقن ، ثم يتجمد عندما يبرد ، إن أحد مكونات هذا المزيج راتنج الـ ب ڤى سى . يستورد من الولايات المتحدة ، إن ماكينة كبس القالب ، من اليابان تحشو الرغوة اللازمة للسان ، وتثبته فى الجزء العلوى من الحذاء ، ثم تضاف على التوالى ، الجوانب العلوية الممتدة من الكعب إلى صدر الحذاء والطوق الداخلى ، إن بعض المواد يمكن ان تتلف عيون العمال وجلودهم وأجهزتهم التنفسية ، إن العديدين يعملون فى لصق بطاقات التحويل وشعارات الشركة ، على الأحذية التى انتهى إعدادها ، وأمام رجل كومة من الشخصيات الهزلية من مسلسل «آل سيمبسون» التليفزيونى: إن ابن الأسرة صبى صغير أسود الشعر ، وهو يقول من جانب كل حذاء : إننى طالب فاشل فى انجاز جهدى المدرسى وإننى فخور بذلك» .

إن الحد الأدنى لأجر العمال الصناعيين فى مانيلا هو ١١٨ بيزو فى اليوم ، إن عددا قليلا من العمال هنا يكسب أقل من ١٣٠ بيزو ، الوردية ثمان ساعات ، مع ٢٥ دقيقة استراحة لتناول وجبة ، و١٥ دقيقة لتناول القهوة . عند تغيير الورديات ، فإن كل شخص يخرج من المصنع يتم تفتيشه ذاتيا لمنع الخسائر التى تتم بالسرقة ، وحتى إن

استخدمت امرأة رباط حذاء لربط شعرها ، فإن ذلك يعتبرجرماً ، وتقول الإدارة ، إن كانت هنالك ، أية سرقة ، فأن العقوبة المناسبة هى إنهاء الخدمة .

إن لوتى تقوم بفحص الأطواق الخلفية للأحذية ، إنها تكسب ١٣٧ بيزو فى اليوم ، إن لديها طفلين ، ويرسل لها زوجها نقودا كل شهر من العربية السعودية ، وإبرام من «سامار» ، واحدة من أفقر جزر الأرخبيل ، إنه يزين الأحذية بالشعارات ، إن عائلته تعيش فى الإقليم ، وهو يرسل نقودا إليهم ، إنه ينام فى حجرة مع ثلاثة عمال آخرين مهاجرين ، هو يقول أنه لايحاول التفكير فى سخافة وضع الشخصيات الهزلية على الأحذية للأطفال الأجانب المحظوظين ، بينما هو غير قادر على فعل مثل تلك الأشياء لأطفاله . حقا عليه أن يعيش منفصلا عنهم ، وأن يراهم مرة واحدة فى العام ، ويجئ روجيليو من «سان ميجيل» فى «بولاكان» ، حوالى ١٠٠ كيلو مترا شمالى مانيلا ، إنه فى الواحد والثلاثين من عمره ، ولديه ثلاثة أطفال ، كان يسافر فيما سبق أسبوعيا إلى أسرته ، غير أنه منذ ثوران «بيناتوبو» أصبح الانتقال بالاتوبيس متقطعا ، وبذا فإنه يتردد على اسرته اقل من ذى قبل .

إن كارلا فى الأربعين من عمرها ، كانت تعمل فى صناعة الترفيه فى «ارميتا» ، غير أنها وقد كبرت لم تعد قادره على تحقيق معاشها ، إنهاتكسب الآن ١٣٧ بيزو فى اليوم من عملها فى خياطة أطواق الأحذية ، إن ماكينات الخياطة التى تعمل عليها النساء من ميتسوبيشى ، إن سارة تحيط أجزء اللسان . إنها من «لييت» ،وزوجها لايعمل ، ولديهم أربعة اطفال ، إنه يعتنى بهم بينما تعمل زوجته ، وهو يمقت هذاالعمل، ولكن ليس أمامهما من خيار.

إن المطاط اللازم للأحذية يعجن أيضا فى «ربروورلد» ، ثم يعد للإنتاج بتمريره بين أسطوانات ساخنه ضخمة ، إن التراب والبخار والحرارة شاملة طاغية ، ويلزم أن يرتدى العمال أقنعة ، إنهم يطلقون على هذا العنبر «العربية السعودية» ، بسبب مافيه من أتربة ، إن درجة الحرارة حوالى ٤٠ْم . إنهم يحصلون هنا على ١٦٠ بيزو فى اليوم تعويضا لهم عن حياة عمل سوف تختزلها تلك الأحوال المدمرة التى يعملون فيها ، إن «ربروورلد» تنتج إجمالا ثلاثين مليون زوجا من الأحذية سنويا .

إن بلدان العالم الثالث تسعى وراء الكثير من أعمال التجميع والصناعة لما توفره من رزق ومعاش ، ولكن عندما يستلزم الأمر . كما فى «ربروورلد» ، استيراد الكثير من المواد والمكونات والأدوات ،فإن قيمة الواردات تقريبا تعادل ،أو ربما تزيد ، عن قيمة الأنواع المصدرة ، إن راتنج الـ بى ڤى سى ، والمستورد من تكساس ، هو مادة مستخرجة من البترول . وماكينات الخياطة من اليابان ، ويدفع رسم الامتياز إلى اديداس فى ألمانيا ، ويتم تخفيض قيمة البيزو بشكل مستمر حتى تُجعل الصادرات

أكثر ، إلا أن ذلك يجعل الواردات أكثر تكلفة ، إن مثل تلك العوامل يمكن أن تمحو المميزات التى تعود على بلدان العالم الثالث عند استخدامها كمواقع للتجميع أو الصناعة للشركات عابرة القوميات .

يضاف إلى ذلك أن هنالك ضغطا متواصلا على النقابات العمالية حيثما يكون مسموحا بوجودها - كى تضع فى حسبانها حجة الإدارة ، والتى تقوم قوتها على الدور التابع للفليبين فى التقسيم العالمى للعمل ، إن أكثر أشكال الإدارة ليبرالية لايمكنها إلا أن تقودهم إلى الثقة بعجزهم فى عالم يزداد اندماجا فى بعضه البعض .

أنابيب كامانى ، ربما تكون الهند ، أكثر من أى بلد آخر ، قد قاومت ضغط الدمج العالمى ، ورغم تسليم الحكومة الجديدة للمد الذى لايرحم لليبرالية الجديدة ، فإن هؤلاء الذين يقاومون مايزال فى وسعهم استنباط تقاليد محلية للاعتماد على الذات.

إن «أنابيب كامانى ليمتد» فى «كورلا» ، شمالى بومباى ، إنما هى تعاونية مملوكة للعمال ، بعد أن تولوا إدارتها عام ١٩٨٨ ، بعد سنوات فى سوء إدارة وأهمال أصحابها ،أنها تقوم بصناعة الانابيب والقضبان غير الحديدية ، التى تغذى صناعات متنوعة ، إنها باستخدامها آلات قديمة بصورة لاتصدق ، ومهارات وابداعات قواها العاملة ، تقدم نموذجا لما يمكن فعله فى أعقاب اللامبالاة والاسراف الفادح لهؤلاء الذين قادوا الشركة إلى الدمار ، لقد كانت «الكامانى جروب» ، فيما بعد حقبة الاستقلال ، واحدة من شركات بومباى الكبرى .

إن د. ثانكا بان من «نقابة العاملين بكامانى» ، هو واحد من قادة المبادرة الرائدة ، وهو يعمل لنشر هذا المثل فى شركات أخرى ، أُوقفت عن العمل طبقا لمعايير تجارية تقليدية ، ويشير تانكابان إلى أن ٩٪ فقط من العمل فى الهند ، موجود فى القطاع المنظم ، أى أن ٩١٪ غير منظم ، بل وحتى الـ ٩ ٪ هذه انخفضت خلال السنوات العشر الماضية بنسبة قدرها ١٪ . ليس فى وسعك أن تُنظم فى الهند بالطريقة التقليدية، ولايمكنك تطبيق نموذج النقابات الهرمى الغربى على كتلة العمل غير المتظم ، وقدرأينا حركة العمل ، خلال الخمسة وعشرين عاما الماضية ، وهى على أى حال ، موجهة فقط إلى الأوجه الاقتصادية فى التنظيم ، متجاهلة التأثير الاجتماعى والسياسى والثقافى على عمل الناس ومجتمعاتهم ، أنت لايمكنك فى القطاع غير المنظم ، فصل العمل عن كل الأوجه الأخرى للحياة ، يجب دمجها كلها فى نضال واحد، إن مثل ذلك التنظيم يتضمن النشاط النقابى الجارى بالاضافة الى «شئ آخر» ، وهذا يعنى مكونات الحيا ة الاجتماعية والثقافية والتى تباشرها حركة النساء ونشطاء الحقوق المدنية ، المحامون والصحفيون والمهتمون بقضايا البيئة ، إن وجهة نظر النقابات العمالية هى أن القطاع المنظم وحده هو الذى فى وسعه حماية الفرد وممارسة ضغط على الحكومة ومع ذلك فإنها لاتستطيع فعل أى شئ لأنها لم تعد قوة راديكالية ، لقد تمت رشوتها .

«إن ماحدث مع كامانى يتكرر مع آلاف الشركات فى الهند ، عندما عادت مسز غاندى إلى الحكومة عام ١٩٨٠ ، تغيرت سياسة الحكومة التى كانت تعاون الصناعات المتعبة . وحدث نتيجة ذلك أن قفز عدد الوحدات المتعبة من عام ١٩٨٢ إلى عام ١٩٨٧، إلى ٢٤٠٠٠ وحدة سنويا ، وكانت غالبيتها فى قطاع الصناعات الصغيرة ، ماذا كان فى وسع القطاع المنظم أن يفعل فى مواجهة هذا ؟ إنهم لايستطيعون الضغط على الحكومة حتى تضطلع هى بهذه الوحدات ، ليس فى وسع عمال القطاع المنظم التأثير سياسيا على أكثر من ٤٠ دائرة انتخابية فى البلد كلها ، وجميع تلك الدوائر موجودة فى مناطق المدن فقط. إنهم لايستطيعون على مسئوليتهم انتخاب أكثرمن عشرة أو اثنى عشرة ممثلا للبرلمان ، يمكن للحكومة تجاهلهم ، فإن كان غير المنظمين أكثر راديكالية لاختلف الأمر ، إن حركة الطبقة العاملة تحس ، بسبب عجزها ، إنها غير قادرة على محاربة إغلاق المصانع ، ذلك هو السبب فى تصاعد البطالة . إن «سياسة الخروج » الحكومية لايمكن لها غير أن تقود إلى بطالة أوسع .

وقد حدث تولى العمال أمر كامانى فى هذا السياق ، وقد قال النقابيون المنظمون عندمااقترح هذا الوضع لأول مرة ، «ولكنكم ، بمثل هذا العمل ، تجعلون العمال رأسماليين» ، أو «كيف يمكن للعمال أن يديروا صناعة معقدة؟» واتهمت النقابة بالطوبائية ، كان الأمر بعيدا عن التصور ، غير أن النقابات فى كل الهند تجد ، بعد ثلاث سنوات من الاضطلاع بالمصنع ، الوحى والإلهام فى المثل الكامانى . النفايات التى تسيطر عليها مجموعات متباينة مثل الشيوعيين والمؤتمر (١) وشيف سينا ، إن التشريع الذى أدخله ف.ب. سينغ عام ١٩٨٥ فى ظل حكومة راجيف غاندى جعل ذلك ممكنا؛ غير أن نقابة كامانى كانت الأولى التى وجدت طريقها عبر متاهة العقبات والبيروقراطية لتعطى للتجربة شكلها المحدد.

يقول د. ثانكابان ، «لقد آمنت النقابات العمالية دوما ،بأن ادارة المصنع هى وظيفة الإدارة ، وليست وظيفة النقابات ، وآمنت الإدارة بأن مهاراتها تتجاوز قدره العمال على الاستيعاب ، إن وجهات النظر الثابتة تلك قد تآكلت عند ماتم الاضطلاع بالمصنع، إن نقابات بومباى قد شكلت منظمة تدعى ، «التضامن ضد فقدان الوظيفة واغلاق المصانع» ، وتأسس فى دلهى فى أبريل عام ١٩٩١ «مركز الإدارة العمالية » ، كان علينا تبسيط الإدارة ، إننا نعد دراسات بطريقة تقوم على المشاركة لتدريب نشطاء العمال».

إن أنابيب كامانى توظف الآن ستمائة شخصا ، لقد بدأت «مجموعة كامانى» فى منتصف الأربعينيات ، قبل الاستقلال مباشرة ، واندمجت بشدة فى تطوير البنية

الأساسية الوطنية ، أبراج خطوط النقل والمنشآت الكهربائية ، تأسست أنابيب كامانى عام ١٩٥٩ ، منتجة أنابيب لآلات صناعة السكر وأنابيب المكثفات ، وأنابيب التكييف والتبريد ، واحتلت مشروعات كامانى عام ١٩٦٣ ، المرتبة ٣٧ بين البيوت الصناعية فى الهند ، ومات مؤسسها الذى كان يحظى بتقدير عال ، عام ١٩٦٤، واضطلع ابنه الأكبر بالأمر ، وأدار الشركة حتى توفى عام ١٩٧٢ ، وورثه شقيقه ، مما أدى إلى أزمة عائلية وخصومة انتهت بدمار الشركة ، كانت الخصومة حول اقتسام المناصب والمراكز ، وقد حول أخ آخر النقود إلى حساب سويسرى ، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة ، وحاول كل أخ مسيطر على أىّ من المصانع المتعددة سحب وامتصاص أقصى قدر من النقود من كل وحدة .

وكان هنالك تحقيق «بنك الهند» ، الذى قدم البنك بعده تمويلا إضافيا للشركة ، فاستمرت تعرج حتى عام ١٩٨٠ ، ثم توقفت ، وتلى ذلك منازعات ودعاوى قضائية ، وتداخل وتشابك بين الحكومة والبنوك والعائلة والمحاكم ، وتوقفت الشركة عام ١٩٨٤ مرة أخرى ، وقُطعت عنها الكهرباء والمياه فى هذه المرة ، ولم تدفع الأجور مدة أربعة عشر شهرا . وتقدمت النقابة فى النهاية بعريضة إلي المحكمة العليا ، كانت العائلة ترغب فى البيع ، غير أنه لم يكن هنالك من يشترى ، فصاغت ا لنقابة تحت الضغط بديلا ، قامت هى بعمله . «لقد سألنا ، لماذا لايمكن لكامانى أن يبيعوا لنا؟ ، وكان رأى غالبية المحاميين أنه ليس لديهم حالة مماثلة فى القانون - إن المالكين لايمكن أن يجبروا على البيع ، إلا أن محاميا من دلهى تقدم بعريضتنا إلى المحكمة العليا ، وأوجد هذا سابقة هامة ، حيث تمت الموافقة على التماسنا فى النهاية فى سبتمبر ١٩٨٨» .

إن العمال بعد ثلاث سنوات ، يحصلون على ٨٥٪ من الأجور ، حوالى ١٣٠٠ روبيه من الشهر ، إن أكثر المناطق انتعاشا هى أوامر توريد أنابيب صناعة تكرير السكر، إن المصنع نفسه يغطى عدة هكتارات ، هو مجمع تظلله الأشجار والحدائق ، رغم أن الأماكن التى يعمل الناس فيها قذره ومرهقة للنفس والآلات قديمة للغاية ، إن أغلبها من بريطانيا ، استوردت كجزء من حزمة معونة فى الستينيات ، بمساعدة قروض الكومنولث ، كانت الآلات قد مضى عليها ، حتى ذلك الحين خمسون عاما ، وكانت قد أُلقيت جانبا وجُددت ، إن أسماء صناع منقرضين ، تلمع فوق صفائح معدنية بالية - «فيلدنج وبلات، معادن يوركشارير الامبراطورية ، بوليڤانت» ، بيرمنجهام ، جى دبليو بى ، دودلى» .

إن بعض الآلات لم تجدد كما يجب . يقول ب.د. ناير ، مدير صيانة سابق ، ترك الشركة عام ١٩٨٢ ، لكنه عاد للمساعدة فى المبادرة العمالية ، إن لدينا مكبس اخراج نستخدمه منذ خمسة عشر عاما. كنا نعمل طوال تلك المدة دون الطاقة ، حيث كان هنالك خطأ فى عملية الاصلاحات ، كنا نعمل فى ظروف غير مواتية طوال تلك

السنوات. ولم يبد أحد أى اهتمام ، لأن المسألة ، على أية حال ، كانت مجرد مواد مرسلة إلى العالم الثالث ، حيث لايتوقع أن يلاحظ أحد شيئا ، لقد قمنا باصلاحه على الوجه الصحيح مما حسن فعاليته ، إن دفاتر أوامر التوريد ملآنة ، فهنالك عمل مطلوب لتسعة شهور ، ليس هنالك من خسائر أو أرباح ، لقد بدأنا لتونا شق المساء».

إن مكان العمل ذاته يثير مشاعر متضاربة ، المكان ملئ بصرير وتزييق الآلات القديمة ، والحرارة والضجيج يعيدان إلى الذاكرة اوصاف القرن التاسع عشر فى بريطانيا ، إحساس مرعب. بابتلائنا بتاريخنا الخاص ، هنالك فى ذات الوقت تناقض غريب ، إن ماكان يعتبر فى الغرب ، أهوال صناعية لاتحتمل ، ينظر إليه هنا كأفضل أمل لتخليص حياة محترمة من أجل العمال ، إن مطمح العمل يُنظر إليه حتى فى ظل تلك الأوضاع باعتباره الضمان الأكيد لاستمرار البقاء .

تُؤخذ قطع معدنية من مزيج السبيكة المطلوبة ، وتقطع إلى كتل صغيرة معدة لعملية الإخراج ، ترفع درجة حرارة الفرن إلى ٨٠٠ْم ، وأوعية ضخمة بصلية الشكل تنفث حرارة هائلة ، ومن أفواههايضيئ أجساد العمال المتلألئة توهج أبيض ساخن ، ويسحب الكتلة الصغيرة من الفرن أفراد يستخدمون نوع من الملاقط موجود على قضيب طويل، وتوضع فى فرن الإخراج من أجل ثقب لب الكتلة الصغيرة ثم سحبها ، ثم يقذف بالمعدن خارج الماكينة ، مثل حية حمراء طويلة ، تهبط على منحدر معدنى حيث يقومها العمال بواسطة أعمدة معقوفة ، كى تصبح مستقيمة ، ويبرد المعدن سريعا ليصبح رمادى اللون كئيبا ، ثم تمضى الأنبوبة للفحص الهيدروستاتيكى ، ومعرفة خلوها من البخار والفحص الكهرومغناطيسى ، ثم تقسى فى النهاية بالتسخين والتبريد ، حتى الدرجة المطلوبة ، إن تلك الأنابيب التى تتراوح أقطارها من أربع بوصات إلى ربع بوصة ، تستخدم فى صناعة اسطوانات غازية لماكينات الضغط و أنابيب خزانات تبريد السيارات والمضخات اليدوية التى تعمل فى الآبار العميقة .

إن الكثيرين من العمال فى أواسط العمر أو من كبار السن ، كان الأمر يقتضى مثابرة وتشبثا كبيرا ، للبقاء فى الشركة خلال فترة عدم اليقين هذه ، ورغم أن العمال كانوا مهرة ، فقد كان تجديد قدراتهم محدودا ، رغم شراء سبكتروميتر ، فى الفترة الأخيرة ، لانقاص وقت الاختبار المعملى ، كما تم تركيب آله ألمانية فى عنبر صناعة القضبان ، آلة تزيد من سرعة العملية ، غير أن العمال مازالوا عرضة لاحداث خطرة ، عندما تخرج القطع من الفرن إلى قطاع صناعة القضبان التى يمسك بها عامل يرتدى فقط قفازا من الاسبستوس للحماية ، إن النار تمسك به لفترة وجيزة كلما تناول واحدا منها، والحرارة فى كل مكان ، تهدد أطراف العمال المكشوفة وجذوعهم ، ورغم هذا فإن التزامهم بالشركة باق ، إنهم يعرفون أن البديل يمكن أن يكون البطالة .

ج.ك. أرفيند ، هو المدير الإدارى ، إنه يصر على أن دوره سوف يكون محدودا حتى تتشكل التعاونية فى كيان مستقر ، له اكتفاءه الذاتى ، إن وظيفته انتقاليه فقط ، إنه يقول أن صناعة المواد غير الحديدية لم تتغير خلال الأربعين سنة الأخيرة حتى فى الغرب، «إن الفرق الوحيد هو أن الناس فى الغرب يعتقدون بضرورة إجراء إحلال لكل شئ يبلغ عمره عشر سنوات ، الأمر الذى يعتبر جريمة إهدار موارد ، إنك تستبدل مادة صالحة تماما للاستخدام ، إن طاقة العالم الانتاجية هى خمسة وعشرون ضعف ماهو منتج بالفعل ، ومن الواضح أن لإحلال واستبدال الأشياء غرضا آخر غير الفعالية ، إن النقود المهدرة ، على هذا النحو ، يمكن الاستفادة بها فى عمل أكثر فائدة دوليا .

«الصناعة الحديثة تعمل من أجل زيادة الأعمال التجارية ، ومن هنا تجئ الكثير من العمليات المتوسطة ، حتى أن الناس تفقد رؤية الغرض الشامل من عملها ، ويصبح ذلك مضادا للفاعلية ، واغتراب العمال وافتقار للاهتمام بماينتجون ، هنا كان غاندى على صواب – لقد أدرك ان أدنى مستويات التفاعل هى الأفضل ، إن ما مايسمى بالسوق العالمى ، ليس إلا لعبة خداعية كبرى ، إنه ليس له علاقة بالفاعلية ، وعلاقته بالعدالة اقل من ذلك . إنه وسيلة لتركيز المزيد والمزيد من الثروة فى أيدى قليلة ، «إننا الوحدة الوحيدة التى تتميز بمثل هذه التكلفة المنخفضة للأدوات والآلات ، للحصول على إنتاجنا ، إننا نود أن نبين أنك لست مرغما على الدخول فى سباق تنافسى ، استثمارا لرأس المال ، حتى تحقق معاشا فى العالم ، لأن هذا سوف يلقى بالمزيد والمزيد من الناس خارج العمل . فإن كان فى الإمكان فعل ذلك هنا ، فإنه يمكن فعله فى أى مكان ، إننى لا أرى فرقا بين الهند وباقى العالم ، إن السوق العالمى يستخدم أشكال القصور المصنوع عمدا بواسطة عدم الاستعمال ، والاهدار والسخط والاستياء ، إن لدينا فى الهند نقصان وقصورا بسبب العجز وقلة الحيلة ، إن الخلق المتعمد للنقصان والقصور أشد سوءا . إن المسألة مسألة مفهوم : إن سيارتى موديل ١٩٦٨ ، لقد اعتدنا فى الهند اصلاح وصيانة الأشياء ، إننا نتوقع ان تعيش السيارة خمسة وعشرين عاما . إن اقتصاد الانفاق يحل محل اقتصاد الاستبقاء والادخار ، ويفترض أن يكون ذلك هو التنمية ، إنها فى الحقيقة جريمة ضد الفقراء ، وجريمة ضد مستقبل البشرية .

«إن العقلية الاستهلاكية لن تحظى هنا بالنجاح بالقدر الذى نجحت به فى أماكن أخرى ، إننى أتنبأ بأنه سوف يكون هنا هبوط كبير فى السلع الاستهلاكية. مثال ذلك ، أن الناس ما أن يشتروا تليفازا ، حتى لايندفعون لشراء آخر ، أنهم لن يستبدلوا ماشتروا ، لأننا قد اعتدنا على إصلاح وصيانة كل شئ ، إن الاقتراض والانفاق الذى يتجاو ز دخلنا سرعان مايدفعنا إلى مواجهة شبح الفقر الحقيقى.

إن الوقت مبكر للغاية للقول بأننا قد نجحنا فى أنابيب كامانى ، لقد بدأنا الاستمرار فى البقاء ، يجب أن تكون اللجنة الإدارية للتعاونية متماسكة ، يجب أن

نقاوم اضطلاع أخرين بأمرنا ، إننى فقط أدافع عن شئ بصورة مؤقتة ضد قوى خارجية ، وسوف أكون سعيدا ، عندما تصبح التعاونية قادرة على الدفاع عن نفسها دونى ، إن عيون العديد من الصناعيين تراقبنا ، إنهم لايودون أن نحقق نجاحا مرموقا، يمكنهم أن يعايشوا نجاحا متوسطا . إنهم يودون أن نتبنى أساليبهم فى الإدارة ، إننا لسنا راغبين عن ذلك ، لكننا بدلا من أعطاء النقود لشخص واحد فقط ، فإننا سوف نعطيها لستمائة شخص .

«ليس مهما للغاية أن نبدأ بتحقيق ربح ، إن الجماعية فى الإدارة والملكية هى جوهر التعاونية المستقلة ، إن اهتمامنا الأول هو الاستمرار فى البقاء ، إن كسب المال ليس هو الهدف الوحيد ، إنك تُقيم منظمة على أساس امتداد عمرها ، وليس على أساس ورقة ميزانيتها السنوية» .

إن أنابيب كامانى هى محاولة للإفلات من ضرورات «العقلنة» من خلال نظام غير عقلانى ، ومن «التحديث» فى عالم رفع التغيير المسرف ، والذى لاداعى له ، إلى مستوى المبدأ السامى ، إنه المنطق التدميرى والمكابر للأسواق العالمية التنافسية الذى يطرد البشر من الوسائل المقررة للحياة فى كل مكان ، ويحطم سبل العيش المستقرة ، ولايسمح بأية راحة لهؤلاء الذين تثيرهذه الوسيلة قلقهم ، إن الكفاية والأمن يجب غمرهما بأشكال مأخوذة من النمو «والتنمية» ، أشكال تخلق إسرافا مزدوجا - إهدارا لكل الموارد البشرية والمادية .

تجديد الريف

راليجان سيدهى

«راليجان سيدهى» قرية فى مقاطعة «أحمد نجار» فى «ماهاراشترا» ، حوالى ٧٠ كيلومترا من «بونى» ، إنها تقع فى منطقة أمطار محدودة ، أقل من ٢٥٠ مم سنويا . المنظر الطبيعى المحيط بها منظر موحش مجدب؛ فقط بعض الاشجار فى حفر المياه ، وقطع الأرض المستطيلة المزروعة «باجرا»* و«جووار»** . القرى المتداعية تتعلق بالمنحدرات الخالية ؛ مواش هزيلة ومأوى تثير الاشفاق ، إن الطريق العمومى من بونى قد ساعد فى تعمير هذه الأراضى الجرداء بالصناعة التى ملأت الكثيرمن الحقول الخالية والعزب المهجورة ، إن المصانع أبنية حقيقية توفر عملا لهؤلاء الذين اقتاتوا ، ذات مرة من تلك البلاد القاحلة ، هنالك وحدات تصنع أجزاء من السيارات وسحب المعدن أسلاكا ، والمنتجات البلاستيكية ؛ إنه وضع غير ملائم لأبنية صناعية ، ريف قاحل -صورة «للتنمية» ، تتضمن كما تبدو ، وعدا بأنه فى مقدرونا العيش وبواسطة العبقرية البشرية ، المستقلة تماما عن العالم الطبيعى الذى أفسدناه

وتظهر راليجان سيدهى فى هذه الصحراء التى صنعها البشر مثل السراب ، المنحدرات حول القرية زُرعت غابات ، ومحصول الفلاحين فى «الخريف» (الذى تغذيه الأمطار) قوى وطويل .. باجرا ، عباد الشمس والخضراوات ؛ وهنالك بساتين رمان «وماوسومبى» وليمون ومانجو ، المنازل فى مستوطنة القرية المتناثرة نظيفة ، ابنيتها المطلية خليط من التقليدى والحديث، انقاض القرية القديمة مازالت قائمة .. جدران حجرية ، قائمة دون نوافذ ، يغطيها عشب وزهور الزمن الذى كانت فيه راليجان سيدهى مثلها مثل جيرانها ، قرية بلا أمل ، مكان يهاجر منه من فيه .

لقد فقدت راليجان سيدهى ، حتى منتصف السبعينيات ، غالبية مياه المطر المحدودة ، التى تسقط خلال الرياح الموسمية ، المياه تنحدر فى بساطة على جوانب التلال الصخرية العارية من الأشجار ، وغدا من المستحيل على غالبية سكان القرية إعالة أنفسهم ، واعتمد الناس على مقرضى النقود الذين يتقاضون معدلات فائدة عالية تصل إلى ١٠٪ شهريا ، وكان دخل غالبية العائلات منخفضا إلى حد أنهم لم يسددوا ديونهم أبدا ؛ وكان لابد من شراء المواد الغذائية الأساسية من خارج القرية.

ولد أنا هازار فى عائلة فقيرة من القرية المجاورة ، كان والداه يحاولان بيع الجوز والزهور ، غير أنهما كانا عاجزين عن تحقيق حياة ناجحة ، وذهب هازار ، وهو شاب

---

* أذرة عويجة ** القطانى - الفول والعدس ... الخ (المترجم).

إلى بومبـاى ، وعمل مع الشرطة الأهلية التى تقوم بحماية الفقراء ضد هجمات «الجوندات» الذين يستأجرهم ملاك الأراضى للتحرش بهم ، ودفعهم لترك مأويهم ، ثم التحق بالجيش وعمل كسائق خلال الحرب الهندية – الصينية ، وكان يلاحظ عندما يجئ ، فى أجازة كل عام ، إلى داره فى موطنه ، الأوضاع المتدهورة ، وتدنى ليس فقط حال الأرض ، ولكن انحطاط حال الناس أيضا ، كانت هناك مدرسة ابتدائية فقط فى القرية . وكان مستوى معرفة القراءة والكتابة منخفضا ، واختزل نشاط الناس إلى صناعة الخمور أو تكسير الأحجار على الطريق، فى اطار مشروع الحكومة لضمان التوظيف فى مقابل روبيات معدودة يوميا .

وغدت أرض الغابات مع إزالة غطاء الأشجار والتآكل والجفاف ، أرضا عقيمًا عبر أجيال ، كانت أغلبية الناس تمتلك حوالى إكرين من أرض غير منتجة ، وكان القليلون منهم فقط بلا أرض ، وحدث فى أواسط السبعينيات أن وقعت حادثة على الطريق لأناهازار ، بينما كان يسوق سيارة الجيش ، ورأى هو فى نجاته وبقائه حيا علامة على أنه قد أُبقى عليه للقيام «بجانسيفا» ، أى للقيام بخدمة موطنه.

اعتزل الجيش وجاء إلى راليجان سيدهى ، واستدعى شباب القرية – حوالى أربعين شخصا – وسألهم إلى متى يتوقعون الاستمرار فى الحياة كما فعلوا ، كانت تجارة الخمور قد غدت هى النشاط الاقتصادى الأساسى فى القرية ، فى ذلك الوقت ، حيث يخمرها الناس فى «بهاتيات» ، أو أجهزة تقطير غير شرعية ، ليبيعوها فى الطريق العمومى ، حتى يستطيعوا شراء الطعام ، وأدمن ، فى ذات الوقت ، عدد كبير من الفلاحين ، واستدعى الشباب كل المتاجرين فى الدهارو ، وشرحوا لهم ضرورة التغيير وإمكانيته ، كان الناس أنفسهم يعرفون أن العمل فى تدهور ، لكنهم قالوا ، «ولكن كيف يمكن لنا اعالة أسرنا بغير ذلك؟ لاشئ يجئ من حقولنا ، أى خيار متروك لنا؟» .

كان إيمان الناس ضئيلا بأن التغيير اختيار مطروح ، لقد التحق العديد من الشبان بالجيش كوسيلة للفرار مما هم فيه ، غير أن غالبية من بقوا ، التحقوا بكبار السن للعمل فى أجهزة التقطير ، القليل منهم استمع الى اناهازار ، وحاولوا تغير حرفتهم، اشتروا القليل من الليمون الحامض أو البصل ليقوموا ببيعه ،ولما كانت الحركة الشعبية، حركة ماهاراشترا غاندى سماراك نيدهى ، تعمل من أجل اقلاع الناس عن تجارة الكحول ، فإن أحد العائدين أوصى بجهود أنا هازار لحكومة ماهاراشترا ، وقدمت الحكومة مساعدة للمساهمة فى تنويع اقتصاد القرية . واستطاع بعض العاملين فى «البهاتى» شراء بقرة أو جاموسة ، وبداية عمل فى الألبان ، غير أن عددا قليلا ممن تركوا انتاج الكحول لم يستطيعوا التغلب على الإدمان ، وأمسك أنا هازار وشباب راليجان سيدهى بالقانون بين أيديهم : وربُط السكارى إلى عمود فى وسط القرية ، فى مواجهة المعبد ، لم يكن ذلك بغرض ضربهم : ولكن فقط تعريضهم للخزى العام ، وقد تعرض ثلاثة للعار حتى يكفوا عن الشراب ، وقد أُبطل شرب المسكر مابين

١٩٧٤و١٩٧٦، واليوم لايقف الأمر عند حد أنه لم يعد هنالك كحول ، بل ليس هنالك أيضا سجائر ، ولا «بيديات»* بل ولاحتى «بان » (مضغة).

كان لابد ، وقد تم التخلص من الكحول ، من ايضاح عملي لوسيلة بديلة للحياة وكانت الوسائل الرئيسية لهذا هي تطوير خط توزيع المياه وبناء سدود حاجزة صغيرة ،وأحواض ترشيح في التلال المحيطة ، الوسيلة التي برهنت على امكان جمع المياه كالمحصول واستخدامها ، لتخصيب الحقول ، هنالك الآن نظام رى يدار بعناية ؛ وطيور القاوند الزرقاء المبهرة واليعاسيب تنقض على القنوات ، وقد أمكن لغالبية الناس تحقيق حياة أكثر من مناسبة أو ملائمة في أرضهم .

وكانت الأولوية الثانية هي التعليم ، هنالك الآن مدرسة ثانوية مزدهرة ، يجئ إليها أبناء كل القرى المجاورة ، كذلك هنالك دار ضيافة لـ ١٥٠ نزيلا . لقد بُنيت المدرسة بواسطة «الشرامدان» ، أى خدمة المجتمع ، وهذا يعني قيام الفلاحين أنفسهم بالعمل دون أجر ، وهي ممارسة لم تحدث فقط في بناء المدرسة ، ولكن أيضا في تشييد صهاريج الترشيح والسدود الصغيرة .

وقد جاء وزير التنمية الزراعية ، قبل بناء المدرسة ، لرؤية المشروع وقدم ٥٠٠٠٠٠ روبيه (حوالي ١٢.٠٠٠ جنيها استرلينيا) ، ولو كانت هذه المدرسة قد بنيت بطريقة تجارية لبلغت تكلفتها ٢.٠٠٠.٠٠٠ روبيه . لقد عاون الناس بالمواد وبالعمل ، بالنجارة وبالبناء ، ولم يجئ إلى القرية من خارجها غير عدد قليل من المهارات المتخصصة .

وكان المتوقع أن يعيش مدرسو المدرسة في القرية ، لأن المواد الدراسية تتضمن ليس فقط البرنامج الحكومي الإجباري ، ولكن ايضا مدى واسع للغاية من النشاطات المصممة لبعث احساس بقيمة حياة الريف وماهي جديرة به ، ويجرى تعليم الممارسات الزراعية التقليدية وكذا علم صيانة الغابات الطبيعية وثراء وحيوية الثقافة الزراعية ، إن المدرسة يُنظر إليها باعتبارها نقطة بؤرية للتغيير.

إن راليجان سيدهي حالة خاصة ، وذلك فقط لأنه لايوجد بها كسب غير مشروع أو فساد ، إن النقود التي تجئ إلى هنا هي فقط النقود الواجبة الأداء لكل قرية ؛ غير أنه لايصل بالفعل ، إلى غالبية الجماعات غير جزء منها بسبب سوء الإدارة والاحتيال ، إن الاعتمادات المالية الحكومية المحدودة قدتضاعفت إلى اربعة أمثالها باستخدام الشرامدان .

إن الناس عندما يكونون معاً ، من أجل غرض مشترك للبناء وللإبداع ، تضمحل مابينهم من اختلافات ، يوجد حوالي ألفي شخص في راليجان سيدهي ، إنها قرية كبيرة الحجم نسبيا ، هنالك ٣٢٥ منزلا بها ١٢٠أسرة من الطبقات المتخلفة ، إن كل

---

* سجائر الفقراء (المترجم).

الطبقات تختلط هنا ، إنهم يأكلون معا ، يتعبدون فى ذات المعبد ، يحضرون أفراح بعضهم البعض ، لم تحدث ،حتى الآن زيجات بين طبقات مختلفة ، إلا أن الكثيرين يحسون أن المسألة مسألة وقت فقط ، هنالك «زيجات المجتمع» ، حيث يتزوج أزواج عديدون فى ذات الوقت : إن فى وسعهم مشاركة النفقات ، والإنفاق بما لايتجاوز حفل واحد ، ليس هنالك من نبذ لأحد ، وقد تلقت ٢٥ أسرة ، من طبقات متخلفة ، قروضا لمساعدتها على بدء بعض المشروعات ، وقد قُدمت المعونة إلى بعض الناس الذين لديهم عمليا أرض غير منتجة حتى تتوفر لهم آبار وموتورات وخطوط أنابيب لتحسين ناتج المحصول ، ورغم ذلك ، وجد أنه لاتوجد مياه كافية فى البئر لتحسين حقول بعض المزارعين ، والذين كانوا مايزالوا ، بعد خمس أو ست سنوات ، عاجزين عن سداد سلفة البنك ، وكان البنك على وشك أن يستعيد امتلاك الأرض ، ولكن لأنهم من عائلات «الهاريجان» * ، فإن بقية القرية تضامنت معهم ، وعملوا فى الحقول طبقا للشرامدان (خدمة المجتمع)، وأحضروا المياه من مكان آخر وساعدوهم كى يستخدموا الأرض بطريقة أكثر انتاجية .

الناس يزرعون فى «الخريف » (زراعة مطرية) محاصيل الباجرا وعباد الشمس «والمونجفالى» (الفول السودانى) ، كما يزرعون «الرابى» (المحاصيل الشتوية) القمح والبصل و«الجووار» (العدس والفول ...الخ) ولما كانت المياه ، هى أكثر الموارد حسما ، فإنه تتم محاولة تحقيق التنوع مع أقل استخدام للمياه ، إن زراعة قصب السكر ممنوعة ، بسبب حاجته الكثيفة للمياه رغم أن قصب السكر هو بعناد ، أحد أهم محاصيل ماهاراشترا ، فى الأماكن التى يمكن فيها لكبار ملاك الأراضى الاستحواذ على امداد المياه .

عندما جاء أنا هازار الى هنا ، كان هنالك ٦٠-٧٠ أكرا فقط هى التى يتم ريها ؛ أما الآن فإن المساحة حوالى ٢٥٠٠ اكرا تروى بواسطة السدود الصغيرة على المنحدرات ، وصهاريج الترشيح ، وسدود الحجز عند النقاط الاستراتيجية ، مما ملأ آبار الناس ، وجعل الرى ممكنا ، وفاقد ماء المطر أدنى مايمكن ، وأصبح الرخاء واضحا فى كل مايحيط : البيوت مبنية بالأحجار ، ذات أرضيات رطبة مفروشة بالقرميد ، وبها مراوح كهربائية ، العديد من الناس يمتلكون دراجة ، مذياع ، بل وحتى تليفاز ، شوارع القرية نظيفة وخالية من النفايات ، وتم توسيع المعبد الذى يقيم أنا هازار فى حجرة مجاورة له ، وغابة من عمد وردية اللون وزرقاء ، ورسوم للآلهة الهندوس على لوحات جدارية .

يقول انا هازار أن نقود الحكومة مقبولة ، لأنها نقود الشعب غير أنه لن يقبل أى شئ من الجمعيات الخيرية أو وكالات المعونة ، وعندما أرسل «احتكارتاتا» ، قدرا كبيرا

---

* المنبوذون (المترجم).

من المال ، وافق القرويون على اعادته ، إنه لايرى رخاء القرى فى الاعتماد على الهبات، ولكن على الشرامدان النابعة من الذات والاعتمادات الحكومية الصحيحة ، «يجب أن يكون هذا حق كل قرية ، إن لم يغشهم الرسميون والبيروقراطيين ، لقد أبدع الناس راليجان سيدهى ، يجب ارجاع الثقة بالذات إلى الناس ، «ابنافيثواس» ، عندما يفقد الناس الإيمان بأنفسهم وقواهم الخاصة ، فإن ذلك يعنى بداية الانحطاط» .

إن «بانشايات» راليجان سيدهى ، مكون كله من النساء ورئيسته شانتابهاى نامديف مابار ، وهى تدير متجرا عاما ، هو مبنى خرسانى مفتوح الواجهة ، ويوجد على امتداد جدرانه المدهونة باللون الأخضر أكياس الأرز والحبوب والبقول وصفائح البسكويت والصابون ، ويوجد الآن فى أغسطس ، «الراخى» استعدادا للمهرجان عندما تقدم الفتيات والنساء لأخوتهم أسورة باعتبارها رمزا للود والمحبة ، إن «البانشايات» يتخذ القرارات تنفيذا للمشروعات الحكومية وهو ينتخب كل خمس سنوات ويجتمع «الجرام سابها » كل شهرين ، وهو مكون من عضو من كل اسرة فى القرية، وتقدم فى هذا المنتدى كل مايراه الناس من اقتراحات ومشروعات ، لقد وُلدت شانتابهاى فى قرية مجاورة ، وجاءت إلى راليجان عندما تزوجت .

إنهاتقول أنه ليس للنساء حقوق فى القرى الأخرى ، وليس معروفا للكافة أن كل البانشايات مكون من النساء إنهاتؤمن أن النساء أكثر فاعلية من الرجال كقوة عاملة ، من أجل العدل الاجتماعى . وتضيف ان الجريمة هنا محدودة على أية حال .فإن تشاجر الناس جئ بهم معا فى اطار الجماعة ، ويُستدعى الطرفان إلى المعبد ،وهنالك تجرى مناقشة حول الطرف الذى يقع اللوم عليه والطرف الذى وقع الضرر عليه ، وتكون عقوبة المخطئ هى طلب المغفرة أمام كل «الجرام سابها»* ، وإن قطع أحدهم مثلا شجرة فى القرية ، فإن عقوبته هى زراعة مائة شجرة جديدة.

كنا نتحدث مع شانتابهاى ، عندما توقف سادهو ، من قرية أخرى «بابا جريب داس» من «جامبلى» فى «باثوردى طالوكا» ، أمام المتجر وقال أنهم أيضا فى قريته ، قد اوقفوا قطع الاشجار وصناعة الكحول ، غير أنهم لم يجدوا حتى الآن أى عمل يحل محل تخمير الخمور ، إنهم الآن فى حيرة كيف يبدأون نشاطات أكثر ايجابية ، إنه يقول : «الذباب يجذبه الضوء حتى يتلاشى الضوء» ، لقد جاء الى راليجان سيدهى «مارج دار شانا» أى كى يجد من يدله على الطريق ، المدرسة مبنى مهيب مدهون باللون الأبيض المائل للصفرة والأحمر الوردى ، إن سمعتها تتنامى كمكان لايُقصى فيه الأطفال عن جذورهم الريفية ، إن المجموعة التى تخرجت من المدرسة وكلها فى الخامسة عشر من عمرها ، تقول أنهم يودون ان يكونوا عمال للمجتمع ، وعمال زراعيين ، إنهم يودون المساعدة فى تحسين قريتهم . إن طاقتهم لم تقع أسيرة مشاعر

---

* مجلس القرية والذى يتكون من كل السكان البالغين (المترجم).

الدونية التى تغشى العديد من القرى ، حقا يقول المدرسون أن القيم الثقافية التى تصاحب المجرى الأساسى للتعليم قيم حضرية وهى تقوض إيمان أهل الريف بأنفسهم وبقدرتهم على تغيير حياتهم أو التحكم فيها .

إن المدرسة تكاد تدار بكفاءة عسكرية ، إن هؤلاء الذين فى دار الضيافة يجتمعون فى أرض المواكب الساعة الخامسة صباحا ، وهنالك تبدأ تدريبات بدنية مدة ساعتين ، الجرى وألعاب رياضية تحت اشراف اثنين معتزلين من ضباط الجيش ، ثم يقدم لهم بعد ذلك كوب لبن وسكر ، ويبدأ الافطار ، بعد الحمام ، فى الثامنة -«حلاوة» «وشاباتى» ، النظام الغذائى متوازن بدقة - عدس ولوبيا (يخنى الفاصوليا) وخبز الجوار وقت الغداء ، والخضراوات الطازجة والأرز فى المساء .

يبدأ المنهج الدراسى غير الحكومى الثامنة والنصف حتى الحادية عشر والنصف ، حيث يكون التعليم الأساسى - بعث القرية والزراعة؛ ويبدأ المنهج الدراسى الإجبارى من الحادية عشر والنصف إلى الخامسة . ثم يصبحون أحرارا بعد ذلك مدة ساعتين ونصف حتى العشاء فى السابعة والنصف ، ثم يستذكرون من الثامنة حتى التاسعة ، ويحل موعد النوم فى العاشرة ، المدرسة مبدعة مبتكرة ، فالطلبة الأقل قدرات يحظون بأكبر الانتباه ؛ ويقول المدرسون : أن الطلبة الأذكياء يمكنهم شق طريقهم بأنفسهم ، أما هؤلاء الذين ليس لديهم نفس الإمكانية على التعلم ، فإنهم يحتاجون إلى الرعاية والتشجيع ، ونتيجة ذلك هنالك الآن أطفال فى دار الضيافة من بومباى وبونى ، من «جوجيرات» و«مادهيابراديش» ، ، وكذا بالمثل من الجيران المباشرين ، هنالك مجال واسع للألعاب الرياضية ، مثل «الكابادى» و«الخوكلو» و«الكوستى» والكرة الطائرة والجرى وكرة القدم ، يقول المدرسون أن قرى الهند معزولة عن بعضها البعض رغم انتشار التليفاز ، إن الغالبية لاتعرف الكثير عن مشاكل البنجاب أو كشمير ، إن عملهم وسعيهم للبقاء يستنفذ كل وقتهم . الناس حقا ، لايرغبون فى ترك القرية لكنه اليأس ، والعجز عن تحقيق معاش هو الذى دفع بهم من القرى، إنه الظلم الاجتماعى والطبقية، إنه الدين والتدنى البيئى . لقد أمكن فى راليجان سيدهى وقف المسيرة الحزينة للبشرية بحثا عن حياة أفضل فى المساكن القذرة المكتظة فى المدينة ، وقفها فى المكان الوحيد الذى يمكن أن تتحقق فيه الحياة الأفضل عند المنبع ، إن الشباب والصبية الذين يرتدون قبعة غاندى الشمسية ، والبنات فى تنوراتهن الزرقاء وشرائط شعورهن الحمراء يشعون ذكاء وارتباطا بالريف ، الذى لاعلاقة له بالتخلف » ، إن الخطوة التالية هى البدء فى افتتاح كلية حيث يمكن تدريب المدرسين ، مما يسهم فى دعم الاعتماد على الذات، وبذا فإن الشبان الذين يشبون هنا لن يكون عليهم ، فى النهاية ، الذهاب بعيدا بحثا عن ماله معنى أو عن مايمكن انجازه ، إذ ربما يعثرون على ذلك فى المناظر الطبيعية المجددة لثراء حياة القرية اليومى وتنوعها ، إن تدنى الأرض يسير جنبا إلى

جنب مع تدنى الانسانية ، كما لاحظت فاندافاشيفا فى البنجاب ، أنت لاتستطيع أن تجدد قرى عن طريق استخراج وتصدير خصوية تربتها ، ولابصبغها بالصبغة الحضرية ، يجب أن تكون جزءا من كل لايتجزأ ، أن تكون كيانات فاعلة .

يدير شيخار باتارى فندقا صغيرا فى القرية ، إنه يبيع «البيكوراس» ، ووجبات الطعام الخفيفة والشاى. إنه يصنع «الجيلاتى» ، ويتحدث بينما يعمل عن التغييرات التى حولت القرية منذ كان صبيا ، لم يحلم أبدا بإمكان تحقيق هذا التحول، لقد أقام مقاعد طويلة ومناضد تحت الشرفة حول المطعم ؛ بعض العمال يستريحون ويتناولون وجبة الظهر ، إن لدى شيخار باتارى أرضا، أيضا ، بزرعها بالخضراوات ؛ وهنالك كومة بقول قد حصدها الآن لتوه . إن لديه ابنا واحدا فى الجيش ، وآخر يعمل على قطعة الأرض ، لقد تزوجت ابنتاه ، وجاء زوجاهما إلى القرية على عكس العرف التقليدى .

هنالك فى مواجهة الفندق ، صف من خمسة متاجر مطلية باللون الأصفر ، ولها أبواب زرقاء متألقة ، لقد بنيت تلك المتاجر كمشروع «للجرام بانشايات » لمساعدة هؤلاء الذين ظلوا دون خط الفقر، كان جانباث عاملا يعمل خارج القرية حتى بضعة شهور مضت ، إن لديه الآن دكانا لاصلاح الأحذية ، هنالك أيضا ترزى ونجار وعامل كهرباء ومخزن خضراراوت . وعلى امتداد الشارع ، هنالك الجدران المهجورة والفجوات القاحلة للمنازل القديمة والتى لايود أحد، كما يبدو، استرجاعها .

إن النساء اللاتى حصدن للتو حبات «الموج» الخضراء يقمن بفصل البسلة الخضراء من القرون السوداء الناضجة ، وامرأة عجوز ترتدى سارى أزرق غامق تغربل العدس ثم تصبه من غربالها ، كمسقط ماء أخضر ، فى سلة على الأرض ، النسيم يحمل القش الأسود والغبار بعيدا ، وتتساقط الخضراوات فى هرم أخضر فى السلة، أما القرون فسوف تستخدم غذاء للأبقار والجاموس .

لايوجد فى راليجان سيدهى كبارملاك أراضى ، ولا إحساس بالظلم الاجتماعى ، هنالك فى مبنى مكتب البريد الصغير فرع«لبنك ماهاراشترا » والذى يمنح للناس قروضا ، هنالك عشرون قرية بها فروع فى مقاطعة أحمد نجار ؛ غير أن معدل السداد فى راليجان سيدهى هو الأعلى بصورة واضحة ، عن أى مكان آخر ، المكتب الصغير مجرد منضدة خلف شباك من حديد مشغول ، وهنالك كومة من دفاتر متربة لحسابات جارية ، مكتوب فيها كل الدخول بخط اليد .

هنالك شجرة تين فى فناء (شووك) المعبد ، والعمود الذى يربط إليه السكارى ، قبة المعبد المطلية بالباستيل تسيطر على الميدان ، وقد منح الرئيس أنا هازار وسام «بادماشرى» عام ١٩٩٠ ، لكنه هدد فى العام التالى بإرجاعه بسبب الفساد، عندما

جاء هازار هنا لأول مرة ، كان جرس المعبد قد بيع ، وأخذت أعمدته «للبهاتيس » ، الآن ، لايسرق البته شئ من، المعبد، بينما يترك بابه مفتوحا ليل نهار ، كما أُعيد تشييد المعبد بواسطة الشرامدان .

الفقراء يعيشون فى بيوت مشيدة كما ينبغى فى شكل هلالى، خلف المجرى ، مآوى اَجرية صغيرة ، ذات شرفات خرسانية فى الواجهة ، تظللها أشجار التين ، الناس هنا لايمتلكون أرضا ، لقد تركوا القرية من قبل بحثا عن عمل فى مكان آخر غير أنهم عادوا عندما رأوا التحول الذى حدث ، وقد شيدت هذه المنازل أيضا بمساعدة القرويين الأحسن حالا ، إن الذين بلا أرض يعملون فى صناعة فرشاة «جهارن» التى ينسجونها من أوراق النخيل المتينة ، والتى تتقشر من جذوع الأشجار ، إن العائلة الواحدة تستطيع صناعة خمسين فرشاة فى اليوم ، تباع كل واحدة منها بخمسة روبيات ، بارڤاتى ، امرأة فى الثلاثين ، عادت إلى راليجان سيدهى ، لأنها عرفت أنه سوف يكون لها منزل هناك ، وكانت قد زرعت شجرة «شيكو» حيث تجلس أسفلها ، تنسج أوراق النخيل بينما الأطفال الصغار يلعبون فى الميدان الخرسانى .

غزت أعشاب الكونجرس المنطقة بسيقانها الأشبه بالسلك وزهورها البيضاء الرقيقة، إن هذا العشب ليس من الأنواع الهندية، لكنه جاء مع بذور استوردت من الولايات المتحدة ، و قد انتشر الآن ليغطى مناطق واسعة من ماهاراسترا ، إنه سام للماشية، الحقول مليئة بمحاصيل ناضجة ، وهنالك على الحوافى قرع عسلى وفلفل أحمر وطماطم ، الباجرا جاهزة للحصاد ، وأحيانا تسمى «نبات البردى» ذات قمم مخروطية الشكل وسيقان سميكة وأوراق عريضة ، حقل بصل غرس لتوه فى مكان آخر، والرؤوس الصفراء لعباد الشمس تهتز مزدهرة فى الريح الدافئة . وأشجار التمر هندى تلقى بظلالها ، والأزهار البرية والزنابق البيضاء والأجراس الشاحبة «للدهاتورا» تجذب الفراشات البنفسجية والسوداء ،إن كل قطع الأرض مملوكة ملكية خاصة ، وكل عائلة تقرر ماالذى ستزرعه ، قصب السكر فقط هو المحرم زراعته والشوارع مضاءة باستخدام السولار ، وهنالك مضخات وسخانات وأجهزة طبخ تدار بالسولار.

كانت هنالك زراعة محدودة «للسوبابول» ، وهو يزرع ليستخدم فى صناعة الأدوات الزراعية ، وهنالك أمام المدرسة صف من أشجار «الأشوكا» ، غير أن غالبية إعادة زراعة الغابات كانت عملية تجديدية ، تقوم على الصيانة الطبيعية للأحراش، بما فى ذلك اشجار «البابول»* التى تنمو هنا عادة ، «والنيم»** الذى تستخدم أغصانه لتنظيف الأسنان و«النيلجيرى» والمانجو و«البابايا» ***.

---

* أشجار تنتج الصمغ والأصباغ والعلف والأخشاب (المترجم).

** أشجار تنتج بذورها وثمارها زيتا طيب الرائحة للعلاج (المترجم).

*** فاكهة صالحة للأكل (المترجم).

يقول دينيس كومار ، من «مركز العلوم والبيئة فى نيودلهى » ، تعليقا على انجازات راليجان سيدهى ، أن عمل القرويين الحر قد وفر أكبر تكلفة منفردة لبرامج التنمية، إذ من كل ١٠٠ روبيه ، يأخذ العمل ٧٠ والمواد ٢٠ والنقل ١٠. فإن كان لديك عمل تطوعى ، فقد أُزيل عنصر كبير من عناصر الفساد ، إن الموظفين الرسميين والمقاولين يوظفون عمالا شبحيين ، لاوجود لهم ، مما يستهلك كميات كبيرة من النقود ، وعندما يعمل القرويون لأنفسهم ، فإن المائة روبيه تصبح ١٧٠ روبيه فاعلة ، إن ماحدث فى راليجان سيدهى ، يمكن أن يحدث فى أى مكان آخر ، إن بتر الفساد ، إنه بهذا المعنى ، مثال يبعث الأمل الشديد.

«ماكان يمكن دون شك ، أن يكون هنالك مثل هذا التحسين الرائع ، دون أنا هازار، لقد كان قائدا جيدا، إن الهنود يتطلعون إلى القادة ، طالما هم يتحدثون بعقلية الناس ، ولايفرضون عليهم شيئا ما . لقد تحولت القرية ، أولا وقبل كل شئ ، بواسطة خط توزيع المياه ؛ ثانيا ، التحول الأخلاقى للناس ، بالكف عن الخمر وبرنامج العمل الجماعى ، ثم جاء النضال ضد الفساد ، ولو كان هذا قد حدث فى مرحلة أكثر تبكيرا، لانهار ولم ينجح» .

هنالك ، بالطبع مشكلة مع النظام الذى استخدمه هازار تحقيقا للتغيرات ، «إن هازار غاندى صغير ، لم يكن لديه مايقتنيه ، وهو ليس بالفاسد ، إنه يسافر إلى كل مكان بسيارة الركاب ، وهو لايتوق إلى السلطة ، إن القادة المحليين لايسعون إلى السلطة . وهذا هو مصدر صحة ضرورة احتضان المبادرات المحلية . وكانت هنالك محاولات من السياسيين للسطو على هذا العمل ، من الـ بى جى بى * وآخرين ، لقد قام بـ «مانوفرات» ، صيام صامت ، مبكرا هذا العام (١٩٩٢) ، ضد الفساد . لقد كانت المرأة فى راليجان سيدهى ، كما حدث مع شيبكو ، فى مركز التغييرات . إن للرجال على الدوام ، أولوياتهم الخاصة حيثما يشاركون فى أى عمل ، ومع ذلك فإن النساء هن من يعانين من التدنى البيئى والخسارة الاقتصادية ، إن النساء يفكرن فى أساليب جديدة لتحقيق العدالة ، لقد ذهب هازار إلى النساء وقال ، إن كان هنالك زيادة فى دخل الأسرة ، لأن لديكن الآن ماء ، فإلى أين ستذهب النقود؟ فقالت النساء «إنها لن تذهب إلينا» ، وأخذت النساء القرار بوجوب ألا يكون هنالك متجر خمر ،إن الرجال يخرجون إلى العمل ، لكن النساء هن من يتوجب عليهن السير عشرة كيلو مترات من أجل الوقود والمياه ، الرجال يهاجرون ، يتركن النساء كى يكافحن على أفضل وجه يستطعنه».

إن اليجار سيدهى ، هى واحة صنعها التجديد البشرى فى صحراء من صنع الإنسان ، يبدو أنه يجب علينا تدمير الأرض كى نثبت أن ذلك أساسى من أجل

---

* حزب الشعب الهندي (المترجم).

صالحنا ، «إن الغرب ينظف الآن بيئته الخاصة ويصلحها ، وهو يدمر الشعوب الأخرى، خلال تلك العملية . هذه هى الكولونيالية البيئية - ضع اللوم على الفقراء وأطلب منهم أن يكفوا عن التنمية ، وخذ فى ذات الوقت مواردهم من أجل المزيد من تنمية الغرب الملوثة ، إن مايحدث هو أن الحركة البيئية فى الغرب ، تأخذ على عاتقها عملية الحفاظ الصليبى على البيئة ، وتترك عملية الاستغلال لنظام اقتصادى لايتغير ، ويعانى الفقراء ، إن تجربة راليجان سيدهى تبين أنه لايجب أن يكون الأمر هكذا ، وأنه يمكن تحقيق نسخة طبق الأصل من أى قرية ، وفى كل قرى الهند .

سيد ، راجاستان

تقطع الطريق من «أودايبور» تلال أراڤالى » المتدنية الجرداء ، والتى يتعرى العديد منها من الأشجار ، كما أن للبعض منها غطاء رقيق من «التور» و«الكيكار» المزروعة على خطوط الارتفاعات لمنع مزيد من التآكل ، إن بعض التلال كتل عارية من صخور حمراء مشققة . من المستحيل التمييز بين الطبوغرافيا الطبيعية الخربة وأكوام النفايات التى صنعها الإنسان ، خارج أودايبور ، إلى جوار مشروع صهر الزنك .

تبدو الأرض فى فبراير قاحلة ، إن كثيرا من الجداول الصغيرة قد جفت ، والعشب الرقيق احترق ليصبح قشاً باهت اللون ، وبدت الأشجار واهنة بغطاء التراب الذى يكسوها ، قطع الأرض موحشة صخرية متآكلة تتجاوز الاستخدام الانتاجى فى أماكن كثيرة ، حيثما يوجد رى هنالك رقعات زراعية حية زاهية - القمح أو السارسون ، بذور زيت فى لون الليمون ، إن أكثر الألوان الزاهية فى المنظر الطبيعى الذى استنزفته الشمس هى الوان عمائم الرجال وسارى النساء اللواتى يتمايلن برقة ، أسفل حمل خشب الوقود ، وهن تحت ساريهن القرمزى والبرتقالى والأحمر الزاهى ، والمبهر إبهار الزخة التى تجئ أحيانا للجهنمية الكرزية اللون التى تنسكب من حائط مطلى.

إن فرعا فى الطريق ، فيما وراء مدينة «كانور» الصغيرة ، على بعد حوالى ٨٥ كيلو مترا من اودايبور ، يفصل قريتى «سيد وسيتوانا» ، التى يمكن الوصول إليهما عبر طريق غير مستو على بعد ١/٢ كيلو متراً من الطريق ، هنا توجد مائة عائلة يكاد يكون عدد أفرادها ٦٠٠ فردا ، القرية متميزة ، غير أن ذلك لايرجع لكونها أثرى بطريقة واضحة من القرى الأخرى المحيطة بها ، ولكن لأنها معتنى بها بصورة جيدة ، نظيفة فواحة تفرز جوا يزيد عن ذلك الجو الذى يفرزه عادة نشاط عمدى مقصود ، المنازل مشيدة قريبة من بعضها البعض كل منها مقام على قاعدة طينية صلبة ، إنها من الأحجار التى يغطيها «الميتى» أو التراب والذى يعكس عندما يجف لمحة من لون وردى فى الشمس الشاحبة ، أسقف المنازل مصنوعة من أغصان على شكل شبكة ، وعلى تلك الأغصان قرميد مصنوع يدويا فى القرية ، جدران المنازل سميكة حتى تظل رطبة ، ولبعض المنازل شرفات ظليلة ، تسندها عمد خشبية خشنة ، لونها أبيض كالعظام ، زرائب الماشية بها خزين وافر من العلف والتبن ، وسيقان «السارسون» وحزامات «الجرام» * الناضج الذى أكل الصبية منها كل البذور.

إن أعمال الناس واضحة تمام الوضوح ،إن أسرة تقوم ، فى فناء آجرى صغير ، بصناعة قرميد الأسقف ، إنهم يمزجون التربة الداكنة ، صدئة اللون بالماء ، ويشكلون القرميد بحركة حاذقة من اليد ، ثم يتركونه فى الشمس ليجف قبل جعله صلبا ، إن الطين يستخدم أساسا كغطاء للجدران المصنوعة من طبقات من الأحجار المسطحة .

---

* نباتات بقولية (المترجم).

يجلس صانع القوارير ، فى القرية إلى عجلته : حلقة من الأحجار سمكها حوالى ٦ بوصات ، بها ثقب تُدخل فيه عصا حتى يديرها ، ثم يلقى بقبضة من طفلة مبللة ، لاشكل لها على العجلة ؛ وتلاطف يداه الكومة ، بينما العجلة تدور حول المحور ، حتى يتغير شكلها إلى فازة أو قارورة ، أو إناء عريض القمة مفتوحها ، أو الى وعاء ماء دقيق الرقبة ، وفى الشارع رجل يصنع الحبال من لحاء الشجر ، مستخدما «الشاركا»*، يقوم هو بتدويرها حتى يزداد الليف متانه وهو يسحبه ، وفى مكان آخر تصنع عربة من تلك العربات التى يجرها ثورمخصى ؛ حيث يتم ادخال عوارض العجلات الخشبية الخام ، والسطح بجوانبه المنخفضة التى سوف تحوى خشب الوقود والأطفال الذاهبين إلى المدرسة ،الروث والسارسون والخضراوات البارزة على الجانبين حتى أنها تسد الطريق الرئيسى كلية ولاشئ يستطيع اللحاق بها .

المنظر الطبيعى حول سيتوانا وسيد يتغير بصورة مثيرة ، هنالك وسط القفر ، وحيد اللون ، جزر من الخضرة التى تموج بالنشاط والحيوية ، أرض مزروعة قمحا ، جوانب التلال وقد أعيدت زراعتها بالغابات التى يتراوح ارتفاع اشجارها الآن من ٦ الى ١٠ قدما ، والعشب ، وبذور الزيت ، واشجار الفاكهة ، المانجو والبابليا ، لقد كانت المنطقة كلها ، منذ عشرين عاما ، قاحلة صخرية وغير مزروعة. كانت قرية قبلية فقيرة ، يعجز ناسها عن تحقيق معاشهم من تلك الأرض التى قُطعت غاباتها ، وهم ليس لهم من وسيلة أخرى للمعاش غير تخمير الدهارو» خمر غير قانونية من زهور «الماهو» والسرقة ، لقد بدأت عملية التجريد من البريطانيين ، واستمرت فيما بعد الاستقلال ، عندما أقدمت الحكومة ببساطة على بيع الغابات التى كان الناس يعتمدون عليها تقليديا ، إلى المقاولين .إن العرى الناتج دمر أساليب الحياة التقليدية ، عندما محا المنظر الطبيعى الذى كان ، يوما ما غنيا بالغابات ، إن العديد من الرجال الأكبر سنا ، المسنين المبجلين والمحترمين الآن يحكون كيف أنهم كانوا يقطعون الطريق ويسرقون ملابس الأغراب من أجل بضعة روبيات قليلة ، وأنهم كانوا يدمنون الشراب ، وقد اعتادوا ضرب زوجاتهم وأبنائهم بانتظام .

لقد أُعيد بعث هذا المجتمع عبر تأثير غاندى وفينوبهابهاف ، وهو مصلح اجتماعى ينتمى الى غاندى قام بتحفيز حركة «البهودان» التى تقوم باقناع ملاك الأراضى الأغنياء بتوزيع الفائض من أرضهم على الفقراء .

وكان راميشوار براساد واحدا من الفاعلين الأساسيين فى عملية التحول ، إنه يحكى ، كيف ذهب كى يستمع إلى فينو بها بهاف وهويتكلم عندما جاء لزيارة المقاطعة فى أواخر الخمسينيات ، انتهى الاجتماع فتتبع بهاف إلى حيث ينزل ، وسأله نصيحته احياء للقرية وحياة ناسها ، وقال: بهاف ، «اعملو بأنفسكم من أجل قريتكم ، لاتعتمدوا

---

* عجلة للغزل محلية ، تستخدم أساسا في الهند (المترجم).

على الحكومة ، أو تتوقعوا قيامها بأى شئ لكم ، إن القرى الهندية تعتمد على نفسها فى غذائها ، اجعلوها تعتمد على نفسها فى أشياء أخرى عديدة قدر استطاعتكم».

وغدت سيد بعد ثلاثين عاما ، نموذجا للحكم الذاتى . وقد سجل المجتمع طبقا لـ «قانون راجاستان جرامدان» ، وهو قطعة متفردة من التشريع من إلهام بهاف ، تمنح «الجرام سابها» (مجلس القرية والذى يتكون من كل السكان البالغين) سلطات تنفيذية وقانونية ، إن للجرام سابها حق التحكم الكلى فى الأرض ، فى إطار حدوده ، حتى تلك الأرض التى كانت فيما سبق خاضعة لإدارات الغابات والريع .

إن إصلاح وتجديد ما هو عام ومشترك فى القرية ، قد يكون أكثر الانجازات روعة ، خاصة فى وقت تجرى فيه خصخصة الكثير مما هو عام فى الهند ، وفرض الضرورات المدمرة لاقتصاد السوق عليه . لقد قسم الجرام سابها ماهو عام فى القرية إلى قسمين- القسم الذى حرم فيه الرعى وجمع أوراق الشجر ، والقسم الآخر الذى سمح فيه بالرعى ، ولكن حُظر فيه قطع الأشجار ، بل وقطع الأوراق أيضا ويمكن قطع الأشجار فى الأرض الخاصة ، فقط إن قرر الجرام سابها ، أن هذاضرورى للغاية من أجل البقاء الاقتصادى للعائلة .

ينتخب الجرام سابها لجنة تنفيذية (كاريابااليكا) ورئيسا (ادهياكش)، وهنالك ست لجان تشرف على مجالات النشاط المختلفة ، قروض المحاصيل، صيانة الغابات، تطوير المشاتل، مصادرالمياه ، النزاعات والتنمية ، وتتكون اللجنة للجماعة كلها وتمثل المرأة تمثيلا متساويا .

وقد أقام بعض أعضاء الكاريابااليكا ، فى سيد ، فى المبنى الخرسانى الذى تجتمع فيه اللجان ، مزارا لغاندى وبهاف ، لقد صنعوا لى تقدمه من خيط مغزول فى القرية ، وجوزة هند وعملة روبيه ، ووضعوا «الشاندان» الأحمر فوق جبهتى ثم قدموا لى طبقا من الألونيوم حتى يمكننى أن اتقدم بالاحترام والتعظيم لغاندى وبهاف ، وذلك يجعل الأحمر ينطبع على الزجاج الذى يغطى صورتيهما فوق جبهتيهما وأطوقهما بالصوف المقدس .

جلسنا على حصيرة من نسيج يدوى بينما هم يشرحون كيف تعمل اللجان ، إن لسيد قواها الشرعية لتخطيط مواردها ، ولتطبيق قراراتها ، وللقضاء وتوقيع العقوبات عندما تخرق قوانينها للوقاية والصيانة ، وهنالك سجلا ت تحتفظ بعناية بكل المنازعات- من الذى قطع الغابة؟، من الذى دمر الأشجار؟ من الذى سرق الطعام؟ من أين جاءوا؟ اجراءات التحقيق الأولية والمحصلة ، لقد جمعت اللجنة عبر السنوات العشر الماضية أكثر من ٥٠٠٠ روبيه غرامات من هؤلاءالذين جاءوا من قرى أخرى ليقطعوا الأشجار ، أو ليرعوا فى المناطق المحظورة أو حتى لسرقة أوراق الشجر ، كان راكهافا هو أول رئيس للجنة التنفيذية ، إنه يقول : أن الشرطة لم تجئ ألبتة إلى سيد أو

سيتوانا ، حيث لاتوجد الآن جريمة ، إذ لو حدث أى نزا ع بين أعضاء عائلات مختلفة ، فإنه يدعى إلى اجتماع خاص ، إن حدث وأكلت الحيوانات المحاصيل أو داست الأشياء المزروعة ، ويحل كل شئ فى إطار القرية .

لقد أصبح الناس نباتيين ، با ع هؤلاء الذين يقتنون ماعزا أو غنما مالديهم فى السوق وذهب بعضهم بعيدا حتى بومباى ، «إننا نعيش بتعاليم غاندى ، «جرامجيفان»، عن حياة القرية ، إننا قادرون على التحكم فى مجالاتنا ، إننا نقرر جماعيا مانفعل ، إن لدى كل الناس نفس نوعية الأرض».

إن لالوجى هو حارس غابة القرية وهى وظيفة مهمة بشكل خاص إذ تحتل موقعا مركزيا فى عملية إعادة زراعة الغابات ، إنه دائم اليقظة لجوانب التلال التى تم تشجيرها ، ويكتب اسم أى شخص يجده يقطع العشب أو يسرق الأوراق ، وكذا مكانه الأصلى ، عندما تجئ الرياح الموسمية يصل ارتفا ع العشب إلى وسط المرء ، وعندما يقطع هذا العشب يستخدمه القرويون كعلف ، إن حمولة عربة يجرها ثور تكلفهم ١١ روبيه .

القرية تغطى مساحة قدرها ١٠٠٠ اكرا ، ولدى كل أسرة حوالى خمسة «بيغات» من الأرض ، أى مايساوى اكر تقريبا ، ومن ثم فإن غالبية الأرض أرض عامةأو مشتركة ، ويوجد فى المنطقة التى أُعيدت زراعتها بالغابات ، أشجار «البالاس» و«البانس» و«الخيرجا» و«الهارسيا» و«الساجفان» القوية ،يقول راميشوار براساد ، «أنه من السهل أن تقطع وتدمر ، ولكن الأشد صعوبة هو البناء والصيانة ، غير أن هذا هو مافعلناه ، ماتزال هنالك بعض الأراضى المهجورة ، إنها تنتمى إلى آخر مالك ملكية خاصة فى القرية آخر مالك هجر هذه الأرض بدلا من إعادتها إلى مشتركات القرية» ، وتنمو حتى فى الموسم الجاف ، أزهار صغيرة صفراء وأرجوانية ، تنمو فى الظل الوارف للأشجار ؛ وقد عادت الطيور ، العندليب والطائر النساج وكذا الحيوانات البرية والفراشات .

المحاصيل التى تُزرع هنا ليست فقط «ماكخى» ، «جووار» (العدس والفول ...) ، «مونج» والخضراوات ، ولكن أيضا العديد من البقول التقليدية و«الادجفان» و«الأوديد» والتى كان يتناقص انتاجها ، لأنها طعام الفقراء ليس لها قيمة القمح أو الأرز السوقية وإن كانت ذات قيمة غذائية أكبر ، إن بعض الناس ينثرون ، على الطرق المحيطة بسيتوانا ، محصولهم من الأدجفاد والسارسون الذى تم حصاده حديثا، وعندما تقوم العربات والمركبات بدهسه ، فإن عجلاتها تفصل البذور عن السيقان ، مما يوفراستكمال عملية الدق والدرس ، ثم تقوم النساء ، بعد ذلك بزرى البذور فى سلال قليلة العمق .

أخذ منسوب المياه ،فى المنطقة فى الارتفاع منذ بدأ برنامج الشعب للتشجير ،كانت هنالك فترات جفاف فى راجاستان فى الثمانينيات ، غير أن الناس يقولون بأن الأمطار تعود أيضا ؛ يقينا أن الأمطار كانت فى السنوات القليلة الماضية أكثر وفرة ، إن تشكيلة الأشجار المزروعة ، إنما هى محاولة لتجديد الغابة ، إلى اقرب ماكانت عليه تشكيلتها فى الماضى -«ساغوان» ، «خر» ، «كارانج» ، «سيسال» * ، «سيرارا» ، «تيمرو» ، «بابول» ** ، «نيم» *** ، «أملى» ، «بيبال» ****.

لايوجد أحد فى سيد أو سيتوانا ، بلا أرض ، لقد غدت الطبقية أمرا ثانويا بالنسبة للسعى العام نحو التقدم الاجتماعى ، إن الأطفال يمسكون ، وهم يغادرون المدرسة بأيدى بعضهم البعض ، ويقولون محيين «جاى جاجات» ، «السلام للعالم».

إن الاعتماد الكلى على الذات ، ليس بالأمر الممكن ، إذ لابد أن تستورد القرية بعض الضرورات الأساسية . هذه المنطقة ليست منطقة زراعة أرز بسبب الجفاف . لم تعد هنالك «غانى » (معصرة زيت) فى القرية ، توجد كهرباء لدى بعض القرويين ، لكن الجزء الأكبر يستخدم لمبات الكيروسين ، لايوجد متجر يبيع منتجات الشركات العابرة للقومية - صابون «هندوستان ليفر» ، معجون أسنان «كولجيت بالموليف» ، «كومبلان نستله» ، «شوكلاته كادبورى» - والتى تباع فى العديد للغاية فى القرى الأخرى .

هنالك صراع دائم ، داخل أى نظام ظالم ، من أجل صيانة العدالة ، إن المشكلةالأكبر الآن ، كما يقول أونكالال ، هى «أرثيك فيكاس» أى التنمية الاقتصادية ، إن المشكلة هى كيف نحسن معايير حياة الناس . المجتمع الآن فى حالة جيدة ، فقد تولد الإحساس بالعمل الجماعى وترسخ ، إنهم يناقشون الآن معنى التنمية الاقتصادية، إنهم لا يرغبون فى استيراد أكثر مما هو ضرورى الى القرية ، ولا أن يوسعوا مجال النقد السائل إلى مناطق لامكان له فيها ، إنها لايرغبون فى جلب الديون على أنفسهم كما تفعل حكومة الهند الآن ، والأسوء من ذلك تزيين هذا الأمر باعتباره مبدأ عالى القدر ، إنهم يعرفون أن الدمار يكمن فى هذا الطريق ، لقد رأوا ذلك على المستوى المحلى ، وهم قد صدموا عندما رأوا أن هذه هى سياسة الحكومة الآن ، يقول اونكا لال ، إنه قد غدا نباتيا ، ولم يعد يشرب الخمر ، إن لديه أربعة ابناء فخورين بما انجزته القرية ، إنه يقول ليس التقدم ماتراه حادثا فى العالم ، إنه ما يحدث فى قلوب الناس .

إن على العديد من النساء أن يقطعن مسافات طويلة خارج القرية بحثا عن وقوده سوف يعطى الجرام سابها إذنا بقطع الأخشاب الميتة فى منطقة المشاعيات ، لكن من

---

* تنتج الليف (المترجم). ** يفرز الصمغ العربى وأحماض الدباغة وعلف وأخشاب (المترجم).

*** أشجار تنتج بذورها وثمارها زيتا طيب الرائحة للعلاج (المترجم).

**** تين هندى معمر يغل منتجا أشبه بالصمغ (المترجم).

غير المسموح به المساس بأية شجرة أو أوراق حية ، إن بعض النساء يحرقن الجويار وروث البقر ، إلا أن تلك المواد محدودة حيث أنها تستخدم بطريقة أكثر صحة كسماد فى الحقول ، إن خمسة وخمسين عائلة ، فى سيد ذاتها ، تستفيد من الرى المرفوع ، مما يعنى أنه يمكن زراعة القمح حتى فى الفصل الجاف ، لقد شُيدت هذه جزئيا من اعتمادات الحكومة، وكذلك أيضا بواسطة الشرامدان ، أو العمل التطوعى ، الحقول المزروعة تحميها سياجات «التور» ، سياجات نباتات شائكة من الصبار الأخضر الداكن ، هنالك مشتل صغير وصفوف من شتلات المانجو وبراعم «البهاس» الحمراء الأوراق ، والتى تكاد تكون معدة للشتل فى المناطق التى يعاد زرعها غابات ، وفى شارع القرية - وهو فى الحقيقة ليس بشارع لكنه سلسلة من فراغات بين المنازل - يجلس الناس فيه بعد الظهيرة الناعس ، بعض النسوة يشّيدن امتدادا لمنازلهن : حائط مصمت من الأردواز والحجر ، الملتحم بالتراب ، داخل المنازل رطب وحلو الرائحة ، لايوجد فى هذه القرية حديد مجعد ، وفى الداخل أساس محدد للغاية ، سرير وطية فراش ، وبعض الأوانى المصنوعة من الألمونيوم ، لكن هنالك العديد من القدور والأوعية الفخارية المصنوعة محليا ، الناس تقول : سوف تبقى تلك المنازل مائة عام ، إنها مناسبة للبيئة : حقا ، إنها صادرة من البيئة ذاتها ، منبثقة من التربة الشاحبة القرنفلية ، إن الخطوط الكنتورية للشوارع والبيوت ملساء دون أطراف مسننة ، والألوان حجبها الغبار والقش ، إن هدوء المشهد ليس خادعا البتة : إن التجانس البيئى ينعكس هنا فى السلام الاجتماعى ، الأطفال يأخذون الجاموس إلى المجرى ، حيث يقف فى الماء ، وقرون الأبقار مدهونة باللون الأخضر والأصفر والقرمزى ، وامرأة مريضة بالحمى ، محمولة على عربة ، يجرها ثور إلى المركز الصحى ، الأطفال يغادرون المدرسة ، يجرون عبر الحقول يحملون شنط كتبهم مشدودة بسير جلدى إلى جباههم .

لايوجد هنا دور *«للباتوارى» ، أى الرجل الحكومى المسئول عن الأرض ، الناس* يحتفظون بسجلاتهم الخاصة ، وتجرى كل الأعمال التجارية فقط بإذن من الجرام سابها ، إن سيد لايمكنها بالطبع ، أن تُبطل وتنقض دمار «الأراڤاليس» وتجريدها ، لكن هنا نموذج لما يمكن أن يفعل عندما يسيطر المجتمع على استخدام أراضيه ، مما خلق واحة من الخصوبة والأمل، مازال هنالك نقص فى المياه ، فى سيد، كما أن العلف لايزال غير كاف ، إن ثلث الأرض ، التى يمكن أن تنمو فيها الأشجار والعشب الآن فى الهند ، خاضع لسيطرة الحكومة ، ويكاد نصف هذه الأرض أن يكون فى حالة من التدنى ، إن القرويين لو قاموا بزراعة الأشجار فى أراضى الغابات المدمرة أو أراضى الريع ، فى ظل القوانين الجارية، فإنه يمكن نظريا إرسالهم إلى السجن .

إن المبادرات المحلية التى تعمل معا هى فقط التى يمكن أن تبدأ إصلاح الإهمال الهائل والانحطاط الذى حل بالأرض فى الهند ، لم تستطع أية تقنية قادمة من الخارج، القيام بنصف ما قام به الناس أنفسهم حيثما سيطروا على أرضهم ، إن هؤلاء الذين يقترحون المزيد من تصنيع الهند ، سيضاعفون فقط مشاكل إنهاك الأرض ، وتقويض قاعدة الموارد ، وتآكل مناسيب المياه وانخفاضها ، ومزيد من تحطيم القاعدة الاقتصادية للبلاد ، الناس هنا يعرفون أنه لامفر من المجال الحيوى حقا ، إن الحياة فى إطار نظمه وقيوده هى التى تعطى شعب سيد حرية تفتقدها القرى الأخرى فى المنطقة .

يقول راميشواربراساد: «يجب أن تذهب وتفعل مثل هذا فى قريتك»، وأقول أنا : أن قريتى تقع فى ضواحى جنوب لندن ، فيضحك ، «مازال فى وسعك تأسيس جرام سابها ، وحتى إن لم تستطع فعل ذلك ، فإنه فى وسعك أن تقيم «غاندى دراشان» ، أن تعيش طبقا للقدوة الغاندية» .

موت اشتراكى :
حركة تحرير تيسجاره

إن «بهيلاى» ، فى «تيسجاره» هى أفقر جزء من ولاية الهند المركزية ، «مادهيا براديش» ،وهى المكان الذى يوجد به أكبر مصنع للصلب فى آسيا ، إنه وصناعاته المعاونة ، يستخدم ١٠٠،٠٠٠ شخصا. إن عمر المشروع الآن أربعة وثلاثين عاما ، إنه تعاون سوفيتى – هندى ، يرسل بتلوثه على الريف ، مما يضر بأشجار التمر هندى الموجودة على جانبى طريق «رايبور –بهيلاى» ويجعل الشمس ترشح عبر سحابة صناعية أبدية ، إن قلب عمال بهيلاى مكون من عمال منتظمين ، أما هؤلاء الذين على الأطراف وفى الصناعات الخاصة ، التى تدعم صناعة الصلب الضخمة ، فإن العمل مؤقت وخطير وأجره هزيل . والنساء اللواتى يعملن فى المصانع يُغلق عليهن فى الليل حتى أنهن لايستطعن استعمال المبولة ؛ وفى محاجر الخام ، ذات الواجهات المكشوفة ، فإنه عندما يقتل عامل بسبب سقوط الصخور عليه ، يكون أول مايهم المالكين هو تغطية الموت لتجنب دفع حتى أقل تعويض ، إن أهالى تيسجاره أناس فقراء فى جزء من الهند ، به بعض من أغنى موارد البلاد – خام الحديد ، الدولوميت ، الفحم ، النحاس ، اليورانيوم ، وكذا بالمثل غابات الساج* والماهو والتندو.

كانت نقابة الحزب الشيوعى الهندى (الـ إيه آى تى يو سى) هى التى قامت فى الأصل بتنظيم عمال مصنع بهيلاى ، غير أنها لم تكن مهتمة بالعمال المؤقتين الذين يشكلون غالبية قوة العمل .

وجاء شانكر جوهانيوجى إلى بهيلاى قادما من البنغال الغربية عام ١٩٦١، والتحق بمصنع الصلب كمهندس تحت التمرين ، وأسس ، بينما كان يعمل ويذاكر كى يحصل على البكالوريوس ، «لجنة عمل أفران الصهر» ، كان يعرف كمهندس كيف يمكنه ايقاف المصنع كله . وطُرد عام١٩٦٧ على أسس أمينة ، وذهب إلى «باستار» ، وهى منطقة قبلية فى مادهيا براديش . وعمل فى الحقول يرعى المواشى ويبيعها من أجل اللحم فى المدينة ، متحاشيا السماسرة الاستغلاليين ، وكاسبا معاشا محترما للقبليين ، ثم عمل فيما بعد فى محاجر الدولوميت ، حيث تزوج واحدة ممن كن يعملن معه ، امرأة قبلية أسماها أشا ، «الأمل» .

وقبض عليه ، فى أواسط السبعينيات خلال فترة طوارئ السيدة غاندى ، وقضى ثلاثة عشر شهرا فى السجن بسبب الجريدة التى كان قد بدأها فى باستار ، وكان العديد من العمال قد تركوا ، فى ذلك الوقت نقابة الحزب الشيوعى الهندى ، وشكلوا «تيسجاره مينزشارميك سانغ» ، النقابة التى تطابقت مع نيوجى . وجاء عام ١٩٧٦ ،

*شجر ضخم صلب الخشب (المترجم).

إلى «دالى راجهارا» ، إلى مناجم خام الحديد ، حيث كانت أجور العمال ٣.٥ روبيه فى اليوم ، ضاعفتها النقابة فى المرحلة الأولى، غير أن نيوجى أصابه الفزع ، عندما وجد أن الأحوال المعيشية لعمال المناجم وعائلاتهم لم تتحسن رغم المكاسب المالية ، كان الكثير من الأجور التى ارتفعت يذهب إلى متاجر الخمور ، وكانت الحملة الثانية هى تخفيض استهلاك الخمور وأرباح بارونات الخمور ، كانت تلك هى المرة الأولى التى تربط فيها نقابة عمالية فى الهند نفسها باصلاح اجتماعى على هذا النحو، كانت النساء هن الفاعلات الأساسيات فى حملة الخمور ، وأدت هذه الحملة إلى أن يدخل نيوجى فى صدام مع مافيا الخمور ، والتى لها أيضا علاقاتها بالسياسيين ، وبذا لم تعد القائمة تضم فقط المقاولين الذى يحتالون على العمال المؤقتين ، ولكن تضم أيضا إدارة بهيلاى وبارونات الخمور والسياسيين .

ناضل نيوجى ثلاثين عاما من أجل تحسين الأوضا ع الاجتماعية والاقتصادية لأهل شاتيسجاره المقهورين والمستغلين ، وطرح منذ منتصف السبعينيات رؤيته عن بديل للنظام القائم ، بديل يمكنه تجنب عبودية التقنية ، ووقف الدما ر البيئى والعمل الاستغلالى ، ورفع وضع المرأة ، واستنباط الوسائل الملائمة لتعزيز العمل الانسانى بدلا من ازاحته ، ومضت الحركة متجاوزة أى نشاط نقابى تقليدى ، محتضنة هؤلاء الذين تحرروا من العمل الذى تكفله سندات وقاطنى مسكان رايبور القذرة المكتظة ، والمزارعين والعمال الذين يعملون فى معاصر القطن القريبة ، والعمال الأطفال ، والنساء المهجورات، والمعتدى عليهن أو اللواتى أسئ إليهن بسبب البائنه ،وغدت عدة مئات من آلاف الناس جزءا من «الشاتيسجار موكتى موركا» (جبهة تحرير شاتيسجار) والآن يرفرف العلم الأحمر والأخضر فوق المنطقة كلها .

الراية تهيمن على مدينة «راجهارا» ، حيث يوجد فى الأرض أعلى محتوى من الحديد فى الهند ، وقد أحال الغبار الأنهار إلى اللون الأحمر ، وتحولت الأشجار إلى منحوتات معدنية صدئة ، وريح حارة دائمة من مسحوق صدئ مستثار على مصاطب التلال الجرداء ، التى تنقل منها سيارات النقل والقطارات الخام الثرى فى سرعة من المكان الذى يستخرج منه ، إن الآلات التى تستخدم فى استخراج ثروتها بفاعلية تُذكر «بوادى رهوندا» فى القرن الماضى التاسع عشر.

إن راجهارا مدينة حدودية ، يبلغ عدد سكانها حوالى مائة ألف نسمة ، المبانى مرتجلة ، فى حالة من الفوضى والاضطراب ، أكواخ وأحياء قذرة مكتظة ، فنادق رخيصة ، باعة وأناس يجرون العربات ، وعربات تجرها الثيران ، وسيارات ركوب ، وناس يتعلقون بالجانبين ويجلسون على السطح ، وعمال مناجم ذاهبين إلى دورهم عند نهاية اليوم ، يلطخ وجوههم وملابسهم صدأ مادة عملهم ، لقد بلغت اجور عمال المناجم الآن ٨٠ روبيه فى اليوم ، وهى أعلى أجر فى الهند ، إنهم يتوقفون لشراء الطماطم

والباذنجان والبسلة والقرنبيط من باعة الخضراوات ، على الحافة الترابية للطريق ؛ برتقال ناجبور الحلو وسباطات الموز الناضج ، لم يكون أى من تلك الأشياء فى متناولهم منذ ١٥عاما مضت – الآن ، تحسنت منازلهم ، غدت نظيفة يكسوها القرميد ، وقد أزيلت مجموعة الأكواخ اللعينة . إن كل شئ ينطق بالاكتفاء المشرف.

هنالك الليلة على أى حال ، جو من التوتر ، طاقة مكبوتة فى الهواء ، إنه نهاية أسبوع «يوم الجمهورية» ، وغدا سوف تكون هنالك مسيرات ، فى كل أنحاء شاتيسجاره ، مسيرات ومظاهرات لحركة الأحمر – الأخضر، احتجاجا على تراخى السلطات فى مطاردة هؤلاء الذين اغتالوا ، فى ٢٨ سبتمبر ١٩٩١ نيوجى فى أكثر الأكواخ تواضعا حيث كان ينام ، وذلك باطلاق ست رصاصات عبر النافذة المفتوحة .

كان قد ترك ، حوالى منتصف الليلة البارحة ، صديقه راجندراسيل ، أحد العاملين فى مجال حقوق الانسان مع«لجنة اعانة تنمية كنائس رايبور» . وقد طلب منه سبل البقاء ، حيث كان معروفا بشكل عام أن حياة نيوجى عرضه للخطر ، كان قد التقى برئيس الهند منذ أيام قليلة ، وحدثه عن القمع وتخفيض النفقات فى شاتيسجاره ، وقد قال : «هل يجب على الناس أن يستخدموا بنادق «إيه كى» حتى يستمع أحد إليهم ؟».

كانت هنالك تحذيرات عن مؤامرة ضد نيوجى ، وقد سُلم خطاب غفل من التوقيع من فاعل خير، من بهيلاى ، إلى الشرطة فى راجهارا فى ابريل ١٩٩١ ، ولم يُتخذ أى إجراء ، ثم حدث بعد ثلاثة شهور أن استلم خطاب ثانى ، يحذر بأن المؤامرة ستنفذ قريبا ، كان قد اعد كل شئ ، وكان اسم القاتل معروفا ، حيث كان بعض ذوى النفوذ مشاركين فى المؤامرة ، وسُلم هذا الخطاب أيضا للشرطة مصحوبا بخطاب من مكتب النقابة ، ولم يتخذ أى اجراء ، وقد نشرت الشرطة بعد الاغتيال بيانا تقول فيه بأنها لم تكن تعرف أن حياته مهددة ، وقد قال المكتب الجنائى للتحقيقات ، وهو أعلى هيئة تحقيقات فى الهند ، بتورط بعض القادة الصناعيين ، وبارونات الخمور والسياسيين فى مادهيا براديش، إن وجه القاتل مطبوع على ملصقات ، إنه قاتل مأجور يدعى بالتان مالاه، وهنالك جائزة لمن يقدم معلومات عن مكانه ، وهنالك احتمال أن يكون الآن ميتا ، أزاله هؤلاء الذين استأجروه ، حتى تتحطم السلسله التى تربطه بذوى النفوذ .

لقد جاء راندراسيل إلى رايبور عام ١٩٧٧ كنشط فى مجال الحريات المدنية ، «كنت مهتما بالبحث عن ماهية التنمية مع العدالة ، ورأيت هذه المبادئ وقد تحولت إلى مبادئ حية على يد ماركسى ، لكنه لم يكن بالطبع ، أيديولوجيا تقليديا ، كان خليطا من غاندى وماركس معا ، كان يؤمن بالانفتاح والمرونة والتجريب.

«ذهبت إلى مناطق المناجم ، كى أرى بنفسى ، إن أول شئ تراه حيثما تذهب فى مناطق المناجم فى الهند ، أن الأطفال هم الذين يلتفون حول أى أجنبى بمجرد مجيئه ، إن لهم على الدوام كروشا وأنوفاراشحة وشعرا جافا ، وقد ارتدوا فقط سراويل ممزقة

أو عرايا، كان أول ماالفت نظرى أن الأطفال هنا مختلفين ، فإن لم يكونوا مرتدين ملابسا ، فذلك لأنهم لا يرغبون فى ارتدائها ، إنهم يبدون أصحاء ونظيفين ، شعورهم ممشطة ومدهونة بالزيت ، وهم جميعا يذهبون بالمثل إلى المدرسة ، حقا ، أن المدارس التى لايوجدبها مدرسون - لأن المدرسين لن يجيئوا إلى مثل تلك المناطق - توفر النقابة لها مدرسين ، هنالك شئ آخر : إنك عندما تذهب إلى مناطق المناجم ، فإنك لن تجد النساء ترتدين تنورات - إنهن ترتدين السارى فقط ملفوفا حول أجسادهن ، هنا ، كن ترتدين بلوزات وجونلات وصنادل ، كانت شعورهن نظيفة وممشطة ، وكن ترتدين المجوهرات. الرجال ايضا يبدون أكثر نظافة ، إنهم ليسوا فى مشارب الشاى أو متاجر الخمور ، لم تكن منازل الناس حسنة للغاية لكنها كانت نظيفة ، لم تكن أكواخ قذرة ، ولكن أكواخ ذات أسطح من قرميد وبساتين لزراعة الخضر . وتحدثت مع النساء عن الحملة المضادة للخمو ر، وماذا حققت ؟ قالت النساء ، لم تكن نعرف فيما سبق ماذا سنأكل أو متى ، الآن نحن نأكل متى شئنا » ، هذا بيان له قوته ، وقد أرونا أن لديهن مخزونا غذائيا يكفى عشرة أيام .

«ثم ذهبنا الى أصحاب الحوانيت ، هل حكاية نجاح الحملة المضادة للخمور حكاية حقيقية ؟ نعم كيف عرفتم ؟ كان علينا قدر كبير من الديون ، إلا أن هذا القدر قد انخفض ، فإن كان هنالك مقصر فى سداد الدين ، فإننا نذهب إلى مكاتب نقابة العمال ، ونقدم تقريرا بذلك الى نيوجى : وهو يقوم بدفع النقود من النقابة ، أو يجعل المقصر فى السداد هو الذى يدفع لنا مباشرة ، النقود تصرف الآن على الطعام والملبس .

«ثم ذهبنا الى البنوك ،قالوا لنا : لدينا الآن حسابات ادخار قليلة تتراوح من ٣٠٠ الى ٣٫٠٠٠ روبيه ، وروى العمال حكاياتهم . الغالبية جاءت من المناطق المجاورة ، كان هنالك فى مشروع صلب بهيلاى ٧٢٫٠٠٠ عاملا ، إن أقل من ١٠٪ منهم جاءوا من شاتيسجاره . وكانت تلك قضية كبرى : فقد كان التوظيف عبر التصنيع هو الوعد الذى وُعد به شاتيجاره ، غير أن الصناعات جلبت معها كل الشخصيات الاساسية من الخارج ، لقد عمل غالبية أبناء شاتيسجاره كعمال مناجم يدويين أو عمال بعقود ، وكانوا عرضة لخسارة أكبر لو كانت المناجم آلية ، لقد كان فى وسعهم استصلاح أرض ثم رهنها أو شراء قطع صغيرة من الأرض لأنفسهم ولعائلاتهم .

«لقد شد نيوجى انتباه عدد من العلماء الذين يعملون فى برنامج شبه آلى ، لكنها ليست الآلية التى تلقى بالعمال خارج العمل ، إن التوازن بين التقنية والطاقة البشرية يجب أن يكون صحيحا فى الهند ، وقد تبنت هيئة الصلب فى الهند هذاالمشروع غير أن الضغوط من أجل المزيد من الميكنة ، تتكثف مرة أخرى مع السياسة الاقتصادية الجديدة » .

إن حركة شاتيسجاره كانت على الدوام حركة غير عنيفة ، وقد استلهم نيوجى غاندى فى هذا الصدد مؤسسا حركة مفتوحة دون إبعاد أو استثناءات ، حركة دمجت عمل الناس وحياتهم الاجتماعية والثقافية ، لقد تشكل هنا تضامن قوى جبار انقرض من الغرب ، إن واحدا من الآثار التى تدعو الى الفخار هو المستشفى التى بنيت بعمل عمال راجهارا ، وتشكل طاقم العاملين فيها من أطباء وممرضات ملتزمين ، يخدمون كل أهالى المناطق المحيطة ، وتقع مكاتب الاتحاد فى الجوار المباشر للمستشفى ، لقد حولت قاعة النقابة إلى مزار لنيوجى ، وقد كللت صورته ومقعده بالقطيفة ، ونثرت عليهابتلات ورد قرمزية ، ويأتى العمال يوميا فى مجموعات صغيرة ليقفوا فى صمت أمام الضوء الذى يشتعل فى المزار.

وتوجد على جدران مكتب النقابة أحذية وأدوات عمل هؤلاء الذين قتلوا فى اطلاق نار قامت به الشرطة فى راجهارا فى ٢ ، ٣ يونيو ١٩٧٧ . فقد مات حينذاك احد عشر شخصا، كانت فيهم امرأة حبلى وصبى فى سن المراهقة ، كما اطلق الرصاص على العمال المثيرين ، وبالمثل ضد الناس الذين كانوا يحتجون على تحرش عضو من «قوة الأمن الصناعى» بإحدى النساء ، بينما كانت تجمع خشب الوقود ، وقد فتحت الشرطة النار عام ١٩٨٤ ، عندما شكل نيوجى نقابة عمال معصرة قطن «باجال ناجبور» ، إن هذه هى فى الحقيقة أكثر الصناعات قدما فى شاتيسجاره ، وكانت الأولى فى المنطقة التى ترى نقابة عمالية شكلها تاكور ببار لال سينغ المدافع عن الحرية والمناضل من أجلها ، هنا ولأول مرة أطلقت الشرطة الرصاص على العمال المضربين عام ١٩٢٤، وكان أول من مات قبلى يدعى جاهار وجوند .

ان شاتيسجاره قد قدمت ، على أية حال شهداء منذ فترة طويلة سابقة على ذلك ، فقد حشد فيرنارايان سينغ خلال ١٨٥٦-١٨٥٧ ، الفلاحين فى منطقة الغابة الداخلية وقت الجفاف العظيم . وعندما رفض ملاك الأرض فتح مخازنهم ، توجه بجيش من الناس القبليين لنهب تلك المخازن واعداً بإعادة ما أخذوه عندما يجئ موسم أفضل ، وقد قام البريطانيون بشنقه عام ١٨٥٧.

ازدادت كثافة الوجود البوليسى حول بهيلاى والمدن المحيطة ، فى اليوم السابق على يوم الجمهورية ، كانوا يعيدون الناس القادمين للمسيرة والذين يصلون فى سيارات النقل أو عربات النقل أو العربات بل وحتى الدراجات ، ورغم هذا فقد كان هنالك ٢٥٠٠٠ شخص فى شوارع المدينة ، وحوالى ٦٠٠٠ فى راجهارا. لقد ساروا عبر المدن والقرى الصناعية فى صمت جليل مهيب مظهرين النظام وضبط النفس الذى سلم ، حتى رجال الصناعة فى بهيلاى ، بأنه واحد من أكبر مساهمات نيوجى فى انتاجية

* مؤتمر نقابات عمال كل الهند (المترجم).

مصانعهم ، النساء يحملن أدوات عملهن مع الطعام وصفائح الماء فوق رؤوسهن ، موكب حفاة لإنسانية مظلومة تثير زخات من غبار بلون الصدأ حتى يبدون وكأنهن يسرن فى السحب ، والناس على جانب الطريق يراقبونهن ، وهن يمررن ، باحترام وتعاطف .

دامت محاولات الصناعيين صدا لضرر نيوجى أو تلطيخا له محاولات رؤوبة مايزيد عن خمسة عشر عاما ، لقد استخدموا كل الوسائل القانونية وغير القانونية لإلزامه الصمت . استخدموا ضده عام ١٩٩٠ قانون الاستبعاد حيث استبعد من خمسة احياء فى شاتيسجاره ، كان هذا قانونا بريطانيا (معروفا باسم قانون بومباى) استخدم ضد المناضلين من أجل الحرية ، والذين كانوا يلقون المضايقة باستبعادهم من مناطق بعينها . وقد استخدم القانون فى البداية ضد ثاكور لال سينغ ، الذى منع من دخول منطقة المعصرة ، ولكن حيث أن محطة السكة الحديدية لم تكن ، حينذاك ، طبقا لموقعها، وقانونا ، جزءا من الولاية ، فقد كان فى وسعه المجئ بالقطار وعقد اجتماعاته على رصيف محطة راتناند جاون ، غير أن القانون لم يستخدم البتة من قبل لاستبعاد أى شخص من خمس مناطق . مازال ، بالطبع «قانون الأمن الداخلى» موجودا حتى الآن ، كانت النية هى استخدامه ضد المجرمين القساة ، غير أنه يستخدم بطريقة متزايدة ضد النشطاء النقابيين والاجتماعيين ، يقول راچندراسيل ، «لقد اعددنا ملفا بعريضة موثقة ، فقام القضاء الأعلى بمنحه إقامة . وقد جاء فى الملحوظة المقدمة من حكومة الولاية حول نيوجى ، أو فى اجراءات الاستبعاد أنه» ، كجزء من خطة عدم الاستقرار على نطاق واسع ، تزوج من فتاة قبلية واسماها أشا ، حتى يكسب قلوب العمال» ، وقداتهم بعدة جرائم تتضمن محاولات القتل ، وقد دخل السجن عدة مرات، سجن شهران – فى أوائل١٩٩١– لعجزه عن الظهور أمام مختلف المحاكم الجنائية ، وأُلغيت كفالته ، كانت المحاكم تمنحه ، حتى ذلك الوقت ، إجازة أو تصريح بالغياب ، وبينما كان فى السجن حينذاك استخدم واحد من كبار الصناعيين المتورطين فى القضية غيابه ليدخل فى اتفاق مع الـ ايه اى تى يو سى* ، ليحل محل نقابة نيوجى ، التى كانت مضربة حينذاك ، ونشرت الشركة إعلانات فى الصحيفه تحث العمال على العودة إلى العمل ، مقدمة وعودا لهم بفوائد عديدة ، غير أن العمال لم يعودوا إلى العمل».

وأخيرا أفرجت المحكمة العليا لمادهيا براديش عن نيوجى ، وقال القاضى تعليقا على هذا الأمر ، «ليس عدلا الإبقاء على قائد عمالى معروف خلف القضبان على مثل تلك الأسس . إنه يعمل من أجل الاقسام المهضومة»، لقد اظهروه فى التقارير باعتباره «هاربا ، من احد القضايا ، فى نفس اليوم الذى كان يقابل فيه بالفعل رئيس الوزراء ، وبدأت بعد ذلك اجراءات الاستبعاد ، لقد حاولوا منعه أساسا من المجئ الى بهيلاى، ثم

حاولوا إلقائه خارجا ، وعندما فشلوا قتلوه . يقول راجندرا سيل : «بعد فشل محاولة الاستبعاد ، قلت له : ماذا بعد ؟ لقد فشلت محاولة الحكومة القاءك خارجا ، فقال:أليس هنالك من سبيل آخر غير الطلقات» .

كنت قادرا على مقابلة العديدين من المستفيدين من عمل نيوجي فى منطقة شاتيسجاره ، كانت تساعده عدة منظمات غير حكومية أبرزها لجنة اعانة تنمية كنائس رايبور في رايبور ، لقد رأت شاتيسجاره أكبر عدد من العمال الذين كان محجوزا عليهم وحرروا من العبودية . أكبر عدد عن أى وقت مضى فى الهند ، حيث تحرر ، بعد قرار المحكمة العليا عام١٩٨٨ ، حوالى خمسة آلاف فى شاتيسجاره غدا غالبيتهم ، فى الحال ، أعضاء فى نقابة نيوجى .

كان نظام العمال المحجوز عليهم فى شاتيسجاره ، يطلق عليه اسم نظام «الكاميا»، والكاميا هو العامل الذكر البالغ ، ويطلق على زوجة الكاميا «الكاميانا» ، والمراهق «الكاتيا» والطفل «البيجولى» ، هناك مايقدر بخمسة ملايين مازالوا قيد العبودية فى البلاد ، رغم أن قانون ابطال العمل المحجوز عليه قد صدر عام ١٩٧٦ ، ويحدد القانون أنواع العمل المحجوز عليه : (١) أن يكون الفرد قد أخذ قرضا أو سلفة مالية (٢) فى مقابل ذلك القرض فإن عمله أو عملها يصبح مرهونا (٣) ليس هو أو هى حرا أو حرة فى العمل فى أى مكان آخر حتى يتم تسديد ذلك القرض (٤) يتلقى هو أو هى أجرا دون الحد الأدنى للأجر ، أو لايتلقى أجرا على الإطلاق .

يُعتبر الشخص عاملا مرهونا إن كان أياً ممن سبق ذكرهم ، لقد أُفرج عن ستة آلاف شخص فى منطقة رايبور ، لقد أفاد الرسميون الحكوميون الذين جاءوا إلى هنا ، أنه لم يكن هنالك ، فى الأصل عمل مرهون ، وتقدم العمال الاشتراكيون والنشطاء بعريضة عام ١٩٨٣ ، ذاكرين اسماء ٦٨٣ عاملا أطلق سراحهم حينذاك بناء على أمر المحكمة العليا ، وقد قُدمت عام ١٩٨٨ عريضة أخرى إلى المحكمة العليا ، تبعها إفراج كبير عن مايزيد من أربعة آلاف شخص .

وتنفرد رايبور بسمة هى إعادة تأهيل هؤلاء الذين تأثروا بتلك المسألة ، والذين ورث بعضهم كونه رهينة عن أبيه أو حتى عن جده ، يقول راجندرا سيل: «لقد وحدنا الصراع فى الشوارع ، بالعمل فى المحاكم ، بما فى ذلك الدهارناس ، فى دلهى وبُهوبال إن غالبية أعمال إعادة التأهيل قد فشلت حتى الآن جزئيا أو كليا ، إذ أن العديد من الناس لم يكن لديهم ، بعد تحررهم ، وسائل بديلة للبقاء أحياء .غير أن الجميع هنا ، وجدوا على وجه التقريب عملا . جاء الضغط من أسفل ، من قوة الناس ونفوذهم ، فقد أعطى أعضاء النقابة دفعة قوية لحملتهم ، وأوقف مدى الفساد ، فى إعادة التأهيل ، إلى حده الأدنى ، لقد احتفظنا بمفكرة يومية للفساد ، وأُعيدت النقود

فى حالات كثيرة إلى العمال الذين احتال عليهم الرسميون الفاسدون ، هنالك مجال للفساد ، حيث تسمح الحكومة بدفع مبلغ نقدى لأغراض إعادة التأهيل (٦٢٥٠ روبيه - حوالى ٢٥٠ دولارا) .

لقد تقدمت لجنة إعانة وتنمية كنائس رايبور (آر سى دى آرسى) بمشروع إلى المحكمة العليا ، التى طلبت من الحكومة منحهم حرية التجربة ، لقد قاموا بتدريب ٤٧٢ عاملا ممن كانوا مرهونين ، ذهب بعضهم إلى المدرسة لأول مرة ، وقد أقيمت مدارس لتعليم الفنون الصناعية متعددة الأغراض فى كل شاتيسجاره ، حيث يدرب الناس المحررين على مهارات فنية ، ونشاطات اقتصادية توفر لهم سبلا للمعاش ، إن الناس يقضون ستة شهور فى المدارس الفنية الصناعية . إن أموال اعادة التأهيل هى أموال مدفوعة على سبيل الهبة ، وقدرها ٥٠٠ روبية و٧٠٠ روبيه من أجل شراء الثيران أو تنمية الأرض ، كما يضمن أيضا لكل منهم مكان يعيش فيه «لقد ناضلنا من أجل ذلك . فإن كان العامل مقيما فى منزل مملوك لمالك الأرض ، فإنه لايمكن طرده منه ، إنه شرط ، أن أى شئ مرهون سوف يعود إلى العامل ، هنالك أيضا تسهيلات متاحة فى ظل برنامج التوظيف الريفى ومشروع الحكومة المضاد للفقر ، حتى يصبح فى امكانهم الاستفادة بعدد من الأوجه» .

غير أن هذه هى المرة الأولى التى يصبح فيها عمال سبق الحجز عليهم نقابيين ، إن تنظيم النقابة يقوم على أساس ممثلين ، ٢٨٠ ممثلا ، يمثل كل منهم ٢٠ عاملا ، فيكون المجموع ٥٦٠٠ شخصا ، «إننا غالبا مانسأل . ماذا كسبوا لقد حاولنا أن نجعل الحلم حقيقة باعطاء أصوات لمن لا صوت لهم ، وأمل لمن لا أمل لهم ، وقوة لمن لاقوة لهم » .

لقد جاء دستة من الممثلين المندوبين ، أو قرابة ذلك ، إلى رايبور من المناطق المحيطة للحصول على دراسات من مركز الـ آرسى دى آرسى. لم يكن البعض منهم قد رأى البتة قطارا قبل الإفراج عنه ، إنه نادرا ماغادر أرض مالكه ، كان البعض فى العبودية لأجيال ثلاث ، وكان سبب ذلك فى بساطة ، أن جدودهم قد أخذوا قروضا قدرها ٢٠٠ روبيه منذ خمسين عاما مضت ، يقول راجندراسيل «قال الناس أن هؤلاء الذين يسعون إلى التحرر من العبودية إنما يفعلون ذلك بحثا عن نقود إعادة التأهيل ، غير أن الجوع إلى الحرية أكبر من النهم إلى المال».

لقد كان يدفع للبعض منهم ٢ «تاميس» فقط من الارز يوميا ، أى ١.٥ كيلو جرام ، إن القيمة تقاس هنا بالأرز ، إن عشرين «تاميس» تساوى «خاندى» واحد واثنى عشر خاندى تساوى حوالى ٤٠٠ روبيه (حوالى ١٥ دولارا) ، وقد أعطى ملاك الأرض بعض العمال المحجوز عليهم قطعة أرض صغيرة ليزرعوافيها إنتاجهم الخاص ، غير أنهم كانوا يعطون على الدوام ، الأرض الأقل إنتاجية ، وعندما يقومون بتخليصها وتحسينها

وتحويلها إلى أرض منتجة ، يأخذها منهم ملاك الأراضى ويرسلونهم إلى قطع أخرى من الأرض عديمة القيمة أو المتدنية .

يقول همسينغ : «إنك إن فعلت خطأ ما ، فإنه يمكن الحكم عليك بالحرمان من المنتج الذى زرعته ، وإن أنت غبت ، حتى ليوم واحد ، بسبب المرض أو احتفال عائلى ، فإنه سيكون عليك أن ترسل بديلا عنك ليقوم بعملك ، وإن لم تفعل يكون لمالك الأرض أن يستأجر شخصا غير محجوز عليه ، ويدفع له أجر العامل الحر ، الذى هو خمسة تانيس فى اليوم، ويكون على العامل المحجوز عليه أن يرد لمالك الأرض تلك الخمسة تانيس ، كما أن لمالك الأرض أيضا حق الاختيار الأول فيا يتعلق بعمل الزوجة ، فإن قال ذلك فإنه يجب عليها أن تقدم نصف عمل يوم بلا مقابل . كما يجب على العامل ، أن يكون تحت تصرف السيد فى أى وقت يناديه فيه منذ الساعات المبكرة للصباح ، حتى وقت متأخر من الليل .

يحكى الناس كيف عاش أسلافهم وجودا تكافليا مع الغابة ، كانوا يشيدون منازلهم، ويعتمدون على الغابة فى شئون معاشهم وعندمادمرت الغابات تدميرا شديدا ، ولم يعد فى وسع الناس الاستمرار فى البقاء بالطريقة التقليدية أجبروا على أخذ قروض ودخول العبودية ، ما أن يحدث ذلك مرة، حتى لا يعودوا أحرارا مرة اخرى ،لقد باع ملاك الأرض الغابات للحصول على الخشب ، وما أن يستنفد هذا المصدر حتى يتحول الناس إلى عبيد .

يحكى سودهو رام ، كيف تحمل وهو فى الثامنة عشر عبودية أبيه ، لقد درس حتى المستوى الثالث (التاسعة من عمره) ثم عمل فى رعاية الماشية، كان عليه خلال موسم الزراعة ، أن يغسل الحيوانات ويطعمها ، بينما الكبار يكدحون فى الحقول ، وكانت أخته رهن إشارة ربة البيت ، تغسل الأوانى فى الصباح الباكر حتى منتصف النهار، ثم تعود مرة ثانية فى الساعة الثانية حتى المغيب ، كانوا يأكلون وجبتين فى اليوم- «باسيا» بقايا الأرز المطبوخ مخلوطا بالماء ثم يترك ليتخمر ، وفى منتصف النهار «شاباتى» و«روتى» فقط ، مع أرز وعدس فى المساء.

فإن فر الكاميا ، حتى لمسافة ٢٥-٣٠ كيلومترا ، فإن مالك الأرض سوف يجده ، فإن وجده ، يعمل كعامل حر عند أى شخص آخر ، انعقدت محكمة استماع تقليدية ، ويعاقب من قام بتشغيله ، إن ثبت أنه وظف رجلا محجوزا عليه ، وهو يعرف ذلك . وإن لم يكن هنالك عمل فى منزل مالك الأرض ، فإنه يستطيع إرسال الكاميا إلى مزرعة أخرى ، وتذهب الأجور التى يكسبها ، بمعدلات العامل الحر إلى جيب السيد ، وحتى أن اتيح عمل حكومى فإن الأجور تذهب أيضا الى مالك الأرض ، يقول دابارم ، «حتى العمال الأحرار لا يحصلون على غير٤ أوه تاميات من الأرز ، ومن ثم فإنهم لم يكونوا أحسن حالا ، وقد اعتاد ملاك الأراضى وصف علاقاتهم بالعمال بعبارات عاطفية تنم

عن فهم بسيط وجميل ، إنهم يقولون : «إن أنا القيت به خارجا ، فإنه سيموت جوعا ، إننا ايضا ، فقراء ، ولانستطيع الحياة دون العمل المرهون ، إنهم معنا ، يعملون طوال العام ، لكنهم إن كانوا أحرارا فإن العمل سوف يكون موسميا فقط ، وسوف يعانون المجاعة عندما لايكون هنالك عمل » .

يقول هيمسينغ ، «عندما حاولنا أن نكون أحرارا ، قالوا أننا نُخل بالسلم. وعندما تقدم إتحاد الشعب من أجل الحريات المدنية ، بملف مكتوب إلى المحكمة ، اتهم بأنه يحطم استقرار الريف ، لقد قيل إنهم يمولون «بأموال أجنبية» ، وأنهم يحاولون «تحويل الناس إلى المسيحية» .

إن هيمسينغ يتذكر كيف كان ، وهو طفل ، يرى مالك الأرض وهو يضرب أبيه لأى فعل خاطئ صغير ، العمل لايتوقف أبدا : الحرث والبذر وحمل الطين على رؤوسهم والبناء وازاحة الأحجار ؛ بينما كان على النساء إحضارالخشب ، من الغابة والطبيخ وجلب المياه وعندما سألنا هيمسينغ ، ما الفرق بين أن تكون فى العبودية وأن تكون حرا؟ قال : أنا الآن سعيد لأنى أعمل متى أشاء ، أنت فى العبودية تسدد فائدة القرض فقط ، أنت لاتستطيع أبدا دفع أى جزء من المبلغ الأصلى ، وهذه هى الكيفية التى تبقيك فى الأغلال .

وتحكى ريشامباى ، كيف كان زوجها كاميا، يعمل منذ الفجر حتى الثامنة مساء ، وسقط ذات يوم مريضا ، جاء مالك الأرض الى الكوخ وقال: «لماذا لايعمل ؟» ، «إنه مريض» ، «إذن تجيئين أنت» ، وذهبت ريشامباى مكانه . أعطوها فأسا لتحفر الأرض وتصون قنوات الرى ، «قمت بعمل الرجل . التسميد ورعاية الحيوانات ، وكان علىّ ، عندما عدت إلى المنزل أن أعمل وأغذى الماشية ، كنا فى البداية، نخشى تحريرنا ، كان مالك الأرض يهدد بإلقائنا خارجا ، ولما لم نكن نعرف شيئا آخر ، فإننا لم نكن نعرف ماالذى سيحل بنا ، كنا نرى فقط ، إننا سنصبح بلا عمل أو أجور ، لقد ظللت أعمل عاما بدلا من زوجى ، ثم تحرر فى مايو ١٩٨٨ ، وتدرب على اصلاح الدراجات ، ثم سقط مريضا مرة أخرى، وأخذته إلى المستشفى ، كان علىّ أن أبيع الأوانى الخاصة بنا ، أن أبيع كل شئ تم شراؤه بنقود اعادة التأهيل ، لم يكن لدينا أرض ، وكان أربعة من أولادنا يعملون عمالا فى الحقول والثلاثة الآخرون كانوا فى المدرسة .

تعلم دايارام الخياطة عندما تحرر بعد ثمانية أعوام من العبودية ، كان مديونا بـ٤٠٠ روبيه و٨ «خاندى» من «البادى» ، إنه يكسب الآن ١٥-٢٠ روبيه يوميا ، إنه يصنع ويخيط القمصان والسراويل والبلوزات والسارى والملابس التحتية ، لقد استطاع شراء ساعة مما كسبه . كما أنه يبنى منزلا له أيضا، وقد اشترى بنقود اعادة التأهيل ثورين ، واقترض لزواج أخته ألفى روبيه لكنه يملك الآن وسائل سداداها ، وقد اشترى

أوان نحاسية بـ ٤٥٠ روبيه ورغم أنه لايملك أرضا ، فإن جدته تمتلك ٢ اكر من الأرض، يقوم خمسة من الأخوة على زراعتها ، إنه يقول أنني أعمل الآن في وقتي أنا ، إنني لا أخاف أن يجئ مالك الأرض ويجرني من مرقدي ، كان العمل عبئا عليّ ، غير أنه لم يعد كذلك» .

احتل بعض العمال المحررين أرضا حكومية ، حيث كان في وسعهم بناء منزل صغير ، وزراعة المواد الغذائية الرئيسية اللازمة لاستهلاكهم الخاص ، وكانت قطع الأرض في الغالب صغيرة حوالي أكر واحد ، إن غالبية تلك الأراضي كانت قاحلة وغير منتجة ، إن كانتو يشارك على محاصيل اكر واحد ينتج من البادي من ٢٠-٢٥ كيسا كل موسم (يحتوي الكيس الواحد على ٧٥ كيلو جرام ، نصفها أرز والنصف قشرا) ، إن لديه ثورين اشتراهما بنقود اعادة التأهيل ، وهو لايستطيع أن يتذكر متى غدا كاميا .

استولى مغنات على ٢,٥ اكرا من اراضي الحكومة، إنه يناضل الآن للحصول على حجة ملكية هذه الأرض التي أحالها إلى أرض منتجة ، لقد أُعطى بعض العمال المحررين صكوك أرض ، غير أنهم لم يخبروهم أين تقع هذه الأرض ، حتى لايستطيعون استخدامها ، إن قضية حقوق الأرض هي المرحلة التالية لنضال النقابة ، إن أرض الغابة ، عديمة الجدوى ، أو أرض الريع ، يمكن أن توفر لهم مكانا لمزرعة تمدهم بالأمن الأساسي . إنهم يقولون ، زامين كا فايسلا زامين بيرهوجا» - أي أن قرار الأرض سوف يتخذ على الأرض ذاتها ، إن مايعنونه بذلك ، هو أنه ليس هناك معنى من السير عبر المحاكم ، لأن ذلك سوف يدوم إلى الأبد .

مايزال هنالك أناس من المنطقة أسرى العبودية ، رغم سجل شاتيسجار ، المسئولون الحكوميون يجيئون ، فيقوم ملاك الأراضي برشوتهم ، فيعودون ليكتبوا أن العبودية قد أزيلت من هنا .

إن رايبور هي واحدة من كبرى مدن مادهيا براديش ، وهي تتصف بالنشاط الذي يتسم بالفوضى والاضطراب الذي يميز أية مدينة تنمو في سرعة ، لقد تزايدت سرعة نموها ، بسبب قربها من بهيلاي : إن الشبكة المتصلة من المجتمعات الحضرية تجذب الناس من كل انحاء مناطق الهند الوسطى العرضة للجفاف والتدني.

وقد أظهر مسح أُجري عام ١٩٨١ ، أن هنالك ٨٧ منطقة سكنية قذرة مكتظة بالسكان في رايبور ، وقد أصبحت هذه المناطق بعد خمس سنوات ١٤٦ منطقة ، زادت في ١٩٩٢ عن مائتي منطقة ، إن تكوين المناطق القذرة المكتظة يجري بطريقة ساحقة بسبب هجرة الناس من «أوريسا» المجاورة «لمادهيا براديش» ، والتي تلي بيهار فقط

* حزب الشعب الهندي (المترجم).

فى فقرها ، كذلك هنالك هجرة متصلة من شاتيسجاره الزراعية ، إن الإدارة التى سبقت حزب بى جيه بى *فى مادهيابراديش قد قننت امتلاك الناس للأرض فى المدن، كان هذا القانون ، على الورق ، قانونا راديكاليا للغاية ،إنه يقول: بضرورة تقنين منح واضع اليد قطعة أرض مساحتها ٥٠ مترا مربعا : يجب إعطاءهم «باتا» صكوك - أرض ، بعقود ايجار مدتها ٣٠ عاما ، وأنه يجب القيام بذلك ، بغض النظر عن الملكية المدعاة للموقع الذى يحتلونه .

كانت هنالك عمليات تدمير وطرد بالجملة فى رايبور عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣ ، تلاها ظهور عدد من منظمات قاطنى المساكن القذرة المكتظة ، والتى ارتبطت معا لتشكل «منتدى حقوق المواطنين» ، وقد قدمت تلك المجموعات عريضة مكتوبة إلى المحكمة العليا ، نتج عنها منح حق البقاء فى مايو ١٩٨٣ ، مما كان له أثره فى وقف التدمير ، إن الإقامة مازالت سارية ، لكن القضية ماتزال جارية منذ تسع سنوات مضت ، إن سكان الأماكن القذرة المكتظة ليس لديهم أمل فى أن يكون القرار فى النهاية لصالحهم، لقد وعدوا بمواقع بديلة واعادة التأهيل ؛ غير أن هذا يعنى كما تعلم من طردوا من مواقع السدود والمناطق القذرة المكتظة والغابات ، أرضا قاحلة غير ملائمة دون توافر أسباب الراحة أو النقل أو الرزق . ثانيا ، أن عمل قاطنى الأماكن القذرة المكتظة يتطلب أن يظلوا فى مواقعهم الحالية من الأعمال ، التى يقومون بها ، إن «اتحاد الشعب من أجل الحريات المدنية» يجادل الآن فى أن الحق فى وسيلة للعيش والحق فى مأوى هما أيضا حقوق أساسية من حقوق الانسان ، وحيث أن الهند تقول بأنها تبنى «دولة الرفاهية» ، فإن واجب مثل تلك الدولة أن تقدم الاسكان والرفاهية والتسهيلات الأساسية ، وحيث أن الدولة قد فشلت فى توفير أىّ من تلك الضرورات ، فإن الدولة ليست مخولة بأخذها من الناس الذين حققوها لأنفسهم .

الحكومة لم تعط شيئا ، لقد عمل الناس طبقا لمبادراتهم ، عبأوا نقودهم ، برهن أوانيهم أو حلى زفافهم ، ليجمعوا ٥٠٠-١٠٠٠ روبيه ، وهم سوف يجلسون على قارعة الطريق ، يكسبون النقود بأمانة ليضمنوا حياة لهم ولأطفالهم ، ثم تقول الحكومة أنهم عقبة ومصدر إزعاج عام . «كيف أصبحوا هم العام؟» يتساءل راجندرا سيل ، «ومن هو العام؟ إن الجدل الذى تحتويه عريضتنا يثير هذا السؤال ، هل لى الحق فى النوم على رصيف المحطة ، إن لم تستطع الدولة أن توفر لى مكانا أنام فيه وأنا لا استطيع توفير ذلك لنفسى ؟ إن حق الحياة حق يتجاوز كل الحقوق الأخرى ، وحق الحياة يعنى الحياة بكل تمامها، إنها ليست حياة حشرة ، إن حق الحياة محفوظ فى الجزء الثانى من دستور الهند .

«عام ١٩٨٦-١٩٨٧، ورغم القانون النافذ والذى يقنن الاحتفاظ بالأرض لشاغلها ، فماذا حدث ؟ لقد قبض علىّ بتهم باطلة ورديئة ، باعتبار أنى أعيق المسئولين

الحكوميين ، وأسئ إليهم وأهددهم بالقتل ، لأننى كنت أعارض التدمير واجتثاث الناس.

«لقد خرجت بكفالة ، غير أننى لم أبرأ من التهمة حتى عام ١٩٩٠، وقررنا أن نناضل من أجل القضية ، كان لديهم سبعة عشر مسئولا حكوميا كشهود، ونائب مراقب شرطة ، إن مايفعلونه الآن هو رفع قضايا جنائية ضد النشطاء الاجتماعيين والعاملين فى مجال الحريات المدنية ، إن هذا يصممهم وكأنهم مجرمين عاديين ، إنها اساءة إلى القانون ، ومنحة فى ذات الوقت للمجرمين الحقيقيين ، كل من هؤلاء الذين يعرضون للخطر حياة الناس الآخرين ، والمجرمين العاملين والصناعيين . إن التكتيك هو تكتيك الإزعاج الدائم ،والاستهلاك الشديد للوقت ، إن على بعض الناس أن يقضوا من ٥٠ إلى مائة يوم فى السنة فى المحكمة ، ومن ثم يُشل عملهم بطريقة فعالة ، هنالك نشطاء مقامة ضدهم ٣٠-٣٥ قضية تماما مثلما كان الأمر مع نيوجى» .

إن فى الهند الكثير من التشريعات التى تحمى الأحداث وحقوق العمال والعمل المرهون ، إلا أن تلك القوانين تطبق فقط عندما تكون هنالك إثارة من أسفل ، الناس يبدأون المطالبة بحقوقهم فقط عندما يكونون واعين ومنظمين .

«إن لدينا مكتب تطوير الأماكن القذرة المكتظة فى مادهيا براديش الذى يموله البنك الدولى ، وكانت منطقة «كاشيرا مناجار» منطقة تحسين واصلاح تحت رعاية البنك الدولى ، إن اعادة الاسكان تؤثر فى الناس بطرق لاتدخل فى حسابات البنك الدولى ، ما الذى يعرفونه عن نتائج تحسيناتهم؟ إن أحدا من خبرائهم أو مسئوليهم لم يعش البتة هناك ، إن المنازل التى يبنونها لطيفة ، لكنها مزقت حياة الناس ، إنها لاتبدو الآن مثل تلك القذرة المكتظة ، لكن النساء هن أسوأ من تأثر بها ، حيث يجب عليهن الآن قطع رحلات طويلة قبل أن يكون فى وسعهن مواصلة معاشهن ، خذ مثلا امرأة تعمل فى لف «البيدى» (السجائر) ، إنها عندما كانت تعيش قرب المكان الذى توجد به كل مواد عملها ، كان فى وسعها ان تكسب ٨ روبيه لعمل ٨ ساعات فى اليوم ، الآن انتقلت ٥ كيلو مترا، بعيدا عن هناك ، إلى حيث لاتوجد وسائل نقل عامة ، إذا ماذا حدث؟ أصبح عليها أن تسافر مسافة طويلة على الأقدام ، فإن لم تصل إلى مصنع البيدى (السجائر) فى الوقت الملائم ، فإنها لاتحصل على المواد الخام، فإن تأخرت فى إعادة ماعملته طويلا ، فإنهم لن يقبلوا حصتها ، لأن حصتهم اليومية قد امتلأت بالفعل . يجب عليها أن تأخذ «ريكشو» جزءا من الطريق حتى تصل هناك بسرعة أكثر، وتدفع ٢ روبيه ذهابا وإيابا ، مما يعنى ضياع نصف كسبها اليومى .

«وتعمل بعض النساء الأخريات كباعة خضراوات فى المستعمرات السكنية ، إن عليهن العودة إلى منازلهن ، سيرا على الأقدام ، فى ساعة متأخرة من الليل ، هنالك

مخاطرة الاغتصاب والاختطاف ، إنهن خائفات ، لقد قمنا بمسح فى كاشيرا مناجار ، إن كل الفتيات دون الثامنة ، فى العائلات التى أعيد اسكانها قد توقفن عن الذهاب إلى المدرسة ، وأكثر من نصف الفتيات الأكبر سنا تركن المدارس قبل إنهاء دراستهن بسبب خطر السير على الأقدام ، الأولاد يستطيعون ركوب الدراجات ، إلا أن العائق أمام إرسال الفتيات إلى المدارس ، بالإضافة إلى لامبالاة الوالدين بتعليم الفتيات ، يثبط همتهن تماما.

«إن بائعات الفاكهة والخضراوات يحصلن على قرض قدره ٣٠٠ روبيه فى اليوم ، إن القرض من الناحية الفعلية هو ٢٥٠ روبيه ، إلا أنه يحسب ثلثمائة والبقية هى عمولة المقرض ، فإن باعت كل مامعها ، فإنها يمكن أن تكسب ٢٥ روبيه فى اليوم ، وهى عندما ابتعدت عن سوق الخضراوات ، قال التجار ، إننا لانعرف أين تعيشين ، كيف نعرف أنك ستعودين فى المساء؟، كما أن كل القادرين جسديا فى كاشيرا مناجار بعيدين أثناء النهار ، ويظل المجتمع كله غير آمن بالنسبة للفتيات الصغيرات وكبار السن ، هنالك أعمال اقتحام وتحرش، وتلك أشياء لاتخطر على البال فى الأماكن القذرة المكتظة .

«وقد أعد البنك الدولى مرحاضا عاما ، وهم يتقاضون ٢٥ بايس فى المرة الواحدة من أجل الحفظ والصيانة ، وذلك يعنى أن عائلة من أربعة أفراد تدفع فى كل مرة روبيه، لعدة مرات فى اليوم ، وهذا يعنى انفاق جزء له وزنه من الدخل اليومى للقيام بالوظائف الطبيعية ، إن الرجال والنساء سوف يذهبون إلى الحقول ، غير أنه لاتوجد ، بالطبع حقول حول كاشيرا مناجار ، ومن ثم فإن هذه المسألة تسبب بعض المتاعب ، ليس أمام الناس من خيار غير استخدام الأرض المحيطة بالمستعمرات السكنية ، ومن ثم ، بدأ الناس الذين يعيشون هناك فى إلقاء الحجارة عليهم . والتقت منظمة النساء مع المحصل ، إنك لاتستطيع أن تطلب ثمنا من الناس فى مقابل هذا . لم يكن المحصل متنبها للوضع ، فخفض المطالبة إلى ١٠ بايس فى المرة ، وكان ذلك ، مايزال ظلما . وقادت «الماهيلا شاتيسجاره جاجرتين سانغاتنا» (منظمة يقظة المرأة) احتجاجا واضرابا عن الطعام . ووضعت النساء فى السجن ، حيث ولدت احداهن فى السجن (Jail) طفلة ، أسمتها «جاليبهاى ، **(Jailibhai)**».

إن واحدة من أقدم الأماكن القذرة المكتظة المشيدة فى رايبور ، هى مستعمرة «لنديتالاب» ، الصغيرة قرب سوق الخضراوات بالجملة، وكانت هذه المنطقة فى الأساس هى منطقة رشح مياه مملوكة للبلدية ، إنها مجتمع يضم خمسة آلاف شخص يسكنون أكواخ طينية وخشبية ومعدنية ، لايزيد ارتفاع الواحد منها عن حوالى٥ أقدام، كان قربها من السوق مريحا للبائعات ،غير أن النفايات والفضلات كانت تتجمع على الأرض القريبة من تلك المساكن القذرة المكتظة ، إن الأبنية التى أقاموها متينة ، لكنها

مضغوطة وغير صحية - إن عائلات من ثمانية أو عشرة أشخاص ينامون فى حجرة واحدة ، ترابية الأرضية ، والمطبخ مفصول فقط بحائط طينى ، وتملأ نيران الطبخ الأكواخ بدخان خانق ، وليس هنالك من تهوية ، وقد جعلت الجمرات القرمزية داخل البيوت شديد الحرارة ، إن درجات الحرارة تتجاوز ، فى هذا الجزء من الهند الوسطى، الأربعين درجة مئوية .

إن غالبية الناس هنا يعملون كسائقين لدراجات الريكشو ، الأعلام الحمراء والخضراء ترفرف على مركباتهم وتخفق فوق العديد من المنازل ، إن عملية السواقة عملية شاقة تقصم الظهر ، ونادرا ماتحقق عائدا أكثر من ٢٠إلى٣٠ روبيه فى اليوم (٤٠-٦٠ بنسا)، العمل غير مضمون ، حيث توجد منافسة حادة إن غالبيتهم قد حصل على قرض حتى يشترى الريكشو - والعديد من المركبات يقف خاملا . عقدة من معدن أسود الطلاء ، ذات كرسى بلاستيكى للركاب ، ولها أحيانا مظلة بالية لحماية الشاغلين من المطرأو الشمس ، البعض منها تجرى صيانته باعتزاز وأنفة ، مزين برسوم الزهور، وصور الآلهة ، وطلاء ذهبى وفضى ، والبعض الآخر صدء ومحطم ، والعمل الآخر الوحيد المفتوح أمام الرجال هو البناء والتشييد ، فإن كان هنالك بناءون أو نجارون مدربون ، فإن فى وسعهم تحقيق ظروفا أفضل للحياة ، أما غير المدربين فإنهم أسوأ حالا من سائقى الريكشو ، إن بعض النساء تعملن أيضا كعاملات بناء ، والبعض الآخر تعملن فى مصانع ملابس أو بلاستيك صغيرة ، غير أن الغالبية يعملن خادمات فى البيوت .

وقد سألتهم ، ماالذى تحتاجونه كل يوم لعائلة بها أربعة أبناء ، حتى تواصلوا البقاء فى مدينة المساكن المكتظة القذرة ؟ وقد وافقوا بعد بعض الوقت ، على أنه يلزم ٥٠ روبيه لحياة محترمة ، ورأى البعض أن ٤٠ روبيه كافية لمواصلة البقاء أحياء «إن كنت تريد خضراوات ، وكذلك عدس وأرز كل يوم ، فأنت فى حاجة إلى ٥٠ روبيه» ، إن كلمة «خانا» ، طعام تعنى أرزا بالنسبة إليهم ؛ وهذا هو مقياس الأكل كما ينبغى أن يكون ، إن الغالبية تأكل «الباسيا» فى الصباح ، وهى بقايا الأرز منقوعة فى المياه طوال الليل حتى تنتفخ وتتخمر قليلا ، إنهم يأكلون فى الظهيرة أرزا مع فلفل أحمر حار ، وربما نوع واحد من الخضراوات - «برينجال» (باذنجان) و«كوبى» (قرنبيط) ، والذى يبلغ ثمن الكيلو منه ٣-٤ روبيه . وهنالك فى المساء عدس وشاباتيس، وهم ربما يأكلون يوم الأحد عنزة أو دجاجة . يجب أن يأكل البالغ ، ممن يقومون بأعمال يدوية ثقيلة ، كيلو من الأرز يوميا ، كما تأكل النساء ، اللواتى يعملن فى البناء أو يحملن على رؤوسهن أحمالا أثقل من وزنهن ، مثل الرجال .

سألتهم ماهى التنمية : قالوا «فيكاس كياهاى» ؟ أى «إننا لانعرف ماهى ، كما أننا لم نرها البتة» ، وقالت امرأة ، «التنمية هى النقود التى تذهب إلى جيوب السياسيين ،

إذامنحتنا الحكومة ضمان حيازة الأرض فإننا لانبالى فى الانتقال ؛ إننا إن منحنا حجرة لكل أسرة ، فإننا سوف نذهب ، إن البعض منا ينام الآن كل عائلتين أو ثلاثة ، فى حجرة واحدة »، وتقول امرأة أخرى «إن الحكومة لاترغب فى منحنا لوازم المعيشة، لأنهم يعتقدون أننا سنبيعها ونعود إلى المكان الذى كنا نقيم فيه إنهم يعتقدون أننا نريد النقود فقط إن الحكومة تخدعنا، إنهم قد يمنحون الأرض لشخص واحد ، ويكتبون فى الورق إنهم منحوا الأرض لخمسين واحدا ، إن المنازل المسجلة ورقيا أقل منفعة لنا من تلك التى لدينا الآن ، حقا ، باع بعض الناس منازلهم فى كاشيرا مناجار ، غير أنهم لم يفعلوا ذلك جشعا ، لقد فعلوا ذلك بسبب الحاجة ، إنهم خائفون من العناصر المضادة اجتماعيا حيثما يقيمون ، إن الجميع يتحدون فى الأماكن القذرة المكتظة فى أوقات المعاناة ؛ عندما يكون هنالك مرض أو موت أو ألم ، فإن الناس تجد العون فى دعم الجماعة لها .

لقد مضى على الناس هنا خمسة وعشرين عاما ، لماذا جاءوا من اوريسا فى الستينيات ؟ «لم تعد هنالك زراعة ، المكان الذى كانوا يعيشون فيه أصابه الجفاف ولم تعد هنالك حبوب غذائية ، كنا تقليديا ، نعمل فى النسيج ، لكن النسيج أصبح الآن آليا ولم يعد لنا عمل ، كانت هنالك مهارة وجمال فيما كنا نصنع وكنا فخورين به ، غير أننا لو فعلنا ذلك الآن ، فإن أحدا لن يشترى منا ، لأنهم لايرغبون فى الأقمشة التقليدية ، إنهم يعتقدون أن عملنا قد أصبح عملا قديم الطراز ، لقد جئنا من اوريسا لأن الأرض قد أصبحت غير منتجة ، إن لغتنا «أوريه» . لقد كنا سعداء هناك ، هنا نحن أشقياء ، لكننا نستطيع أن نأكل ، إن أى شئ أفضل من الجوع ، حتى إن كان الشقاء ثمنا ، فعليك أن تدفعه ، إن الشقاء هو ثمن البقاء ، إننا لانستطيع العودة ، لأنه لايوجد ماء هناك ، وحتى إن أعطيت لنا أرض فإننا لانستطيع أن نفعل بها شيئا ، لقد أدت ازالة الغابات إلى الجفاف» .

مازال الموطن يُستدعى فى حنو ورقة ، وعمل النسيج بحسرة وأسى ، إن منظرهم الطبيعى الريفى ومهارتهم قد أصابهما التدنى . فقط كرامتهم لم تهن أو يصيبها الخلل، إن هذا الاحساس اللاذع بالخسارة ، هو الذى دفعهم ، ليجدوا القوة والقوت فى الحركة الحمراء - الخضراء.

إن عمل الأطفال فى لنديتالاب ، كما فى الأماكن المكتظة الأخرى لرايبور ، جزء متمم لاقتصاد الأسرة ، لقد حاولت الـ سى إم إم * أيضا الوصول إلى الأطفال ، فقد احتشد بعضهم فى «يوم الجمهورية» فى الـ آرسى دى آرسى** للمطالبة بساعات راحة قليلة من طفولتهم المسروقة ، إنهم يطالبون بأخذ راحة حتى تنعكس على حياتهم وعملهم ، إن البعض منهم هو من يحقق ، فى الأساس دخل الأسرة ، والبعض الآخر

---

* جبهة تحرير شاتيسجاره (المترجم) .

** لجنة كنائس رايبور للتنمية والغوث (المترجم) .

يجعل حياة أسرهم أكثريسرا ، والبعض يعمل باستماتة حتى يظل حيا ، دهانى فى الثانية عشر من عمره ، والدته تعمل فى كى الملابس ، وخالته تعمل فى «الاجارباتى» ، أعواد البخور ، وهو يعمل معها ثلاث ساعات فى اليوم ويحصل فى مقابل ذلك على خمسين روبية فى الأسبوع ، يعطيها لوالدته ، مينا خادمة منزلية فى الرابعة عشر ، أبوها بائع حلوى ، وأمها عاملة فى الخدمة المنزلية ، إنها تكسب ١٥٠ روبيه فى الشهر، تعطيها لأبيها وهى تُعطى من حين لآخر بضعة روبيات كى تنفقها على نفسها ، ناريان فى الرابعة عشر من عمره ، ويعمل فى مخازن الشركة التى تمد المستشفيات بالقطن والضمادات والمقصات ...الخ . إنه يعمل من الحادية عشر حتى التاسعة كل يوم ، ويحصل على ٣٥٠ روبيه شهريا ، وهو يذهب من السابعة حتى الحادية عشر إلى المدرسة ، إنه فى المستوى الثامن ،وهو عندما ينتهى من عمله ليلا ، يعود إلى منزله للمذاكرة ، إن أباه من اوريسا وهو يعمل سائقا للريكشو ، ويكسب من ١٠-٢٠ روبيه يوميا ، إن ناريان يدرس بجدية ، ويقول أنه يود أن يصبح شرطيا.

بابوامباد من «جونديا » فى «مهاراشترا» المجاورة ، إنه فى المستوى السابع ، يبلغ حوالى الثلاثة عشر عاما، ويعمل فى مصنع للصابون بأجر قدره ٥٠ روبيه فى الأسبوع. أبوه عامل بناء ، وأمه تعمل فى لف البيدى (السجائر) إنه يقوم بوضع بطاقات على ربطات المنظفات والصابون ، إنه يذهب إلى المدرسة فى الصباح ، وهو يقول أنه يود عندما ينهى دراساته ، أن يصبح طبيبا رغم معرفته أن الفرصة أمامه هزيله .

براميلا فتاة صغيرة ذات وجه جاد : طفلة فى الحادية عشر أو الثانية عشر ، ذات عزيمة - إنها غير متأكدة من عمرها ، إنها تكسب من عملها ، كمعاونة منزلية ، ٨٠ روبيه فى الشهر ، والدها يجر الريكشو ، ولديها ثلاثة أخوة وأخت أصغر منها ، إن أعمالها هى التنظيف ، إزالة الأتربة والغبار ، التسوق، تقديم مياه للزائرين ، ورعاية الأطفال . إنها تمنح الوجبات الخفيفة حيثما تعمل ، وهى تعمل من الثامنة إلى الحادية عشر صباحا ، ثم من الواحدة إلى الخامسة بعد الظهر . إنها تعمل هكذا منذ عامين .

راجاه فى الرابعة عشر ، يتتلمذ على يد خياط يتعلم عملا يتسم بالمهارة ، إنه يتقاضى ٥ روبيات فقط فى الأسبوع ، إنه يعمل من الساعة الثامنة حتى العاشرة ، ثم يذهب إلى المدرسة حتى يبدأ العمل مرة أخرى فى الرابعة والنصف ، ويستمر إلى الثامنة ، والده يصنع الحلوى ، أمجد ، فى الثانية عشر ، يصنع الأكياس الورقية ، إن أباه يحضر الأوراق إلى المنزل ، حيث تعمل الإسرة معا ، أمجد لايعرف كم يكسب أبوه من هذا ، إلا أنه يعطى ٥٠ بايس يوميا ، سانتوش ، فى الثانية عشر ، يقوم بصناعة الأجار باتى (البخور) ، إنه يقوم بلفها ، وتلك عملية من أشد الأعمال قسوة وخشونة ، إن كثيرا من النساء اللواتى يعملن فى لف الاجارباتى قد أزيلت تماما ثنيات كفوف

أيديهن ، بل وغدت كفوفهن سوداء أيضا ، إن لف ١٠٠٠ عود من الاجارباتى تستغرق من سانتوش ساعتين ، إن أمه تلف ٢٠٠٠ فى اليوم ، والأجر روبيه لكل ألف ، ويذهب سانتوش إلى المدرسة فى الثانية ،سالم فى العاشرة ، ويعمل فى صنع البيدى (السجائر) ، إنه يساعد والدته التى بدونه ما كان فى وسعها أن تحقق حصتها اليومية وقدرها مائتين ، يذهب سالم إلى المدرسة من السابعة إلى الثانية عشر ، ثم يعمل فى صنع البيدى حتى الخامسة .

سيتارام يعمل فى فندق صغير للغاية ، حتى أنه لا إسم له ، إنه يغسل الأطباق والأكواب ، يقوم على خدمة «البيكوراس» و«الساموساس» ، إنه فى الثالثة عشر ، يعمل من السابعة صباحا حتى الخامسة ، ويحصل على نصف يوم راحة ، يوم الأحد ، ويكسب أجرا قدره ٢٥ روبيه فى الأسبوع ، والده سائق ريكشو . سوخنامى فى العاشرة ، طفل رزين يُستغل أبشع استغلال ، إنه يعمل فى دكان لإصلاح المركبات ، يمسك بالألواح المعدنية، مثله مثل الأولاد الأكبر سنا ، ليقوم الرجال بتشكيلها ، عن طريق طرقها ، إنه يكسب ١٠ روبيات أسبوعيا ، أمه عاملة بالأجر فى أعمال البناء ، يعمل سوخنامى من الثامنة حتى الواحدة ، ثم من الثانية حتى العاشرة ، كان أبوه يجر الريكشو، إلا أنه سقط مريضا ، وكان على سوخنامى أن يعمل ، هو لايستطيع الدراسة ، لأنه يعود ليلا إلى منزله وقد هده التعب .

إن عمل العشرين مليون ، أو مايقارب ذلك ، من الأطفال العمال فى الهند ضرورى للغاية لبقاء الأسرة ، إن الحديث عن التخلص من الشر ، مسألة غير ممكنة ، بينما حياة الفقراء غير آمنة البتة ، إن حكومة الهند الحالية قد وضعت ثقتها فى المزيد من «الليبرالية» التى تعنى التخلص حتى من القوانين الاسمية التى فشلت فى حماية الضعفاء ، إن أحمالا ثقيلة وخسائر سوف تقع ، خلال هذه العملية ، على هؤلاء الأقل قدرة فى الدفاع عن أنفسهم ، إن هذا العمل هو الذى عالجته الشاتيسجاره موكتى موركا (جبهة تحرير شاتيسجاره) ؛ وهو الذى مات نيوجى من أجله .

لقد اتخذت خلال مناخ النضال والمقاومة الذى نشأ حول شاتيسجاره ، مبادرات شجاعة عديدة بعضها كان متفردا فى الهند ، إن واحدة من أكثرها إثارة وأصالة كان العمل الذى قامت به «حركة نساء » الـ سى إم إم ، إن شاشى سيل هى محررة «أواز أورات كى» (صوت المرأة) ، «إن نساء هذه المنطقة أقل التزاما بالتقاليد التى عوقت الكثير من النساء الهندوسيات وذلك بسبب الخلفية الثقافية القبلية ، إنهن هنا أكثر نضالية وقوة فى الحركات الشعبية ، إننا نتناول فى منظمة النساء ، موضوعات اجتماعية كبرى – الموت بسبب البائنة ، الاغتصاب ، التحرش فى داخل العائلة ، والزوجات المهجورات هنا بشكل خاص ، إن الزوجة الثانية مقبولة هنا ثقافيا ولكن فقط مع موافقة الزوجة الأولى. كيف يحصل الزوج على تلك الموافقة، مسألة مشكوك فى

الغالب فى أمرها . ويبدأ الرجال بالاحتفاظ بالزوجتين ، ثم يقومون بعد فترة من الوقت بطرد الزوجة الأولى ، إن النساء المهجورات مشكلة متنامية ، علينا أن نجد سبيلا لمعالجتها، إن طرد الزوجة الأولى ، من الناحية القانونية ، ليس جرما ، إن المحاكم لاتستطيع المعاونة فى علاج مشكلة الزوجات المهجورات ، ولذا فإننا أوجدنا وسيلة لاستخدام المجتمع .

«لقد ابتدعنا «الماهيلا بانشايات» ، أو لجنة المرأة ، هذه تجربة جديدة، بدأت منذ عامين مضيا ، اللجنة مكونة من نساء من القرية والقرى المجاورة ، ومعهن اثنتان أو ثلاثة ممثلات من منظمتنا النسائية ، إن الماهيلا بانشايات مُشكلة على أسس مؤقتة محددة بالغرض منها ، حتى تتناول القضايا الفردية ، فى حالة ظهورها ، إنها ليست ثابتة بشكل دائم ، إن البانشايات تحدد حقائق الحالة ، وتعد تقريرا ، ثم تدير استماعا عاما أمام الجماعة المعنية ، وتدعى فى مدينة رايبور ، مجموعة من كل جانب لتقدم شهادتها ، ثم يعد فيما بعد تقرير وتوصيات تناقش علانية ، وتكون مسئولية الجماعة هى إقرار تطبيقها ، فإن كان الأمر كذلك فما هى أفضل كيفية لفعل ذلك ، وقد تحقق النجاح تقريبا ، فى كل الحالات ، إن الماهيلا بانشايات تظل باقية فقط خلال فترة نظر الحالة ، ومن ثم ليس هنالك تراكم سطوة أو سلطة لأى فرد من الأفراد.

«راج كومارى ، امرأة «سيندهية» مهجورة ، تم هجرها بعد عشر سنوات من الزواج ، تزوج الزوج ثانية ، وأحضر الزوجة الجديدة إلى المنزل ، وباشرنا القضية مع سلسلة من الاحتجاجات و«الدهارنات» والاضرابات عن الطعام والملصقات للمعاونة فى إثارة موضوع هجر الزوجة ، وبعد السعى للحصول على معونة المحاكم والإدارات القانونية ، حصلنا على لاشئ ، كانت الفتاة تجلس خارج منزلها ، ومعها ابنتها البالغةمن العمر احدى عشر عاما ، قلنا لها ، هذه الدار دارك ، عودى إلى داخلها ، وتشكلت الماهيلا بانشايات فى تلك الأثناء ، كان هنالك استماع مفتوح فى مارس ١٩٩٠ ، شارك فيه أعضاء الأسرة ومجموعات نسائية ومجموعات شبابية والجيران والمحامون ، الكل جاء ، وشهد بما لديه من أدلة ، كانت هنالك معركة طويلة فى المحكمة، درست كل الوثائق بعناية ونشرت، ثم انعقد فى المساء اجتماع عام للجماعة ، وتُلى تقرير الماهيلا بانشايات، وكانت التوصيات كالتالى : (١) يجب ألا يقع أى عنف على راج كومارى وابنتها، لقد ضُربت خُدرت وبُعدت، ثم تُركت فى منزل أمها (٢) تظل بالمنزل حتى الطلاق وتغادر بعد الطلاق (٣) يجب أن يدفع لها شهريا ١٠٠٠ روبيه نفقة، لأن العائلة محل البحث عائلة موسرة للغاية ، وقد أخذتها بعد الاجتماع العام ، ثلاثة آلاف امرأة فى موكب إلى المنزل ، حيث دخلت فيه ولم يضربها أحد ، بل عُوملت بأدب ، رغم أنهم لم يقوموا بإعاشتها اقتصاديا ، وهكذا، كان هذا نجاحا ، إنه نوع من العدل الشعبى ، المشرب بالرحمة .

«إن أحدث قضية هى قضية امرأة قتلت فى القرية بسبب نقود البائنة ، كان ذلك فى اكتوبر ١٩٩١ ، إن القرية تقع فى الجزء الداخلى من شاتيسجاره ، وقد سعى حمو المرأة ، والذى كان متهما بقتلها ، إلى طمس القضية ، والشرطة ماكانت تسمع بمثل هذه القضية مالم يتم أخبارها بها ، وعندما جاءت الشرطة فى النهاية ، لم تكن هنالك معلومات عن الحالة ، كان هنالك ببساطة جسد ميت ، عُثر عليه فى الحقل فى حالة تحلل ، وقالت الشرطة أنها حالة انتحار ، حتى الصحف لم تكتب نبذة تافهة عن شخصية تافهة فى قرية تافهة فى أعماق شاتيسجاره ، حدث هذا فى بلوك ابهنابور، قرية تورلا حوالى ٢٠ كيلو مترا من رايبور .

«عندما حاولنا الحصول على معلومات ، كان هنالك جدار من الصمت ، قال الناس: ماذا فى وسعكم أن تفعلوا الآن ؟ ، لقد ماتت الفتاة ولايمكنكم إعادتها إلى الحياة ؛ كان علينا انجاز قدر كبير من العمل قبل أن تدرك النساء أن ظلما بشعا قد أوقع بامرأة اخرى وأنه عليهن أن يفعلن شيئا .

«شكلنا ماهيلا بانشايات من تسع نساء:» اثنتان من منظمتنا من رايبور ، والأخريات من سبع قرى محيطة ، وتحدثت الماهيلا بانشايات مع أناس من القرى ، مع شباب ونساء ، حتى يمكنها الحصول على معلومات ، وتحدثنا مع مسئولين من الشرطة، وسألناهم ماذا فعلتم ، وماهى القضية التى اعددتموها ؟ كانوا قد أعدوا تقريرا من المعلومات التى حصلوا عليها ، اقنعناهم بأن مالديهم خاطئ وغير كاف ، وقدمنا لهم المعلومات التى حصلنا عليها .

«وانعقد فى ٢٠ ديسمبر ١٩٩١ اجتماع عام فى القرية ، وسارت النساء فى موكب من ثلثمائة امرأة قبل الاجتماع ، فى البداية لم يكن هنالك رجال ، اطلقنا شعارات كالأهازيج ، وبدأ طريقنا نحو القرية ، وكانت هذه القرية جديدة بالنسبة للكثيرات منا ، ولذا لم نعرف طريقنا ، تقدم شاب أمامنا وأرنا الطريق الذى علينا اتخاذه، كان هنالك العديد من الأطفال ، أولاد وبنات أمام الموكب ، توقفنا أمام أماكن مختلفة لنخبر الناس بما نفعل ، ولماذا نفعله ، وعدنا إلى اجتماعنا ، بعد حوالى ثلاثة كيلومترات ، وعند هذا الوقت كان عدد الرجال يعادل عدد النساء .

«فى الإجتماع العام تُلى تقرير الماهيلا بانشايات والتوصيات ، كان هنالك: (١) يجب مقاطعة الرجل الذى اقترف جريمة القتل اجتماعيا ، و(٢) ألا يسمح لزوج الفتاة القتيلة بالزواج مرة أخرى.

«غدت المقاطعة الاجتماعية موضوعا كبيرا ، أنت لديك بالفعل بانشايات المجتمع ، وإن كان هنالك ثمة خطأ ، فإن عمل بانشايات المجتمع ، بالطبع ، هو تناول الموضوع وفرض العقوبات الواجبة ، إن بانشياتنا تتعامل بشكل خاص مع الموضوعات المرتبطة

بالنساء - إن لوجودها تحديدا علاقات اجتماعية وقانونية ،وقد انعقدت بعد ٢٠ ديسمبر المزيد من الاجتماعات لتقرير كيفية تطبيق المقاطعة الاجتماعية ، كانت فكرة النساء ألايشاطر الناس هذه العائلة الخضراوات المطبوخة ووقود الروث ، وألا تُعطى لهم أجى، أى نارا ، حيث أنه لم يكن لدى كل العائلات ثقابا ، وعادة مايأخذون قشا مشتعلا من منزل لآخر ، يجب ألا يسمح للعائلة بالتواجد فى المناسبات الاجتماعية الخاصة ، مثل احتفال تسمية الطفل ، وقد ناقشنا مع جماعة «الساهو» ، التى ينتمى إليها الرجل وسألنا عما تفعله بانشايات الجماعة لإصلاح هذا الخطأ ، كانت العائلة المتورطة فقيرة، كانوا عمالا بلا أرض ، وعائلة الفتاة كانوا أيضا فقراء وبلا أرض ، وكان الأب مريضا ، لأول مرة فى تاريخ بانشايات المجتمع ، تُدعى منظمة نسائية للحضور ، ويُطلب منا تقريرنا وأفكارنا ، وقد تقرر بناء على توصياتنا قيام جماعة السوهو بالمقاطعة أيضا ، وتلك كانت عقوبة كبيرة ، بل إنهم ذهبوا ابعد من ذلك وقرروا منع العائلة من حضور اجتماعات الجماعة حتى مستوى الحى ، إنهم يمتلكون سلطة فعل هذا» .

إنه موضوع دقيق للغاية ، حيث أن وضع الماهيلا بانشايات وضع غير قانونى ، إنها لاتملك إصدار أحكام ، إنها تستطيع فقط اصدار توصيات ، كانت الحالة كما هى فى أيدى الشرطة ضعيفة ، لم يكن الانتحار معقولا أو صحيحا ، حاصرت النساء مركز الشرطة فى ١٧ يناير ١٩٩٢ ، واحتججن على المنحى الذى تتخذه الشرطة ، «إن ماقرره المجتمع كان عقوبة كافية ، لايهم حقا ، أن يوقع القانون عقوبة ، إن الناس كانوا يتهربون من مسئوليتهم الاجتماعية ، عندما قالوا بأن القانون سوف يأخذ مجراه، وأن هذا الأمر لايعنينا . إنه ليس فعلا من أفعال المجتمع وحتى لو كانت الشرطة قد قبضت على الرجال ، كان لابد وأن يطلق سراحه بكفالة .

«إننا لانستطيع أن نباشر كل الحالات ، غير أننا نتحمل تلك التى تكشف عن أسوأ الإساءات ، أو التى يكون فيها سابقة حيث يستطيع المجتمع القيام بعمل ما ، هنالك على الدوام بعد اجتماعى لكل جريمة ، وهذا الوجه يجب التعامل معه على مستوى اجتماعى ، النساء مهتمات بالاغتصاب والهجران وشرب الخمر ولعب الميسر ، وقد عثرنا على فكرة ، هى فكرة البانشايات ، وهى فكرة مقبولة ثقافيا ، ومن ثم فإننا لانبعد جذريا وبصورة كبيرة عن الثقافة ، رغم أن تلك الفكرة بعيدة وجذرية ، إننا موالون للبانشايات القائمة ، ولايمكننا تحديها ، ولكن لأن فكرة البانشايات لها جذورها فى الخبرة الهندية ، فإنها قد لاقت نجاحا هائلا» .

منذ وفاة نيوجى ، التحق أعضاء جدد بحركة النقابة ، إن الصدمة والغضب قد أمد عزم واصرار شاتيسجاره موكتى موكا بالقوة ، ففى أحد أركان رايبور الصناعية ، حيث التحق بالعمل الأحمر - الأخضر عمال شركة واحدة فقط ، يوجد هنالك الآن اثنى عشر شركة التحق موظفوها بالنقابة .

إن السياق الحالى فى الهند ، على أى حال ، ضدهم ، إن اغتيال نيوجى فى هذا الوقت ليس بالصدمة الخالصة ، لقد الزمت الهند نفسها «بتحرير» الاقتصاد متبعة وصفات مفاوضى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والجات ، إن الهند تستميت كى تصبح دولة تنافسية فى الأسواق العالمية ، وحتى تصبح قادرة على خدمة دينها الدولى الذى يبلغ قدره ٧٠ مليار دولار ، ولتعويض فقدان سوقها فى الاتحاد السوفيتى السابق ، وهذا يعنى ان سعر عملها الرخيص يجب ألا يكون محل مساومة ، مهما كانت تكلفة الحفاظ على هذه الميزة التنافسية.

لقد التقى العديد من النشطاء الاجتماعيين والعاملين دفاعا عن حقوق الانسان فى «ناجبور» فى ولاية ماهاراشترا المجاورة فى فبراير ١٩٩٢ من أجل تكوين حركة وطنية للتضامن مع اهالى شاتيسجاره ، إنهم يتساءلون إن كان اغتيال نيوجى هو أقصى فعل لتحقيق «ليبرالية» ، صممت خصيصا لابعاد أى دفاع يقوم به بعض من غالبية الناس المستغلين ، والذى أُسئ اليهم من العالم ، هل الموت المعلن بهذا القدر الكبير ، لاشتراكى يعنى الآن أن التخلص من الاشتراكيين صحيح وشرعى ، كما فعلوا هكذا وبوحشية مع شانكارجوها نيوجى؟ .

إن الحوادث التى تلت فى شاتيسجاره توحى أن هذا الحكم مستبعد كلية ، إن شاندرا كانت شاه رجل صناعة قبض عليه ارتباطا بموت نيوجى ، «وهرب» بطريقة غامضة من حجز الشرطة فى مايو ١٩٩٢ ، ولم يتخذ أى إجراء آخر ، وبقى أكثر من ثلاثة آلاف عامل تم تخفيضهم فى صناعات بهيلاى المعاونة ، ولم يتم تناول موضوع نظام العقود .

ومما هو جدير بالذكر ان شاتيسجاره موكتى موركان (جبهة تحرير شاتيسجاره) ماكانت تبغى شيئا أكثر من تطبيق قوانين العمل الصادرة فى البلاد ، والعدالة فيما كان، عملية قتل رغم كل شئ . نادرا ، ماكانت المطالب ثورية أو مغالى فيها : كانت هنالك ، حقا ، محادثات منظمة بين شاتيسجاره موكتى موركا ورجال الصناعة المحليين وأدارة العمل بحكومة ولاية مادهيا براديش ، غير أنها سارت بطيئة للغاية دون حسم ، ومما لايثير الدهشة أنه ليس صدفة أن تشكل قوانين العمل السارية فى البلاد نقطة جدل مع دائنى الهند الخارجيين ، إن تحرير الاقتصاد يعنى فى الحقيقة ، اكتساح مثل تلك الحماية المتواضعة التى يتمتع بها القطاع المنظم فى الهند.

وقد نظمت فى ١ يوليو مظاهرة من عمال بهيلاى ، أعاقت حركة السير على الخط الحديدى عند محطة بهيلاى لتوليد الكهرباء ،كان رئيس جبهة تحرير شاتيسجاره قد سعى للحصول على تأكيد بأن الإدارة سوف تستأنف المحادثات ، وفتحت الشرطة النيران فى الساعة الخامسة مساء ، وقتلت طبقا للأرقام الرسمية ١٦ شخصا، غير أن

النشطاء والعمال يقولون بأن الرقم أقرب إلى خمسين شخصا ، وقال العديد من المصابين ، أنه بعد اطلاق النيران ،وبناء على تعليمات ضباط الشرطة الأعلى رتبة والضباط الإداريين ، كانت الأجساد الميتة تزاح من الطرقات ، كان منظرا تقشعر منه الأبدان ، «رجال الشرطة كانوا يرون وهم يلقون بالأجساد الميتة على سيارات النقل» ، وقامت الشرطة فيما بعد بالضغط على المستشفى لإخراج المصابين ، الذين كانت تقوم باعتقالهم فور تسريحهم .

ومنذ ذلك الحين وعمال جبهة تحرير شاتيسجاره ، الذين طردوا يواصلون وقفاتهم واحتجاجاتهم فى وقار هادئ يدينون به لقائدهم المتوفى ، إن جبهة تحرير شاتيسجاره تسعى ، بعيدا عن أن يعوقها مناخ اقتصادى معادى لها ، إلى توسيع نشاطاتها فى أجزاء أخرى من الهند .

الغرب منشغل بالتفرقة بين «اللاجئين السياسيين » و«المهاجرين الاقتصادين»، إن الفئه الأولى تقتضى دليلاً يثبت وجود خوف له أساسه من الأضطهاد فى بلدهم ،طبقاً لأتفاقية الأمم المتحدة المعنية باللاجئين ، أما الفئه الثانية فهى فئه تبحث فقط عن حياه أفضل ، ومن ثم لايجب السماح لها بالمرور عبر الحدود التى يزداد إنغلاقها حماية للأغنياء من أية حاجة لأن يشاركهم أحد فى امتيازاتهم .

وقد قامت بريطانيا باختبار هذا التمييز ، أولا ، فى هونج كونج ، على هؤلاء الذين فروا من فيتنام ، إن آخر مستعمرة بريطانية كبرى كانت تخدم ، كم خدمت العديد من المستعمرات من قبل ، سياسات بعينها ، مثل إعادة المهاجرين أنفسهم إلى وطنهم .

عندما عُثر ، لأول مرة على أناس القوارب يهيمون فى بحر الصين الجنوبى، لاقوا التحية باعتبارهم أبطالا حطموا السجن الذى هو فيتنام ، وانفقت وسائل الإعلام وقتا طويلا (كثيفا ومنضبط التوقيت زمنيا بصورة غريبة) فى الحديث عن شجاعتهم وثباتهم، كانت فيتنام تعاقب ، فى ذلك الوقت بسبب انتصارها على الولايات المتحدة ، وكانت تعامل على أنها دولة خارجة على القانون ، إن غزو كمبوديا كثف فقط من عزلتها ، حيث كان الغرب يساند حينئذ مجموعات المقاومة داخل كمبوديا ، وكانت المجموعة الأكثر أهمية فيها هى مجموعة الخمير الحمر ، مما اقتضى رشاقة اخلاقية لتصوير فيتنام باعتبارها أشد خبثا من مؤخرة وردف نظام بول بوت ، ومن ثم ، فإن أناس القوارب ، قد أكدوا فقط ماكنا نعرفه ، من أن الحياة فى فيتنام لاتطاق ولاتحتمل .

غيرأن لاجئ فيتنام أصبحوا فيمابعد فقط، مصدر إرباك لهونج كونج، إن الأوضاع القذرة البائسة التى كانوا عليها فى هونج كونج ، نتيجة اعدادهم ، ومانتج عنها من اضطراب وفقدان للنظام ، قد جعلتهم مجرمين وموصومين ، وقد تزامن مع الحاجة العاجلة المتزايدة للتخلص منهم ، اعادة فيتنام تأهيل نفسها ، وبذا يكون لدى سلطات هونج كونج مبررا لاعادتهم إلى الأذرع الرؤوفة المفتوحة لحكومة فيتنام التائبة النادمة والتى يجرى لبرلتها ، حقا وجد سبب عام لرفض وضع اللاجئ للأفراد ، على أساس حقيقة أن أعداد كبيرة من الشعب الفيتنامى قد أُسيئت معاملتها ، «بسبب التحول الأضرارى غير الاختيارى لآلاف الفيتناميين ، إلى آفاق اقتصادية جديدة ، وأن المتقدم بالطلب لم يتم اتخاذ موقف منفرد منه بسبب سجل والده المعادى للشيوعية» .

إن البهلوانيات الأخلاقية اللازمة لمثل هذا التغيير واضحة فى تقارير ، «مكتب مراجعة وضع اللاجئين» إلى «سكرتارية أمن هونج كونج» ، عن هؤلاءالذين رُفض منحهم وضع اللاجئين ، إن تقريرا عن دوجياو يقول :

«يجب أن يكون معلوما أن الطالب لم يقدم البتة دليلا فى المحكمة ، ومن ثم فإن ادعاءاته باضطهاد السلطات الفيتنامية له لم تختبر كلية البتة حتى الآن ، وقد وجد أنها قاصرة ، وفى ضوء هذه الحقائق الواضحة مقرونة بالتأكيدات الحديثة التى قدمتها الحكومة الفيتنامية فى اجتماع الأمم المتحدة فى جنيف عام ١٩٩١ ، بأن أحدا لن يعانى الاضطهاد إن عاد الى فيتنام – تلك التأكيدات التى قبلها المجتمع الدولى – ولذا فإن هذه المجموعة الاستشارية لن تجد سببا قانونيا يمكن أن يبرر تقديم توصية لكم للإعتراف بهذا الطالب كلاجئ ؛ فى إطار المعنى الصحيح لذلك الوصف».

وجاءت نفس الحيثيات فى رفض طلب ترن ثى فان ، التى ادعت الخوف من الاضطهاد بسبب معتقدها الدينى ، حيث تنتهى المجموعة الاستشارية إلى :

«إن مدام تران تسعى لإعطاء انطباع أنها وأسرتها قد عوملا معاملة خاصة وجرت مضايقتهم ، حتى يتخلوا عن ماتدعيه بأنه معتقدها ، إنها لم تثبت بالحجة لماذا طبقت هذه المعاملة والمضايقة الخاصة عليها ، على عكس آخرين فى ذات الأحوال التى هى عليها ».

وأعلنت المجموعة الاستشارية أن ، «إجاباتها لم تكن مقنعة وكانت متناقضة». وأضافت ، «أن عضوى المجموعة بالمصادفة ، كاثوليكيين ممارسين ، وكان واضحا أن الطالبة لاتعرف غير القليل من العقيدة الكاثوليكية »، وانتهيا إلى أنهما كانا يتعاملان مع ، «ادعاءات مغالى فيها ، وأحيانا غير حقيقية لإمرأة بسيطة ، ربما خدعت نفسها ، وهى مؤمنة بأنها مضطهدة لأسباب دينية».

إن نغمة التقارير تذكرنا ، حقا بتلك التى كانت للقضاة المدنيين فى أوائل القرن التاسع عشر ، وهم يدينون المخالفين للشرع من الطبقة العاملة فى بريطانيا بالأبعاد مدى الحياة ، (إن السجين لم يبدى أى شراسة ، كان يتملكه سلوك هادئ ولائق ؛ وفى إيجاز ، مظهر محسوب جيدا ليخفى قلب مجرم) ، إن لتلك الأحكام القضائية رنين غريب ، يتطابق وتلك التى لنظام شيوعى قام بتصنيفها ، «طبقة كبار الملاك المستبدين»، «الجيل الثالث المعادى للشيوعية» ، ذات التاريخ العائلى الشرير .

إن هذا الموضوع التجريبى فى الطرد والإبعاد العنصرى ، كان برنامج عمل للكراهية المتزايدة للأجانب فى أوروبا ، لقد أعلنت الحكومة البريطانية فى يوليو ١٩٩١، إجراءات حاكمة أكثر تشددا قبل هؤلاء الباحثين عن حق اللجوء السياسى، وقد نشرت الأرقام التى توضح أنه ليس هنالك فقط ، زيادة فى الأعداد التى تقدمت بطلبات للحصول على وضع لاجئين ، ولكن هنالك دعم أيضا للزعم بأن العديدمن هؤلاء «مخادعين محتالين» ، وقد أعطى ذلك شرعية لانفجار غضب الصحافة المتداولة ، إن فرصة اتهام فقراء الأرض باعتبارهم غشاشين ومخادعين ومصدر خزى وعار كانت فرصة طيبة للغاية ولايجب فقدانها ، إن الباحثين عن اللجوء ليسوا هكذا حقا : لقد

كانوا مهاجرين متخفين وكذابين وانتهازين يعملون للاستفادة من التقليد البريطانى الإنسانى مسيئين الى حسن ضيافتنا وتسامحنا ...إلخ.

إن لغة التقرير تفضح وجهة نظر العالم الحقيقية المتحذلقة ، كانت الكلمات المستخدمة فيضان ، تيارات كالمد والجزر ، أمواج مهاجرين مدعيين ، إن تيارات المد والجزر يجب بالطبع صدها ، والفيضانات وقفها والموجات كبحها . من الواضح أننا أمام كارثة طبيعية ، واحدة من تلك التى تحدث يوميا بصورة واضحة للغاية من بلدان الجنوب التعسة . إن صورة الفيضان تقود بشكل طبيعى إلى «انفجار» سكانى ، تقول الديلى ميل بصراحة ، «يجب ألا تسمح بريطانيا بأن تصبح تلك الجزر مهبطا وثيرا لجماهير العالم الجوالة بلاقيد»، إننا بالفعل أمام رؤية مالتوسية ، «مأدبة الطبيعة والتى لايوجد عليها مكان معد للفقراء ».

إن المهاجرين «ينسابون عبر الحدود المسامية». إنهم يشقون طريقهم داخل بريطانيا «بالخداع والاحتيال والغش» ، إنهم مزيفون ودجالون ، إنهم يوظفون قائمة من الخدع والحيل ، يقولون أكاذيب وأكاذيب ،وهم بذلك يبرهنون على أن الصفة الأخلاقية لهؤلاء الذى حكمناهم لم تتحسن منذ «أعطيناهم » استقلالهم.

وقد أشارت التايمز الى أن «التدفق» الذى تواجهه بريطانيا يبلغ ، بالكاد عشْر التدفق الكلى الذى يطرق فى جلبة أبواب كل المجتمع الأوروبى . لكنها تضيف ، أنه «طالما أن التقيد بحقوق الإنسان ، على اتساع العالم ، فى السنوات الخمس الأخير ، قد تقدم بصورة كبيرة ، فإن الضغوط سوف تجئ فى الدوافع الاقتصادية أكثر من الدوافع السياسية ، وأن أجر الطيران الرخيص سوف يكون عونا لها».

إن تقرير الأمنستى الدولية لعام ١٩٩١ ، نادرا مايدعم وجهة النظر المتفائلة تلك : وانتهاكات حقوق الإنسان تتواصل ، وهى غالبا ماتسود أكثرمن ١٤١ بلدا ، إن اكثر من ١٠٠ بلدا عذبت السجناء وأساءت معاملتهم ، واختفى الآلاف أو أعدموا بعيدا عن القانون فى ٢٩ بلدا ، يضاف إلى ذلك ، أنه حتى لو منح حق اللجوء السياسى للكل فى الزمن الذى بلغ فيه العدد ذروته (أقل من ألف اسبوعيا) فإن الأمر مازال يحتاج إلى مائة عام حتى تضاف خمسة ملايين من السكان لبريطانيا .

ويصل هذا بنا إلى السبب الحقيقى وراء معاناة الغرب لمثل هذا الفزع من «المهاجرين الاقتصاديين» ، ليس هنالك شك ، فى أن عزلة فيتنام ، مثلا رغم كونها جزئيا من خلقها هى ، بسبب التصاقها بايديولوجية دموية مخزية ، إلا أنها كانت معقدة بصورة حادة بسبب خطر المعونة ، وبواسطة تحريم دولى ، مرتبط بصورة أكثر ، برد فعل عقابى متواصل بسبب ماأصاب الولايات المتحدة على يديها من اذلال وهوان ، أكثر منه ذعرا غربيا من الاستبداد والطغيان ، وبهذا المعنى فإن دور الغرب فى انتاج شتاء اقتصادى فى ذلك البلد لم يكن بالدور الذى لايؤبه به.

وهكذا الأمر مع غالبية البلدان التى يجئ منها «المهاجرون الاقتصاديون» ، هؤلاء الذين يسعون إلى تلك «الحياة الأفضل» ، التى يدافع عنها الغرب ويروج لها بلا كلل ولا ملل ، وصورها التى تتألق حول العالم فى الحاح موجود فى كل مكان ، حقا ، إن الغرب يعمل جاهدا لطمأنة كل العالم أن كل إمرئ يستطيع بلوغ مستواه هذا من الثراء والغنى فقط إن امتثل للتوصيات والنصائح التى تصدرها المؤسسات المالية الغربية ، صندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى.

إن المهاجرين الاقتصاديين غالبا مايحملون ، فى الواقع، قصة مختلفة تماما، قصة لاتلقى الترحيب عن الأماكن التى هربوا منها ، الحقيقة أن طريق الغرب لخلق الثروة قد اعتمد على حمل كل العالم كى يكون فى خدمتهم ، إن التجربة الغربية غير قابلة للتكرار نسخا ، إن وصفات الغرب هى من الناحية الفعلية معادلة لافقار وضياع فقراء العالم ، «إن الهجرة التى لاتقاوم» ، والتى أشار اليها «الأمن البريطانى» هى بمقياس عام مفروضة على العالم بسبب حاجة اقتصادية ، وهى حاجة فى إطار تحكم الغرب كلية ، إن كثيرا من الظلم ، والاساءة التى تليه على حقوق الانسان ، الخاصة بهؤلاء الذين يقاومون فى العالم الثالث من الاساءة إلى أناس يقومون بحماية أرضهم وموطنهم ، وغاباتهم ومواردهم الساحلية أو النهرية ، حيث عاشوا آلاف السنين ، من نظام عالمى شره . إن الاستيلاء على الاسماك والمعادن الأخشاب أو أى سلع تصديرية أخرى ، إنما هو على الأرجح، فى صالح كسب نقد أجنبى من أجل خدمة دين الغرب الذى لانهاية له .

هذا هو الارتباط الخفى بين التقسيم الحاد الذى يفصل المهاجرين «السياسيين» عن «المهاجرين الاقتصاديين» ، إن هؤلاء الذين عاشوا فى ظل المنطق الاستبدادى لإقتصاديات الغرب (ذلك المولد الأعلى للعنف المبهم ، غير المرتبط بشخص معين ، والذى يطهره ، غياب أشكال التعذيب الدموية أو الجماعات العسكرية ، من كل مسئولية عن معاناة هؤلاء الناس) هم نفس الناس الذين «يطرقون أبواب المجتمع الأوروبى» — حقا أن القوى الاقتصادية قد غدت ، هى بذاتها كما كانت الشرطى السرى للرأسمالية، تنزع الملكية ، وتؤدى إلى الافقار ، وتطرد الناس من مصدر ارزاقهم ، وتخرجهم من مواطنهم بطريقة قاسية القلب وبفاعلية تماثل فاعلية الشمولية الخبيثة ، ما الذى يمكن أن يكون أكثر معقولية فى وجود سعى هؤلاء الناس للفرار من كل هذا؟.

إن كان يجب ألا تكون بريطانيا «أرض النفاية لمن أُفقروا فى أفريقيا و الشرق الأقصى» ، فإنه يجب أن تكف بلدان الجنوب أن تكون أرض نفاية التقنية الخطرة التى فات أوانها ، والثقافة الزبالة ، والايديولوجية الاقتصادية الخردة ، لأن تلك هى جذور العديد من الانتفاضات الحزينة ووداع الأوطان على مضض ، والبيئة والاضطرابات العنيفة التى لاتترك للفقراء مكانا يعيشون فيه حياة تتسم بكفاية لائقة ، والتى هى كل مايبحثون عنه ، إن الرد الحقيقى على «الهجرة الاقتصادية» هو التنمية العادلة ، هو وطن آمن لايصبح موضع مجاعة ، أو تفكك اجتماعى أو مصدر حروب أو تدنى للبيئة .

إن هؤلاء الذين تصفهم الحكومة الغربية «بالمهاجرين الاقتصاديين» ، هم فى الغالب تعساء بمنفاهم ، تعساء بنفس قدر ضرورتهم للاقتصاد الذى منحهم رزقا ومعاشا شحيحا ، إن العديد من المهاجرين يسندهم حلم بالعودة ، وقليل من الناس هم الذين يمكن أن يكونوا فى حاجة للأحلام اكثر من هؤلاء الذين استبدلوا المناظر الطبيعية الخلوية لولاية «كيرالا» فى جنوب الهند ، بالمصاطب الفيكتورية الرمادية لجنوب لندن.

إن جيب وبراكاش عاشا فى بريطانيا عشرة أعوام ، إن أباهما عملا فى أرصفة الميناء فى سنغافورة ، وهما يحملان جوازات سفر بريطانية ، وجاءت العائلتان إلى هنا عندما اعتزل الوالدان ، رغم أن ذلك كان يعنى قطع دراسة الولدين ، كان صدى هذا فى النفس أقل مما يمكن أن يكون متوقعا ، إن أحد مشاكل كيرالا هى أن هنالك فائضا من الخريجين ، فى هذا الجزء من الهند الأكثر إلماما بالقراءة والكتابة (إن كيرالا هى أول ولاية تحقق «محو أمية كاملا عام ١٩٩٢») ، ونتيجة ذلك أن المتعلمين العاطلين يشكلون قضية كبرى فى كيرالا ، كما أن قرابة سدس أهالى الولاية هم الآن فى خارجها .

عاد جين وبراكاش عام ١٩٩٠ الى كيرالا لأول مرة ، إن ذكريات المدينة الصغيرة التى شبا بها ، «شيرااينكيل» ، ٤٠ كيلو مترا من «تريفاندروم» عاصمة الولاية ، قد غدت أكثر توقدا مع مرور الوقت ، الفهم والإدراك لطفا مما يصاحب العودة إلى الوطن من إثارة ، إن دور العائد دور معقد ، إذ من الهام ان يكون موسرا وكريما ، حتى يبرر هجرانه ، لكن يجب أن يكون هنالك حرص ألا يقلل من شأن الوطن ، وألا يعلق على سير الحياة ، والنوعية الراكدة من الثقافة أو الغبار فى الشارع الرئيسى ، كما يجب ألا يسمح للعواطف بأن تتأصل هنالك بصورة قوية للغاية ، إن الحياة الحقيقية مازالت تعنى المصنع ، حيث يعمل براكاش الآن رئيس عمال، والشركة التى تصنع أجهزة تكييف السيارات حيث يعمل جين الآن ، كما يجب، فى ذات الوقت ، أن يظهر ، لمن ظلوا ولم يهاجروا، بعضا من الخسائر والألم العميق للهجرة ، كما لايجب البتة ، اظهار الرحلة التى بلا عودة ، وكأنها خطأ ما .

إن شيرا ينكيل مدينة يسكنها آلاف قليلة من الناس ، وهى محاطة بأشجار النخيل، وطرق مائية داخلية متعرجة، ممايجعل هذا الشريط الساحلى من الهند رائعا للغاية ، أشجار النخيل تلتقى فوق الطرق ومسارات السكك الحديدية فى أقواس مكفهرة تشكل كاتدرائيات قوطية خلوية، ومحصول أرز هذا العام قد شتل لتوه فى قطع مستطيلة زاهرة الخضرة ، تقطع بحدة ظلال النخيل الأكثر ظلمة ، إن المناظر الطبيعية الخلوية الناعمة ، حيث تحل نباتات الحبهان والمطاط وشجر الكاد الهندى* ورقع من غابات

* شجرة تنمو فى الحدائق الاستوائية ، لها ثمرة على شكل الكلوة ، ويستخرج منها الصمغ (المترجم).

قديمة محل أشجار النخيل لتخفى حقيقة أن هذه الولاية هى واحدة من أفقر ولايات الهند ، يقول د. توماس اسحق من مركز دراسات وتنمية المجتمعات فى تريڤاندروم ، «أن كل ماينتج هنا يتم تصديره ، الأنوع العديدة من الموز وجوز الكاد الهندى وايف جوز الهند أو الحبال المجدولة منه والجمبرى والحبار التى تذهب إلى أوروبا واليابان ؛ والناس أولا وقبل كل شئ قد تشتتوا وتفرقوا».

يمكنك أن تجد أبناء كيرالا فى الخليج ، فى أمريكا الشمالية ، فى استراليا، فى المانيا ، وفى بريطانيا ، وأساسا فى «كرويدون» و«ايست هام» ، إن العثور على عمل الآن بالخارج مسألة أشد صعوبة عن ذى قبل ، إن العديدين ممن ذهبوا الى الخليج ، وحل آخرون محلهم أثناء حرب الخليج، لم تجدد عقودهم . وقد أجهد البعض أنفسهم بطريقة مفرطة فى بناء منازل من الأجر والرخام والسيراميك ، وبعض هؤلاء تركوا الآن مهملين حول شيرانيكيل ؛ أزهار برية تنمو خارج البناء الحجرى المشقق .

ما أن وصل جين وبراكاش المنزل حتى استبدلا حلتيهما بالداهوتى* ، والذى كانا يرتديانه فى بريطانيا فى المنزل فقط ، إن فرصتهم باعادة اكتشاف التمر هندى والجاك فروت** فى الحدائق المهملة ، وأشجار جوز الهند ، التى سوف يتسلقها صبى أسمر البشرة من الأهالى ، ليلقى بثمارها من ارتفاع ١٠٠ قدما أو أكثر فى مقابل ٢ روبيه والأقارب والأصدقاء الذين سيتعرفان عليهما رغم طول الغياب ، كل هذا يلفه إدراك كئيب بأن العودة إنما هى مجرد استراحة ، من المثير حتى فى هذه اللحظة ، فتح المنزل الذى ظل خاليا لايشغله أحد – ودون أن يعبث به أحد– لسنوات عدة ؛ مما أثار اضطراب السحالى والعناكب والفئران التى اتخذت المنزل موطنا لها مثيرين الغبار ومزيحين الألواح الخشبية من فوق البئر بمائة الذى مازال عذبا غير ملوث ، وقابلا الأصدقاء الذين لم يذهبوا إلى الخارج أو شرقا إلى مدراس أو شمالا الى بومباى ، إن أحدهم «يعلم » الأطفال ، الذين سوف ينتج شغفهم بالتعليم جيلا آخر من الخريجين العاطلين . وأحدهم يوفر نقودا كى يحصل على الأوراق والوثائق التى يحتاجها للذهاب إلى الخليج ، ٢٥٠٠٠ روبيه لجواز السفر ، وشهادة «لا اعتراض» ، واسترضاء بيروقراطية عريضة من الوكلاء والسماسرة ، وآخر راض بالبقاء هنا ، لأن لديه عملا فى معصرة أبيه ، حيث تضغط البذور.

إن شيرانيكيل تتميز ، فى حرارة مابعد الظهيرة ، بكسل ثقيل الوطأة ، مثلها مثل كل المدن الصغيرة التى رحل عنها العديد من ناسها القادرين ، النسيم الدافئ يتلاعب بأشجار النخيل ، سيارات الأوتوبيس تثير دوامات من غبار أحمر ، ومظلة سوداء تستخدم كشمسية تقى الرجال المسنين بسيقانهم المثنية ، وأكياس تسوقهم الخشنة ،

* رواء هندوكي يغطي الخاصرة أو منطقة الحقوين (المترجم).

** من عائلة البريد فروت وهى نباتات تعطى ثمرة تخبز وتؤكل كفاكهة وتستخدم كأخشاب قوية(المترجم).

يقول براكاش ، أن شيئا لم يتغير ، إنه يسير علي امتداد الحافة المتربة للطريق الضيق المرصوف بالحصباء ، تماما كما كان الأمر عندما يذهب الى المدرسة ، مرورا بالمحطة، حيث تجلب القطارات من «كيولون» و «تريفاندروم» تجمعات من الباعة و النظارة ، عبورا بصفوف المتاجر ، حيث يقف أصحابها خلف واجهات زجاجية يعرضون بسكويتات بريطانيا ، وصابون لوكس ولايف بوي ، ومعجون أسنان كولجيت بالموليف ، شيكولاته كادبوري بالفاكهة والجوز ، وهنالك أيضا حوانيت جديدة تبيع تليفازات وفيديوهات وغسالات وأجهزة كهربائية خفيفة .

منذ غادر جين وبراكاش ازداد الإفقار فى ولايتهم تفاقما . لقد ذهبنا ذات يوم لزيارة مصنع ليف جوز الهند ، الليف يجئ من قشرة جوز الهند بعد نقعها في المياه مدة ثلاثة أشهر ، ثم تدق إلى الياف تغزل فى حبال ، النساء جالسات فرادى ، فى صف تستظل كل منهن بأوراق نخلة واحدة ، تسندها الأحجار وقد بيضتها الشمس فصارت رمادية شبحية . إن كل منهن تحمل مطرقة خشبية ، تأخذ القشرة الصلبة من المياه النتنة التى لينتها ، وتدقها علي سندان حجرى ، إنهن يكسبن ١١,٤ روبيه (حوالى ٢٥ سنتا) إن دققن ٢٠٠ قشرة صلبة إلى ألياف ، إن العديدات منهن يعملن وإلى جوارهن أطفال صغار ، البعض منهم يقلدون أفعال أمهاتهم ، يضربون الأرض بقبضاتهم . المياه ترش عصيرا طينيا كريه الرائحة في كل مكان ، وتتغطي أرجل النساء الممدودة ، وهن يعملن ، بقطع صغيرة من الألياف ، وبذا تبدو وكأنها غزيرة الشعر بصورة غريبة . وعندما تصبح الألياف معدة ، تمرر إلى عنبر التجفيف ، هنا يعمل الرجال فقط ، وهم يحصلون على أجور ضعف ما تحصل عليه المرأة ، وتجفف الألياف بماكينات هواء ساخن ، عنبر التجفيف ملئ بالغبار وقطع صغيرة من الألياف ، درجة الحرارة تزيد عن ٤٠ْم . سوريش ، الذي يعمل هنا منذ خمس سنوات ، يعانى من اضطرابات تنفسيه مزمنة ، ولايفارقه السعال ، إنه يقول أن الصحة ترف لايقدر عليه الفقراء ، الرزق والمعاش يدمران الحياة ، ولكن ماذا فى وسعه أن يفعل؟

وتلف الألياف فى حزم سائبة تحت أشجار النخيل ، وتقوم النساء بغزلها حبالا ودوبارا بواسطة عجلة غزل معدنية كبيرة تدار باليد ، يجب علي النساء أن يجرين بسرعة كبيرة بحزم الألياف ، والعجلة تجدله دوبارا متينا ، هذا العمل عمل مرهق ، ويدفع للنساء أجرا قدره ١٥ روبيه فى اليوم ، إن بعض الناس يجيئون إلى عملهم ، فى فناء ألياف جوز الهند ، من مسافة تبعد عشرة كيلو مترات أو أكثر ، إنهم يبدأون فى السابعة صباحا وينتهون فى الرابعة ، إن المنتج النهائى لعملهم يستخدم فى صناعة الحصير والسلال ، التى تصدر غالبيتها إلى روسيا وبورما وألمانيا .

إن عمال الأليـاف هم من بين أدنى العمال أجرا فى الولاية ، هنالك حوالى ٢٥٠,٠٠٠ يعملون فى هذه الصناعة ، إن عملهم يمكن أن يكون يسيرا باستخدام

الأوتوماتية ، غير أن كيرالا تعانى بالفعل من معدل البطالة ، عبر التقنية التى تتجاوز كثيرا أى توظيف للجيل المناظر ، ينظر جين وبراكاش إلى المشهد أسفل الأشجار فى صمت مهيب ، إن والدى الشابين بدءا عملهما من أفنية الياف جوز الهند فى شيرانيكيل ، عندما تركا المدرسة ، إن تجنيد البريطانيين لهما للعمل فى أرضية ميناء سنغافورة هو فقط الذى أنقذهما فى الخمسينيات ، ولولا ذلك ، ربما كان على جين وبراكاش أن يبدءا حياتهما العملية من هنا أيضا.

هنالك ، بين جماعات صيد الأسماك ، نفس قصة الإحلال التكنولوجى ، على امتداد ساحل «بحر لاكشادويب» من «بونديكرى» إلى «كانياكومارى» ، إن الطوف والقارب المحفور فى جذع الشجر التقليديين قد أصبحا غير اقتصاديين بسبب السفن الآلية لصيد الأسماك بالشباك ،والتى استنزفت مخزون الأسماك ، ومزقت البيئة البحرية الهشة للمنطقة ، لقد حرمت الحكومة ، بعد سنين عديدة من تنظيم ونضال جماعات صيادى الأسماك ، سفن الصيد بالشباك أثناء الرياح الموسمية ، غير أن الصيادين حل بهم الافقار بطريقة تدعو إلى اليأس ، بسبب عجزهم عن منافسة الصيد الآلى ، يقول تاجان الذى يعمل فى قرى الصيد ، أن القطاع الآلى ، فى الحقيقة ، هو الذى يتحطم أمام أساليب الصيد التقليدية ، إن سفن الصيد بالشباك سفن كثيفة الطاقة ، تستخدم قوة محركة متزايدة وقوارب أكبر حتى يمكنها تغطية المزيد من الأرض ؛ وكان عليها انقاص فتحات الشباك ، وبذا أُمسك بصغار السمك والقى به بعيدا ، ومن ثم فإنها تدمر صيدها المستقبلى ، «إن الصيادين التقليديين يعرفون ايكولوجية خط الساحل . وقد حذروا من أن الصيد بالشباك دون تمييز سوف يدمر الشعاب المرجانية الطبيعية فى كيرالا ، إن سفن الصيد بالشباك استثمار وليس مصدر رزق وعيش . لقد كنا نقيم حواجز صناعية فى السنوات القليلة الماضية ، إن الصيادين يعرفون أن الأشياء التى تسقط فى البحر ، تجذب الأسماك . لقد غرقت سفنية أثناء الحرب العالمية الثانية على بعد من «أنجنجو» ، وأصبحت بقعة للصيد ، إن الصيادين يفهمون أيكولوجية البحر العربى بصورة أفضل من خبراء علوم البحار، لأن هؤلاء الأخيرين قد تدربوا فى الغرب».

يقول تاجان أنهم يعملون من أجل اصلاح بحرى ، تماما مثلما يفعل المزارعون من أجل اصلاح زراعى ، إن البحر ينتمى إلى الصيادين ، وليس إلى الملاك الغائبين ، «إن التنمية التى تدفع بالنقود فى مجالات الانتاجية والفاعلية ، وتؤدى الى تسريح الناس من العمل واستنفاد الموارد ليست تنمية ؛ إنها غباء قاتل» .

تعيش العائلات المشتغلة بالصيد على الشاطئ عند حافة المياه ،عند البورامبوك»، على أرض مملوكة للحكومة قرب الشاطئ ، إن مآويهم تثير الرثاء ، شئ ما منسوج ببساطة من أوراق بيضتها الشمس ، تغادر القوارب فى الساعات المبكرة ، الثالثة أو

الرابعة صباحا، وتعود بعد ظهر اليوم التالي ، بصيد لايستحق ، في بعض الأحيان ، أكثر من ١٠٠ روبيه ، قمنا بزيارة قرية «فيتوكاد» ، التي تقع خارج حدود «بريڤاندروم» بالضبط، إنها قرية مسيحية واحدة من أغنى الأبرشيات في كيرالا ، إنها مكان للحج ، لأن بعض مرضى العقول شفوا هنا منذ أربعين عاما ، ويجلس في ظلال كنيسة الأبرشية المهيبة ، الشحاذون والمرضى ، إفريز من السكون ؛ وضراعة صامتة . كان كل هؤلاء يعملون في الماضي في صيد الأسماك ، غير أن البطالة الآن وافرة ، كان رجال هذه القرى يتعاطون الخمر بسبب ساعات العمل الطويلة التي يقضونها في المياه الباردة .وعندما كانوا يعودون إلى الأرض ، كانوا يواصلون شربهم للخمر ، والآن وقد ذهب عملهم ، فإن شرب الخمر هو الشئ الوحيد الذي يذكرهم به ، إن غذاء كثير من عائلات الصيادين الآن هو دقيق نبات «التابيوكا» ، والسمك دون المتوسط الذي لايستطعون بيعه ، إن الأسعار في السوق المحلي هي ٥ روبيه لكيلو الجزر ، ٣ روبيه لكيلو البصل ، ٤ روبيه لكيلو الباذنجان ، ٦ روبيه لكيلو الموز ، ٤ روبيه لحشيشة البراغيث ٢,٥ روبيه لدقيق نبات التابيوكا، غير أن الدخول الهابطة تستطيع بالكاد الوفاء بهذا الطعام الأساسي.

هنالك في الجوار مصنع هائل للتيتانيوم ، وهو أكبر المشروعات توظيفا في المنطقة . إنه يفرز حامض الكبريتيك في البحر مباشرة ولطخة صفراء أشبه بالغمامة تنتشر فوق سطح الماء ، حيث يجئ الناس بأطوافهم وشباكهم التي تتهرأ في المياه قرب الشاطئ ، وقد أدت محاولات النهوض بالقوارب بواسطة موتورات «ياماها» الخارجية ، لا إلى التحسين ولكن إلى المزيد من الوقوع في براثن الديون ، إن الموتورات في حاجة إلى الاصلاح الدائم ، وكمية الأسماك التي يجري اصطيادها لاتستطيع تغطية أقساط ديون البنك الخاصة بالموتورات.

عندما يتوقف المد والجزر ، تتشكل قشرةرمادية فوق الرمال ، وتغمر رائحة الكبريت المكان ، إن ربع وظائف المصنع محفوظة لأهالي المنطقة ، تعويضا لهم عن التلوث ، الأطفال يهرعون خارجا إلى الشاطئ ، ينشدون بالانجليزية «الحامض الحامض» ، ويخرج رجل من داره ويقول أن القلق من المياه هنا قد أصاب شعره بالمشيب فغدا رماديا.

هنالك مُلوث آخر من المصنع وهو مُلوث أشد خطرا ، إنه نفايات الاشعاع النووي ، إن تكنولوجيا هذا المشروع محرمة في بعض البلدان وخاصة في اليابان ، كانت هنالك عدة حالات من اللوكيميا في المنطقة ، ولكن لأن النشاط الاشعاعي غير مرئي والفقر واضح صريح ، فإن الناس ليسوا على استعداد للحض ضد المصنع ، إنهم يعيشون في ظل أكبر رعب خشية فقدانهم وظائفهم ، والتي تضمن لهم على الأقل بعض الدخل في هذا الشريط الساحلي الفقير .

هنالك سخرية تاريخية من أن الصيادين ، مثلهم مثل العمال الزراعيين المعدمين وعمال ليف جوز الهند ، وهؤلاء الذين يزيلون النفاية ، والذين يتخلصون من المواشى الميتة ، وعمال الجلود ، يظلون خارج نطاق الطبقية المتميزة ، إن وظيفة «المنبوذين» هى إدارة قاعدة الموارد بطريقة تغذى أسباب الحياة ، إن المولد الأساسى التلوث هم الأغنياء الذين يمتلكون سفن الصيد بالشباك ، والذين يصنعون الحبال والشباك الصناعية التى تحل محل تلك التقليدية المصنوعة بمهارة ،إن الذين سوف يصيبهم التلوث بسبب عملهم ، هم فى الحقيقة حراس البيئة ، إن «التنمية» تعنى سلبهم حتى من فرصة القيام بعملهم الأساسى .

إن سخرية هذا الوضع غير غائبة عن جين وبراكاش إن كليهما من عائلة تنتمى إلى «الإزهيفا» ، من المنبوذين سابقا ، والذين رفعهم سيرنارايان جورو، كانا متشوقين لزيارة نصبه التذكارى فى «الأروفيبورام» ، على نتوء جبلى يطل على نهر عريض سريع الجريان ، هنا شيد سيرنارايان معبدا للأزهيفا ، حيث كان البراهمة وحدهم ، هم الذين يتعبدون فيما سبق .

لقد تعلم الشابان فى زيارتهما البساطة التى يمكن أن تسقطهما فى ايقاعات طفولتيهما ؛ كما تعلما أيضا انه ليس لهما وظيفة فى اقتصاد كيرالا ، لقد أعاد المجتمع الصناعى الغربى تشكيل ادراكهم ، بطريقة تكاد تكون خلسة ، دون أن يكونا متنبهين إلى ذلك ، إنهما لايستطيعان العودة إلى كسل وبطالة المدينة الصغيرة الجميلة الكئيبة . لقد أعد كلاهما نفسه للعودة الى بريطانيا مصممين على كسب مايكفى من النقود ليكونا قادرين على العودة إلى الوطن بصورة دائمة - ربما خلال عشر سنوات أخرى- لبدء عمل صغير وايجاد مكان لهما وبناء بيت جديد.

واتسمت زيارات الأقارب بتيار تحتى قوى من الحزن ، زار براكاش عائلة زوجة أخيه . هنالك ثلاثة من الأبناء الخمسة ، يعملون فى الخليج ، والإبنة الوحيدة فى لندن ، إن أم شويلا تنظر إلى الفرح على شريط الفيديو مرة وأخرى ، حتى تستطيع أن تجعل ابنتها ، التى لم ترها منذ ثمانية أعوام ، قريبة منها الى حدما .

كان على براكاش أن يزور زوج أخته ، إنه يعيش فى مدراس ، وقد رفضوا منحه فيزا سياحية حتى يمكنه أن يذهب لرؤية زوجته وأبنائه فى لندن ، كان غير قادر على استيعاب لماذا اختارته الحكومة البريطانية منفردا لتوقع به هذا التمييز ، كان من الصعب أن يشرح له أن تلك هى سياسة الحكومة . وليست لامبالاة الأقارب ، إن قرارا تحكميا وغير صحيح اتخذه مسئول ، بأن هذا الزواج قد تم التعاقد عليه بغرض الهجرة ،قد قسا ليصبح مبدأ ساميا ، ونتيجة لذلك يجب أن يعيش الزوج والزوجة والطفل فى قارات منفصلة ، إن الطفل الأكبر فى السادسة من عمره الآن ، إن الزوج

عندما يجئ إلى موطنه فى شيراينكيل فى مدراس ، فإنه لايجرؤ على الخروج ، حيث أن كل إمرئ يود ان يعرف لماذا مازال هو فى الهند ، بينما زوجته وأطفاله فى انجلترا.

الوقت مساء حول معبد «ساركارا» ، مزار «ساركارا ديفى» ، طارد الشر. الفناء أرض مكشوفة ، وأشجار التين البنغالى بجذورها الهوائية المتلبدة ، قد غدت وردية بسبب انعكاسات الشمس على روابى شاهقة من الركام ، الناس يستحمون فى صهريج إلى جوار المعبد ، مياه باردة بلون النحاس فى الضوء الزائل ، وآخرون يقدمون قرابينهم من جوز الهند «والغى» * وخشب الصندل وزهور البوجينفيليا وأكاليل من زهور القطيفة والياسمين ، وتتحول أبنية المعبد ، مع تلاشى الضوء إلى لون الذهب فى شمس الشفق ، وتصطك أوراق اشجار النخيل فى الريح وتلمع كالفضة ، غدا سوف يخلع جين وبراكاش الدهوتى ، ويخرجان الحلتين من حقيتبيهما ، استعدادا للطيران، عودة إلى كولومبو ولندن .

صودر جواز سفر جين فى كولومبو ، وقال له الرسميون ، أنهم يشكون فى أنه مزور ، ولم يعاد إليه حتى وصل مكتب الهجرة فى «جاتويك» ، ثم سئل حينئذ أن يذكر اسم اقرب محطة سكة حديدية إلى منزله فى لندن ، واحتجزت الجمارك براكاش وقامت بتفتيشه ، شُقت حقائبه ومُزقت . كانوا يعتقودن أنه ربما يكون حاملا لمخدرات ما، وكان هنالك انتظار طويل مرهق قبل أن يسمحوا لهما بالذهاب إلى منزلهما ، وفى الصباح التالى ، يجب أن يكونا فى العمل فى السابعة والنصف ، إنه اليوم الأول فى السنوات العشر التالية .

---

* نوع من الزبدة الهندية (المترجم).

لاتوجد ، كما يبدو حالة مستقرة من «التنمية» ، أو «ما تمت تنميته» ، لم تحدث فيها عمليات الطرد والاجتثاث التى رأيناها ، إن عملية تكوين الثروة ، هى حرب مع الاستقرار والأمن والكفاية ، إن أغنى البلدان ، بعيدا عن كونها مستثناه من أعمال الإقامة المؤقتة تلك ، تشكل موقعا لبعض من أكثر حركات الانتقال والاضطرابات قسوة. إن نفس العمليات القاسية تمزق وتشوه الإنسانية هنالك ، وهى تطرد السكان الأصليين من مواطنهم فى «الجنوب» ،وترسل بأطفال المزارعين ليحتلوا أرضا بوضع اليد فى الأحياء المكتظة القذرة فى المدينة ، إن الفرق الوحيد هو أن ضحايا التنمية فى العالم الغنى ، لم يعتادوا رؤية أنفسهم على هذا النحو ، إنهم يرون أمامهم عذابات فقراء الأرض ، والذين ينتظر منهم دوما أن يكونوا ممتنين لعملية التوزيع تلك ، والتى وفرت لهم مثل هذا المصير ، ربما كان هذا هو السبب فى لماذا جعل الناس فى الغرب ، الضرورة الاقتصادية مسألة داخلية ، لقد تعلموا تعريف صعود وهبوط الانتاج ، بارتفاع المعنويات ومايصيب القلب الإنسانى من هبوط؛ إنهم نادرا مايفرقون بين نشاط الأسواق وانبساط أرواحهم ، إنهم يبذلون جهودا بطولية ليطالعوا سعادتهم الخاصة فى أسس النجاح الاقتصادى ، حقا لقد أصبحنا فلاحين -تكنولوجيين ، ولم نعد نرى اشارات ودلالات لحياتنا فى السماء وفى الأشجار وفى النجوم ، لكننا نسعى بطريقة تقوم على الخرافة إلى الخلاص ، وأن يكون لحياتنا معنى فى التكنولوجيا ، والتقدم ومستويات أعلى من الإستهلاك .

لقد تمت خصخصة عملية ابعادنا ونقلنا ، أى يمكن القول ، أن الاحساس بالعجز والألم والعنف ، والذى هو جزء جوهرى من تجربة ملايين الناس فى الغرب ، لايمكن ذكره كما أنه لاسبيل أمامه الى المعرفة العامة ، إن تلك الأشياء يجب أن تجد لنفسها حلاً فى اطار المحيط الضيق لحياة الأفراد ، إن الأخطاء المحددة اجتماعيا تبحث عن علاج لها عبر مهرب خاص ، والذى يساعد ، دون أدنى شك ، على تفسير ممارسات الإدمان وانهيار العائلات ، ووحشة ووحشية المجتمع الغربى ، إن المليون شخص فى سجون الولايات المتحدة والـ ٢٨ مليون جريمة المبلغ عنها عام ١٩٩٠ ، والجوابين بلا مأوى فى مداخل وسط المدينة المهجورة المغطاة بألواح من خشب؛ والعشرة آلاف الذين يموتون سنويا من جراح طلقات الرصاص - اصابات مميته لحرب غير معلنة ضدالفقراء - لاتُرى البتة كما يجب أن تُرى ، إنها بالطبع جزء مرئى صغير من التكاليف الظاهرية للتنمية ، غير أنها تُقدم إلي مواطنى الغرب وكأنها نتائج أفعال أفراد أصابهم الخلل أو الفساد ، كل هذا العدد العديد من الأفراد أصابهم الخلل! إن للتدليل الغربى للأفراد ، والذى يحتفى به ، غرض آخر : إنه يهدف إلى جعل الناس

تمتص ، وبصورة لا نهائية ، أعمال القسوة والوحشية والعنف التى يبتلون بها باسم «التنمية» ، رغم أنها لاتسمى هكذا محليا فى البلدان الغنية ، إنها تسمى النمو الاقتصادى أو خلق الثروة أو التقدم أو تحقيق الثراء.

إن عباءة الامتياز الملطخ المضطرب ، تخفى عن الشعوب فى الغرب قرابتها بهؤلاء الذين فى الجنوب ، تخفى التماثل والتطابق الأساسى فى تجربتهم اليومية ، إن لخشية فقدانهم مالديهم جانب آخر ، إنه الشوق إلى التحرر .

باكورة التسعينيات

إننا نرى فى بريطانيا ، «هزة» عمل للمرة الثانية خلال عقد ، إن العديدمن العاطلين فى هذه المرة ، هم نفس الناس الذين «حددوا لأنفسهم سعرا فى وظائف» ، هى ذات وظائف الخدمات التى تم الوعد بها باعتبارها خلاصا لهؤلاء الذين اجبروا على الإنحناء أمام ضرورات التكيف الهيكلى فى أوائل الثمانينيات ، هنالك هذه المرة ، على أية حال مجموعات جديدة أيضا تطرد من سوق العمل ؛ إن علاقة هؤلاء بضحايا الموجة المبكرة، لمن كانوا زيادة عن الحاجة أو عانوا عدم التوظف ، علاقة هامة.

لقد رأت أوائل الثمانينيات فقدان جيل من عمال الصناعة الثقيلة للوظيفة والهدف ، كانت تجربة مدمرة وقارضة لهؤلاء الذين غدوا مكتئبين ومسنين قبل الأوان ، إنهم يستيقظون فى الصباح الباكر وهم يرشحون عرقا ، لأنهم قد نسوا للحظة أنه لم تعد هنالك معصرة يذهبون إليها ، وأن المصنع قد غدا موقعا لمعدن فاسد أو آجر مطحون ، لقد قتل بعض هؤلاء الناس أنفسهم ، إننى أتذكر عائلة أحد الرجال فى لانكشاير ، التى أرتنى المذكرة التى تركها ، سطور قليلة يعتذر فيها ، عن كونه زائدا عن حاجة النظام الذى نبذه . ورأى آخرون فشل زيجاتهم ، وذوبان روابط القرابة والمودة ، وانغمس البعض راضيا فى عزاءات الكحول السامة ، والمرض والانحلال والتحلل البدنى . كان وقتا قاسيا ،عندما استبدل الناس وطُردوا عنوة من أساليب مستقرة للحياة ، بدت لهم حتى ذلك الوقت وكأنها تضمن لهم مكانا دائما فى المجتمع الصناعى.

إن العديدين ممن هم الآن زائدين عن الحاجة ، كانوا قد جندوا فى الستينيات «للمجتمع الراعى» ، والذى كان ينظر إليه ، فى ذلك الوقت باعتباره ضمانا بأن الوحشية القديمة لفقر وبطالة عامة الشعب لن تحدث ثانية ، وأنه يقينا لن يدمر جيل بأكمله كما حدث فى الثلاثينيات، كان دورهم ، كما تصوروا ، هو ابراء وتلطيف إصابات المجتمع الصناعى الميتة ، إن هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم محرومين من الوظيفة ، فى العقد الأخير من القرن ، هم أناس موجودون فى العمل الاجتماعى والتعليم والعمل الخيرى والخدمة الصحية والإدارة العامة والتخطيط والهندسة المعمارية. وكان العديدون منهم يؤمنون ، دون أدنى ريب بخلق عالم أفضل ، لايمكن انكار مهارتهم فى تحقيقه.

إن ماجعل العلاقة بين المجموعتين أكثر حدة ، هو أن العديد منهم ، كانوا من أبناء العمال الصناعيين القدامى ، وقد رأوا أنفسهم يخلدون قيّم دولة الرفاهية ، التى جاهد أباؤهم من أجلها بألم وتضحية كبيرين ، والذى أدى غيابها إلى جعل حياتهم – وخاصة حياة النساء– قاسية وشاقة بطريقة لاداعى لها .

كان العمال المهنيين ، خلال الثمانينيات ، والذين هم الآن مهمشين ، قد غدوا بالفعل ساخطين أكثر فأكثر من الإفراط فى الأمور اليقينية لليبرالية الجديدة لحكومة المحافظين ، والتى كانت عن الحفاظ وعدم التفريط ،والتى بدت لهم أنها عن لاشئ لكنه كان زمن التغيير العنيف الاضطرارى ، إن ازدراءهم الأصلى لسياسات تاتشر قد تحول عاجلا إلى شك وريبة ، وفيما بعد إلى غضب ، وأخيرا إلى نوع من الاستسلام بلا إحساس ، لأمر لامفر منه ، كان زمنا تصالح فيه المتقزز من «تونبريدج ولز» مع النظام الاجتماعى ومع الراضيين عن «تونبريدج ويلز» ؛ وأخذ مكانه أو مكانها المتقزز من «كامدن تاون» أو «إيست دولويش» ، كان يفزعهم على الدوام ، البيان الأخير للسياسات ، والتخفيضات الأكثر حداثة فى الانفاق العام ، وآخر ما انبثق من ألوان فكر السوق الحرة ، لقد صدموا ، فكل ماحدث كان مخزيا : «إننى لا أستطيع تصديق حدوث هذا» ، إنهم يتشبثون بمجموعة من القيم الأخلاقية القديمة والتى تم هجرانها ، وهم غير قادرين على التلاؤم مع خشونة وقسوة السوق الحرة التى رد إليها اعتبارها ، إن تجربتهم كانت على نحو ما تكرارا لتلك التى مرت بها مجموعة اجتماعية مختلفة تماما ، وهمشت فى الخمسينات والستينيات ، أبناء الإمبراطورية العائدين ، هؤلاء الذين قضوا سنوات موغلة فى القدم فى بحبوحة «شلتون هام» أو«توركواى» ، والذين ينوحون بطريقة شعائرية على الانحدار الطويل والمناظر الاجتماعية غير المفهومة التى حلت ببلدهم الذى أحبوه .

غير أنهم مهما كانوا مذعورين خائفين ، فقد احتفظوا غالبية الوقت بوظائفهم خلال الكساد الأول من العقد . وقد وجد الكثيرون منهم أنه من المؤلم الآن بطريقة لاتحتمل ، عودتهم إلى آبائهم المسنين والاعتراف بأنهم ، هم أيضا ، قد غدوا زائدين عن الحاجة ، ومن ذات الوظائف التى كان ينظر إليها باعتبارها ضمان أمن لم تعرفه أسرهم البتة من قبل ، قد يكون هنالك احساس بأنه كان يجب عليهم أن يكونوا مسلحين بطريقة أفضل فى مواجهة التجربة ؛ غير أن الكثيرين منهم بالطبع (أقصد منا بالطبع- إذ ليس هنالك معنى فى الإدعاء بوجود مسافة مفتعلة من شئ يؤثر فىّ تأثيرا شديدا للغاية) آمنوا بأننا قد اخترنا ألا نشارك ، وقبلنا مايقدمه أجر الوظيفة المخزى من عزاء، رغم أن ذلك بدا منفصلا بصورة غريبة عن الإحساس بالهدف السامى الذى دخلنابه. لقد تراجعنا ، فى اضطراب إلى الحياة الخاصة، معلنين التقزز من السياسة ، والنفور من أفكار التقدم الاجتماعى ، وغير قادرين على فهم لماذا المجتمع الراعى ، الذى آمنا به ، يجب أن يكون محفوفا بالكثير للغاية من العنف والوحشية ، والكثير للغاية من أشكال الإدمان ، ودمار روابط القرابة والجيرة ، ورغم أن ذلك كان أمرا كريها بالنسبة لنا ، إلا أن التمسك بأفكار التحسين ، فى أى مجال غير مجال الاقتصاد ، بدا مسألة تافهة. أى أننا بطريقة ما قد سلمنا بالفعل وبطريقة سرية بصحة قضية هؤلاء الذين مانزال نعتقد أنهم خصومنا .

إن آمن الوظيفة الواهى غير المستقر ، قد أُكتُسح الآن أيضا ، إن العديد من هؤلاء العاطلين الآن هم من الأربعينيات والخمسينيات ، وهم محبطون ومكتئبون ، مثلما كان العمال الصناعيون فى أوائل الثمانينيات (قال أبناء الأربعين حينذاك ، لن نعمل البتة ثانية ، وقال لى واحد فى السابعة والثلاثين عام ١٩٨٣ ، «إننى فوق كومة من الخردة») هنالك القليل من الفواجع (فضلا عن الإصابة والمرض) التى يمكنها أن تحدث للبشر وتكون أسوأ ، من فقدان الوظيفة ، خاصة عندمايعرفون أن ماكانوايفعلونه ، كان له قيمة اجتماعية – وكان العمال الصناعيون القدامى يعرفون أن حياتهم كانت مربوطة بصناعة الضرورات المادية ؛ تماما مثلما يعرف الزائدون عن الحاجة الآن ، أن اهتمامهم كان منصبا على القيم الإنسانية وعلى إبراء ومساعدة الضعفاء ، ومن هم عرضة للهجوم ، إن انتهاء مثل تلك الآفاق من الطيبة الواضحة والمنفعة إلى التحول ، كى تصبح غير ملائمة للإستنزاف الهائل لخلق الثروة ، إنما يمثل تجربة عميقة الندوب، لقد قابلت فى أوائل الثمانينيات ، العديد من الناس الذين سلبوا من أهدافهم . لقد أغلقوا ، فى خجل ، الأبواب الأمامية لمنازلهم المتواضعة ذات الشرفات ، وجلسوا إلى جوار نيران الجاز التى تحولت إلى اختلاجات فاترة فى الحجرة الأشبه برقعة الداما ، عاجزين عن إدراك لماذا يجب على أناس مثلهم ، درسوا العمل وتدربوا عليه ، أرجأوا المسرات وقللوا من الأفراح ، أناس لديهم القليل للغاية ، لماذا يجب عليهم أن يظلوا ، رغم كل شئ مؤهلين للحرمان من شئ حيوى للغاية فى هذه الفترة المتأخرة من حياتهم.

إن معرفة أن مجتمعنا قد أخذنا واستخدمنا ثم نبذنا ، مازالت تبدو لنا كالصدمة. لقد تلقينا تعليمات ذات سطوة الزامية من أجل توفيق طاقات الناس ، تملقهم ومداهنتهم طالما هنالك حاجة لهم تيسيرا لفترات الانتقال الاجتماعى الثقيلة والعنيفة ، تم طردهم عندما لاتكون هنالك حاجة لخدماتهم ، أو عندما تكون اللحظة الانتقالية الخطيرة قد مرت .

إن هذه التجربة ليست جديدة كلية ، بالنسبة للبعض منا ، إن لها فى الحقيقة ، دالة خاصة ، عندما كنا فى الجامعة ، مثلا فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات ، كان كونك طبقة عاملة فى ذاته مسألة عصرية للغاية ، كانت مسألة تلقى الترحيب والحث حتى نسلى أقراننا بصور من الحياة الشمالية ، كانت مسألة من أجل افراز غشاء من الرونق يجده هؤلاء الذين ينتمون إلى طبقات إجتماعية أكثر سموا ، غريبا ومرغوبا – الأمر الذى لم نكن قادرين على تفسيره حينذاك . إنه شكل من أشكال المداهنة والتملق، شكل هو الأفضل لامتصاصنا وتحييدنا ، وربما لربطنا بطريقة أكثر أمنا بنظام يمكن أن نظل فيه ، مثل أسلافنا من الطبقة العاملة المعارضين ، مبعدين بطريقة لايمكن تفاديها .

تزايد الشعور فى الستينيات بأننا نحظى بالتقدير الاجتماعى ، وذلك عندما أصبحنا مدرسين وعاملين فى المجال الاجتماعى ، كان الناس غالبا مايقولون لى فى ذلك الوقت، «هل أنت عامل فى المجال الاجتماعى؟ إننى أعتقد أنكم أناسا رائعين إننى بالطبع لا أستطيع فعل ذلك بنفسى ، ربما أكون حساسا للغاية لكننى معجب بما تفعلون»، لايمكن أن يكون هنالك تناقض أكبر من ذلك ، مع الاستنكار العام وأعمال الإذلال التى يتعرض لها العاملون ، الآن فى المجال الاجتماعى بفعل السياسيين المحافظين والصحافة السيارة .

وقد أُلحق الخزى والعار ، منذ ذلك الحين ، بالطبقة العاملة والمجتمع الراعى ، وغدا كل من اصطبغ بعلاقة مع أىّ منهما ، بعيدا بعمق عن النمط الحديث.

وربما بدد اضراب عمال المناجم ، أكثر من أى حدث آخر ، أى رونق مازال متبقيا ؛ إن الطبقة العاملة ، أو بالأحرى مابقى منها ، قد اثبتت مرة اخرى أنها الحشد العنيف المشاكس الممزق ، والذى كان قد ظهر فى الحقبة الصناعية المبكرة ؛ لقد عادت الى النموذج ، وماذا يمكن أن يكون اكثر وضوحا من سقوط العاملين فى المجال الاجتماعى، والذين يلامون الآن عن كل الأمراض الاجتماعية ، التى فكروا هم أنفسهم، فى زمن أكثر براءة ، إنه فى وسعهم شفاءها؟

غير أن ذلك لم يكن هو ختام القصة .ففى نهاية الستينيات وأوائل السبعينيات كان من الممتع باختصار ، أن تكون مرحا ، وقد أُخذ هؤلاء الذى كانوا منا فى تلك الأقلية والذين يعرفون كيف يُضحكون ويُسلون ، كرموز لليبرالية - الناس الآخرين ، كانت تلك فترة قبول قصيرة الأجل ، وكان السقوط من الحظوة أكثر مفاجأة لنا من طردنا من أىّ من المجموعات الجذابة المبكرة ، وقد عجل بهذه العملية ظهور الإيدز ، وإعادة تأكيد الطقوس الذكورية ، والتى وجدت اسمى تعبير عنها فى صناعة ايقونات البطولة الذكرية لحرب الخليج .

كانت هنالك تجربة أخرى استدعت توظيف طاقاتنا مرة ثانية ، كانت تلك التجربة خلال الثمانينيات ، خلال الفورة الأولى للتاتشرية ، عندما بدت وكأنها مرحلة الانتقال التى شرع المحافظون فى مباشرتها بمثل ذلك الاستمتاع المتبلد، والتى سوف تكون وعرة بصورة واضحة ، كان ذلك هو زمن الزيادات عن الحاجة ، الزيادات اليومية الكبيرة ، والاضطرابات داخل المدن ، كان هنالك احتمال واضح ، أنه يمكن لكل هذا أن ينتهى إلى عنف وكارثة . لقد كنا مفيدين ذات مرة ، ليس فقط فى امتصاص حمولة العمل المكثفة الملقاة على هؤلاء الذين يعملون منا فى الخدمات الصحية والاجتماعية : وكان رؤساؤنا أيضا حريصين على معرفة أى شئ يمكن أن نقوله عن تكوين طبقة أدنى دائمة ، كانوا يخشون إنفصالها عن المجرى العام ، كان من الممكن فى ذلك

الوقت الكتابة عن الفقراء والتحول الذى يغير إدراك الطبقة العاملة الناجحة ، كنا نمتلك شيئا هم فى حاجة إليه ، وكان ذلك الشئ هو المعلومات ، وتقييمنا العمل الذى يرقد أمامهم والمقاومة المحتملة التى يمكن توقع مقابلتها .

غير أن التحول اكتمل الآن ، وتم التغلب على اللحظة الثقيلة المثيرة للإرباك ، لن يتهاون النظام القائم بعد الآن ، لقد قُهر البديل الوحيد وطُردت الأرواح الشريرة . ولم تعد الاشتراكية موجودة فى جدول الأعمال محليا وعالميا، السوق له السيادة العليا ، فقد ربح الغرب .لم تعد هنالك حاجة للشقاق والخلاف ، ومن ثم فقد جاء زمن الاسكات والتهميش والاقصاء من العمل ، لقد أصبحنا أشخاصا مبعدين تماما من الحسبان ، عن طريق أكثر أشكال القمع رقة وعنفا ، بحرماننا من وسائل عيشنا .

كان لأعمال الطرد تلك ، المتعددة والمتكررة ، تأثيرها التراكمى؛ لطمات متكررة للإحساس بالجدارة والقيمة ، وانكار للمهارات ، ونبذ للفراسة والطاقات ، ربما ، كنت أكثر حظا من الكثيرين ، حيث كنت قادرا على العثور على قوة كبرى ودعم كبير فى نضالات العديدين فى الجنوب ؛ لم يكن ذلك شكلا من أشكال الهروبية من مشاكل مجتمعنا الأكثر صعوبة وقتامة ، ولكن كان ذلك تحديدا بسبب الأشياء المتطابقة والمتشابهة لما اعتدنا ممارسته هنا ، فإن وجد الآن نظام عالمى واحد فقط نُشكل نحن جميعا جزءا لايتجزأمنه ، إذن يجب علينا أن نتوقع رؤية نقاط التقاء وتطابق وأصداء لنفس التجربة عبر ثقافات ومناطق وأجناس العالم ، وذلك هو مايحدث حقا . الناس فى كل مكان يزاحون من بيئتهم ، يزعجون فى سبل حياتهم المستقرة ، وبذات العمليات التى سلبتنا أيضا من الأمن والتواصل ، إن السكان الأصليين ورجال القبائل والغابات يطردون سعيا وراء قاعدة مواردهم ، التى يبتغيها اقتصاد سوق يلتهم كل شئ حتى يكسب عملة أجنبية ، إن المشاعات البشرية فى الغرب، هى التى طُوقت وخُصخصت وبيعت لنا مرة أخرى باعتبارها خدمات ، وبينما يحدث ذلك ، تم اكتساح دعم ومساندة الجيران وروابط الدم والقرابة ، هذا هو السر الصريح لعلاقتنا بأطفال مزارعى الأرز فى تايلاند ، والمطرودين المقيمين على أرض المشاعيات فى الهند ، ومجتمعات صيادى السمك فى ماليزيا أو كيرالا ، إن القوى الاقتصادية نوع من جيش احتلال عالمى ؛ وعلينا جميعا الإنحناء لما يقوم به من قسر وإكراه .

لقد غدا عدم وجود أى أيديولوجية شاملة تعارض أنماط التنمية التى تتمتع الآن بالحرية ، والتى تُملى على العالم أجمع ، مصدر تهنئة ذاتية كبرى ، وهذا يعنى أنه يجب الآن التسليم بالأيديولوجية السائدة ، حقا إنها تملؤ «كلية» الفراغ الذى خلقه غياب البدائل ، يجب أن يكون نظام السوق هو الوسيلة العالمية لخلاص كل شعوب الأرض التى تعانى ، سواء أحببت ذلك أم لم تحبه ، ولا تهم أى انقطاعات عنيفة ، أو أى ممارسات غير قابلة للتواصل ، أو أى نتائج مدمرة يمكن أن تأتى بها فى مجراها .

اقد رأينا بالفعل بعض آثار هذا فى الغرب لقد رأينا فى الستينيات والسبعينيات مجالات الخبرة الإنسانية ، والتى كان ينظر إليها من قبل باعتبارها بعيدة عن متناول نظام السوق ، وقد غدا فى الإمكان تحويلها إلى خدمات وسلع يمكن تسويقها ، حقا إن المهن الراعية نفسها قد حددت طريق الاقتصاد النقدى للأشياء ، التى كان يقدمها البشر دوما ، كل للآخر ، بلا مقابل ، كانت الثمانينات هى العقد الذى أظهر أن الأشياء غير القابلة للتسويق ، أشياء لاقيمة لها ، وتسير التسعينيات قدما ، ويظهر فيها ، أن ماهو غير قابل للتسويق ، لاوجود له ، إن سلطة السوق ، بلا رادع ولامقاومة ، تغدو حكما غاشما مثلها مثل أى تركيز آخر للسلطة ، حقا ، ليس هنالك من مصدر للمقاومة الأخلاقية ، مصدر قوى بما يكفى لينازعها هيمنتها على المجتمع ، وذلك تحديدا بسبب أنها السمة الأكثر دينامية وقوة فى حياتنا ، وقد يكون الشعار الأسمى الظافر المعبر عن نجاحها هو مجمع متاجر التسوق ، والذى تسعى الآن كل المؤسسات الاجتماعية للتواجد بقربة ، ومن ثم غدت المدن قاعات بضائع ، يسكن بالمصادفة ناس فى الجوار منها . والمطارات مراكز تسويق ، تعلو فيها من وقت إلى آخر نداءات الطائرات، والمستشفيات منافذ تراخيص حيث يبرأ الناس عرضا أو لايبرأون والكنائس بازارات يتعبد فيها الناس أحيانا .

إن حركة الناس التى لاتتوقف عبر العالم كله ، وأعمال الطرد والإزاحة والنقل تجرى كلها باسم اقتصاد السوق ، الذى يشكل الآن تمديده وتوسيعه المشروع الوحيد الخطير على الأرض ، إنه يمثل استعمارا مترامى الأطراف ، أو إعادة استعمار ، يلقى بظلاله على كل أعمال القهر السابقة ، هذا هو سبب أن مصير عامل المناجم السابق فى القرية التى توجد بها حفرة استخراج المعادن الجرداء العاطلة ، هو نفس مصير العائلة القبلية ، لقد أجبروا على ترك موطنهم ليقيموا فى الأماكن القذرة المكتظة كريهة الرائحة فى بومباى ومانيلا ، إن مجتمعات صيادى السمك التى أُزيحت من «لانجكاوى» أو«جوا» تتعرض لنفس القوى التى جعلت الأسر بلا مأوى فى «برونكس» أو«هاكنى» ، إن هؤلاء الموجودون أسفل كبارى لندن أو باريس بنيرانهم وزجاجات شرابهم هم أخوات وأخوة للذين هم أسفل طرق السيارات فى «ساوباولو» و «مكسيكوسيتى» ، حقا كلما اتسع منطق السوق ، فإن الناس فى «بومباى» أو «سيول»، سوف يتنافسون على العمل والمال مع اناس مارسيليا أو نابولى أو حتى موسكو ، يجب علينا أن نتوقع رؤية فروق غير واضحة بين العالم الأول والعالم الثالث .

طالما بقيت خبرتنا متقطعة وغير متصلة ، فإننا سنظل عاجزين وبمفردنا ، وغير قادرين على تحديد معاناتنا المشتركة ، دعك من العمل معاً ضدها . ومع ذلك فإن هذا هو السبب فى أن تصبح تلك الأوقات أقل عتمة مما يمكن أن تظهر به ، إن الكثير للغاية يصبح أكثر وضوحا رغم جهود هؤلاء الذين يجعلون تجربتنا ، بالنسبة لنا ،

مسألة عويصة لايمكن إدراكها ، هؤلاء الذين يروجون للتفكك و يطلقون عليه التعددية ، ويشرفون على نشر الضعف والعجز ويطلبون منا مباركته باعتباره أعلى حرية .

إن إرتفاع المستويات المادية للحياة فى الغرب ، عبرنصف القرن الماضى يخدم ، أيضا ، أغراضا أخرى غير رفاهية الناس ، إن الرخاء النسبى هش على الدوام ؛ وهو يغطى ، كما علمتنا تجربتنا ، عمليات الإفقار والفقد فى مجالات أخرى غير الاقتصاد ، وبينما نتعلق نحن بشدة بما نحن فيه من امتياز ، وعالم فقير جوعان قفر ينظر الينا مؤنبا عبر المرآة وحيدة الاتجاه لشاشات تليفازنا ، فإننا أيضا عرضة لأعمال تجريد متعددة ، وتحديدا فى الحياة الخاصة ، التى نؤمن أننا ترجعنا إليها ، باعتبارها الملاذ من المجال العام الذى يغدو بصورة متزايدة غامضا ومصدرا للتهديد وخارج نطاق تحكمنا.

إننا كلنا ، إلى حد ما ، ضحايا التنمية ، إن الحكمة تجئ من معرفة الحد بين الأخطاء المحددة اجتماعيا والشرور الجارية والتى لايمكن تصحيحها ، وقد غدا هذا الحد حدا غامضا فى المجتمعات الغربية الثرية ، حيث يفترض فى الأفراد أن يتحملوا مسئولية ، ليس فقط قبل أعمالهم الخاصة ، ولكن أيضا قبل الشرور التى تنتج اجتماعيا ، مثل الفقر والبطالة ، بل وحتى قبل كل *الشدائد التى تجئ بها الحياة ذاتها*، إذ يعتبر الآن ، واجبا على الفرد ان يراعى المرض والتلف والشيخوخة والإصابة بالعاهات والتى غدت فرص كسب وتجارة للآخرين .

هنالك تناقض ظاهرى ، فى أن جزءا من عملية «جعل الاقتصاد خارجيا» والتكاليف الاجتماعية للتنمية كان يتم من خلال أشكال «تستهدف جعلها داخلية» : أى يمكن القول ، أن الأفراد وخاصة النساء قد تحملن بصورة مستترة ومنفردة أحمالا يصعب وصفها ، من العار الاجتماعى والخزى والندم . إن تلك ايضا فى حاجة لحسابها قبل أن نستطيع القيام بأى تقييم واقعى للمكسب والخسارة ، للمنفعة والجزاء ، للربح والإفقار ، فى حياتنا.

لقد استدعتنى أمى مرات عديدة إلى فراش موتها خلال العشرين سنة الماضية حتى بدا مماتها ، وأنا غائب عنها ، أمرا لايتصوره العقل ، لقد سمعت صوتها مرات بلا عدد، «تعالى سريعا. إننى فى حاجة إليك ، إننى أموت ، إنها النهاية» ، وكنت دوما أذهب اليها طائعا . وكانت تنسى فى بعض الأحيان أنها استدعتنى ، فتنظر إلىّ وكأنها تقول ، «أنت عادة لاتحضر أيام الأربعاء هل هنالك خطأ ما؟».

كنت فى «أوتار خاند» فى الشمال عندما ماتت ، وقوى إحساسى بأننى هجرتها من خلال ماسمعته من نساء سفوح جبال الهيمالايا ، لأنهن قلن إن الرجال هم دوما من يغادرون ، إن الرجال يذهبون من المزرعة أو القرية أو الغابة الهامشية إلى المدينة ، إن

مـايُقدم عادة باعتباره مشروعا ذكريا وإقداما ذكريا تراه النسـاء بطريقة مـختلفة ، إن الرجـال يهزمـون بصـورة أسرع ، أنـهم لا يقفون صـامدين يقاتلون الحـرب اليومية التى تشن ضد الفقراء على مستوى قاعدة الموارد والموطن المألوف .

كانت أمى ، مثل نساء أوتارخاند ، ولكن فى سياق مختلف تمام الاختلاف ، لقد بقيت ، تحملت وتغلبت على تدمير حياتها، التى أنقذت منها بعض من كرامتها ، ببطولة حقة.

كانت أصغر اثنى عشر طفلا ولدوا مابين عامى ١٨٨٠ و ١٩٠٥ ، حيث كان مجال الاختيار الفردى فى شوارع الطبقة العاملة محدودا ، حول مصانع الأحذية فى مدينة «ميدلاند»، لقد اشتغل جميعهم فى المصانع ، وأخذوا كلهم شريكات حياتهم الزوجية من العائلات المجاورة ، وقد قالت أمى فيما بعد ، فى تعجب ، «لقد اعتقدت أنك ما أن تتزوج حتى يتحقق ماكان مطلوبا. أنتما لم تتوقفا لتتعرفا إن كنتما ستتقدمان معا»، الزواج يفرض أدوارا، الزوج الطيب يعطى زوجته كل نقوده ولايشرب الخمر ، والزوجة الطيبة تظل فى المنزل ، وتصنع الوجبات من العظام وأعشاب الطعام. يقينا ، لم ينظر أحد بعيدا بحثا عن شريك خارج الوطن ، إن ثقافة الطبقة العاملة كانت منظما هائلا للزيجات .

وسرعان ماتعلمت . لقد أحبت القراءة دوما ، وسمح لها زوجها ، الذى لم يقرأالبتة كتابا ،بأن تقرأ له ذات ليلة ، علمت نفسها بنفسها ، فقد تركت المدرسة فى سن الرابعة عشر ، إنها تعرف مقاطع طويلة من ديكنز وجورج اليوت والشعر الفيكتورى ، إلا أنها كانت تختار قراءة «قادم عبر الجودار»* ، وعندما نظرت إليه لترى أن كان يستمتع بما تقرأ ، كان قد سقط نائما ، فقالت «لقد أدركت حينذاك كيف يمكن أن يكون الزواج موحشاً» .

لكنه لم يكن موحشا ، كما سيصبح فيما بعد ، لقد كان يعمل جزارا قبل الزواج ، وافتتحا دكان جزار على أرض خاصة جديدة عند طرف المدينة ، إلا أنه لم يكن يحب التقيد بمكان ، كان يرغب فى الحركة ، فعمل سائق لورى يحمل الآجر من مواقع صناعته فى «بيدفورد» إلى كل أنحاء ميدلاند، كان رجلا جذابا ؛ الصور تبين شعرا مجعدا ، يلمع بالكريم ، وابتسامة مغرية ملفوفة حول سيجارة تتدلى دوما من ركن فمه؛ ووردة فى عروة سترته ، وأخذ يطيل غيابه ، أياما وأسابيع فى كل مرة ، إن ما أشارت اليه أمى باعتبارها «محبوبته» ، كان قولا مغاليا : كانت اللقطات تبينهما عاديين للغاية، حتى إن كانت واضحة صريحة بكل مافى الكلمة من معنى ، كانت تقول عنهما ، «كانت

* نبات كالشعير (المترجم)

شقراء مفرقها أزرق بلون البحرية» . لقد أجهضت فى أوائل زواجها ، ولكن لم يحدث حمل آخر .

جاءت إليها أختها فى أوائل عام ١٩٣٨ ، وأخبرتها أن سيارته اللورى كانت تقف خارج عيادة الطبيب ، كل ليلة مدة أسبوعين . لايمكن فعل شئ فى هذه المدينة لايلحظة الآخرون ، المجتمع يفرض النظام والامتثال ، ويمد رعايته الوقائية فقط لهؤلاء الذين أذعنوا لرؤيته الجائرة لما هو صحيح وما هو خاطئ ، لقد حقق مهارة غير عادية فى استكشاف مخالفات السلوك خاصة إن كانت جنسية ، كان سيد مريضا ، لشهور كما يبدو ، كان يذهب بانتظام يصطاد ارانبا فى غير أرضه ، يملؤ منها كيسا ، وكانت أمى تبيعها فى المتجر ، من أجل زيادة محدودة من النقود ، كان يقول لمن يسألونه عما حدث له ، أن أرنبا مريضا أصابه بالعدوى.

غير أنه كان الزهرى الذى بلغ المرحلة الثالثة ، لقد أمكن تشخيصه مع الوقت ، كان هنالك تلف فعلى فى أنسجة سقف الحلق والأنف، إن العلاج طويل وفعال ، ويستغرق سنوات عديدة ، كانت حقن الزرنيج والزئبق موصوفة له كعلاج يومى ، وكانت أمى فزعة أن يكتشف أحد ذلك ، إن معاشهم سوف ينتهى لأنه لن يكون فى وسعه العمل بعد ذلك ، كانت تفرغ كل يوم جرادل المخاط والفضلات التى يفرزها ، وقد ظلت الرائحة الخبيثة فى منخريها حتى نهاية حياتها ، وكانت تعمل فى ذات الوقت فى المتجر ، وتتبادل هى ونساء المنطقة ، الطرائف والأقاويل.

كانت فى الثلاثينيات من عمرها ، وكان الجماع الجنسى مع زوجها مستحيلا ، إن لم يكن قد توقف بالفعل ، وبدا لها أنها سوف تظل بلا أطفال ، وفى أحد الأيام ، والشمس مشرقة ، وبينما كانت تقف تغسل فى بالوعة المطبخ قرب النافذة المفتوحة ، جاء رجل وطلب منها بعض الماء ، كان يعمل فى موقع بناء مجاور ، حيث كان يشيد فندق* كالقصر خارج المدينة به ردهة وحديقة شتوية ، وسوف يكون هنالك مكان متسع لوقوف السيارات ، قال لها ذلك بحماس ، لأن الناس سوف تشرب الخمر فى المستقبل بطريقة عصرية مترفة ، بعيدة للغاية عن الحانات الفظة الموجودة فى زوايا الشوارع ، والتى كانت حتى حينذاك هى المهرب الوحيد من الاصلاحيات الآجرية الحمراء للحياة الصناعية .

كان حرفيا واشتراكيا ، عَرَّفَها بأعمال وليام موريس وبرنارد شو ، ومنحته هى فى المقابل «طاحونة على مُشاقة الحرير» و «المسيرة الوسطى» ، كانت قد قررت منذ أول لقاء ، أنها سوف يكون لها منه طفل ، وعندما حدث ، أنجبت توأمين ، إنني لا أعرف

* يقدم الخمور والوجبات والرقص ولعب الميسر في غالب الأوقات (المترجم).

أى اتفاق توصلت إليه مع زوجها ، أتخيل أنها وعدته بالرعاية حتى يشفى ، وبعد ذلك لا وعود أو عهود ، وسرعان ما أدركت ، على أى حال ، أن حبيبها لا يعتمد عليه أكثر مما يعتمد على زوجها ، عندما حبلت ، انسحب إلى المأوى الموحش لزواجه المريح ، رغم أنه بلا مسرات ، وأخبرها أنها مسئولة عن نفسها .

وانتظرت حتى استعاد زوجها صحته قبل أن تطلقه ، كنت أنا وأخى فى الثامنة . فى ذلك الوقت ، كان مايزال تطليق امرأة عاملة – لزوجها فى الأربعينيات أمرا شائنا . وقد جاء العديد من الزبائن كى يستردون حساباتهم المحددة بحصص ، غير قادرين بوضوح على التعامل مع أناس سمحوا لأنفسهم بالفسخ المبتذل لمثل تلك الروابط الجليلة ، وسحب آخرون ، أقل حنكة ، معاملاتهم ، حيث كان لايزال هنالك اعتقاد واسع بأن المرأة التى تحيض وتمسك اللحم بيدها تفسده ، فقط لو علموا ، قالت متجهمة ، وفكر بعض الناس فى المنطقة أن المرأة المطلقة هى تحديدا امرأة سائبة الأخلاقيات ، ومن ثم فهى متاحة . وبناء عليه ، كانوا يتكأون على مكان دفع النقود ، ويعرضون عليها المضاجعة فوق البالات وسجق الخنزير .

كانت أحيانا تقول لى ولأخى ، «آه ، لو علمتم فقط!» كانت تُلمح دوما الى شئ ما مظلم لايمكن قوله ، ورغم أننا كنا نعزو ذلك الى غموض أبوى كجزء أصيل من استراتيجية تجعلنا أكثر انقيادا ، إلا أنها ملأتنا بالقلق والهواجس ، إن مثل تلك الإشارات هى الراحة الوحيدة التى سمحت بها لنفسها عبر خمسة وثلاثين عاما ، ربما كانت تلك الإشارات تجعلها تحس أنها أقل وحدة ، إنها يقبنا ربطتنا بها أكثر ، من خلال الخوف الذى أثارته فينا.

كنا ، أحيانا نصل الى المنزل من المدرسة ، لنجد الرجل الذى اكتشفنا فيمابعد أنه أبونا ، يجلس الى جوارها ، فى صمت كثيف فوق الأريكة . كنا نظهر استياءنا منه ، كان هنالك ، عندما اجتزت السنة النهائية الثانوية ، وقبل أن ألتحق بكامبريدج ، تسيل عيناه رقة وهو يتلهف على الإحتفال ، وكان هنالك عندما بدأ أخى فترة التدريب على صنعة ، وهنالك ليحدد اكتمالها ، لم نفهم هذه الرقة المتطفلة من شخص لاعلاقة له بنا، كان يريد ، بوضوح ، المشاركة فى الابتهاج بإنجازاتنا ، رغم أنه لم يرغب فى أن يكون له أى دور فى الكدح اليومى للعناية بنا.

أما بالنسبة لزوج أمنا، فإننا كبرنا ونحن منفصلين عنه ، بالقدر الذى يبعد عنا مرضه المثير للخجل ، كان ينام بمفرده فى غرفة كان محرما علينا دخولها ، حجرة ذكرية ، ممنوعة ، كريهة الرائحة ، إنه يستخدم طبقه الخاص وسكاكينه الخاصة ، نادرا ما كان يلمسنا ، إن نموذج الذكورة بالنسبة لنا ، جاء إلينا عبر فراغ هائل ، إن ماكانت تحسه أمى من مرارة نحو الرجال كان محدود الأثر فى تسوية مابيننا وبين

نوع الجنس الذى ننتمى اليه . لقد اعتادت أن تقول : «كان علىّ أن أكون لكما الأم والأب بالمثل» . كان حبا عنيفا تكفيريا مفرطا من الحماية والرعاية ، مشبعا بخطيئتها هى وتعاستها هى .

أن يكون للمرء أبوان ، ولايعرف أيًا منهما ، بدت لى مسألة مثيرة للشفقة والأسى ؛ كان ذلك حقا قطعة من الضياع ، منذ كان لدىّ مثل هذا الإحساس الهش بهويتى الجنسية . وقد أصبح الأمر أكثر سوءا بانعكاس الفصل بين الرجال ،فى حياتها على توأميها الصبيين ، أعتقد أنها كانت تخشى ، قبل أى شئ احتمال اتحادنا ضدها ، وحتى تمنع هذا ، أبقت علينا كل على حدة ، كما أبقت زوجها وأبانا كل على حدة ، لقد شببنا وكل منا غريب على الآخر، لقد بنت هى شخصيتينا بطريقة تجعل كل منا لايفهم الأخر ، كنت ذكيا ، وكان هو بطئ الفهم . كان هو مليحا وكنت أنا قبيحا ، كان هو حسن السلوك ، وكنت أنا مثيرا للشغب ، كان هو عمليا ، وكان المفروض أن أكون أنا «مبدعا» ، وكانت النتيجة أنه ورث مهارة أبيه الحرفية ، وورثت أنا راديكاليته ، ولكن ماالذى يمكن أن يكون مشتركا بين مثل تلك الكائنات ؟ لقد شببنا والواحد منا يجافى الآخر فى حدة أشبه بحدة الدير ، حدة مجموعة عائلتنا الضئيلة ، وكانت تلك مؤثرة للغاية ، حتى أنها لازمت كل حياتنا ، كانت تثنى علينا بلا نهايةأمام الغرباء ، لكن ذلك لم يحدث البتة فى مواجهتنا ، كانت أيضا دائبة الشكوى من كل منا للآخر ، «إنه لن يبلغ البتة أى شئ ، ليس لديه ذرة من فهم أو إدراك ، إنه لن يذهب البتة إلى أى مكان. كان الأفضل له أن يتعلم كيف يمسك جيدا بمكنسة ، لأن كنس الشوارع سوف يكون العمل الذى يناسبه طوال عمره ، إنه ليس حاذقا بما يكفى ليقوم بتوزيع الإعلانات باليد، إن لديه حلما كبيرا بالبهجة ، غير أنها جعلت كل منا يفهم أن الآخر هو المفضل لديها . وهذه ربما كانت أفضل طريقة للإبقاء علينا منفصلين ، لقد تذوقنا سراً أسمى وضع لنا ، دون أن نعرف أن ذلك كان جزءاً من انفصال تنافسى ، أريد له أن يبقى طوال الحياة.

عندما أخبرتنا ، كانت بالفعل فى السبعين من عمرها ، تحدثت إلينا منفردين ، غير أننا توحدنا لمرة ، فى ردنا بأنها قد فعلت الشئ الصحيح ، لكنها ما أن فارقت سرها حتى بدأت تهتز ، وكأن الحفاظ عليه كان الشئ الأساسى الذى أبقى عليها متماسكة ، تم تشخيص حالتها على أنها مصابة بمرض الشلل الرعاش ، لكنها قالت ، ماالذى يعرفه الأطباء عن مثل تلك الأمراض ؟ وكانت تعانى أيضا من الخوف من الخلاء ، وغدت تخاف الخروج خارج الأبواب ، لقد أصبحت حياتها بالفعل محدودة بتمشية يومية فى المدينة من المنزل الصغير ذى الشرفات حيث تعيش مع اختها بعد الطلاق ؛ إن نزهتها الوحيدة كانت الى ميدان السوق ، لتتبادل الأقاويل مع معارفها ، حول الحمير الخشبية المحملة بالتفاح والطماطم المحليين ، غير أن هذه النزهة توقفت أيضا،

إذ سرعان ماكفت عن ترك أمان المنزل ، ثم كفت عن ترك الحجرة ، ثم كفت عن ترك المقعد والسرير الذى إلى جواره ، لقد غدا المرض ملاذها الأخير ، وهويتها .

لقد عاشت فى رعب من أن تدخل ملجأ ، غير أن ذلك كان ماذهبت إليه فى النهاية ، متصلبة من اصابتها بالنقرس ، وإن كانت تنتفض بطريقة لايمكن التحكم فيها ، لقد كلف ذلك الولاية ٣٥٠ جنيها استرلينيا اسبوعيا ، من أجل الإبقاء عليها هنالك ، كانت الحجرة الخاصة بها تطل على ميدان جولف ، منظر طبيعى خلوى ، وحديقة تقع فى الجوار مباشرة ، بها نباتات «الهيبريكوم» و «الكوتوايستر» المزهرة ، حجرة ذات ستائر مزينة برسوم زهور ، تتناسب والألوان المائية على الجدران ، نظرت حولها وقالت ، «عندما كنا صغارا كان لدينا أثاث من صناديق البرتقال وأكياس على النوافذ ، لأن أناسا آخرين كانوا يكسبون من ورائنا نقودا، لاشئ تغير غير المنظر العمومى» ، كانت تكره فكرة أن مرضها وبوارها سوف يكونان فرصة كسب تجارى للآخرين ، لكنها ، رغم وحدتها ، كانت تمتلك طاقة كبيرة على ربط الناس وتعلقهم بها ، فقد اعتادت النساء العاملات فى الملجأ التجمع فى حجرتها للشكوى ، للاعتراف، للبكاء ، للافصاح عن همومهن السرية ، زيجاتهن التى تتحطم ونجاح أطفالهن ، ربما أحسسن أنهن فى حضرة واحدة تكمن أسمى موهبة لها فى الحفاظ على الأسرار .

لقد بدت لى دوما امرأة متجهمة ، متزمتة ، تتوقع الأسوأ دوما ، كنت أخشى أن تموت كما عاشت ، فى صراع وفى غضب ، خشيت أن تسعى بصحبتنا أثناء موتها كما سعت الى تعقيد معرفتنا فى حياتها ، لكن الأمر كان غيرذلك ، لقد أصيبت بعدوى فى صدرها ولم تستجب للمضادات الحيوية ، وماتت فى غضون ساعات قليلة ، كانوا يعطونها كوبا من الشاى ، وكان يبدو عليها أنها فى النزع الأخير ؛ رفعت حينئذ رأسها لتأخذ آخر نفس لها ، وقد قال الجميع أنها كانت ميتة سهلة ، طريقة جميلة للرحيل.

أحسست بحاجتى لرؤيتها ، إذ كنت بعيدا عنها ، كان جسدها فى كنيسة الحانوتى الصغيرة ، كانوا قد ألبسوها ثوبا أبيضا ، به تطريز فضى ، وأطراف الأكمام مزينة بالمخرمات ، ثياب لاريب فى أنها رداء الذهاب الى السماء ، والذى كانت ترتديه فى طفولتها وهى ترنم ترانيم مدارس الأحد ، لابد أنها كانت ستكرهه ، تماما كما كانت تكره دوما محرقة أجساد الموتى ، حيث تمت خدمة الجنازة ، والتى شيدت فى الثلاثين، وقدمها المالك إلى ابنه هدية بمناسبة عيد ميلاده الواحد والعشرين ، لأنه تنبأ بأن الحرق هو الشئ الآتى ، ربما كانت الهوة بين المظهر والحقيقة فى حياتها الخاصة هى التى منحتها مثل ذلك الإحساس الحى بالتباين الاجتماعى ؛ وكان هذا واحدا من هباتها العديدة لى ، ورغم أنها كفت عن القراءة منذ شهور عديدة مضت ، غير أنها

احتفظت بكتابيها المفضلين إلى جوارها ؛ وكان هذان الكتابان هما «المنزل الموحش» و«طاحونة فوق مشاقة الحرير».

ورغم أنني كنت مشغول البال ، تكاد تستحوذ عليّ صحتها وهي في كمال نموها ، فإنني لم أحس لا بالذنب ولا بالقهر عندما ماتت ، فكرت في نساء سفوح الهيمالايا اللواتي ظللن ليقاتلن دمار بيئتهن ، وفكرت في قرابتها لهن ، هؤلاء اللواتي بقين ليقاتلن الخراب الداخلي لحياتها ، إنني ممتن لبعد النظر الذي تمتعت به النساء من مختلف المجتمعات والثقافات ، والذي تجسد في قوة احتمالهن وابداعهن ، هؤلاء النسوة اللواتي بقين وتذكرن ، بينما هرب الرجال ونسوا .

عالم بريطانيا الثالث

دمار كورنوال

هنالك مبنى للمجلس فى «تروون» ، وهو عقار صغير فوق جبل داخل البحر ، يطل على «كامبورن» فى «كورنوال» ، إنه مكون من مكعبات مطلية باللون الأبيض ، باردة فى ضوء الكورنيش الصافى ، يوجد بالمبنى سجادة ناعمة كالصوف وستريو وتليفاز وفيديو ؛ وديوان به طيور خزفية مطلية وثلاث قطع مريحة بنية فى لون الشيكولاتة ، وتصب الشمس ساعة الغروب فى الحجرة ، وتنساب لفائف دخان السيجارة بطيئة ، وترقد قطة على عتبة كل من النافذتين.

إنه شذوذ غريب : نحن نتحدث عن الفقر فى هذا الوضع الداخلى المريح والبهيج ، إنه فقر حقيقى رغم الممتلكات ، أن تيسا قد استدانت لتوها جنيهين استرلينيين من جارتها لورين ، حتى يمكن للطفلين أن يظلا بالمدرسة غدا حتى وقت العشاء ، إنها مدينة للورين بخمسين جنيها ، وهى نقود اقترضتها حتى تخلص أثاثها من المحضرين عندما لم تدفع ضريبة الاقترا ع ، لقد كلفها كل ذلك ٢٠٠ جنيها استرلينيا ، مشتملة نفقات المحكمة ، وفاتورة ضريبة الاقترا ع وقدرها ٧٧ جنيهاً استراينياً . إن على لورين ذاتها ديونا تناهز «الألفى دولار» .

لقد طلقت تيسا زوجها الثانى ، وتعيش لورين الآن بمفردها مسئولة عن نفسها» ، يمكنك عد الزيجات السعيدة ،فى هذه المنطقة على أصابع يد واحدة !! لماذا تبدو علاقتنا هشة للغاية؟ ؛ إنها النقود ، التى ما أن تبدأ البحث عنها ، حتى تضغط عليك ، إن كثيرا من الناس تتحطم علاقاتهم بسبب النقود ، أكثر من أى شئ آخر ، هناك شئ غريب آخر ؛ إذ يُنظر إلى النقود باعتبارها سبب مرض القلب والروح وعلاجها ، وهى التى تترك الكثيرات من النساء بمفردهن مسئولات عن أنفسهن . إنهن يقلن لك ، «الرجال يغادرون ، والنساء هن الباقيات ، هن من يدفع الديون ، ويدفع الفواتير ، هن من يواجه الصعوبات ، ومن يستغنى عن أى شئ من أجل الأطفال ، الرجال لايستطيعون احتمال ماعلى النساء تحمله ، إنهم يغادرون متحررين من كل الالتزامات».

إن تيسا فى الثلاثين من عمرها ، ومعها طفلان ، إنها امرأة لها وجهات نظر مستقلة، «منذ أسبوعين مضيا ، كنت أنظر من النافذة ، ورأيت شخصين قادمين عبر الممر ، وعندما هبطت إلى أسفل ، كانا فى الداخل فعليا ، لقد كتبت إليهما أعرض عليهما تسديد الكثير أسبوعيا ؛ انتبه ، لقد أُوقعت بى مخالفة لأننى لم أضع طابع بريد على الخطاب ، وأخذا الغسالة والاستريو والميكروويف ، الذى أوقعا به الضرر ، وكان

عليّ أن أوفر ضريبة اقتراع قدرها ٨٨ جنيها استرلينيا . و٤٤ جنيها استرلينيا رسوم محكمة ، و١٢٨ جنيها استرلينيا و٥ر٤ جنيها استرلينيا يوميا رسم تخزين ، وقالا ، إن لديك هنا كمية من الأشياء اللطيفة ؛ إنها هبات وهدايا . قالا كان يجب عليك إخراج ابنتك الصغيرة خارجا ، إنك لاترغبين في أي مشاهد مؤسفة أمامها ، قلت لن يكون هنالك أي مشاهد مالم تفعلاها أنتما».

حصلت على ٦٤ جنيها استرلينيا ائتمانا عائليا، و٣٣ جنيها وخمسة بنسات كنت قد وفرتها من أجل عيد الميلاد للأطفال ، كان عليّ أن اقترض . كنت أعمل ، لكنني كففت عن العمل لمرضي . كنت أعمل في دار رعاية ، عمل خدمي ، أقوم بالتنظيف وأحصل عى ٤٧ جنيها في الأسبوع بمعدل ٣٥ر٢ جنيها في الساعة ، كنت أحب المسنين ».

وكانت لورين تعمل مساعدة لراعية في دار للرعاية بأجر قدره ٢,٩٠ جنيها في الساعة ، «أصبحت مدينة بتلك الديون ، متأخرات الإيجار ، وأخذت الى المحكمة وعرضت أن أدفع عشرة جنيهات أسبوعياً ، لكنهم أخذوا خمسة عشر جنيها ، كان هنالك أبنائي وأبناؤه ؛ وكان له العديد من الأقارب الذين يفضلون أبناءه ، ولم تنجح الزيجة ، كان يجب عليّ أن أعرف شخصا لديه وشم بحبر هندي على امتداد ذراع واحدة» .

تقول تيسا ، «جئت إلى هنا ، وتزوجت أبا الطفلين ، وكنت سعيدة ، إلا أننا انفصلنا بعد أربع سنوات ، وتزوجت ثانية ، ودامت هذه الزيجة ستة أشهر ، لقد ألصق ابني ، وهو في العاشرة من عمره ، إلى الحائط ، وهدد بأن يدفع بسنته إلى حلقة، ودعا ابنتي ، وهي في الثامنة من عمرها ، بالخبيثة والعاهرة ، كان يصغرني لكنه كان غيورا ، فإن تحدثت مع أي شخص آخر ، فإن ذلك يعني أنه على علاقة بي» .

لقد ذهبت لورين إلى المحكمة لأنها عملت ولم تعلن عن دخلها ، «كنت أدفع لجليسة أطفال ، ولذا لم يكن يتبقى لي من أجوري التي كنت آخذها شيئا ، لقد كتب الشخص الذي طردته تقريرا عني ، اتهمني فيه بالغش والاحتيال ، قلت له ، إنك لاتؤذيني لكنك تؤذي الأطفال ، قالوا: إنني قد دفعت أكثر مما يجب بمقدار ٤٧٠جنيها ، بعد أن غادر، عاد ليدخل عنوة مرات قليلة ، شق المرتبة وملابسي والسجاد والستائر ، ولم تفعل الشرطة شيئا . إن معه حكما معلقا قادر على إزعاجي ، وليس لهم أن يوقفوه ، والصق بيّ التهم ، فقد اتهم أحد الأشخاص بأنه كان على علاقة بي ، وأدخل نفسه المستشفى».

وتقول تيسا كنت أقيم عرضا للملابس في بعض الأحيان ، إذ يمكن بـ ١٢,٥٪ عمولة ، شراء بعض الملابس الصيفية ، لم أكن أقيم عروض عطور أو مجوهرات ، كان

الأطفال يجيئون يريدون اللعب بالمكياج ، كان لديهم بعض من طلاء الأظافر ، والأمهات يقلن في حدة ، «على أصابع أقدامكن فقط ، وليس على أصابع أيديكن» ، إن صديق تيسا الحالي يعمل ، إنه يكسب ٤٥ جنيها أسبوعيا ، خادم سيارات ، وظيفة طوال الوقت ، «إنه إن لم يقبل بها ، فعليه الذهاب إلى مكتب التوظيف كي يحصل على بدل معونة مضافا إليها عشرة جنيهات».

كانت كامبورن ، حتى منتصف الثمانينيات ، هي مركز تعدين القصدير في كورنوال ، إن أصابع المداخن الحجرية تشير إلى أعلى ، في كل مكان ، يطوقها اللبلاب، وأطلال المباني التي توجد بها المضخات في حجم الكنائس المهجورة ، لقد انخسفت الأرض بسبب حفر الأنفاق السفلية ، وهنالك حفر تظهر بانتظام ، ومنازل تفقد ثباتها ؛ وقد ظهرت أخيرا حفرة كبيرة في حديقة «جونيسلاك»، ابتلعها بئر منجم، المنازل تُدعم بألواح الخشب ، تتوازن بطريقة غير مضمونة على حافة الاختفاء في آبار ودهاليز المنجم الممتدة أسفل المدينة والأشبه بقرص العسل ، إن عمال المناجم القدامى يقصون كيف كان في وسعهم سماع ساعة كامبورن وهي تدق فوقهم ، بينما كانوا يعملون .

ويعاني الكثيرون من مرارة السرعة التي أغلقت المناجم بها ، ليس هنالك من عجز في القصدير ، المسألة في بساطة هي انهيار السعر في أواسط الثمانينيات ، ورفض الحكومة تقديم المزيد من المساعدة ، لقد انتزع قلب كامبورن ، إن في كامبورن ردروث واحدة من أعلى مستويات البطالة في البلاد . فقد تم إلغاء مهارة قوة أخرى من قوى العمل : إن أبناءهم هم ورثة أشكال من الفقر جديدة وغريبة ، جاءت مع غياب الوظيفة أو الهدف ، إن الشباب ، في شوارع المدن ، يصطف ، في نهايات الأسابيع عند خروج النادي الليلي ، يواجهون الشرطة ، في انتظار حدوث شئ ما .

لقد عمل دنيس في «منجم كروفتي» إنه يقول في اصرار ، «كان المنجم عائلة ، كانت ليّ زوجتان ، تزوجت حفرة المنجم قبل أن أتزوج زوجتي . لقد أحببت المنجم ، كان يتحدث إليّ ، انتهى وضعي إلى صانع في كروفتي ، كان الرؤساء مثلنا قبل أن يصبح آليا . انظر إليّ هذه المدينة الآن ، إنها أشبه بمدينة حدودية . لقد صَوّتُ للمحافظين ، اعتقدت أن الشمس قد أشرقت من مؤخراتهم ، لن يحدث ذلك ثانية».

يعيش ابنه ستيف في منطقة «تريسويثيان» ، إنه يعتقد أنه محظوظ ، فزوجته جيني تكتب له شعر حب ، لقد بدءا حياتهما الزوجية في «كراڤان» ، حيث الطقس في الشتاء أشد برودة في الداخل عنه في الخارج ، ثم استأجرا كوخا في «البيكون» ، أعلى جزء في كامبورن ، حيث يستطيعان رؤية خليج «سانت إيفيس» و«بنزانس» . تقول جيني ، كدت أسقط أنا والطفل منذ أسبوعين مضيا ، جئت يوما لأجد أن الباب مغلق ، كان

المالك قد قصّر فى أداء دين الرهنية فاسترد منه منزله ، إن الإيجار الذى كنا ندفعه له -٢٨٠ جنيها شهريا- لم يكن يذهب إلى الرهنية».

«عندما اكتشفت ماحدث ، أحسست كأنى أنزلق على موز ، كنت سأضرب الرجل ، كان يعمل فى البحرية من قبل . أنت تعرف أمثال هؤلاء ، يبدو أنه كان من النوع المرتشى ، ولولا جينى والأولاد لكنت فعلتها ، لم نستطع دخول منزلنا ، وعندما دخلنا سمحوا لنا بالبقاء فقط ثلاث ساعات حتى نحزم كل شئ ؛ دخلناه فى التاسعة وكان علينا أن نغادره فى الثانية عشر ، وسمر المحضرون النوافذ والأبواب ، لم يكن لدينا أى شئ ، لم يكن لدينا طاسة أو طبق ، كل ماكان لدينا هو ما كان علينا ونحن واقفون. لقد اقتضى الأمر أربعة أسابيع قبل أن نستطيع الحصول على متاعنا».

«عشنا ، بعد ذلك على مايقدمه المجلس من مكان للنوم والإفطار ، مدة ثلاثة شهور»، أمضى ستيف عامين ونصف فى نفس المنجم الذى كان يعمل فيه والده ، غير أنه تركه قبل أن تعلن موجة الزائدين عن الحاجة ، «كنت أمد الطرق وأحفر مجارى المياه ، وأمد الأنابيب لتحمل الخام من الواجهة ، كنت أحصل على أجر طيب وأنا فى العشرين من عمرى ، تركت هذا المنجم لأقوم بعمل أفضل ، تفريغ الموقع ، غير أن ذلك لم يدم غير شهور قليلة ، ومنذ ذلك الحين وأنا لا أعمل ، كان ذلك منذ ست سنوات ، إننى ماهر فى تركيب الإطارات ، وقد عرضت علىّ وظيفة بستين جنيها ، غير أننى لا أقدر عليها . إننى أقول دوما أننى غير قادر على العمل ».

تقول جينى : «عشنا فى كراڤان رطب ومبتل ، وأصيب طفلنا بمرض شُعبى ربوى، وقال لنا الطبيب ، والزائر الصحى ، أنه يجب علينا مغادرة هذا السكن ، وذهبنا للإقامة مع أبيه ، ولكن كان علينا أن نطلب منه إلقاءنا خارجا ، لأن المجلس قال ، أننا بتركنا الكراڤان قد جعلنا أنفسنا عمدا بلا مأوى ، كان صاحب عربة البضائع المغطاة يمتلك بيتا لتربية الكلاب ؛ كانت الكلاب تعيش فى جو أدفأ وأجف من ذلك الذى نعيش فيه . وكان أقرب متجر إلينا يقع على بعد ميلين».

يقول ستيف ، «إننا نحصل الآن على ١٤٠ جنيها فى الأسبوع ، كلها مؤكدة ، إننى إن عملت فى عمل أدنى أجرا ، أفقد العديد من المنافع التى أحصل عليها ، من الأفضل لى أن أكسب أجرا ، أحس بالرضا وأنا أعرف أننى قد عرقت للحصول عليه ، إننى أستطيع الطبخ ، كما أننى أقوم بالكثير من العمل حول المنزل ، إننى أقوم بأعمال الديكور والتحسينات ، إننا سنذهب إلى هناك فى نهاية الأمر ، لقد حصلنا على قرض من الصندوق الاجتماعى من أجل الطفل ، إننى مستاء من هذه المنطقة باعتبارها منطقة إجازة وتقاعد ، لقد نسوا أننا نعيش هنا ، إن بريطانيا تنتهى ، بقدر ما تهتم الحكومة ، عند (بليموث) ، كان فى إمكانهم إبقاء المناجم مفتوحة ، إننى أعرف رجالا

ذهبوا إلى «نوفا سكوتيا» وكندا وجنوب أفريقيا واستراليا ، إن كان لديهم شهادة فى التفجير أو الحفر ، إن كان لدىّ شهاداتى ، كنت ذهبت أنا أيضا إلى منجم ذهب فى نوفا سكوتيا» .

كانوا مثل العديدين الذين سبقوهم ، هنالك فى جبانة «ترون» ، توجد الأحجار التى تحى ذكرى مواطنى «كورنيش» الذين ماتوا فى استراليا وكاليفورنيا وكوبا ونيفادا وباشكوا فى المكسيك ، حيث شارك رجال كورنيش فى استخراج الفضة ،» حينما توجد عملية تعدينية فى صخر صلب ، فإنك سوف تجد أهالى كورنيش هناك»، إن كورنوال هى الإقليم الوحيد فى انجلترا الذى أصبح عدد سكانه الآن ، أقل من عددهم فى منتصف القرن التاسع عشر ، إن لكامبورن ردروث تراخى وكسل كل المدن الصغيرة التى هجرها القادرون من سكانها عبر عقود : «الحياة هنا حسنة عندما تعتادها ، هناك سرعتان فى كورنوال ، السرعة البطيئة والتوقف» .

ماتت والدة باولين منذ ثلاثة أشهر مضت ، إنها تقول فى مرارة ، «كانت تعد نقودها ، وهى على فراش الموت ، لترى إن كان لديها مايكفى لدفع ضريبتها الفردية».

كانت قد مُنحت علاوة رعاية قبل موتها بأسبوع ، فقالت: «كان علىّ أن أعيش بدونها عشرين عاما ، ثم يعطوننى نقودا ، عندما أعانى سكرات الموت»، وتقول باولين «كانت تعيش على كوب حساء وبرتقالة وويتابيكس مدة أسبوع»، إن جد باولين هو الذى أسس حزب العمل فى كامبورن ، وذهب إلى السجن فى «الاضراب العام» ، «لم يكن فى وسع الناس شراء اللبن ، وكان تاجر الأيس كريم يشتريه رخيصا ليصنع الآيس كريم . وقلب جدى كل أوعية اللبن الكبيرة ، وانثال كل اللبن فى الشارع . قال : إذا لم يعطوا اللبن للفقراء ، فإن أحدا آخر لن يأخذه ، وأمضى ١٤ يوما فى سجن بودمين بسبب ذلك».

إن باولين مقاتلة ، تعانى ألما دائما من حادثة دراجة آلية ، عندما أخذها ابنها خارجا على دراجته الآلية الجديدة ، وقطع أحد الزوايا بسرعة فائقة ، كُسر عامودها ، كما أُجريت لها عدة عمليات بسبب السرطان ، إن لها أبناء ثلاثة فى الجيش، كانوا فى ايرلندا الشمالية . إنها تقول: ، «إن أفضل صديق لولدى كان صبيا من السيخ ، وقد استدرجته امرأة مع آخر ، إلى منزل للشراب بعد أن أغلقت الحانة . قالت لهما ، انتظرا على الأريكة حتى أحضر شرابا »، وقد أطلق عليهما رجلان نيران الرشاشات ، وهما جالسان هناك ، فانفجرت رأسا الولدين» .

إنهم يقولون فى كورنوال ، إنه لو كانت الأجور المنخفضة وعدم وجود النقابات هما مفتاح النجاح الاقتصادى ، فإننا يجب أن نكون أشد المناطق ازدهارا فى بريطانيا ، «لقد فعلنا ماقيل لنا ، والآن انظر إلينا ، اقتصاد خدمى وزهر النرجس ودور الرعاية

والسياحة ، إن في كامبرون ، كما هي الآن ، أعلى معدلات البطالة في البلاد إن مهارات التعدين ترقد مهملة ، إن جيلا ينمو في عبث وبلا جدوى وغياب عمل مُرْض.

تحد الشارع الرئيسى فى كامبورن ، متاجر فارغة ونوافذ متربة وملصقات عن أسواق خيرية وحفلات موسيقية منذ زمن طويل ، إن كثيرا من المتاجر تديرها المؤسسات الخيرية ، والنوافذ تعرض ألبومات شاحبة لـ «حفل زفافنا» ، وأكواب مرسوم عليه ديانا وشارلز ، ومجموعة من الصور الزيتية ، وقد تزايدت سرعة انحدار الحوانيت بسبب متجر «التسكو» الجديد ، والذى يحتل موقع صاحب العمل السابق الأساسى فى المدينة ، وهو «هندسة هولمان» ، المتخصص فى معدات المناجم ، والذى وفر عملا لعدة الاف من الناس ، لقد تم الاستحواذ على الشركة ، وانتزعت موجوداتها ، وقد غدا ماتبقى منها مملوكا الآن لشركة عابرة للقومية ، وتحول قصر هولمان الآن الى دار للرعاية ، «إن المتاجر الكبيرة لاتقتل فقط الصغيرة ، لكنها تدمر أيضا مصدر رزق الملاك الصغار فى كورنوال ، لقد اعتادت المزارع إمداد المتاجر الصغيرة ، لكنها لاتستطيع فعل ذلك إلى المدى الذى تحتاجه المتاجر الكبيرة ، إن القرنبيط الذى يزرع فى كورنوال عليه الآن أن يسافر عائدا عن طريق لندن وبرمنجهام ، وبذا يكلف ثلاثة أضعاف ثمنه» ، هذا مايقوله كيفين أوستين الذى يدير متجر غذاء عضوى قرب «فالموث».

إن منجم «كروفتى» هو آخر منجم يعمل الآن ، إن «الهويل جين» قد أُغلق فى الثمانينيات ، وأوقفت المضخات ، وفاض المنجم ، حتى أنه رغم ارتفاع أسعار القصدير الآن مرة أخرى فإنه لايمكن إعادة فتح المنجم .

إن ردروث بمبانيها الفخمة الرائعة ، على طراز مبانى القرن التاسع عشر ، هى مدينة متروكة بمبانى صناعية مهجورة على نطاق واسع ارتباطا بحجمها الحالى؛ القنطرة وبرج الساعة وآثار إبداع «الكورنيش» الصناعى «أول مبنى أضئ بالغاز عام ١٧٩٢ ، أول قاطرة اختبرت عام ١٧٨٤ ، إن المدينةتثير ماضيها الصناعى ، عندما كان هناك أكثر من مائة منجم حول ردروث كامبورن، بمداخن تنفث دخانا ، وحركة نقل تستخدم فيها الخيل ، تأخذ الأخشاب والفحم والخام ، والنساء اللائى يكسرن الصخور ويطحن الخام من أجل القصدير.

إن الشئ الواقعى اليوم هو متجر يبيع الأشياء المستعملة ، ويديره كويس مايال فى ظل الإهمال الصناعى ، «الناس يأتون ليبيعوا أشياء صغيرة مقابل جنيه أو ٥٠ بنسا، لقد جاءت امرأة ومعها طائر من البلاستيك إنها تريد بيعه بـ٣٠ بنسا حتى تشترى لبنا لطفلها ، إن بعض الأشياء تثير الإشفاق ، وعليك أن تعرض شيئا، رغم أنها حتى خردة ، إنك لاتتعامل فى متاع يصل ثمنه إلى خمسين جنيها ، أنت تتحدث عن

البنسات، إن افتقاد وسائل النقل الشخصية والعامة يعنى أن العديد من الناس عاجزين حتى عن الوصول الى المكاتب ليطالبوا بالمنافع التى هى حق لهم ، إن ابنى وابن اخى يجمعون زهور النرجس والقرنفل فى هذا الموسم ، ويحصلون على عشرة أو احدى عشر جنيها فى اليوم ، ويعيش أحدهم فى كرافان ، بينما يعيش الآخر فى عربته، عربة نقل مغطاة . لقد غدا الناس رحالة حيث لايوجد مكان يعيشون فيه ، إن بعض الكرافانات فى مناطق المناجم المهملة والمعطلة عبارة عن مدن من العشش ، إن مكانا هنا به حجرة نوم وحجرة جلوس يكلف ٥٥ جنيها ، إن كريس مابال يمد المتجر بمعلومات عن النشاطات العامة والمنتجات الخضراء ونظام السيارات بالمشاركة وأدوات للاعتماد على الذات واعادة التشغيل ، «إن الناس فى كورنوال يقومون تقليديا بصنع الأشياء وصيانتها . إنهم لايتخلصون من شئ البتة ، من السهل بصورة ما ، أن تعيش الآن نمط حياة بديلة. لم يعد يُنظر إلينا باعتبارنا جامعى اللوز والجوز . إن الأوضاع ، من ناحية أخرى ، قد ازدادت صعوبة ، حيث يثار العداء والبغضاء ضد الخضر - انظر الى الوصف الذى يطلقه دان كيوابل على «المدافعين المتطرفين عن البيئة باعتبارهم الشيوعيين الجدد».

إن كورنوال هى عالم بريطانيا الثالث ، الجزء المنسى من البلاد ، إن بعض مواقع الكرافانات وساحات المقطورات تُذكر بمستوطنات وضع اليد من الجنوب.

تقع «بوسكارن بارك» فى «بول» ، فى منتصف المسافة بين ردروث وكامبورن ، قرب مبنى المضخة القديمة ومدخنة منجم مهمل لايستخدم ، توجد خلفه تلال خربة وأشغال عاطلة تغطيها الزهور البرية فى هذا الوقت من العام ، أعشاب الصفصاف والعنبر وقنب الضفدع ، وهنالك فى الخلف يوجد مصنع أسمنت ينفث غبارا دائما على الموقع ، يوجد هنا اثنين وعشرين منزلا ، أغلبها متحرك من المعدن والخشب ،مصفوفة فى شكل زقاق ، لبعضها سياجات وحدائق صغيرة ؛ لكننا كلما اقتربنا من مدخل الموقع وجدنا أن العربات تقف قريبة للغاية من بعضها البعض ، حتى أن المسافة فيما بينها لاتزيد عن قدمين أو ثلاثة ، يشوه منظر الموقع الزجاج والمواد التى أعيد تشغيلها ، والخشب والأثاث القديم ، وحظائر صفيح قبيحة، أقامها المجلس باعتبارها مراحيض خارجية .

إن لدى كارولين ريتشاردز سبعة أبناء واثنين وأربعين حفيدا ، يعيشون غالبية الوقت فى الموقع ، إن كرافانها قريب لاثنين آخرين ، وهناك فى الخارج مقاعد موكيت خضراء وصندوق كناسة طافح وعشب غزير سميك ، والغسيل النظيف يتراقص على الحبل ، ويعلق على أشجار الدغلات القريبة ، الكرافان من الداخل فسيح ، به أريكة ومقاعد، تليفاز وستريو ، بطاقة عيد ميلاد أكبر من المعتاد على الحائط ، مرآة معدنها صدء ملتوى ، وشمعدان من البلاستيك وصورة مشهد ريفى مثالى ، ولعب أطفال ، وفيديو يدعى «لعبة الدم» على الخوان ، إنها تصنع حلوى وشايا ثقيلا ، تقدمه فى

أكواب شاى وردية ، تحدث صوتا كصوت الفلوت ، ورغم أن هناك فقط واحدا وعشرين عربة نقل مغطاة ، فإن بالموقع حوالى مائة شخص ، إن كارولين ترتدى قلادة من عملات قديمة ، ووردا أصفر أسود ، وتتذكر الوقت الذى كانوا فيه رحالة حقا ، تذهب فى مركبة ذات عجلتين يجرها جواد واحد مع والديها ، يصنعون ويبيعون مشاجب الملابس والزهور الورقية ، كانوا قد اعتادوا حرق العربات الخشبية القديمة عندمايموت صاحبها ، وتلك كانت مزخرفة ومطلية بألوان أولية ، كانت كارولين فى الرابعة عشر عندما جاءوا إلى الموقع ، واستقروا هنالك لأن أخاها كان يموت من اللوكيميا . وعملوا مثلما يعمل مشترو الملابس والأدوات القديمة من البيوت ليوفروا لأنفسهم معاشهم من المعدن والحديد الخردة ، كانت لبوسكارن بارك سمعتها فى كامبورن ، يقول : لك الناس ، «لاتذهب إلى هنالك ، إنهم جميعا مجرمون»، إن الناس الذين يعيشون هنا يتباهون بأصلهم الغجرى . تقول كارولين : «إننا جميعا ندمى بنفس الطريقة ، إننا جميعا نموت بذات الطريقة ، كيف يمكن للحم والدم أن يكونا شيئا آخر غير ذلك؟» .

صوفى هى ابنة كارولين . ويتردد زوجها ، فيليب ، الآن على مجموعة دروس تعليمية حتى يحسن معرفته بالقراءة والكتابة والعد والاحصاء ، لقد اشتغل لحساب شركة تزرع الأرض خضراوات لبيعها فى السوق ، وهو الآن بلا عمل منذ أربع سنوات. إن فيليب ليس غجريا ، لقد شب فى مزرعة ، وعاشا عشر سنوات فى ردروث بعيدا عن الموقع ، تقول صوفى ، «إن أسوأ شئ فى الحياة هنا هو قربنا من بعضنا البعض كثيرا ، إن ذهب أى شخص للإغتسال ، عرف الجميع بذلك . فى وسعك أن تسمع مايقوله الناس لبعضهم البعض . لاتوجد أسرار هنا ، إن ذلك هو سبب ذهابنا للحياة بعيدا ، غير أن فيليب دخل فى مشاجرة ، فضُرب وفقدت إحدى عينيه قوة أبصارها ، واشترينا بنقود هذا الضرر الجنائى منزلا ، إلا أنه عندما فقد وظيفته ، فقدنا المنزل وعدنا إلى هنا مرة أخرى» ، إن صوفى تفضل العيش أساسا فى منزل ، كما تقول من أجل صالح الأبناء ، إن أفضل أصدقاء إبنها لايُسمح لهم بزيارته بسبب المكان الذى يعيش فيه ، «غير أن العائلة هنا ، قد تتشاجر وتكون لنا مشاجراتنا ، ولكن ما أن يجئ أحد من الخارج حتى نتماسك جميعا» ، إن من يجئ من الخارج هم فى الأساس رجال الشرطة ، «إننا لسنا ملائكة ، لكننا نلام لأشياء لم نفعلها».

لقد ذهب روبرت الى سجن «اكستير» مرات قليلة ، مبتدءا بسرقة اللبن من أجل الأطفال ، «إن «الجورجى» (غير الغجر) يطلقون علينا «الديديكاى» بل وأسوأ من ذلك ، لكننا غجر ، ونحن فخورون بذلك ، إن حياتنا خشنة لكننا نملك الحرية التى لايمتلكها الجورجى» .

وانفصل روبرت عن زوجته واحتفظ بكريج الإبن الأكبر ، إنه لايعمل الآن ، وهو يقول أن تعمل أبا ، وكما يجب ، فتلك وظيفة تشغلك طوال الوقت ، إنه سعيد وهو يقضى وقته معتنيا بابنه .

سألته ، «هل تحسون أنكم فقراء؟» قالت صوفيا ، «إننا فعلا نشعر بالفقر ، لأنه علينا الاستغناء عن أشياء ، إننا لانخرج البتة من أجل الشراب ، وعلنيا شراء أرخص الأطعمة . لقد أنفقت اليوم أربعين جنيها ، إن تلك النفقات يجب أن تدوم أسبوعين ، إن لدى فيليب عنزة ، وهو سيبيع الواحد من خلفها بعشرة جنيهات»، ويجلس فيليب على الأريكة ، يأخذ أعقاب السجائر التى يخزنها بعد التدخين فى علبة لف السجائر ، وهو يستطيع أن يصنع بثمانية أو عشرة من تلك الأعقاب لفافة طازجة ، كان روبرت يسرق الزهور والأبصال ، وأخبر أحدهم إدارة الأمن الاجتماعى ، فأمروه برد ٣٠٠٠ جنيها .

«كان هناك ، فى وقت من الأوقات ، أشياء كثيرة يمكنك الحصول عليها لتأكلها بلا مقابل ، لقد رُبيت على الأرانب» ، تقول كارولين، «غير أن الشباب لا يأكلونها ، لقد اعتادوا أكل فطائر محشوة بالزقزاق الشامى* وفطائر محشوة بالحمام ، غير أن كل ذلك قد انقضى الآن» .

هنالك خطة لتحسين الموقع هنا . يجب تسوية وتمهيد المنطقة فيما وراء الموقع الحالى ، حتى يتسع المكان للمزيد من الناس ، يقول روبرت ، «إنهم يودون الإبقاء على الموقع مفتوحا ، لأنهم لايريدوننا بالقرب منهم ، عندما كانت لديهم خطة لتوسيع الموقع، اعتقد الناس المحليون أنهم سوف يفسحون مكانا لمزيد من المنازل ، فتقدموا بعريضة ضدنا ، وقعها خمسة آلاف شخص، إن ذلك يبين ماالذى يفكرون فيه بالنسبة لنا . إن ذلك يكشف عما يضمرونه لنا ، إنهم يخططون لحجزنا وراء الأشجار ، هناك صاحب جراج على الطريق ، بنى منزلا كبيرا منذ خمس سنوات مضت ، إنه لم يحضر البتة إلينا ويطلب منا إذنا بذلك ، سواء كان لدينا مانعا أم لا ؛ غير أنهم يفكرون أنه فى وسعهم أن يملوا علينا أين وكيف يجب أن نعيش . إنهم يدعوننا باللصوص والمومسات، فماذا عنهم وعن الطريقة التى يجمعون بها نقودهم . إننا لم ندفع الضريبة الفردية ، وقال لنا القاضى فى المحكمة ، لاتدفعوا حتى يتم تمهيد وتسوية الموقع . إنهم مازالوا يقتطعون ستة جنيهات كل أسبوعين للسداد من نقودى الخاصة بالإعانة الحكومية للعاطلين .

«إننا لانريد موقعا دائما ، لكننا لانريد موقعا يمكن أن يعزلونا فيه ، وينسوا كل ماله علاقة بنا» ، إن روبرت خاضع لحظر التجول ، يجب عليه أن يكون داخل مأواه فى التاسعة ، لقد تشاجر وسبه أحدهم فضربه بعنف .

إن النقود التى يحصلون عليها من الصندوق الاجتماعى تدفع مباشرة للمتاجر ، وبذا لا يستطيعون إلا الحصول على سلع فقط ، إن كارولين تحصل الآن على منحة رعاية لأنها عاجزة ، إلى حد كبير ، بسبب التهاب المفاصل ، عليك أن تتعلم كيفية البقاء

---

* طائر. (المترجم)

حيا ، متجنبا . عداد الكهرباء ، تقول صوفى: ، «لن يكون لدينا غاز، فتحقيق ذلك ليس أمرا ميسورا هناك عدد كبير من الناس يودون أن يفعلوا بنا ، ما فعله هتلر بالغجر».

إن بيتسى شقيقة كارولين ، تعيش فى منزل جديد على الجانب الآخر من الطريق ، إن المنازل تكلف حوالى ٨٠٠٠ جنيها . وعليهم أن يدفعوا نقدا ، ليس هناك من قروض أو رهونات للغجر ، انها تقول : ، «الأمر أشبه بمعتقل لأسرى فيتنام ، إننا نود أن نعيش الحياة التى نريدها ، إننا لسنا المشكلة ، المشكلة هى الآخرون الذين لا يستطيعون تركنا لحالنا ، إننى فخورة بأننى غجرية ، وسأحيا بالطريقة التى أحبها ، إننى لا أتدخل فى شئونهم فلماذا يتدخلون هم فى شئونى ؟ لم يحدث أبدا أن أساء غجرى إلى الأطفال ، يجب عليهم ان ينظروا إلى مشاكلهم هم ، وألا يوجهوا اللوم إلينا»، وتقول عن شقيقتها ، «إن كارولين يمكن أن تصنع خيرا بكلب ، لقد عرفتها وهى تعطى سريرا لغريب بلا مأوى ، لقد ظل زوج بيتسى ثلاثة عشر عاما بلا عمل ، «ما إن تقول بوسكارن بارك ، حتى لايريد الناس معرفة المزيد ، إنك لاتستطيع الحصول على اعتماد إن كان عنوانك هنالك . إننا نتلقى احجارا تلقى على نوافذنا ، وإن أنت ذهبت إلى الشرطة فإنها لاتفعل لك شيئا ، إن أساء أحد من أسرتك إليك ، فإنك قد تتصل هاتفيا بالشرطة غير أنهم عندما يجيئون هنا ، فإننا لن نتعامل معهم مطلقاً . إن لنا طرقنا فى الحصول على حقوقنا إن فعل أحد ما أى شئ ، إننا نحصل على انتقامنا الخاص بنا.

«إننى أحب طريقتى فى الحياة ، إننا نوقد النيران فى الخارج فى المساء ، ويروى أبى حكايات لنا . لقد باع عربته المطلية بـ ٤٠٠٠ جنيها منذ بضعة أعوام مضت ؛ كانت شيئا جميلا صنعها كلها بنفسه ، كانت تستحق أكثر من ذلك كثيرا».

كانت جرانى ايساكس ربة العائلة وحاكمها المطلق ، ماتت عن مايزيد عن المائة عام، والآن لايوجد رئيس للعائلة ، يقولون «كانت شريرة ، لقد ذهبت الى دى إس إس وأخبرتهم أن أخى يبيع زهور النرجس فى ردروث ، بينما كان هو يموت من اللوكيميا ، لقد بصقنا على قبرها» .

يأكل «لى» وآدم فطائر محشوة باللحم فى وسط البلد ، كان آدم قد عثر على عمل يقوم فيه بتعبئة ملابس فى أوقات الفراغ بأجر قدره ٢٫٠٨ جنيها فى الساعة ، كان يعمل مديرا لمتجر لأدوات الألعاب الرياضية فى «سافينكوس» ، «كنت» ، ولكن عندما عادت أسرته إلى كورنوال جاء معها ، واعتبر أنه هجر وظيفته دون إكراه ، وحصل على ١٨ جنيها فقط فى الأسبوع ، بعد أن كان يحصل على ١٠٠٠٠ جنيها فى السنة ، كان «لى» قد ترك الكلية لتوه ، حاصلا على اتش إن دى فى الجيولوجيا والإحصاء التطبيقى، «عندى أُذن سيئة ، ولم استطع الحصول على شهادة أمن للعمل فى المناجم.

كان علىّ أن أسعى للحصول على درجة علمية غير أننى كنت أُحَسِنُ أحوالى ، لكننى عدت لأجد صبية فى الثامنة عشر يقودون سيارات سريعة ، وعجبت حقا لماذا أتعبت نفسى» ، يقول آدم : «لقد جئنا إلى هنا ، إلى مركز العمل ، فى بعد الظهيرة ، حيث تصل الوظائف الخالية إلى ذروتها وقت الظهر . إنك لاتتعب ، تظل تعمل طوال الليل ، ثم تنام أثناء النهار». إنه يقول : منتقصا من قدره الذاتى ، ويكاد يكون معتذرا ، «إن أيامنا تقاس بالزمن الذى يحتله الصابون الاسترالى فى التليفاز».

هنالك نقص حاد فى المساكن فى منطقة كامبورن ردروث ، إن نسبة عالية ، بشكل غير عادى من الناس ، تعيش فى كرافانات وعربات قديمة ، والسكن المؤقت مع الأسر والعائلات ، أو البحث عن مأوى فى دور الضيافة ، إن دار الضيافة التى شيدها «اتحاد ديفون وكورنوال للإسكان» مملوءة على الدوام ؛ والناس الذين ينتظرون أن يعيد المجلس إسكانهم هم العائلات وليس العزاب ، إن «تامسين» توشك على الوضع فى أى وقت الآن . وكان دونالد يعمل فى مصنع يقوم فيه بلف اللحوم بأجر قدره ٢.٧٥ جنيها فى الساعة ، غير أنه عندما فقد وظيفته ، ألقى به أخوه خارج المنزل ، والتحق بنظام النوم والإفطار الذى يكلف المجلس ١٤٠ جنيها فى الأسبوع ؛ فى حين أن الـ ٨٠ جنيها معونة الإسكان فى دار الضيافة أرخص بكثير.

إلين فى حجرة الغسيل فى دار الضيافة الجديدة ، إن لديها وزوجها ، عملا تجاريا صغير فى المدينة يسمى «ستورك نست» ، متجراً يبيع ملابس الأطفال ، كان زوجها مدمنا للكحول وينكر ذلك ، وتُركت هى لتقوم بكل العمل والعناية بالأطفال الثلاثة ، وفشل العمل فى النهاية ، ولم يُسمح لهما بإدارة الرهنية ، إن أحد الأطفال مصاب بالربو ، وقد حصل على خمسة وثلاثين إذنا بدخول المستشفى ، إن الأطفال يقولون : ، «متى سنذهب إلى المنزل؟» إن إلين رأت حلمها فى امتلاك منزلها يتحقق ثم يضيع ، إنها تجربة مؤلمة للغاية ، إن الناس يتحركون داخل الفقر وخارجه بطريقة اعتباطية ؛ إن صورة عجلة الحظ ملائمة ؛ إنها تعتمد كثيرا على إذا ماكان معك شريك جيد ؛ وعلى الحالة الاقتصادية وعلى حالتك الصحية ، إن هؤلاء الذين يوصمون بأنهم بلا مأوى وعاطلين ، هم فى الغالب قادرون وماهرون ، ليس هناك من هم طبقة دنيا ؛ هناك فقط ضحايا النظام ، والذى يوجد من بينهم من هم أفضل حالا من غيرهم ، مما يمكنهم من الكفاح والقتال مرة أخرى .

عاشت جولى فى دار الضيافة عاما ، باع المالك المنزل الذى كانت تستأجره وزوجها، أعطيا مهلة أسبوعين للعثور على مكان آخر ، وأمضيا وطفلاهما أربعة شهورفى نظام النوم والإفطار ، «كنا نعيش فى غرفة واحدة طوال المساء ؛ لم يكن هناك شئ نفعله غيرالفرجة على التليفاز ، إلا أن ذلك كان يبقى الطفلين يقظين» ، إن زوج جولى يعمل ميكانيكى صيانة فى موقف رئيسى للسيارات ؛ إنه يعتنى بالآلات ،

ويطهر البرك ، إنه يغادرالمنزل فى السابعة والنصف صباحا ، وغالبا مالايعود إلى المنزل حتى التاسعة فى الموسم الصيفى ، «إنه عمل مسئول للغاية ، غير أنه يحصل على ٨٠ إلى ٩٠ جنيها اسبوعيا ، العمل موسمى ، وهو لايعرف إن كانوا سيبقون عليه فى الشتاء أم لا».

كان منزل والدة جولى ملحقا بمنزل آخر سقط فى بئر منجم ، إذ انفتحت حفرة لغم. وقد استغرق الأمر منهم ثلاث سنوات إلى أربعة كى يعلنوا عدم أمان المبنى، إن جولى تدفع ٦١,٣٠ جنيها شهريا لتخزين أثاثها فى كنيسة عتيقة ، لقد دفعت خلال العام قرابة ١٠٠٠ جنيها ، «لو كنا مدرجين ضمن دعم الدخل ، كان المجلس يتحمل عنا هذه النفقات ، لكن آدم كان يعمل ، ومن ثم كان علينا دفعها».

هناك فى الجهة المقابلة لدار الضيافة صف من الأكواخ ، إن باب إحداها مفتوح ، وصوت المجموعة «أوروبا» ينطلق من الستيريو ، إن تونى ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، يطالع الجريدة بحثا عن عمل ، إنه بلا عمل منذ ثمانية عشر شهرا ، لقد تقدم بطلب للعمل فى وظيفة مصنع للفخار والخزف بأجر قدره ٢,١٨ جنيها فى الساعة غير أنهم لم يردوا عليه ، لقد عمل فى البناء والتشييد ، وأعمال الحقل والايصال واللحام ، لقد جاء إلى هنا منذ سبعة شهور مضت هو وصديقته شارون التى لديها خمسة أبناء ، إنها عاطلة أيضا ، إن الـ دى اس اس يدفع فائدة على صك الرهن ، كان تونى يُستَخدم أيضا فى ملهى ليلى ، لإخراج غير المرغوب فيهم ، كما عمل فى إقامة الطريق الجانبى لردروث ، سائقا لشاحنة نفايات ؛ فى هذا الوقت ، ثم رسم وشما مزخرفا على ذراعيه – وشم قيمته ٤٧٥ جنيها ، لقد تعلم منذ أصبح خارج العمل ، الطبيخ والعناية بالأطفال ، إن الطفل الجالس فى المقعد العالى يأكل فطيرة محشوة باللحمة من وعاء بلاستيكى.

يعمل زوج كارين فى «إيلينج» كمهندس «فورافون» ، إن لدى كارين طفلا فى الشهر الثالث من عمره ، ذهبت لتلحق به هناك فى حجرة يدفعان إيجارا أسبوعيا لها قدره ١٠٠ جنيها ، كانت كارين تخاف الخروج فى شوارع لندن على مسئوليتها ، وقد عادت إلى كورنوال بعد ستة أسابيع ، وهى لم تخرج طوال هذا الوقت ، ولو لمرة واحدة على مسئوليتها. إنه يتصل بها هاتفيا كل يوم . وهى تفكر فى المحاولة مرة أخرى لأنه ليس جيدا لابنتها أن تكون بلا أب ، مهما كانت النقود التى يكسبها ، إنها فى منزل شقيقتها فى انتظار الاتصال الهاتفى.

إن زوج سوزان يعمل لكن عليه أن يضيف إلى أجوره بالعمل اثنى عشر ساعة أسبوعيا فى سوبر ماركت بمبلغ ٣٢ جنيها ، إنها تقول «ماهو نوع المستقبل الذى ينتظرهم ؟ لقد وجدت ابنتى تبكى لأنها تخاف المستقبل ، عندما تكون شابا يجب عليك

الإحساس بأن حياتك أمامك ، إن أى فتى لديه أى قدر من الإدراك يحس بالخوف ، أى ميراث للشباب ، يوجد فى مدرسة كامبورن حضانة لأطفال التلاميذ ثم يودون تدريسهم التعليم الجنسى».

إن الأطفال يتعلمون ، فى المنازل الفقيرة ، كيف يتم تجريدهم ، إننى أريد هذا ، إن لدى ذاك . ماذا ستعطينى؟ ما الذى يمكن أن آخذه؟ ماذا معك من أجلى ؟ ماذا أحضرت لى ؟ إن أم نيكولا وكارل تحاول تهدئتهما بوعدهما بما سيحضره لهما بابا نويل ، بينما تضاء الشعلات على التلال حول كامبورن ، احتفالا بليلة منتصف الصيف، «إنهم يعرفون ماذا يريدون» ، تقول جراس فى إعجاب ، غير أن الالتباس الذى يشوب ماتقول يضيع منها الكلام . إنهم يعرفون ماذا يريدون لكنهم لايعرفون ماذا يفتقدون .

الرياح القادمة من الأطلنطى تهب على أرض كامبورن المرتفعة ، إن العواصف تطيح كل عام بالقرميد والأسطح ، أن تكون صانع أسقف هنا ، يعنى أنك تعمل فى أكثر الأعمال أمانا ، حيث ذهبت باقى الأعمال كلها ، فقد أتلفت النيران قصر الباسيت، أى لوردات معادن مناجم كامبورن ردروث ، والرجل العجوز الذى كان سائقا لجيم هولمان ، والذين يقومون بتحليل المعادن وعمال المناجم ، ورؤساء المناجم فى فيلاتهم يتخلون الآن عنها إلى شقق من حجرة نوم وحجرة جلوس وشقق متهدمة ، أو محولة إلى دور رعاية حيث توحى ضبابية الأوجه الباهتة خلف الستائر المخرمة بأشكال غير مألوفة من الإهمال والتقصير ، وأشكال جديدة من الفقر تتوالد فى الأماكن التى كانت مشغولة يوما بالتعدين وصناعة الضرورات المادية .

عالم بريطانيا الثالث :
أرض اللعب المهشمة

«عشت عندما كنت فى التاسعة من عمرى ، مع جدتى فى تلال جاميكا ، استدعتنى ذات يوم ، وقالت : دى ، تعالى سريعا برقية من انجلترا مرسلة من أبيك وأمك إليك : فكرت أنى ذاهب إلى أرض اللعب المهشمة ، حيث كان والداى يرسلان لى دوما لعبا ، انتهى منها أطفال آخرون».

إن طبقات من «التجديد الحضرى» لم تؤثر بعد على النسيج الفيكتورى لـ «جرانبى تريا نجل» ومنطقة «توكستيت» السوداء ، إن القرميد الأحمر الداكن المصقول للحانات المهجورة ، «وحوش تخزين منشآت ليفربول ووتر» ، والحمامات العامة المغلقة ، والهيكل الخارجى لبناء مكتبة ، إنما هى أشباح ماكان ، فى زمانه أيضا تحسينات مدينية ، هنالك على بعد مئات قليلة من الياردات ، شقق من الثلاثينيات ، وأطلال وخرائب عقود وأقواس ، وأسفلت تغطيه شظايا زجاج من الخمسينيات ، وضوء الشمس ينساب عبر شبكات الأسقف العارية . وأبنية عام ١٩٦٠ المكعبة الشكل ، وقد غدت الآن خالية من السكان ؛ ومنازل جديدة عمرها سبع سنوات متراصة بأناقة ، مطلية بالقصدير وقد غزاها عشب كثيف ، إن العمر الإفتراضى للمنازل يتناقص كما يبدو مع مرور كل عقد.

إن مواقع اضطرابات وصخب عام ١٩٨١ قد أحيلت إلى مناظر خلوية ، إن أماكن المتاجر المحترقة فى «لودج لين» هى الآن أكمات أعشاب وشجيرات ، وكأن هذا المنظر الخلوى ، الأشبه بالقرافة يمكن أن يدفن الظلم والقهر اللذين قادا إلى الهبة ، إن المتاجر التى أُحرقت ، كما يقول الناس : لم تستخدم البتة سوداً .

«إن ليفربول مدينة عنصرية للغاية ، أنت تحس بالأمن فى جرانبى ، لكنك تفكر مرتين قبل الذهاب إلى المناطق العنصرية المسكونة كلية بالبيض فى «النورث أند» ؟ ، إن أصحاب المتاجر لايضعون حتى الفكة فى يدك ، لكنهم يلقونها فوق منضدة النقود.

«كنت حبلى فى الشهر السابع ، أسير فى «بومونت ستريت» وتصادف أن كان زوجى يسير خلفى ببضع ياردات ، وتوقفت عربة شرطة بدون علامة ، وقال السائق «هل ترغبين فى توصيلة؟» ، كانوا يودون اغرائى ، وجعله هو قوادا ، حبلى فى الشهر السابع ، ولم استطع تصديق ذلك.

«وقد أخبرونا بعد هياج ١٩٨١ : العنف لن ينالكم فى أى مكان ، لكنه نالنا ! وجاء كل السياسين والقادة والعاملون فى المجال الخيرى ، وقادة الكنيسة ونجوم «البوب» وسائحو الفقر ، جاء الجميع !».

«كلما كانت هنا جنازة ، خرج فيها الجميع ويتوقف المرور ، إنه فعل من أفعال التحدى ، لقد جعلتنا ننتظرك طول حياتنا ، سوف نجعلك تنتظر ، مرة واحدة فقط ، عندما تموت»

«إن الأولاد السود يشبون وهم يعرفون كيف يستخدمون عنصرية البيض ، إننا نستخدم خوف الأولاد البيض منا لضمان سلامتنا ، هذا ما يجعلنا قادرين على اجتياز الحياة»

مكتوب على آخر حائط فى شارع جرانبى : «الخنازير تدخل هنا على مسئوليتها» نوافذ بعض البيوت المهجورة المبنية بالآجر غطيت برسوم لبطلات وأبطال سود ، «سوجورنر تروث» ، «نادى بالحرية عبر الأرض ولكل سكانها» ؛ «ستيف بيكو» ، «هاربيت توبمان» ، إنثى موسوية تعبيراً عن جنسها ، وهنالك ، فى الجوار ، إعلان بأنه قد تم العثور ، فى يناير ١٩٩١ ، على آله تصوير فيديو ، تابعة للشرطة ، ومخفاة خلف جدار مرتفع ، مصوبة إلى مدخل مقهى قريب ، جاسوس ، على المجتمع ، عالى التقنية،

الشباب يقفون عند ركن شارع جرانبى ، يركلون كرة قدم على حائط خالى من أى شئ إنهم وقد رُفضوا كوظيفة وهدف ، غدوا موارد محذوفة من الانتاج ، مثلهم مثل أرض متروكة بلا زرع ، المجتمع يلقى جانبا بشبابهم وطاقتهم ، إن هذا الاهدار للموارد البشرية يناظر اهدار المجتمع الصناعى للموارد المادية – تبذير مضاعف فى عالم فقير يعانى ، « إن الخبز والأمل هما مايحتاجه الناس» ، فإن أُلغى أحدهما هلك الناس» .

يمتلك كين دريسديل دكان حلاق فى شارع جرانبى ، وقد دُهن حديثا ، فغدا داخله أبيض خال من العيوب ، والمعدات جديدة مصقولة ، غير أن الدكان كان أكثر مما يبدو فى مظهره ، كان كين يدير أيضا «مشروع جرانبى لليقظة من المخدرات» ، لقد وُلد كين فى جرانبى ، واحد من سبعة أبناء ، إن صوته يهتز بالمشاعر عندما يتحدث عن شبابه، «إننى أرى الصبية هنالك وقلبى يتألم ، لأننى كنت مثلهم ، إننى أرى فيهم احتمالات لايراها أحد غيرى ، إنهم إن عوملوا بطريقة صحيحة سوف يتفتحون كالزهور ، لقد شطب صبية المجتمع ، إننى أعرف ما أقول ، لقد بدأت الحصول على تعليمى فقط ، بعد تركى المدرسة ، وقد قرأت أول كتاب لى وأنا فى التاسعة عشر من عمرى ، انظر – إن المؤسسة الوحيدة الممثلة للدولة هنا هى الشرطة ، وقد فكر بعض الرسميين هنا ، عندما بدأت المشروع ، من هذا الأسود حديث النعمة ؟ فى لقد طبعنا بطاقات مؤلفة من رقائق ، نحكى فيها للصبية عن آثار كل مخدر – الكمية القليلة ، الإغراء والمحاولة ، النشوة ، وما الذى يجب عمله إن تناول أحدهم جرعة زائدة عن الحد ، لقد تلقينا للتو ٥,٠٠٠ جنيها من وزارة الداخلية ، بعد عمل دام خمس سنوات فى هذه المسألة ، إننى

أفهم نفسية الصبية ، إننى أعرف ما تفعله بهم الظروف غير المواتية والتقدير الذاتى المتدنى . إننى أعرف لماذا لايستيقظ شاب فى الصباح ليذهب للقاء من أجل عمل ، سوف يضيع لحظة أن تقع أعينهم عليه ، إن الشباب ملئ بغضب له فيه كل الحق ، إن السؤال الذى لم يسأله أحد البتة هو ، «ما الذى يجعل قطاعا من المجتمع يحس بأنه محاصر إلى حد أنه يسلب وينهب ويحرق؟» إنهم لم يسألوا هذا السؤال فى لوس أنجلوس ولم يسألوه فى ليفربول».

كانت هناك مظاهرة عام ١٩١٩ ، فى ليفربول قام بها الجنود المسرحون ، وقد نظمها البحارة ، وطالبت تلك المظاهرة بطرد كل منهم من غير البيض من الوظائف التى شغلوها ، أثناء الحرب ، فى السفن ، وفى المصانع الهندسية وإحلال بيض محلهم، ولم يستطع بعض السود العودة إلى البحر مرة أخرى ، وظلوا فى ليفربول وانتهت المظاهرة بأول هياج عنصرى فى بريطانيا ، وطارد بعض الغوغاء البيض شارلز ووتون وأغرقوه فى «ميرسى» .

ينظر جو إلى زوجته بحنان ويقول : «إننى أعجب بالمرأة البيضاء التى لم يهزمها الضغط العنصرى» ليس هنالك من مكان آخر تذهب إليه المرأة السوداء، للمرأة البيضاء حق الاختيار ، إن فى وسعها أن تغادر ، غير أنها لاتفعل ذلك»، لقد تركت أودرى المدرسة قبل أن تبلغ الخامسة عشر ، وتزوجت عندما بلغت السادسة عشر ، «لقد كرهت المدرسة ، كرهتها لأنهم لم يدركوا أننى ذكية ، لقد التقيت بجو فى الكارفان. وكان ماكان ، ولم يحضر الزفاف أحد من عائلتى ، وتبرأ أخوتى منى».

«آن» الآن فى الأربعينيات ، إنها تقول إنها قد وُهبت يوم مولدها ، أخذتها امرأة بيضاء ، فنبذتها أسرتها لفعلها ذلك ، لقد عاشت حياة بشعة غير أنها كانت امرأة جميلة، لم تتخل عنى البتة لدقيقة واحدة» ، وعندما عاد زوجها من البحر ، ظن أنها كانت على علاقة برجل أسود ، فضربها ، «وقد اعتاد الناس ان يقولوا لى :كيف حدث أن جئت بنية اللون بينما والداكِ بيض ؟ واعتدت أن أقول ، لقد أعطونى كمية كبيرة من الشيكولاتة ، لقد وجدت ملاذا من التعصب حتى أنجبت أطفالى.

«كنت أعتقد أن أبى الحقيقى قد مات ، وتبين لى ذات يوم بينما كنت أتحدث مع جار لى ، أنه من ذات بلدة أبى ، قال : ماذا كان اسمه؟ فأخبرته به ، وقلت لكنه مات منذ زمن طويل ، قال :، كلا إنه لم يمت . إنه يعيش عند ركن الشارع ، وسوف أحضره ، وبالفعل أحضره .

«وعندما أنجبت طفلى الأول عاملتنى المستشفى بقسوة لأننى سوداء وغير متزوجة ، كانت كل النساء البيض المتزوجات فى جانب من الردهة مع أزواجهن وورودهن ، وكنت أنا بمفردى معزولة فى الجانب الآخر.

«أتذكر عندما كنت أحمل أمى ثلاثة طوابق من السلالم وهى مخمورة ، وقد اعتادت النسوة القول :، الطفلة البائسة ، أمها سكرى مرة أخرى» ، وتقول آن «أنا سعيدة أننى لم أكن غنية لأننى لو كنت غنية ، لو كنت كذلك ، لما كنت الشخص الذى أنا هو اليوم» .

ما كانت تحمل للآخرين الحنان والمشاعر التى شكلت حياتها ، إنها ما تزال تكفن الموتى وتواسى المحرومين ، «إننى أقول للشباب ، راقبوا الآن ما أفعله ، لأنه سيكون عليكم أن تفعلوه يوما ما ، إننى لا أعرف إن كانوا سيفعلون ، غير أنه يوجد هنا تضامنا قوى ، فعندما قتل المتنزهون بالسيارات الطفلين فى شارع جرانبى ، كان الجميع غاية فى الروعة ، من الصعب أن يشرح المرء للأغراب مدى كرم الفقراء ، إن هؤلاء الذين لاشئ لديهم ، يعطون أقصى ما عندهم ، لأنهم يعطون من ذواتهم» .

المذياع يذيع فقرة فى الأخبار المحلية عن رجل يرقد مخمورا خارج الحانة فى «بوتل» ، والشرطة تبحث عن اثنين من الرجال نجحا ، جزئيا ، فى قلع عينيه ، وصدم الناس فى توكستيت ، «ما كان ذلك يحدث هنا البتة» .

إن إعادة تنمية «البرت دوك» و«الفستيفال بارك» ، مرتبط بطريق جديد يتفادى توكستيت ، حتى لايراها أحد من الذين يقومون برحلات يومية من المناطق الجديدة هناك إشعار قرب الحديقة يقول ، «أنت تدخل الآن منطقة المتعة» ، يقول جو فرح ، «إن النقود التى دخلت ليفربول بعد الهبة لم تفعل شيئا يخفف من الفقر أو البطالة فى توكستيت إن أكبر قطاع عمل معروض فى مركز التوظيف هو وظائف فى «أماكن أخرى» .

إن أكثر القادمين حداثة فى جرانبى هم لاجئون من الصومال ، إناس أزاحتهم الحرب الأهلية ، لقد أرسلتهم السلطات المحلية إلى هنا زاعمة أنهم سيكونون فى أمان، فى مجتمع أسود ، يقول آدم حسين ، الذى جاء والده من الصومال فى الأربعينيات ، كان هناك احتكاك بين القادمين الجدد والمجتمع الأصلى الأسود ، إن كان فى وسعى أن أدعوه كذلك ، ليست هذه هى المرة الأولى ، فقد حدث نفس الشئ عندما جاء الكاريبيون فى الستينيات ، إن أبناء الكاريبى يتحدثون اللغة الوطنية التى لم نستطع فهمها ، وأحس السود الذين يشبهون اللحم المشوى والذين يتحدثون الانجليزية ، بالتهديد ، لقد افترضنا أنهم أغبياء وكنا نتلمس سببا لقتالهم» .

فقد رجل صومالى ، فى حادثة فى نهاية مايو ، أصابع يده من ضربة منجل «واستاء الصوماليون ، لأنهم أعطوا منازل ، لم يكن يريدها أحد ، حتى أصلحت ، فأصبح الجميع يرغبونها كانت الشرطة تعرف من الذى فعل فعلة المنجل ، غير أنها لم تتخذ أى إجراء ، لماذا؟ ، لقد ذهبوا إلي الجامع ، وقالوا للصوماليين أنهم مخولون بالدفاع عن أنفسهم ، ماذا يعنى ذلك مالم يكن دعوة لمزيد من العنف؟ هل كانوا يودون مبررا آخر للحركة العنيفة وتحطيم المكان مرة أخرى؟ كانت هناك عدة هجمات على

النسـاء الصـومـاليـات ، اندفع النـاس إلى المنازل وخطفـوا حقـائب أيديـهن ، حيث كـان ينظر إلى الصـومـاليين ، باعـتبـارهـم ضـعـفـاء يسـهل الاعـتـداء عليـهم ، الشئ الذى لم يعرفوه أنهم قادمون من منطقة حـرب ، وأنهم مجروحون للغاية ، وأن أجساد الكثيرين منهم تحـمل ندوب طلقات الرصـاص ، إن لم تتـخـذ الشـرطة اجراء فـإن الصـومـاليـين سوف يتخذون هذا الإجراء ، لقد فقدوا الأسر والأصدقاء ، وهم لن يأخذوا أى فضلات تقدم إليـهم مهمـا كانت ، لم يكن كل السـود الأصليين ضـدهـم ، كانت مجرد مجـموعة بعينها ، كانوا يعلمون خطأ مـايفعلون ، كـان الجمـيع يمارس نفس النشـاط الاقتـصادى الخفى. ويعـتمـدون على نفس النـاس ، غيـر أن بـعض الشـبـاب السـود الأصليين يقـولون إنهم يعتقدون أنهم أفضـل منا لأنهم مـسلمـون ، المشلكة هـى أن قيّم البيض قد سُمرت فى بعض السود».

أُبعدو والد جو كغريب غير قانونى عندمـا كان جـو فى الثانية من عمره ، وترك جـو المدرسـة وهو فى الرابعة عشـر ، كان قد اتُهِم ثلاث مرات بالتـعدى بغرض السطو لأنه كان مـعـتادا الذهـاب إلى مكتبة الجـامعة للقراءة ، وعندمـا بلغ الخـامسـة عشـر كـان قد حوكم خمس مرات وكان قد أُرسل إلى مدرسة معتمدة .

واسـتـبـعـد ابنه بن من المدرسـة فى سن السـادسـة عـشـر ، ضـحـيـة تنمـر مـدرس عنصـرى، وقـد قـال له هذا المدرس بعـد حـادثة تافـهة ، «لقـد أهدرت من وقـتى خـمس دقـائق» ، فقـال له بن ، «وأنت أهدرت عـامين من وقتى» ، وذهب بن بعـيـدا للتـعبيـر عن شـعـوره بالمرارة ، ذهب إلى «إدارة التـعليم» ، واقـتـرح أن تحـدد كل مـدرسـة شـخـصـا مسئولا كى يحـول دون تصـعيد المشـاكل لتصل الى إبعـاد الصـبية السـود ، وقـد وضـع نتيجة ذلك مشروع تجريبى.

ديلروى مـوسـيـقى ، سـجل الآن أغنيـة مع بـعض ممن فى الحـادية عشـر ، اسـمـهـا «أوقفوا النزهة بالسيارات» ، كرد فعل لحوادث الموت التى وقعت فى شارع جرانبى، إن لديلروى حـاسة قوية فيـما يتعلق برسـالتـه مع فرقتـه «جاه دينخو» . إنه تابع لمشيئة خالقه الذى وجهه إلى ليفربول ليساعد فى إنقاذ الشباب من تحطيم أنفسـهم بأنفسهم ، إنه يقـول : «ليس لدى الشـبـاب إحـسـاس بالمسـتـقبل ، إنهم يقولون ، مـاذا يهـم ، إننا جـميعا إلى موت بسـبب التلوث وثقب طبـقة الأوزون ، لذا من الذى يهـتم إن أنت أخـذت مخدرات أو دمرت نفسك ؛ إن هولاء الذين ليس لديهم احساس بقيمـة الأشياء ، محكوم عليهم أن يعيشوا فى الحاضر .

«إننى أقول لأخـوتى ، نحن مولدون فى الدَين»، إن أسـلافنا الذين كانوا عـبيدا هربوا من الزراعـة ، كـانوا يـعرفـون أنه لو قـبض عليـهم سـوف يشنقـون ، ويُقـتل الـبـعض منهم

فعليا وهوجى ، غير أنهم أدركوا أن البعض سوف يهرب ، قالوا : «علينا أن نفعلها لأن أولادنا سوف يولدون حينئذ أحرارا» ، إننى أقول لأخوتى ، إن أنتم لم تفعلوا شيئا تكونون قد أهدرتهم تضيحتهم وحبهم ، إننا الذرية التى ماتوا من أجلها».

«إننى الآن سجين ما أعرفُ : إن الوعى لايمكن نقضه . أنا أحب الكلمات ، غير أن الكلمات خذلت الشباب ، علينا أن نخبرهم بما يزيد عبر الموسيقى ، وسوف يتعرفون على أنفسهم فيما نقول ، علينا أن نريهم الخريطة لأنهم لايعرفون كيف يصفون ما فى قلوبهم .

«كان يمكن أن أكره البيض ، لكل مافعلوه بنا ، غير أننى لم أفعل ذلك ،إننا نملك الاختيار ، حتى الملائكة تحسدنا لأننا نملك الاختيار ، أما هم فلا ، إننى امتلك قوة جدتى ، إن انجازى هو تقديم قدوة للشباب ؛ لقد أُطلق علينا ،فرقة ليفربول للريجا الرقيقة ، إننى عندما جئت إلى هنا ، تخليت عن كل ممتلكاتى ماعدا الجيتار وغيار ملابسى الداخلية ، كان ذلك مرة أخرى بتأثير جدتى .

«إن المشكلة تكمن فى الأغنياء ، إنهم مصابون بمرض يدعى الرغبة فى النفوذ ، غير أنه عند امتداد هذه الرغبة إلى الفقراء ، فإنهم يلومونهم ، ويدعونهم بالمجرمين والغشاشين» .

ستيف سكيت من المهتمين بكرة القدم ، والذى قدم أيضا قدوة ايجابية للشباب ، إنه يدير ، طوال السنوات الخمس الماضية ، «نادى الميثاق» الناجح لكرة القدم ، والفائز بالكأس الأول لليفربول ، وقد اختارته «الكاريبيان تايمز» كأفضل فريق هاو فى الكومنولث ، لقد تشكل الميثاق بدمج ناديين أحدهما من المجتمع اليمنى المحلى ، وقد وعدت شركة الخطوط الجوية اليمنية برعاية الفريق وأرسلت إليه كى يلعب فى اليمن ، «كسبنا فى مواجهة الفريق الوطنى اليمنى ، وبينما نغادر إلى المطار ، اقتحم الجنود المركبة ، وأمرونا أن نسلمهم كأس النصر تحت تهديد القتل بالرصاص ، ولم نحصل البتة أيضا على الرعاية التى وعُدنا بها ، غير أن نجاح الميثاق اشعل من جديد ، اهتمام الشباب بكرة القدم . وهنالك فرق للصغار تحت سن الأربعة عشر والثانية عشر، والذين يسمون أنفسهم بفتيان الميثاق».

لم تكن الرياضة وحدها والموسيقى هما من قدم بدائل للشباب ، إن ميشيل وحيدة والديها ، تركت المدرسة قبل أن تنهيها ، وبدأت دراسات للحصول على درجة فى وسائل الاتصال والدراسات الثقافية ، كانت تعمل مذيعة فى الإذاعة المحلية غير القانونية ، حيث كانت معروفة باسم الأخت «م» وهى تعزف الريجا والروح ، وقد داهمت الـ «دى تى اى» محطة الإذاعة وأغلقتها ، «إننا نسعى لتغيير مهن الجيتو المفتوحة للسود ، لقد قاتلنا من أجل المزيد من الدراسات للسود، من أجل دراسة القانون ،

والخدمة المدنية والأعمال التجارية والعمل الاجتماعى والوسائط الاعلامية ، لقد تحدثت إلى ابنى عن العنصرية وهو فى الخامسة من عمره فقط ، لكننا هنا نعرف كل شئ ، عن ذلك فى تلك السن. لقد اعتادت توكستيت أن تكون منطقة للأورانج * ، واعتاد أهلها القول من الأفضل لك أن تتزوجى رجلا أسود بدلا من رجل كاثوليكى».

«إن أكبر عمل هنا هو إدارة الفقر . فكروا كم من الناس يمكن أن يفقدوا عملهم إن لم نوضع نحن موضع المجرمين ، شرطة ، عاملين فى المجال الاجتماعى، محاكم ، الضباط الذين يوضع المدنيون تحت اختبارهم أو مراقبتهم ، قضاة، ضباط الأمن الاجتماعى ، يجب عليهم أن يمجدوا الرب أننا هنا ، لأننا نضمن لهم رواتبهم ، إن الأعشاب الضارة (الحشيش) هى أكبر نشاط إجرامى ، فى ليفربول ٨، إنها جزء من الحياة اليومية ، إننا نُجزم من أجل شئ مقبول الآن بالفعل على نطاق العالم.

إنك إن استبعدت الجريمة المرتبطة بالحشيش ، فإن توكستيت سوف تصبح المنطقة الأقل إجراما فى ليفربول ، ومع ذلك فإن لدينا أعلى ثقافة بوليسية».

جاء أوستين سميث إلى جرانبى منذ خمسة وعشرين عاما مضت ، قس من جماعة «آلام السيد المسيح» ، عندما جئنا إلى هنا ، كان هناك قدر كبير من العمل المجتمعى فى توكستيت ، لقد فشلنا لأننا أُجبرنا أن نكون وسطاء ، فتركنا الناس بلا حول ولاطول كما وجدناهم ، إننا بدلا من استخراج مافيهم من ثراء وخبرة أمضينا وقتنا ندور حول البيروقراطيات والاحتكارات ونحصل على نقود ، لقد كنا أنانيين وقانعين ونشعر إننا على مايرام ، لقد مضى وقت قبل أن نستيقظ وندرك أنه يجب علينا التصدى للمؤسسات والشرطة ، لقد كنا زمن تاتشر نعانى اليأس ، وقد باغتتنا الاضطرابات عندما اشتعلت النيران فى جيراننا . وعندما أُعيد البناء ، رأينا تجريدا أعمق وفقرا أكثر وبطالة أكثر ، وانقاصا للمنافع ، ومزيدا من الثروة ينساب بعيدا عن الذين حل الفقر بهم بالفعل .

«العنصرية هى الجدل التاريخى القادم ، إن مانراه الآن إنما هو تحطيم رموز موروثة السلطة ، النمو الاقتصادى ، التملك ، إن قضايا أبدية يجب أن تثار فى حينها، والرموز التى تعكس تلك القضايا الأبدية تندثر بطريقة لامهرب منها ، إننا نعيش الآن عبر مثل تلك اللحظة» .

حصل جوفرج على عقد ايجار مبنى متداع فى القرن الثامن عشر عند نهاية توكستيت ، وكان هذا المبنى هو مأوى «فرسان سانت كولومبيا» ، وهناك فى القاعدة تتدرب مجموعات سوداء وتتمرن ، ينبغى إحالة المبنى إلى معرض صور وتماثيل ومكان

* مدافعون عن البروتستانتية (المترجم)

لقاء ، حيث يمكن للشعراء والموسيقيون عرض أعمالهم ، وحيث يبيع الفنانون وأصحاب الحرف ماصنعته أيديهم ، «مكان يمكن أن يرتاده الأسود والأبيض ، الشاب والعجوز ، المرأة والرجل ، ويحتفلون بمجتمعنا ، حتى لايدخل لدينا المزيد من الناس من الخارج، ليخبروا العالم كم هو ردئ».

يقول آدم حسين : «إن المزيد والمزيد من الناس يقولون : لماذا القتال من أجل شريحة من الكعكة ، مادامت الكعكة نفسها مسمومة ؟ لماذا القتال من أجل فرص متساوية ، إن كان ذلك لايعنى غير فرص متساوية لاستغلال الآخرين وإيلامهم؟».

«تارلاك» هى موطن الرئيسة السابقة للفليبين ، كورازون أكينو ، وموقع مزرعة العائلة ، «هاسيندا لويسيتا»، إن الهاسيندا منطقة محمية بصورة جيدة ،مكونة من ٦٠٠٠ هكتار : حقول شاسعة من قصب السكر ، عقد خضراء شائكة وسيقان أرجوانية ، هنالك اثنى عشر «بارانجاى» أو قرية ، حيث أن جميع المنازل من المعدن أوالخشب ، كما توجد بالمزرعة شبكة من قنوات صرف تنساب فى بطء ، تظللها أشجار الموز الهندى ، والإبيل -إبيل . ويغطى الخضرة على امتداد جسورها ، غبار سكرى أبيض ، من فضلات عملية التكرير ، إن الظروف التى يعيش فيها «الساكاداس» (القطاعون المتجولون) هى أسوأ الظروف ، ثكنات من صفيح ترتفع طابقين شديدة الحرارة ، تأوى هؤلاء العمال من «نيجروس» ، متجولون ، هزيلون ، جوعى ، يتحركون من هاسيندا إلى أخرى ، يكادوا أن يكونوا منفصلين عن أسرهم .

كان على الهاسيندا ، بسبب فقدان السكر لقيمته فى السوق العالمى فى السنوات الأخيرة - بسبب زراعة البنجر فى العالم الثرى من جانب ، بسبب استبداله بمواد تحلية صناعية به من جانب آخر أن تنوع منتجاتها ، أو تتآكل أرباحها ، هذا هو سبب استكمال المرحلة الأولى لمنشأة صناعية عند طرف المزرعة ، إن لويسيتا تسعى إلى مزيد من التوسع ؛ وهذا يعنى الطرد لمن يعيشون خارج هذا المجمع.

لقد صدرت أوامر إلى أهالى «كابيهان» لإجلاء متاعهم . كابيهان مستوطنة مقامة منذ زمن طويل ، ولم يحدث أن ناضل أحد من قبل البتة من قاطنيها ، من أجل حق الملكية ، كان قد استوطنها أساسا هؤلاء الذين خدموا فى الجيش الفليبينى ، وهى قد منحت للمتمرسين فى الحروب فى العشرينيات ، لم يدفع أحد من القاطنين ضريبة عقار ، مما يعنى أنه لم يعترف بهم كملاك للموقع الذى شيدوا فيه منازلهم ، وقد تسلموا فى فبراير ١٩٩١ خطابات تفيدهم بأن «شركة تارلاك للتنمية» هى مالكة الأرض ، إن حقيقة إنشاء جوزية كوجوانجكو شقيق كورازون اكينو لشركة تارلاك للتنمية ، تعنى أن الهاسيندا ذاتها تستولى على هذه الأرض من ملاكها الشرعيين ، إن البارانجاى (أو القرية) تغطى مساحة ٢,٥ هكتارا، وهى ملاصقة لقطعة أرض مباعة إلى «شركة لويسيتا للعقارات» عام ١٩٨٧، إن هذه الشركة هى التى شيدت المرحلة الأولى من المنشأة الصناعية والتى تحتلها فى الأساس شركات يابانية ، إن مالك شركة لويسيتا للعقارات هو ميجيل أرانيتا زوج إبنة جوزيه كوجوانجكو، وجاء فى خطاب آخر للقاطنين ، «نرجو أن تعرفوا أنكم برفضكم المتعنت لإعادة تسكينكم قد أخرتم جدول مواعيد برنامج شركة تارلاك للتنمية عن مساره وعطلتموه ، مما تسبب فى خسائر

وأضرار لايمكن تعويضها ، وحرم فى ذات الوقت العدد الأكبر من أهالى المنطقة من الفرص الاقتصادية التى يمكن الحصول عليها من مثل هذا البرنامج».

ليس متصورا أن تكون الرئيسة السابقة غافلة عما يجرى باسمها ، وعلى حافة ممتلكاتها من طرد لأناس ، لم يستطع أحد إنكار حقهم فى الوجود هنا مدة ستين عاما ، حتى تباع أرضهم إلى اليابانيين .

وقفت عند «بوابة الهند» خارج «فندق تاج» فى بومباى ، أسرة ممن يقدمون التسلية فى الشوارع ، تعد لألعابها وعروضها ، رجل وامرأة وطفلان وفتاة فى الثانية عشر ، ومعهم كلب يقفز عبر إطار عجلة قديمة ليستقر على هرم من علب صدئة ، والرجل يحمل عمودا طويلا ، أشبه بساق واحدة ، توجد على قمته وسادة محشوة ، إن ابنته ذات الاثنى عشر عاما ترقد على هذه الوسادة بحيث تسند خصرها ، إنها تتكأ إلى الخلف ، وقد ارخت ذراعيها ورجليها تماما ، حتى أنها تتأرجح بلا نظام ، مثل دمية من نشارة الخشب ، ويرفع الأب العمود عاليا بيديه ، وينثنى جسد البنت بطريقة مزدوجة تسنده الوسادة بحيث تكاد الرأس أن تلتقى بالقدمين ، ويرفع الأب الآن العمود على راحة يد واحدة ، ثم يضعها فوق جبهته ، ويميل برأسه إلى الوراء ، حتى تتوازن الطفلة تماما ، ويبدو جسد الطفلة وكأنه يطفو على ارتفاع قد يصل إلى أربعة أمتار فوق رأس الوالد . ويتجمع حشد من الناس ، وتقوم الأم بجمع النقود ، ويخفض الرجل العمود . وتقفز الفتاة الصغيرة إلى الأرض ، وتنظر الفتاة إلى أبيها ، تحمل أقصى درجات الثقة والاتكال .

مزرعة بذور زيت فى «كيبالاباتاس» ، ماليزيا ، الصفوف الطويلة للنخيل المقرفص تشكل أروقة قوطية على امتداد البصر ، ضوء أخضر معتم . العمال يذهبون من شجرة إلى أخرى يقطعون عناقيد فاكهة ذهبية برتقالية ، هنا فُقد صبى فى الحادية عشر من عمره . كان يعمل فى غرفة التجهيز حيث تغلى البذور فى قناطيس ضخمة ، لم يعد فى تلك الليلة إلى منزل الأسرة فى المزرعة ، وأُوقفت الغلاية فى اليوم التالى ونظفت ، حيث تم العثور على بعض العظام ، التى أخذت إلى الشرطة ، وقالت الإدارة أن تلك عظام حيوانات ضلت طريقها إلى حجرة الغلاية ولم تقل الشرطة شيئا ، وقيل للأب إن تلك العظام لم تكن عظام ابنه ، وعليهم أن يبحثوا عنه فى أماكن أخرى ، وظل الأب يبحث عن إبنه مدة خمس سنوات ، وأُرسل تقرير إلى النقابة ، غير أن شيئا لم يحدث ، وعندما سمعت «جميعة بينانج للمستهلكين» بالحالة بعد سبع سنوات ، فإنها وحدها فقط التى كتبت إلى الإدارة تسأل عما حدث للشاب الصغير الذى يعمل طرفهما ، مايزال الأب يحتفظ بورقة راتبه ، وقد ردت الإدارة بأن الرجل اختفى منذ سبع سنوات، وأنهم مازالوا فى انتظار تقرير الشرطة . وأكدت الشرطة أن العظام كانت حقا عظاما بشرية إلا أنه لم يكن فى الإمكان التأكد من هوية صاحبها ، وأشارت

جمعية بينانج للمستهلكين إلى أن أحدا آخر لم يختف ، وأن الإنكار بدا كمحاولة لتجنب دفع تعويض ، وذهبت القضية إلى المحكمة التى قررت أن العظام كانت عظام الصبى الذى سقط فى حوض الزيت وأمرت الإدارة بأن تدفع لأسرته ، وقد تسلم الأب منذ عهد قريب تعويضا قدره ٤٠٠٠ جنيها .

إن المقاطعات الغنية ، التى تكتنفها أرض الغير ، فى مانيلا ، عبارة عن مجمعات معزولة يحميها حراس مسلحون ، وهنالك نقاط تفتيش عند مداخلها المورقة ، مع حواجز سوداء وصفراء وأكشاك زجاجية واقية من طلقات الرصاص مثلها مثل حدود دولة أجنبية.

إن مرتفعات «ايالا» هى واحدة من تلك المقاطعات ، تشرف على التلال شمال شرق مانيلا ، هى مكان صخرى ، مع قصور تدعمها جروف خرسانية ، ومصاطب تزينها نباتات الجهنمية والخطمية ، إنها مبنية فى عدد من الأنماط المتنوعة الفطرية، والتى غزت الزمان والمكان استلهاما لهما ، البعض طويل ومنخفض مثل نهايات المطارات ، والبعض الآخر ذا عمد كورنثية وبوابات من الحديد المطاوع ، والبعض مثل منازل «هانسل وجريتل» المصنوعة من كعك الزنجبيل ، والبعض الآخر مثل الخلوات النازية فى الغابة السوداء ، ومثل النمط الاستعمارى الاسبانى ، «تيودور وجاكوبين» ، الحدائق تعريشات غريبة من نبات الأوركيديا وصبار إبرة آدم ونخيل الشمبانيا ، التشييد يجرى فى كل مكان ، يملأ المسافات بين الفيلات ، ٦٠ هكتارا من الرفاهية المفرطة ، بنيت غالبيتها فى إطار الست سنوات التى شكلت حقبة أكينو ، هنا يعيش هؤلاء الذين حققوا أوضاعا جيدة بصورة ظاهرة للعيان هؤلاء الذين قاموا بغسيل الأموال السوداء. هؤلاء الذين يتمتعون بثمار استخدام الوظيفة للحصول على منافع غير مشروعه والفساد ، وكذلك القضاة وجنرالات الجيش مع زوجات أوقات الفراغ ، واتباعهم من الحرس الخاص وكلابهم المكشرة عن أنيابها . ويعيش فى هذه النخبة سناتوران ، والمتحدث باسم الجمعية ، ورئيس سابق لأركان حرب، ونجم سينمائى ، ورئيس «شركة الأغذية النقية» ، وكذا الكثيرون من أصحاب المهن الذين ساندوا «سلطة الشعب» عام ١٩٨٦، إن غالبية هؤلاء قد خاب فألهم ، وتراجعوا الى حياة خاصة للغاية.

فى ديوان عربة قطار ضواحى بومباى المزدحم ، تغنى فتاة متسولة تصاحب نفسها بنقر حجرين معا وساجات معدة بطريقة مرتجلة ، وعندما تنتهى تتجه إلى الركاب وتمد يدا دقيقة فى ضراعة ، ورجل جالس مع ابنته ، فتاة فى حوالى السادسة ، نفس عمر المتسولة، الرجل لاينظر إلى الفتاة المتسولة لكنه يصرفها بحركة من يده ، ابنته تقلد حركة صرفه للفتاة ويرى الرجل فعلته القبيحة وطفلته تحاكيها ، فيضع يده فى رقة عليها ليمنعها ، ويستدعى الطفلة المتسولة ، ويضع عملة فى يدها .

ويناضل أصحاب المناجم الصغار فى «باجيو» فى «لوزان» ، الفليبين ضد «شركة بنجويت» ، وعملية الاستخراج الواسعة للذهب والنحاس من حفرة مكشوفة ، إن هذه العملية تدمر المجتمعات التى تعيش حول الحفر ، إن الشركة تدك كل الجبال ، إنها تغير كل طبوغرافية الريف ، ويزاح ، أثناء تلك العملية ، صغار أصحاب المناجم ، إن هؤلاء يستخدمون أسلوب حفر الأنفاق الخشنة التى لاتفسخ التلال ، وعندما سئلوا لماذا هم ضد تعدين الواجهة المكشوفة ، قالوا: ، «أولا ، لأن الشركة تزيح التربة العلوية وبذا أين يمكننا زراعة محاصلينا؟» ، وقالت الشركة: «نحن نملك المكان ، وفى وسعنا فعل مانشاء »، ثم سئلوا «هل ملكيتكم مطلقة إلى حد أنكم تستطيعون تحطيم كل المنطقة؟»، فقالوا: «إننا نريد الملكية ، وتلك هى أكثر الطرق الاقتصادية للوصول إلى الخام»، وسألهم السكان المحليون ثانيا ، «هل تلك الملكية ملكيتكم؟» ، وأجابت الشركة «نعم إن لدينا سندات التملك»، متى أصبحت تلك ملكا لكم؟» «عام ١٩٠٣ » ، «لكننا نمتلكها منذ زمن موغل فى القدم ، من الذى أعطاكم سندات الملكية؟» «حكومة الولايات المتحدة» . «إننا لانعترف بمثل تلك المستندات ، إن الأرض ملك لأسلافنا » ، ثم قالوا: ، «وحتى إن كانت ملكا لكم ، هل يجب عليكم تدمير مصادر مياهها الجوفية العذبة؟ إنكم عندما دككتم الجبل دمرتم خزان المياه الجوفيه» ، قالت الشركة ، «سنستبدلها بمياه عبر الأنابيب ، مياه سوف توفرها الشركة » إن الاستخراج من فتحة مكشوفة سوف يدمر مصدر رزق أصحاب المحاجر الصغار ، أو أصحاب المحاجر الجيب كما يدعون ، إنهم يقولون إن الشركة تختار دوما قطْع الجبل فى النقاط التى يقومون هم فيها بأعمال استخراجهم صغيرة المدى ، إن الشركة تسمح للسكان المحليين بمدخل ما إلى عقاراتهم ، لأن أهل المنطقة هم أفضل باحثين عن الخام ، ثم تذهب الشركة إلى البقعة التى اكتشفوها وتطردهم خارجها ، وحينئذ فقط تبدأ المعدات المتطورة انتشارها ، وهى المعدات التى ليست على أى حال ، متطورة بما يكفى لمتابعة الخام بذات كفاءة أصحاب المحاجر الجيب .

جلس ثلاثة رجال ، صغار الجماجم، مشوهون وعاجزون بطريقة مفزعة ، على طول امتداد خيش فوق رصيف «مارين دريف» عند واجهة بحر بومباى التى تشبه حدوة الحصان ، إنهم يجلسون ، فى ظلال سور البحر ، وهم يرتدون بلوزات رمادية قذرة ، يحملقون فى حيرة فى المارة ، وهنالك إلى جوارهم إعلان على ورق مقوى يقول ، «نحن أخوة ثلاث ، لانستطيع الكلام أو العمل ، إننا معوقين منذ مولدنا ، إن أخانا الأكبر يرعانا . نرجو المساعدة» . والناس تمطرهم بعملات صغيرة القيمة ، إنهم لايلتقطون النقود ، لكنهم يدعونها راقدة ، بقع من فضة فوق الخيش القذر . ويسير الناس على مهل قربهم يراقبونهم بمزيج من الفزع والانبهار ، ربما يكون المشهد النهائى فى نظام

اجتماعي واقتصادى، هو أن يبتلى الإنسان بأكبر شقاء ، فيصبح هذا الابتلاء هو المصدر الوحيد لدخله ولاستمراره حيا .

ساعة ذروة المساء ، في محطة السكك الحديدية الخاصة بالضواحي ، القطارات تصل المحطة ، وقد تشبث الشبان بأصابع أقدامهم وأطراف أصابع أيديهم ، بأبواب العربات المفتوحة ، إنهم يقفزون فوق الرصيف ، وأناس يخرجون من العربات هم أكثر من قدرتها على الاحتواء ، وهي رغم ذلك مازالت مليئة ، قبل أن تمتص بصورة ما موجة أخرى من الركاب.

إن بعض الناس على الرصيف لايحاولون ركوب القطار ، إنهم يظلون في مواضعهم تحت مراوحهم سريعة الدوران وأشعة شمس المساء المتأخر الكثيفة البرتقالية ، إن هذه المحطة هي واحدة من أفضل أماكن اللقاء المعروفة للرجال المتهتكين ، لا أحد يلحظهم من المسافرين الذين يتجهون مباشرة إلى باب الخروج ، وإلى الأوتوبيسات والتاكسيات - الدراجات ، إن الفرق الأخرى من الناس ، والذين يستخدمون المحطة أناسا غير مرئيين لكل من الفريقين إنهم العمال الذين يقومون بخدمة المحطة والصبية الذين يلمعون الأحذية ، وهم يدقون فرشاتهم على جانب الصناديق التي توضع الأقدام عليها ، والعاملون في الأكشاك الذين يقدمون زجاجات شراب بلون الكبريت وكعك مثلج أخضر في لون الحامض وشاى في لون الطين ، والكناسون وباعة الجرائد ، ولا أحد يرى الشحاذين ، رجل مقعر الصدر نحيل الذراعين حتى أن مفاصلة العجفاء تبدو متفتحة ؛ ورجل أزال الجذام نصف وجهه ، وآخر أعمى عيناه فارغتان بيضاوتان يقوده طفل في حوالي الثامنة ، وفتاة صغيرة ذابلة الساقين تجلس ترسم في التراب ، وإلى جوارها وعاء معدني .

إن جماعة المتهتكين يمكن التفرقة فيما بينهم بصورة حادة ، لقد تعلم الصبية الذين يعيشون في الأماكن المزدحمة القذرة إلى جوار السكة الحديدية أنه يمكن كسب نقود هنا؛ إنهم يقفون في مجموعات في صالة بيع التذاكر ، يرتدون الجينز الأزرق المنتفخ ، والريح المتربة تثير شعورهم الطويلة ، ينظرون في ترفع وتباعد غير أنهم في الحقيقة متنبهين تماما لأي امرئ يتقدم إليهم ، يريدهم ، إن الرجال الأكبر سنا يتحركون حول المكان ، ينتظرون أسفل المظلة الحجرية أمام المحطة ، وكأنهم في انتظار صديق.

إن عمليات الالتقاط محكمة للغاية ، حركة من حاجب العين ، ذبذبة طفيفة للرأس ، ويغادرون لايتحدثون حتى يصبحون بعيدا عن منطقة المحطة ، وبعض الشباب يقابل أصدقاءه فعلا هنا ، ويظلون من غروب الشمس حتى العاشرة والنصف أو الحادية عشر ، هذا هو مركز الحياة الاجتماعية المرحة للمدينة ، إنه مثل الكثير من مدن العالم الثالث ، مكان بلا خصوصية ، إن أول مايسأل الناس عنه عندما يلتقون هو إن كان

هنالك مكان يذهبون إليه ، فإن لم يكن هنالك مكان فقدوا للتو اهتمامهم ، إن فى وسع رجل خليع لديه شقة أن يلتقط ، كما يبدو صيده .

كانت الهندوتركيا لقرون مضت من المنتجين الرئيسيين للأفيون فى العالم ، وبينما كانت الأمبراطورية المغولية تشجع الزراعة ، فإن البريطانيين فرضوا ، فى القرن التاسع عشر وخاصة فى «بيهار» ، الزراعة المنتظمة على آلاف المزارعين الذين يزرعون ضرورات العيش ، كان الأفيون مطلوبا لفرضه على الصين كسلعة يدفع أهلها ثمنها حتى تستطيع بريطانيا تمويل الإدمان البريطانى للشاى ، إن فرض الأفيون كمحصول بديل كانت له نتائجه على المزارعين ، لقد حول ثقافتهم ومزق تقاليدهم وأوجد مجاعة واسعة الانتشار .

إن استراليا تنتج المورفين منذ السبعينيات مستخدمة تقنية أرخص وأكثر فاعلية ، لجمع الخشخاش ومعالجته ، إن بريطانيا التى اعتمدت فيما سبق على الهند من أجل امدادها بالمورفين ، تحصل الآن على ماتحتاج إليه من استراليا ، وبذاانخفضت المساحة المزروعة رسميا بصورة مؤثرة نتيجة هبوط الطلب ، إن هذه التخفيضات تظل فى غالبية الوقت مجرد تخفيضات على الورق ، ونتيجة ذلك ، فإن كميات كبيرة من المخدر قد تسربت إلى السوق المحلية بطريقة غير رسمية ، إن الهيروين متاح بطريقة واسعة ، وخاصة فى صورته الخام والمغشوش سكر بنى اللون ، لقد تبع تغيير سياسة بريطانيا وبلدان أخرى ، أن هنالك الآن مئات الآلاف من المدمنين فى شوارع بلدان الهند .

تركت كورا بلدتها الصغيرة فى «ريزال» ، الفليبين ، لتجئ الى لندن عام ١٩٧٢، وكانت إى إم آى توظف حينذاك خادمات للمطعم وحجرات نوم فنادقها ، وأُعطيت عندما جاءت وظيفة خادمة مطعم غير أنه لم يكن هنالك محل للسكن . كان عليها عندما تنتهى من ورديتها أن تنادى معارفها الفليبين ، وتسألهم إن كان فى وسعها قضاء الليلة لديهم . وأُرسلت بعد أسابيع قليلة للعمل كخادمة لحجرات النوم فى فندق جيرسى. وقامت بعد ذلك بعدة وظائف فى عدة فنادق - شكرا لها - فقد استطاع أخوتها التسعة بنينا وبنات إكمال تعليمهم ، لقد ترك أخوها ، منذ فترة قريبة ، وظيفة تدريس فى مانيلا وذهب إلى ماكاو كرئيس مطبخ ، إنه عمل كسبه أكثر بكثير، «إنهم يعتقدون أن أى امرئ يذهب إلى الخارج ، يغتنى ، إنهم لايعرفون قدر التضحيات التى عليك تقديمها ، إنهم لايعرفون كم هذه العملية باهظة ، إنهم لايفهمون مهانات المعاملة وكأنك جزء من الأثاث ، والعنصرية واللامبالاة ، إننى رغم حياتى هنا الآن ، بعد ثمانية عشر عاما ، مازلت أحلم بالفليبين كل ليلة».

هناك دوما خارج فنادق النجوم الخمس ، مجموعةمن الناس تراقب الداخلين والخارجين ، إن الفنادق المترفة هى موضع نوع من الإعجاب يقارب العبادة ، ولذلك أسباب جيدة ، إنها المثل العليا لغرس غريب فى الثقافة ، لعالم صغير فى مجال التقنية ، بلغ هذا الحد من الكمال فى الغرب ، وعزل الناس هناك عن أسلوب حياتهم على الأرض ، هنالك فى الصوبات الداخلية للفندق أشكال من الترف الخيالى ،إنك يمكنك رؤية ذلك فى الطريقة الحالمة التى يتصرف بها الناس فى الفندق : إنهم ينسابون عبر السجاجيد الناعمة أو الأرضيات الرخامية الباردة ، ونظارات الشمس فى أيديهم يهزهزون شعورهم ، يقدمون تحيات مراسيمية للمعارف ، يخشخشون الثلج فى كؤوس طويلة الأعناق ، والشحاذون خارج النوافذ خفيفة الألوان ، يعرضون عبثا تشوهاتهم ؛ ويمر جامعو الخرق بأكياسهم كبيرة الحجم ، والتراب يدور كالدوامة ، فى هواء مابعد الظهر القادم من البحر العربى ، لا شئ فى تلك الملاجئ المكيفة ، يؤثر فى ذلك البعد مدفوع الثمن ، أو تلك الفراغات الداخلية الفسيحة ، عن عالم يندر أن يعترف به الناس، إن رجلا فى لباس السهرة يعزف «فى الشارع حيث تعيش» على بيانو كبير ، وزوج من الشباب نقيان بلادنس يقرآن فى هدوء «دليل بقاء الهند» ؛ ورجل يرتدى زى جندى هندى امبراطورى فى الجيش البريطانى يدفع عربة يدوية (ترولى) للعفش ، محتجزة فى مكانها بواسطة شبكة صيد سمك . هنالك طاسةواسعة من الأقحوان الأصفر؛ وقناديل تقف على أقراص محززة ، والستائر معلقة فى أكاليل متألقة من النوافذ مابين النور والعتمة، والناس تتمدد على الأرائك فى البهو، وروابة على المقعد الذى يجاورهم ، وامرأة تسوى شعرها المعدنى بطرية متطيرة ؛ ورجل يرتدى سراويل برمودا القصيرة ، ينظر إلى نفسه معجبا فى مرآة مدخنة ، هنالك ، داخل الفندق صف من الحوانيت حيث يتجول الناس ، ينظرون سجاجيد كشمير ، والمنسوجات والجواهر والمنحوتات الأبنوسية ، ونسخ من صور «الموغل» الصغيرة ، ومنحوتات «اديفاسى» والعاج ، تغذية لخيالات الأثرياء المنبسطة ، تغذية محسوبة تعزيزا لشعور بداخلهم ، إنهم يعيشون فى عالم بلا حدود .

يعمل مايا كريشنان فى مزرعة مطاط من «كيبالا باتاس» ، لقد بدأ عمله هنا وهو فى الثانية عشر ، وهو الآن فى ستينياته، لقد جئ بأبيه الى هنا من «تاميل نادو» للعمل فى السكك الحديدية ، إن ماياكر يشنان يرتدى فقط سراويل رمادية عتيقة وحذاء ولينجتون تغطيه العصارة السائلة من النبات ، وقد جفت فغدت مثل الحلزون البحرى ، إن مسئوليته هى شق ستمائة شجرة من محصول وحيد كئيب يمتد بعيدا ، أشجار تقترب الآن من نهاية حياتها ، إن راتبه الأساسى هو ١٢ جنيها يوميا ، بالاضافة الى ٣٧ سنتا عن كل كيلو من المطاط يجمعه زيادة عن الأحدى عشر كيلو التى عليه جمعها حتى ينال دخله الأساسى ، إنه يقطع ، بحركة حاذقة سلخات من لحاء الشجر ،

ويلصق بها الوعاء الفخارى ليتلقى العصارة اللبنية ، إنه يبدأ العمل فى السادسة صباحا ، إن أبناءه يتركون المزرعة ، أحدهم يعمل فى مصنع فى سنغافورة والآخر مهندس ، من الصعب على التأميل أن يدرسوا ، إن مدارسهم دون المتوسط ، والتيسيرات التى تقدم فى منازل الشركة هزيلة ، النور الكهربى يطفئ فى الحادية عشر مساء ، تشجيعا للناس على أن يكونوا مستعدين للعمل فى الصباح ، والمياه تجئ فقط لوقت قصير فى الساعات المبكرة . إن المزرعة مازالت ملكية بريطانية رغم أن الإدارة الآن صينية ، وتقدم تيسيرات أقل إلى العمال، إن هذه المزرعة سوف تدك فى القريب ويحل نخيل الزيت محلها ، إن بعض الأشجار سوف تستخدم كفحم ، والباقى لربط ورزم صناديق الخشب الأبلكاش ، أن القطرات الأولى للأمطار تطرطش فوق أوراق الشجر ، الأمطار تدمر عصائر الشجر والمكاسب تهبط ، إن مايا كريشنان شخصية وحيدة ، رجل فُقد بين شجراته الستمائة المتماثلة .

التنمية والحاجات البشرية

كيف يمكن للثروة التى رأيناها أن تنتج مثل تلك التحولات القاتمة من الفقر؟ كيف يمكن لنماذج من التنمية ، يطمح العالم كله إليها ، أن تواصل ممارسة سطوتها فى ظل وجود إنسانية صغرت تلك النماذج من حجمها وشأنها؟

لقد جرت مناقشات عديدة ، فى السنوات الأخيرة ، حول الحاجات الأساسية التى ركزت بطريقة سهلة الفهم ، على حاجات الفقراء ، إن الحاجة قد فهمت ، بصورة عامة ، على أنها غياب شئ ماحيوى من أجل صيانة الحياة والرفاهية .

هنالك شئ ناقص فى هذه الصياغة ، إن الحاجات الأساسية بسيطة ، لكنها ثنائية أيضا . هنالك حاجة للطعام وللمأوى وللملبس وللدفء ، لكنها ليست بالضرورة نفس التغذية والإسكان والملبس والتدفئة كما تجرى ممارستها ، فالحاجات أيضا كامنة، حاجة للعقل وحاجة للإبداع وحاجة للوظيفة ، إن هذه الحاجات النشطة تتحقق بأكثر مايكون التحقق عندما ترتبط بالحاجات الأخرى ، عندما نستطيع تموين أنفسنا ، وامداد الواحد منا للآخر بتلك الأشياء الكامنة فى قدرتنا على الفعل والعطاء ، إن هذه الاحتياجات النشطة قد انتقلت أيضا إلى مرتبة من مراتب الغياب السلبى فى العالم الثرى . ثانيا: ، يظل السؤال مطروحا ، لماذا هنالك العديد للغاية من الحاجات الأساسية ، فى المجتمعات الثرية التى مرت بالعالم عبر تاريخه ، غير متحققة برغم هذا الثراء ، أو متحققة جزئيا فقط، أو تخمدها الثروة ذاتها ، تلك التى تقدم أحيانا باعتبارها الطريق الى تحقيق تلك الاحتياجات كلها .

وحتى نفهم لماذا تظل العديد للغاية من الحاجات بلا تلبية مكتملة فى الغرب ، فإن ذلك يقتضى دراسة نقدية أكثر من تلك التى تلقاها هذا السؤال المهم حتى الآن ، إن التوضيح السائد لهذه القضية ، هو أن الخطأ الوحيد فى الغرب الثرى ، هو أن الثروة الكافية لم تتحقق بعد حتى تغذى الحاجات الأساسية لكل الناس ، إن هذا دون شك ، هو سبب تحول واضعى نظريات الحاجات الأساسية ، إلى فقراء ، إن أكثر مايواسى هو تأكيد كم هو ضئيل مايمكن للفقراء أن يقنعوا به ، بينما يجد الأغنياء أنه من المستحيل الاكتفاء بالكثير للغاية .

هنالك تفسير شائع آخر ، عن لماذا تظل الكثرة من الحاجات فى العالم الغنى دون تلبية ؛ وهو أن هنالك فى الغرب مصادر للسخط يزاح الغطاء عنها أكثر فأكثر ، وأن ذلك يحدث تحديدا كلما تراكمت الثروة ، إن حاجات أكثر عمقا وأكثرا تجريدا تطرحها وفرة الغرب ، عارية مكشوفة ، إنها حاجات تلبيتها أكثر صعوبة بكثير من الحاجة إلى

مــأوى أو دفء أو غـذاء ؛ ومن ثم فـإنه يجب علينا الشـعـور بالأسف من أجل هؤلاء المعذبين برغبات مـبهمة ، خَلُصْ منها ، لحسن الحظ، من هـم مـجرد جـوعى أو بلا مأوى ، وفى كلمات أخرى ، فإن الثروة لاتلبى الحاجة أبدا ، لكنها تكشف فقط افتقاد الحاجة التى لم تكن فى الحسبان ، النمو الاقتصادى الدائم الذى يلبى جشعا لا نهاية له ، طبعا للمزيد ، ولذا فإن هنالك ، كما يبدو ، تطابقا محكما بين الحاجيات البشرية والتـدابيـر الاقـتـصـادية التى يمكن أن تديرها أفـضـل إدارة . وبهـذه الطريقـة فـإن الرأسمالية والطبيعية البشرية تتجهان ، كما يقال ، إلى نقطة واحدة .

إن هذه التعشيقة العقلية التى لايمكن اختراقها تخدم ، من بين أشياء أخرى ، فى إخفاء ماهو واضح ، إنها لاتخفى فقط أن هنالك فى الغرب الثرى أقساما كبيرة من الناس مازالوا يعانون سوء التغذية ، وأنهم بلا مأوى أو وظيفة، إنها تخفى أيضا أن هنالك أناس مثل خيال المآتة يعيشون تحت الكبارى وفى مداخل المتاجر ، وأن هنالك من يعيشون موتى محبوسين فى جيتوهات تشكل تهديدا فى داخل المدينة أو فى أطرافها الخارجية ، إن وجودهم فى حد ذاته يقدم برهانا على وجوب انتاج الغرب ثروة أكثر مما أنتج حتى الآن ، وبذا يمكن إدخال هذه الأقلية ، من سيئ الحظ فى الحضن الرحب من القناعة والاكتفاء الذى تستريح الأغلبية فيه الآن .

غير أن سؤالا أكثر أهمية يُطرح ، وهو هل حقا رأت تلك الأغلبية احتياجاتها الأساسية وقد لُبيت بأى حال من الأحوال ، ويتساءل مانفريد ماكس نيف الاقتصادى والفيلسوف الشيلى عما إذا كانت نفس الأشياء التى تفى بتلك الحاجات هى ذاتها ليس مانعة جزئيا ، أو بطريقة ناقصة أو صريحة ، تحقيق الحاجات التى تدعى تلبيتها ، إن الوسائل التى تتحقق بواسطتها بعض الاحتياجات الأساسية ، ربما تمنع أو تضر فعليا، تحقق احتياجات أُخرى ، وربما تجعل ملاحقة أهداف بعينها ، أو الطريقة التى تلاحق بها ، أهدافا أخرى بعيدة المنال ، وربما تكون تلك الأهداف أساسية تماما مثل تلك التى تمت تلبيتها بطريقة مرضية .

وحتى نكون أكثر تحديدا : كيف يمكن تلبية الحاجة الأساسية للتغذية المتنوعة ، بالصورة الكافية ، والمانحة للحياة ، عن طريق الشركات الكبرى للغذاء المُصنع ، وبذا فإن سلع القيمة المضافة التى تمدنا بها لاتقدم أى مشاركة مهما كانت من هؤلاء الذين أُختزل شعارهم الشهير «حرية الاختيار» إلى مفردات من فوق أرفف المتاجر الكبرى؟ إن محو المشاركة الخلاقة فى إنتاج الطعام ، زراعته وجمعه وأعداده ، تُقدم لنا وكأنها عملية من عمليات التحرير ، غير أن طريقا آخر للنظر إليها يجب أن يكون اعتبارها اجتثاثا مطردا لقدرتنا على التحكم والتأثير فى بيئتنا ، إن الخضوع لهذا يعنى أن يصبح المرء معتمدا على الآخرين، وليس على الجزار والخباز باعتبارهما المدافعين عن فكرة التقسيم التى نؤمن بها ، أن نعتمد على الشركات المبهمة التى تحدد لنا الطعام

الذى نأكله ، من جينات المحصول الذى زُرع حتى الإعداد للمرحلة السابقة على الطبيخ فى لفافات فى ثلاجة السوبر ماركت ، إن هذا لايعنى رغبة ، لاقيمة لها ، فى العودة إلى اشكال من النشاط مهجورة ومتلاشية ، أشكال نسخها تقسيم العمل المعقد والفعال فى المجتمع الصناعى المتقدم ، إن فقدان السيطرة على الوسط المحيط بنا هو على الدوام فقدان للحرية، فى حين يفترض أن الحرية هى واحدة من الصفات الأساسية المميزة للمجتمع الغربى، وواحدة من الحاجات الأساسية ، إن كان هناك حاجات فى أى وقت مضى .

إن الآليات المزعجة الثقيلة التى تلبى بها الحاجات فى الغرب ، يمكن أن تشوه الحاجات الأخرى أو تخمدها ، ما المدى الفعلى الذى بلغته صناعة الرعاية الصحية – والتى تكاد تكون وريثا أكثر تصنيعا للخدمة الصحية – كمولد للمرض ، وكآلة لخلق الشقاء ، وبالمثل كمعالج معقد لكل الأمراض المُصنعة كنواتج ثانوية لأشياء أخرى يدعى أنها ترضى الحاجة البشرية : وسيلة للتعامل مع بشرية دمرتها مسببات السرطان والسموم التى أطلقتها «الحاجة» للطاقة أو الأسلحة أو الأغذية الملائمة ؟ ما مدى بعد المؤسسات العلاجية الضخمة التى تقوم فقط بمحاولات المجتمع المتقدم للعثور على مسكنات للحاجات الأساسية التى دمرتها أو أنكرتها أو شوهتها الاستجابات الخادعة والزائفة لمن عليه الوفاء بالحاجات؟.

ولتقديم مثل آخر؛ هنالك الحاجة إلى لهو يتسم بالإبداع والخيال ، باعتبارها حاجة أساسية مثل غيرها ، وقد حُولت هذه الحاجة إلى رغبة ملحة فى تسلية لاتتوقف وسرعة فى الحركة بلا وظيفة أو منفعة . إن الفرار من مجتمع هروبى هو العلاج الأكثر حتمية لحاجة شُوهت عند المنبع ، إن بعضا من أكثر حاجاتنا إلحاحا وايجابية ، تلك التى تجعلنا نُبدع ذواتنا ونَهب أنفسنا، قد انتقلت بطريقة غامضة إلى عالم حاجة غائبة ، حاجة غدت مستكينة وخامدة ، إن الحاجة لحكى قصص ، للإختراع والإمتاع ، لأن نحتفل بحياتنا ونغنى لها ، قد نسخها وأبطلها نظام اقتصادى ، حاجته السامية هى الحصول على النفوذ من خلال تسليتنا. إن هذا يخلق فقرا بشريا حقيقيا . ويبدو أن الحل الوحيد لهذا الفقر يكمن فى المزيد من الثروة ، رغم أن هذه الثروة تخلق الفقر فى المحل الأول .

هذا هو السبب فى أن الإجابة على الفقر الدولى تكمن فى الثراء ، إن ماعلينا عمله هو أن نرجع إلى ماكنا عليه بعيدا عن الجهاز المحكم التفاصيل ، والذى يدعى إمدادنا بكل ضرورات الحياة وأكثر، وعن الحاجات المعيشية التى أخمدت وسحقت أو سمح لها ببساطة أن تختفى ، وعن الحاجة إلى أن نكون قابلين للتحول إلى سلعة أو خدمة يمكن تسويقها ، إن ظلت حاجات الفقراء الأساسية دون تحقق ، فإنما يرجع ذلك إلى أن الحاجات الأساسية للأثرياء ، تظل دون تحقق أيضا ، رغم تكدس السلع والخدمات

التى تتزين بها حياتهم ، ويظل هدف الوفرة العالمية سرابا ، وذلك تحديدا لأن الأغنياء والفقراء لايعيشون فى مجتمع يخاطب البتة حاجاتهم بجدية ، وفى كلمات أخرى ، فإننا نتشبث بتناقض ظاهرى غريب ، حيث يحتكر الأغنياء الضرورات التى يعيش الفقراء بدونها ، وهم يحققون بسبب ذلك إشباع حاجاتهم الأكثر أساسية.

تظل الحاجات ، فى كل المجتمعات قليلة ويمكن ببساطة وبسهولة نسبية تحديدها ، رغم أنه قد يكون هنالك نزاع حول الكلمات المحددة لتلك التى هى أقل وضوحا من الحاجات الظاهرة للطعام والمأوى والصحة ، غير أن تلك الحاجات الأخرى تقع فى منطقة تحيط بالحاجة إلى العيش والأمن والعاطفة ، إنها الحاجة للهو والحاجة للهدف ، إن الأشياء الوحيدة التى تتغير عبر الزمن ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، هى الوسائل التى تلبى بها هذه الحاجات ، وهنا يجب أن نرى ، إن كنا نرغب فى اكتشاف كيف أن بعض من الحاجات التى يمكن تلبيتها بغاية السهولة ، والتى هى رغباتنا، شديدة البساطة ، قد حطمت ، وحولت إلى قطع متناثرة فى آلات قبيحة كان يفترض فيها أن تكون هى من يفى بالاحتياجات .

إن ماتراه فى تلك الآلات التى تتضاعف ليس أناساً أثرياء بالقناعة المادية والتحقق الروحى ، بل على عكس ذلك ، أناس يعذبهم الشوق والأمل الخاص والذى لايمكن تسميته ، والذى لايمكن أن تمنحه كل ثروات العالم ، إن هؤلاء الذين يريدون منا أن نؤمن بأن الحاجة الاقتصادية يمكن أن تكون فى أى وقت من الأوقات ملائمة ، تقريبا ، للحاجة البشرية ، قد موهوا حقيقة لاتدحض ، وهى أننا نهلك إن كان الزاد المادى غير مناسب ، بل وحتى بكذب أكبر ، أن الرفاهية تتعزز بشكل تناسبى مع نمو الثروة .

ويظل هناك مستوى آخر من التعقيد عند تناول الحاجات الأساسية فى العالم الثرى . فيما يتعلق بآلية الأدوات المتشابكة ، والتى تكاد تكون معقدة لتلبية الحاجة ، فإن بعض الحاجات تلبى فعلا مهما كانت تلك التلبية ناقصة أو جزئية أو متقطعة ، وربما تكون هذه الوسائل الجزئية والناقصة لتلبية الحاجات هى التى تقيدنا إلى نظام يفشل ، مع ذلك ، فى إنتاج المزيد مما يشبع الرغبات التى نحن فى حاجة إليها على نحو متسع . وحيث إننا ننظر إلى هذا النظام باعتباره من يمدنا بحاجاتنا ، ولأننا لانملك غير أدنى حد فقط من السيطرة على السبل التى يمكن أن يتحقق بها إشباع هذه الرغبات ، فإنه من الأيسر نسبيا إقناع الناس فى الغرب بأن سبب كل مانعانيه هو عدم الوفرة ، وأننا لم نصل بعد إلى تلك المرحلة الرفيعة من التنمية ، حيث تحل السقطات المتعددة ، والأشياء غير الملائمة ، والأشياء المخيبة للآمال ، بطريقة سحرية . إن نواقص آليات تلبية الحاجات هى ذاتها التى تعيدنا إليها ، وتنشئ ، حقا تبعية عميقة لها وارتباطا بها ، إن اعتياد وسائل الإشباع القائمة يوحى بأن أى نمط آخر

لتلبية الحاجات لن يحررنا ، لكنه سوف يتركنا مكشوفين بلا موارد، محرومين حتى من صور العزاء التى نتمتع بها الآن كبدائل لرفاهيتنا المحبطة .

إن هذا الاعتماد على الاساءة المفرطة للموارد المادية للأرض قد أُقيم على تآكل قاعدة الموارد البشرية ، إنه اتلاف مزدوج : ليس هنالك مايثير الدهشة والعجب فى أنه فشل فى تقديم الاشباع الذى وعد به ، إن حاجاتنا ، إن ظلت مراوغة محيرة وغير قابلة للتحديد دوما ، ولاتهدأ أبدا ، فإن ذلك ليس بسبب نظرية ما عن عدم تلطيف وتهدئه الرغبة البشرية ، لكنها بالأحرى نتيجة شكل شاذ من التنمية ، يخمد طاقاتنا بحيث لا تلبى احتياجاتنا واحتياجات الاخرين ، ونتطلع بدلاً من ذلك إلى نظام هدفه تراكم الثروه وليس تلبية الحاجة .

إن شبح ماركس يلازم هذه المناقشات ، أوبالأحرى القاعات الخالية وأركان الشوارع والصفحات البيضاء والتى كان يجب أن تجرى عليها هذه المناقشات ، إن بعد نظر ماركس ، الطيف المسكين وفراسته الرائعه وشاعريته قد أقصاها وعوقها المعجبون به ، والذين يحطون من قدره ، على حد سواء ! لأنه عندما قال إن قدر الطبقه العاملة أن تغدو ، فى ظل الرأسمالية أكثر فقراً ، لم يكن ، كما قيل عنه فى زهو و إنتصار ، مخطئا كلية. لقد كان من الممكن ببساطه تكديس الثروة المادية ، حتى بالنسبة للطبقة العاملة ذاتها ، بينما لم ير ماركس فى ذات الوقت هؤلاء الفقراء للغاية والذين يعيشون عبر أشكال من التجريد والإفقار، إن تحطيم الاعتماد على الذات ، واستعمار المساحات الداخلية بما هو متطرف من الأيديولوجية الفردية ، والتجريد من المادة الداخلية للأنسانية ، وإحلال الأعتماد على ما يمكن أن تنتجة الأله محلها ، قد تسبب فى أنماط من البؤس بعيدة عن متناول أدوات القياس الأقتصادية ، إذ عندما تتآكل روابط تآلف الأخوات والأخوة والقرابة والصداقة والجيرة ويقف الناس فرادى عرايا وحيدين ، يتحتم عليهم تحقيق أفضل صفقة ممكنة مع آلة الرأسمالية المولدة للتبعية ، فأنهم يكونون قد تعرضوا لأشكال من الحرمان والضياع والعوز ، يندر أن توجد الكلمات التى تصفها ، إننا بينما نواصل تعقبنا لمصدر التجريد لنستعيد منه ما أخذه منا ، علينا ألا نتوقع خلق سياسات من الأمل أو التحرر .

ويمكن التعبير عن ذلك بطريقة آخرى ، وذلك بالقول بأنه حتى «تغريبنا وإبعادنا » قد تمت خصخصته ، إن هذا الغطاء الواسع من الشقاء والعالق فوق المجتمعات الثريه والخوف ، والضغط ومصادر القلق ، تُرى كلها ، لابإعتبارها محدده ومصممة إجتماعيا ، ولكن باعتبارها أخطاء أفراد أصابهم الصدع و الخلل ، إن هذا يعنى ، أننا عندما نواجه بأناس أتلفتهم المخدرات والكحول والعنف والوحدة ، والتحلل النفسى والعلاقات المحطمة ، فإنه لا يتم التعامل البته بإعتبارهم جزءا من نظام إجتماعى وإقتصادى : إن فى مقدورنا أن نختار، كما حدث ، السم الخاص بنا من السوق

المتخمة بالمعاناه المخصخصة ، والتى هى نوع من شبح سوق متخمة بأشياء جيدة مقامة فى قلب المجتمع الغربى المعاصر ، ولأننا نسعى إلى علاج للعزلة واليأس الذى ابتلى الناس بهما إجتماعيا ، طبقا لإختيارنا ، فإن الألم الذى نسعى إلى تخديره لم يعد يبدو صادرا عن المجتمع ولكنه غدا صادرا عن أصل معتم لا يمكن اختراقه .

إن تبديد مواردنا البشرية ، لا يتعارض وتحذيرات ماركس الأشبه بالنبوءات ، رغم أن صورتها التى تماثل صورة المرآة ، قد تكون تبديد الموارد المادية للعالم ، إن السبل التى أخطأ فيها ماركس أو أصاب قد شُوهت وزُيفت بطريقة جذرية ، غير أننا عندما ننظر إلى الناس الذين يحتلون الأحياء المكتظة القذرة فى مانيلا أو بومباى ، والتى تعيد بقوه ذكريات إنجلترا الفيكتورية - يمكننا أن نرى أن تنديداته الأشبه بنارجهنم ، لم تستطع الرأسمالية المعولمة تجاوزها ، وقد نرى بقليل من الخيال انعكاس معاناتهم فى الأماكن الخلوية الداخلية المخربة المدمرة ، وكآبة ملايين الناس فى الغرب ، والذين يُتوقع منهم أن يجدوا معنى وهدف للسلع القاتلة ، والمقدر لها أن تصبح قمامه الغد ، لو كان فهمنا لمعنى الفقر أقل ضيقاً وتقيدا ، فربما كان فى وسعنا رؤية الخراب العام الذى يربط كل من المستفيدين من النسق الرأسمالى للأشياء وضحاياه .

مضار السياحة

إن أكثر الناس تمتعا بالامتياز على وجه الأرض ، مدعومون إلى درجة كبيرة بمال الفقراء ، بمحصول أراضيهم ، بموارد محيطاتهم وحقولهم ، بعملهم وإبداعهم ، وفى إيجاز بثروتهم . يظلون مع ذلك ساخطين بطريقة مزمنه ، إن الأثرياء تنخسهم أشياء عديدة للغاية ، تثير ضجرهم والاحساس بأن هنالك ما ينقصهم ، مما يدفعهم إلى البحث عن أماكن أجنبية أكثر بعدا للفرار إليها هربا من ما يتمتعون به من تميز يثير السأم ، إن العديد من الجهات التى يقصدونها فى العالم الثالث أماكن ربما يجدون فيها السلام والتحقق والاشباع الذى أفلت منهم فى بلدانهم ، وقد نسوا المفاسد التى تسبب فيها شكل من أشكال التنمية المنقولة عنهم ، وهم المستفيدون المتحمسون له ، وهم الذين يبحثون رغم كل ذلك ، عن أماكن لم تفسد بعد ، إنهم وهم فى بحثهم هذا يحورون الثقافات ، ويحطون من قدر العادات ، ويفقرون الناس بطرق يظلون غير دارين بها .

بينانج

إن «بينانج» التى تقع بعيدا عن الشاطئ الغربى لماليزيا ، الأشبه بشبه جزيرة فى مضيق ملقا ، قد تمت تنميتها بصورة مكثفة من أجل السياحة ، لقد طورت بصورة كبيرة حتى أن الغرض من رفع قدر مياهها الصافية وشواطئها التى بلون العقيق الأزرق قد غدت مصدر احباطها الذاتى ، بسبب الزحام المفرط ، والتلوث ، وتصنيع الجزيرة ، إن السلطات لم تعد راضية عن هذا الشكل الخاص الردئ من التنمية ، ولذا فإنها قد وقعت مذكرة تفاهم مع«شركة بيرجايا للعقارات» حتى «تطور» «بينانج هيل» وهو موقع مساحته ٣٦٥هكتارا ، وواحد من آخر المناطق التى لم تمس فى بينانج ، وقد أرادت الشركة ألا يعلن فى الصحف عن التل لأغراض تجارية .

لقد كان بينانج هيل ، زمن الاحتلال البريطانى ، ملاذا جبليا ، إنه يقع على ارتفاع ٨٠٠ مترا فوق سطح البحر ، ويكاد يكون الآن مجرد مبان كولونيالية متداعية منتشرة فى حالة من التآكل الكئيب ، مكان هوائى غير عادى منعزل وجميل ، يحيط به جو من الكآبة التى تتسم بها مثل تلك المقار الجبلية المهجورة ، إن «فندق كراج» العتيق ، بمطعمه الصغير والحديقة المزخرفة وأقفاص الطيور الغريبة ، يستحضر أمسيات مشبعة بالملل ، إن وحشة المنفى الوظيفى تثير الضيق والكدر ، وزوجات العسكريين المتغطرسات تزعقن فى خدم خاضعين جامدى الأحاسيس .

لقد احتل بينانج هيل ، على الدوام مكانة خاصة فى حياة هؤلاء الذين يعيشون على الجزيرة ، درجة الحرارة هنالك حوالى ٨ْم أبرد مما هى عليه أسفل فى «جورج تاون» ، أكبر مدينة فى بينانج ، إن الجبل هو البقعة التى قام فيها العديدون ، من الجيل الأكبر سنا ، بطلب الزواج أو قبوله ، وهو مايزال ، بالنسبة للشباب ، قبلة السير اليومى الشاق للنزهة مسافات طويلة ، إنه مكان آمن هادئ ، باعتباره مكانا رطبا منعزلا خاليا من حركة المرور ، إن خطة «بيرجايا » قد اشتملت على تحول غير عادى ، فندق خمسة نجوم وديسكو واكروبوليس وممشى فى الدغل وحديقة مغامرات ، والأشد غرابة وشذوذا من كل شئ ، مطعم على قمة شجرة تين هندى ، إن التين الهندى ليس نباتا محليا فى بينانج ، رغم أن هنالك مئات الأنواع من الأشجار الاستوائية . وقد اقترح من سيقومون بالتطوير إقامة شجرة تين هندى بالخرسانة .

وكانت هنالك اعتراضات جادة وخطيرة ، إن جبل بينانج هو مصدر هام للمياه للأراضى المنخفضة ، كما للجبل ذاته ، إن بينانج تشترى الماء بالفعل من «كيده» ، وليس هنالك من امداد مستقبلى مضمون من هناك ، إن مارى اسونتا من جمعية المستهلكين فى بينانج ، والتى تقف فى الصفوف الأمامية لمقاومة المشروع ، تقول إنه

حتى لو حدث خلل فى جزء صغير من منطقة مصائد المياه ، فإن التوازى الأيكولوجى يمكن أن يضطرب بتأثير ضربة خطيرة ، إن التدرج يتراوح ، على أى حال ، من ٢٥إلى٣٠٪ وهو سريع التأثر بعوامل التعرية ، إن أى تشييد أو بناء سوف يدمر الانحدار الهش . هنالك بالفعل سكة حديدية معلقة ، أقامها البريطانيون ، وتلك لم تعد تسبب مزيدا من الأضرار للمنحدرات ، كما يوجد أيضا طريق لمركبات المقيمين والرسميين ، وهذا يسبب تآكلا ، إن المعدات الثقيلة لمثل هذا المشروع العملاق سوف تصيب الجبل بأضرار فادحة ، وسوف ينجرف الغرين إلى الحدائق النباتية أسفل ، وهى امتداد رائع من الأشجار والنباتات المحلية والأجنبية ، إن غالبية المبانى الموجودة مشيدة حول صخور الجبل الناتئة والبارزة والجلاميد ، غير أن البناء الحديث سوف يسوى قمة الجبل بتفجيره ، وماينتج عنه من نتائج يصعب توقعها .

إن غالبية القاطنين من مزارعى الجبل ، وهم يزرعون الخضراوات والزهور ، وهنالك عدد قليل من البيوت الأرضية الخلوية (البونجالو) ومكتب بريد ومركز شرطة ، والذين يبيعون للزوار ، ومن يسيرون مسافات طويلة للتنزه ، إن بعض نباتات وحيوانات الجبل متفردة ، بما فى ذلك «سليبر أوركيديا» و «المونكى كاب» والنبات الذى يستخرج منه شراب السلوان ، والذى يجمع الماء مثل النبات الجرة ، وهنالك سلسلة متفردة من السرخسيات .

إن تقييم التأثير البيئى قد أُدير بطريقة متسرعة ودنيئة ، بل وحتى لم يضع فى الحسبان مشاكل الترسيب الطينى ، وطاقة حمل الأنهار ، وماتتعرض له مناطق المصائد ، أو مايصيب النباتات والحيوانات من دمار ، إن حملة إنقاذ بينانج هيل قد وزعت التماسا جمعت عليه ٣٠٠٠٠ توقيعا. إن منظمى الحملة لم يطرحوا فقط نقدا للخطة القائمة ، لكنهم قدموا بديلا ، أثره التدميرى أقل بكثير للغاية من العرض القائم. ويقوم هذا البديل على إمكانية تحسين السكة الحديدية المعلقة بحيث تحمل أناسا أكثر إلى أعلى ، مع زيادة سرعتها ، إنها تحتاج فى الوقت الحالى إلى نصف ساعة ، وعليك أن تستبدل القطارات فى منتصف الطريق ، غير أن طاقة الجبل للحمل محدودة ، وليس هنالك من نقطة فى التسهيلات المقدمة يمكن أن تدمر الجمال الطبيعى للموقع .

إن أحمد شيك واحد من قادة الحملة من سكان الجبل ، إنه يعيش فى بونجالو كولونيالى عتيق ،له حديقة مليئة بالأزهار البريطانية - النعناع والداليا والأقحوان - ومنظر بانورامى يطل من فوق على جورج تاون، «كانت تلك المنطقة محجوزة للبريطانيين فقط فى الأزمنة الكولونيالية ، وقد حدث فى وقت مبكر عام ١٩٥٣، أن دعى مسئول بريطانى ، رجل صناعة صينى ، للعشاء فى هذا المنزل وتأخر الوقت فدعاه للبقاء الليلة ، إلا أن جارا لاحظ ذلك فاتصل هاتفيا بالمدير المقيم للشكوى ، فاتصل الأخير بالمنزل مصدرا أوامره بالتخلص من الرجل ، وكان عليهم أن يوقظوا سائقى القطارات المعلقة خصيصا لأخذ الرجل إلى أسفل فى منتصف الليل !

«إنهم يخططون لنزهة قمرية على بينانج هيل ، إننى لا أتصور شيئا أشد غرابة من ذلك ، إن هذا لايمكن أن يحدث الا فى ماليزيا ، إنهم يستخدمون كلمة «التنمية» والناس يعتقدون أن صداها أشبه بالتقدم ، وأنها يجب أن تكون شيئا جيدا ، إن خطة بناء بينانج هيل تقول بأنه يجب الحفاظ على الجبل ، وقد تأكد ذلك قريبا عام ١٩٨٩».

إن فنسنت تان هوالقوة التى تقف وراء شركة بيرجايا ، كانت بيرجايا تتعامل فى الأصل فى منتجات أسلاك الصلب ، غير أنها تعمل الآن فى مجالات متنوعة للغاية مع اهتمام خاص بالعقارات والقمار والمنسوجات وأوقات الفراغ ، يقول أحمد شيك ، «كانت هنالك اندفاعة مسعورة للتنمية ، كل امرئ مسعور للحصول على نصيب من العمل . وغدت الأخلاقيات ثانوية أمام عقلية الرغبة فى الإثراء السريع، حقا لقد رفع الحزب الحاكم دخل الناس لقد حول ماليزيا ، غير أن البلد بيعت إلى مطورين أجانب ليس كما حدث فى الفلبين ، هنا يعمل شكل كولونيالى أكثر تعقيدا ، إن ماليزيا ليست بلدا من بلدان العالم الثالث ، إنها صغيرة وثرية ، إنها أقرب إلى تايوان ، غير أن هؤلاء الذين هم من خارج المجرى الرئيسى هم الذين تحملوا صدمة تنميتها – إنهم سكان الغابات ، وهؤلاء الذين يعملون فى المزارع.

«عندما اعترضنا على الخطة قالت شركة بيرجايا ، ولماذا تقلقون ، إن عقاركم سوف ترتفع قيمته ، واعترضنا أن المياه سوف تتلوث ، يجب أن تكون شاكرا فإنك سوف تصبح رجلا ثريا ، كانت تلك هى المبادلات التى يُفترض أن تلزمنا الصمت ، نفقات لا تقال للآخرين وللمستقبل ، من أجل أن توضع نقود اليوم فى أيدينا» .

إن مبنى المدرسة المتهدم ، يقع على رأس جبل معلق فوق الوادى ، إنه مشيد فوق أعمدة حجرية حتى لايدمر النمل الأبيض الخشب .لقد بنيت المدرسة من أجل أبناء المزارعين ، ويقع محل إقامة العاملين بالمدرسة أسفل تلك المساكن المخصصة للأطفال، والتى تتسم بالبساطة ، إن الدرجات الحجرية مغطاة بحشيشة البحر ، والزهور البرية تنطلق من شقوق الشرفات المغطاة بالقرميد الأحمر ، وفراشات فى لون العصفر تتلوى داخلة خارجة من الفصول الدراسية الخربة الأشبه بالمطارات ، والزجاج المحطم مسحوق تحت الأقدام . وهنالك يتراءى ، من الدرابزين المتداعى ، منظر دغل بكر ، «إن مائة وخمسون مليون عام من النمو تحول الى ديزنى لاند» ، ويقول احمد شيك : ويدور أسفل البناية طائر البلبول المغرد بقنزعته الصفراء ويستقر على الصخور الناتئة المسننة ، ويحلق نسر البحر ، أبيض البطن عاليا فى السماء ، وينطلق البلبول أسود الرأس جيئة وذهابا ، وتصدر من مكان ما أغنية البلبول برأسه الأشبه بالقش ، هنالك ، فى الغابة أكثر من أربعين نوعا من الثدييات ؛ من بينها القردة والسناجب والوطاويط وقط الزباد وأبو شوك والغزال الفئرانى والحيوانات المجترة الصغيرة عديمة

القرون ، إن الغابة تبدو على هذا البعد كزبد من أوراق الشجر متعدد الألوان الأخضر الغامق والأصفر والأخضر الليمونى والزيتونى ، مع فواصل من لهيب الغابة القرمزى .

إن المنحدر المجاور هو «بيرل هيل» ، لقد تمت تنميته ، مزقه التقسيم إلى قطع من الأرض للبناء . ونتيجة ذلك فإنه يعانى بشدة من عوامل التعرية . وتنمو من أسفل بعض أشجار التين كطفيليات على أشجار النخيل ، الخيرزان الطويل والسرخسيات تبدع زينة رقيقة كالمصنوعات المخرمة ، عند خط الأفق ، فراشات فى لون الفيروز والبرتقال المترب تلمع فى ضوء الشمس المكفهر ، ويمكن رؤية فندق كراج على «هاليبورتون هيل» والذى شيده الأخوة الأرمن ساركيس ، وهم من يمتلك أيضا «فندق رافلز» و «ستراند» فى «رانجون» ، هنالك خطة لجعل سعة «لوموند هاوس» المجاور تصل الى ٣٠٠ سريرا مشتركا ، وأربعين شقة للسياح اليابانيين ولاعبى الجولف.

ليم تيونج هيوت ، الذى ترعرع فوق الجبل ، هو فى الثانية والعشرين من عمره، إنه يدير كشكا لبيع المشروبات ، وهو لابد سيستفيد من زيادة السياح . إنه ضد التغيير ، إن له ، كما يقول ، حياته المحترمة ، وهو مرتبط بالجمال الهادئ للمشهد ، لقد جاء جده من «كانتون» وعمل «كدهوبى» ثم عمل فيما بعد كحارس أمن ، وكان فى ذات الوقت صانع توابيت ، «عندما جاء اليابانيون ، أخذوا الخشب من الجبل ، ودفعوا له نقودا يابانية لاقيمة لها ، وعندما عاد البريطانيون ، جردوه من كل شئ ، وأصبح عاملا ثم أخيرا حارسا فى مدرسة «أبلاندز» ، مات والد ليم متأثرا بالسرطان ، عندما كان هو فى الثانية عشر من عمره . وكان على والدته أن تطهو الأرز الذى تبيعه من كشك فى جورج تاون ، إن ليم وزوجته التى تبلغ التاسعة عشر من عمرها يكسبان حوالى ٢٠٠ جنيها ماليزيا شهريا. إنهما يعيشان فى أحد المساكن الحكومية القديمة ، وعليهما عندما يموت جده أن يتركا المنزل ، إن ثمن العقار سوف يجعل عملية شراء منزل آخر على الجبل عملية مستحيلة ، إن ليم لايرغب فى التغيير ، «لماذا علينا أن نعيش أسفل هناك هذه هى حياتنا ، هنا فى مقدورنا أن نتنفس ، يمكننا أن نزرع أشياء من أجل استهلاكنا الخاص ، إن الحياة هنا أرخص وأكثر هدوءا إننا قادرون على التحكم فى حياتنا » .

إن كثيرا من البيوت الأرضية الخلوية (البونجالو) مازالت تعرف باسم ملاكها الكولونياليين القدامى ، إن لدى العائلة التى تعيش فى «المنزل البنى» زراعةكثيفة من الفلفل والثوم ، وتكون أشجار الدغل المعلقة فى الفضاء عتمة خضراء رطبة : أشجار «الرينجاس» بعصيرها السام والذى كان يستخدم فى أنابيب النفخ لإصابة الحيوانات بالشلل ، والأنواع المختلفة من «الشوريا » و«الهورس مانجو» و« الماكارانجا» وهى الشجرة الأولى التى تزرع مرة ثانية حينما يطهر الدغل ، والدارمينيال ، والذى يستخدم فى بناء المنازل الماليزية التقليدية ، وتعلق «المونكى كوبز» (كؤوس القردة) على

جانبى الممرات ، أوعية قرمزية باهتة مبرقشة ، تعلق على سيقان النبات ، والرحيق الشذى يجذب الحشرات ، التى تغرق فيه ، فيتغذى النبات بها ، هنالك أم أربعة وأربعين اللاسعة ، وشجر الأسفندان الأحمر الذهبى بسيقانه المجوفة والتى تشكل مأوى للالاف من النمل.

يقول أحمد شيك: ، «يجب أن تستبدل هذه الأشياء لأنها لاتقدم متعة كافية للزوار الأجانب الذين سوف يجيئون الى هنا» ، وإن كان لخطة «موئل بينانج هيل» صدى خيالى ، فإنها مع ذلك بعيدة عن أكثر الخطط الجارية المغالية فى ماليزيا والتى تسعى إلى تحويلها إلى ملعب دولى ، وطمس جمالها الطبيعى الفريد ، إنهم يخططون فى الجنوب «لموئل ديسارو» ، قبة عملاقة يمكن رؤيتها من جميع جوانبها ، موئل للانزلاق على الجليد والرياضة الشتوية .

وقد خفضت خطة بينانج هيل فيما بعد ، وسوف يتم انجاز نسخة أكثر تواضعا من المشروع، غير أن الكثير من النية الأصلية يظل قائما ليدمر بصورة لاترد ، سمة هذا الموقع الفريد .

لانجكاوى

«لانجكاوى» جـزيرة تقع على بعد ١٠٠ كيلو متـرا إلى الشمـال من بينانج ، قـرب حدود «ثاى» . ويروج لها ، جزئيا ، بسبب التنمية المفرطة لبينانج ، باعتبارها «جنة» ، وهى مثلها مثل كل الجنات يجب أن تكون جنة مفقودة ، إن هؤلاء الذين يقومون الآن بفتح الجزيرة ، كما يحدث فى العمليات الجراحية ، يفعلون مافى وسعهم ليؤكدوا أن هذه العملية تحدث فى أقصر وقت ممكن .

إن غالبية الـ ٤٠,٠٠٠ الذين يعيشون هنا ، كانوا يعيشون حتى وقت قريب على صيد السمك والزراعة ، وانتاج الأرز ولب جوز الهند المجفف ، غير أن تشييد الفنادق ، وقرى أيام العطلة والأعياد ، وتخصيص لانجكاوى كمنطقة معفاة من الرسوم ، يعنى أن المزيد والمزيد من أهلها سوف تمتصهم صناعة تخدم اليابانيين والأمريكيين والألمان الذين اكتشفوا لانجكاوى .

تغطى أعلى جبل «جونونج رايا» غابة بكر ، حيث اعتاد الناس ، تقليديا ، صيد الغزلان ، والعثور على عسل النحل والنباتات الطبية ، الطريق الرئيسى يقطع جانب الجبل كالجرح الدامى ، هذا خرق للقانون الذى يقول بأنه لايجب شق طريق على درجات أكثر انحدارا من ٢٠٪ ، وكان نتيجة ذلك أن غمر الطين حقول الأرز أسفل فى الوادى فغدت غير منتجة .

يحتل نادى لانجكاوى للجولف ، هكتارات كانت من قبل أرضا زراعية ، إن المجئ الى ماليزيا فى نهاية الأسبوع أرخص للاعبى الجولف اليابانيين من اللعب فى اليابان ، حيث رسوم العضوية عالية بصورة مانعة ، إن شاطئ موئل «بيلانجى» يرسل بقاذورات بلاليعه إلى نهر «شيتانج» ليلوثه ، مما دمر الحياة المائية فيه ، إن العمال يؤتى بهم إلى الجزيرة، لأن أبناء ونبات زراع الأرز كانوا أبطأ فى تكيفهم مع صناعة السياحة . إن أشجار النخيل ، على امتداد الطريق ، إلى جوار شاطئ الموئل ، قد زينت باضافة أشجار صناعية حمراء وخضراء وذهبية .

هنالك خطة لتوسيع المطار الصغير حتى يستطيع استقبال طائرات الجامبو ، إن هذا يعنى استرداد جزء من البحر وتسوية جزيرة ريباك المجاورة ، وبذا لايدمر النظام الإيكولوجى للجزيرة فقط ، بل إن ازاحة قمة الجزيرة الغنية بالأشجار يمكن أن يغير اتجاه الريح فى مضيق ملقا ، كما ستهدم عدة قرى أيضا.

يعيش باك لونج كاسيم فى «أولو ميلاكا كامبونج» ، فى أرض المزرعة أسفل «جونونج رايا» ، لقد غدت قناة الرى عكرة وبطيئة الحركة بما تحمل من طين ، لقد

انخفض ناتج هكتاريه المزروعين أرزا بمقدار الثلثين بسبب الطين المنجرف من الجبل الذى أصابه الفزع . حقول صفراء فاتحة فى حرارة شمس الفصل الجاف ، لقد دفنت فى العام الماضى نباتات الأرز ، الصغيرة ، وأصبح على عائلته لأول مرة على الإطلاق، أن تشترى الأرز إنه يقول ، «لن تعود السياحة بالفائدة على السكان المحليين ، إن فى وسعنا أن نبنى للزوار أكواخا صغيرة من النيبا والبامبو ، غير أن الحكومة تستدعى شركات كبيرة لتبنى فنادق من الخرسانة ، حيث لايستطيع رجال الصناعة الصغار المنافسة »، يقول باك لونج كاسيم: إن الأرض قد أصبحت ثمينة إلى حد أن المزارعين يبيعونها ، وربما يجئ الوقت الذى تتوقف فيه الزراعة ، إنه يؤمن أن هؤلاء الذين يزرعون طعامهم يمتلكون أثمن الحريات ، يملكون التحكم فى حياتهم ، «إنك إن اشتغلت لغيرك ، فأنت لست حرا» ، كيف يمكن لصبى يرتدى زيا ، يقف خلف منضدة استلام النقود فى الفندق ، أن يكون أكثر حرية من رجل يزرع أرضه الخاصة ؟ الفنادق عبودية»، إنه حزين وهو يرى هذا القدر الكبير من الأرض وهو يباع ، «إن آخر محصول تنتجة الأرض سوف يساوى ملئ جيب من الدولارات ، ولاشئ بعد ذلك ، النقود تجعل الأرض جرداء قاحلة» ، إن حوالى سدس المزارعين الذين دمر الطين أرضهم قد تقدموا بدعاوى تعويض ضد الحكومة ، غير أن الكثيرين خائفين ، إن أى واحد يحاول القيام بمقاومة جدية «لتنمية» من هذا النوع ، يواجه خطر أن يوضع فى قوائم الهدامين الذين يقلبون الحكومة ويصبح عرضة للخطر بسبب «قانون الأمن الداخلى» .

تَجمَع بعد ظهر أحد أيام الآحاد ، بعض مزارعى الأرز فى «أولو ميلاكا» تحت السقف المعدنى المعوج لكشك الطعام ، إن «ابراهيم مات» ، وهو فى الستين من عمره وعبد الحميد فى الثالثة والأربعين يؤكدان مايقوله باك لونج ، ، من أن «الجيل الذى سبقنا ، قد عاش كلية بدون نقود ، لقد اعتادوا زراعة كل جزء من الأرض بالمحاصيل . لم يكونوا فى حاجة إلى النقد . كان هنالك سمك مجانى من البحر ، وغزلان من الجبل غير أن أفضل الأسماك تذهب الآن إلى الفنادق . عليك أن تشترى الآن ماكنت تحصل عليه بالمجان فيما قبل» ، إنهم خائفون من المستقبل ، لقد بينت السياحة لأبنائهم طرق الأجانب الأثرياء، «إنهم يرون أن حياتنا قد انخفضت قيمتها ، مما يجعلهم نافذى الصبر ، إنهم يودون المغادرة» .

هنالك تخطيط لملعب ثان للجولف عند «السفن ولز» غربى الجزيرة ، لقد باع اثنان وتسعون من المزارعين أرضهم ، ورفض واحد فقط ترك أرضه ، المنازل الخربة والعزب المهجورة قد تكاثرت بطريقة مفرطة، وأشجار الفاكهة ، المانجو والجاك فروت وكذلك جوز الهند والتمر هندى محملة بثمار لم تحصد بعد ، إن المزارع الذى لن يغادر يقول

أن هؤلاء الذين ذهبوا قد بهرتهم النقود - ٤٠٠٠٠ جنيها ماليزيا للهكتار ، إنها تبدو مبلغا كبيرا ، لكنها لن تضمن إعاشة الجيل التالى.

وقد تم التخلى عن بعض المشروعات السياحية الفخمة مثل ماتعهدت به «شركة بروميت» فى «تانجونج رهو» ، إن الاساسات المهجورة لفندق ضخم تشوه حقول الأرز التى طُرد القرويون منها ، وتقف أشجارالتين الهندى والكاسورينا المقطوعة ، والأعمدة الخرسانية التى لم تستكمل بعد كشواهد القبور فى أرض خلوية أشبه بالصحراء ، تحيط بها أسلاك شائكة صدئة تحجبها عن أى شخص يمكن أن يستخدم الأرض فى أغراض أكثر انتاجية .

إن كثيرا من مواد التشييد المستخدمة فى جهود البناء مأخوذة من جبال الجزيرة ذاتها ، الحجر الجيرى، الرخام والجرانيت. ومحجر رخام يكشف عن وجهه الفضى الرمادى لشمس ما بعد الظهيرة ، وفى الجوار منه مصنع للأسمنت ، يغطى الريف بتراب أبيض ناعم.

وتُبنى على قمة لانجكاوى الشمالية ، «موائل تيلوك واتاى» ، كما يقتطع من الغابة ملعب جولف آخر ، ويُطهر المكان بواسطة عمليات احتطاب غير قانونية ، لقد استخدموا فيلا من تايلاند لسحب كتل الخشب إلى البحر . مما مزق فى بساطة كل الأشجار المحيطة.

يعيش باكنان قرب الشاطئ ، إنه الآن فى الثامنة والأربعين لقد بدأ العمل كصياد سمك . هو يقول : إنه عندما كان شابا كان كل شئ بالمجان ، كان المنزل يُبنى من مواد محلية ، والفاكهة والطعام متاح لكل امرئ ، ولمبات الجاز التقليدية تستخدم للإضاءة ، «الآن ، لاتستطيع حتى بناء منزل لنفسك دون خطة ، الناس ممنوعون من فعل أشياء لأنفسهم . ويسمى هذا تنمية . كنا فى الماضى نمسك الأسماك لأنفسنا وللسوق المحلى. الآن على السوق المحلى أن يستوردها ، لقد بدأت صيد السمك وأنا فى الخامسة عشر مع أخوتى الأربعة ، كنا نصطاد فى اليوم مابين ١٥ إلى ٢٠ كيلو جراما. لم أكن أريد أن يكون ابنى صياد سمك ، لأنه لن تكون له وسيلة للرزق فى حدود خمس سنوات من الآن» .

وكان رحيم ايضا صياد سمك ، إنه يعمل الآن فى مصنع الرخام ، يكسر الكتل اللازمة لردهات الفندق ، إنه يكسب ٦٠٠ جنيها ماليزيا فى الشهر ، لقد أنفق كل حياته فى ذات «الهامبونج» (القرية) ، إن زوجته من نفس القرية ، ولديهم أبناء ثلاث ، إنه يقول ، «ماذا أحضرلنا السياح ؟ هدايا المخدرات ، الكحول والسجائر، إن تلك الأشياء الآن جزء من الحياة اليومية» .

المساء فى لانجكاوى ، يمكن أن ترى لماذا نظر اليه الذين قاموا بالتطوير باعتباره جزءا مرغوبا من عقار حقيقى، الجزر المجاورة تنهض كضفادع خضراء عملاقة ،فى بحر فضى أزرق ، يمكن لجامعى المحار على الشاطئ الخوض نصف كيلو مترا فى المياه الضحلة ، والشمس الغاربة تضرب الماء مثل فيض سمى مضئ ، الأصداف اللؤلؤية الطرية تسحق على الرمال تحت الأقدام ، أشجار النخيل تطقطق ، وأشجار الكاسورينا تهمس وقد تفجرت بعض قطع النباتات الزاحفة بالزهور ، فى ظلال أشجار النخيل بعد أمطار الليلة الماضية ، وأعداد كبيرة من أجراس الزنابق.

السياحة تجلب ناسا لاتتصل حياتهم ، بأى حال ، وحياة المكان الذى يزورونه ، إنهم غير واعيين بما يحملونه من آثار ، إنها تغير أنماط المعيشة وتثير الاضطراب فى العادات والممارسات الاجتماعية ، يقول روملى : الذى يعمل مع الجماعة لمقاومة أسوأ تجاوزات الأعداد الكبيرة من السياح ، «إنهم يهدفون إلى مجئ مليون زائر سنويا ، وهذا كثير للغاية ، يجب أن تكون هنالك طرق أفضل للسياحة ، إننا نود ان يشاطرنا آخرون جمال جزيرتنا ، لكننا لا نبغى سياحة مصنوعة ، إنها تطفئ طريقة حياة الجزيرة ، وهى ستدمر فى النهاية ، الجمال الطبيعى الذى يجيئون لرؤيته ، ماذا سيكون مصير الناس الذين يعيشون هنا ، عندما يحدث ذلك؟ ، إن فى وسع السياح أن يذهبوا إلى أماكن أخرى غير أنه ليس فى وسع الناس هنا أن يفعلوا ذلك» .

تايلاند

إن ظاهرة السياحة الجنسية فى تايلاند والفليبين ظاهرة معروفة للغاية ، غير أن هناك أعداد متزايدة أيضا من الأجانب ، ذهبوا للحياة فى تلك البلدان ، وبشكل أساسى لأغراض جنسية ، ناس يمكن أن نطلق عليهم الباحثين عن الجنس ، إنهم بصورة طاغية من الذكور ، من الشواذ وغير الشواذ الموسرين والذين فى غالبيتهم لم يعودوا شبابا ، من الولايات المتحدة وأوروبا واستراليا ، إن مادعاهم للحياة فى بانجوك وشينج ماى ومانيلا ، هو الوحدة والزيجات التى تحطمت ، ووجود أقران عديدين وغياب القيود التى يحسون بها فى أوطانهم.

ورغم أن هذا يبدو وكأنه شكل آخر من أشكال استغلال الأغنياء للفقراء ، إلا أن الحقيقة قد تكون أكثر تعقيدا مما يتصوره الأخلاقيون . إنها أقرب إلى أن تكون تلاقى حتمى قدرى بين الضحايا وبين الذين أصابتهم الجراح فى الغرب ، وأشد من حل بهم الفقر فى الجنوب ، إنها عموما ، معايشة غير مرضية ، تقوم على رغبة مشتركة للفرار من الوحدة ، من ناحية ، ومن الفقر من ناحية أخرى ، معايشة تترعرع على الخيال والوهم .

هنالك حزن رهيب فى حياة العديد من الباحثين عن الجنس تماما مثلما يوجد حزن فى حكايات الشباب الذين يقومون على خدمتهم ، حقا هنالك أسئلة مهمة مثارة حول أشكال الفشل فى المجتمع الغربى ، والتى تبعث بأناس فى رحلات على مثل هذا البعد بحثاً عن دفء أو عزاء بشرى محدود ، إذ رغم مزايا الثروة ، فإن مثل هؤلاء الناس ، التهمهم التبرم والفراغ الذى يمكن أن يعالجه فقط أناس ينظر إليهم باعتبارهم أكثر «تلقائية» و«انفتاحا» ، و «رقة» وحنانا ، وهى صفات يبدو أن الضرورات الماسة للحياة فى الغرب قد أخمدتها .

إن بعض الغربيين ، والكثيرون منهم فى الأربعينيات والخمسينيات ، يرتدون مثل الكهول الهيبيين ، صدريات من خيوط قطنية ملونة منسوجة فى شرائط ، وكروش تطل على الأبازيم التى على شكل رؤوس ذئاب فوق أحزمتهم الجلدية ، وشعر طويل ، مصبوغ فى غالب الأحوال ، وخواتم وسلاسل من قطع قصيرة وغليظة ، وأحذية رعاة البقر ، وقبعات جى آر بحوافها العريضة ، ومدربين وعمليات الوشم ، إنهم ينقشون نساء تايلانديات أو فليبينيات رقيقات للزينة على أذرعهم ، تلك هى صفات الطبقة العاملة السوقية ، هؤلاء الذين يترددون على «بارات الكاراوك» فى «مالات» ويقضون أمسياتهم فى ديسكو «كروسين مانيلا» فى الجدب المكيف لفندق امباسادور، حيث يلتقطون بطريقة مؤثرة ، جريدة «الصن ، بأكثر من دولار للنسخة الواحدة ، لمتابعة ما يجرى فى الوطن » .

كان مايك عامل بترول ، عمل طويلا بعقود فى العربية السعودية والكويت ، وعندما عاد إلى نيوكاسل ، وجد أن أبناءه قد كبروا ، وأن زوجته قد عثرت على رجل آخر ، وقال: دون استيعاب للأمر ، أنه قد غدا نوعا من البدو ، غجرى صناعى دولى ، إنه ساخط على مايراه من خيانة زوجية ، رغم أنه ،حقيقة كان نادرا مايتواجد بالمنزل خلال الثلاث والعشرين سنة من حياتهما الزوجية ، إنه يتحدث وكأنه قد ضحى بالكثير من أجلها ، وهو يقول أنه مصمم على أن يبتاع لنفسه قطعة حنان ، بعض الإثارة، بعض الفتنة ، ليعوض كل السنوات التى عاشها مثل «ناسك ملعون» فى الشرق الأوسط. إنه يزدرى بريطانيا ازدراء هائلا ، حيث يقول: ، لقد غدا كل واحد رخوا طريا : الرجال لم يعودوا رجالا ، والنساء غدون «آكلات رجال ملعونات» ، هذا شبه نص متكرر : الفليبينيات متشوقات للإمتاع ، إنهن لا يَرتَبن فيما يقوله الرجل ، إنهن وديعات مستكينات ، يقول مايك متحديا ، «ماذا تتوقع أن تجده فى امرأة؟».

يثير «الفاهرانج» الذين يقيمون فى بانجوك أيضا الخيال الجامح للشباب العامل فى صناعة الجنس هنالك ، إن غالبيتهم بنات وأبناء فلاحين من شمال شرقى تايلاند الذى حل الفقر به ، شباب أعيد تشكيل مداركهم لتتواءم بسرعة مع التخصصات الخاصة للغاية ، والتى تحتاجها بارات الجنس فى «باتايا» و«باتبونج» ، إن العديدين يحلمون بشخص ماينقذهم من بقائهم لمدة محدودة ، فى ظل أوضاع تنافسية ، فى النوادى .

إن براسرت يتسكع كل مساء فى«حديقة لومبينى» بحثا عن فاهرانج يعيده الى الحياة التى اعتادها ، لقد وفر له رجل فرنسى ، لمدة اثنى عشر شهرا ، حجرة و٣٫٠٠٠ باهت شهريا ، واحتفظ هذا الرجل بحق شراء صبية آخرين ، كلما رأى ذلك مناسبا ، وأخذ براسرت يحس بالغيرة بصورة متزايدة ، وطُرد بعد عام ، وعليه الآن أن يكسب من خلال الجنس ، لكنه الآن فى الرابعة والعشرين ، وقد تجاوز أفضل سنواته ، كما أنه لم يكتسب أية مهارات للمستقبل ، من زراعة الأرز إلى صناعة الجنس ، شباب مشوش مرتبك ، ويشتلون مثل نبتات الأرز التى لم يعودوا يزرعونها ؛ وهم لم يعد فى وسعهم العودة إلى منازلهم ، إن براسرت هو الخامس بين سبعة أخوة ، إنه يخبر والديه بعمله كنادل ، العائلة تمتلك أرضا فى «نونتابورى» ، غير أنه لاعمل فيها طوال ستة أشهر من العام ، ثم يأتى قصم الظهر باقى الوقت .

إن العديدين من العاملين فى الجنس يحسون بأن الوعود الجذابة المحفورة فى مناظر المدينة الزاهية قد خدعتهم واستغلتهم، وكذا الأمر صحيح أيضا بالنسبة للكثيرين من الباحثين عن الجنس ، حقا ، إن التحامل الاجتماعى أو العنصرى ليس بعيدا فى غالب الأحوال عن السطح ، إن العلاقات الجنسية الحميمة ، كما يبدو ، لها دوما علاقة وثيقة بتلطيف العنصرية .

ارتبط جاى بفتاة فى السادسة عشر من عمرها ، قام «بانقاذها» كما يقول من بارفى «باتبونج» ، إنه يشكو من أن الأمر اقتضى شهورا حتى بدأت منحه علاقة جنسية مُرضية» إنه كريم معها ، لكنه يشكو من أنها تسأله دائما منحها نقودا ، إنه يقول: ، «لن أتزوجها ، لأن ذلك يعنى زواج كل مجموعتها اللعينة»، إنها الوحيدة التى «تكسب رزقها» ، وتعتمد العائلة كلها عليها ، إن كل مايراه جاى هو الجحود والجشع ، «إنهن أطفال » يقول عن التايلانديات عامة ، «إنهن لم يحصلن على أى قدر من التعليم، المشكلة أن هذا البلد لايحكمه قانون ، ليس هنالك من حوافز تدفعهن لتحسين أنفسهن، إنهن لايتعلمن حتى الانجليزية أو الألمانية ، من أجل التعامل مع الأجانب» ، ويبدو أحيانا ، وكأن الواجب المرهق للباحثين عن الجنس هو تهذيب أدوات متعتهم ، وهو صدى مخيف لشكاوى أكثر قدما لجيل سابق من الرواد الكولونياليين.

إن كثيرين أخرين ممن يستأجرون فتيات أو صبية من البارات يطالبون «بعلاقات» ، «إنها تعرف أنها تحصل منى على صفقة أفضل مما يمكنها توقعه ، فى يوم من الأيام، من أى شخص آخر، لماذا لاتستطيع أن تمنحنى ما أريد؟ أنت لاتعرف أبدا ما يفكرن فيه» ، إنهم يتأملون مفكرين مع باحثين آخرين عن الجنس ، إذا ما «كانت قد بدأت تهتم» ، وإذا ماكان «هو شاذ حقا» ، وما إذا «كانت هنالك عواطف حقيقية آخذة الآن فى النمو» .

ينتمى تيرى إلى عائلة من العمال الزراعيين فى غرب انجلترا ، ذهب الى الخدمة وهو فى الخامسة عشر ، ثم أصبح فيما بعد خادما لأحد الدوقات . ثم دخل فى مجال الأعمال كبستانى للسوق ، واعتزل بعد أن حقق مالا ، وجاء الى بانجوك ، كان تواقا لإبعاد نفسه عن لوطى بانجوك ، الذين يعترف أنه يشمئز منهم أشد الاشمئزاز ، إنه يتحدث عن اللواطيين الذين افتتحوا دارا للأطفال ، والذين انفجر مشروعهم ، فى النهاية فى فضيحة ، كان الرجل المانيا ، وقد تم ترحيله من تايلاند ، «إنه يضفى على الأجانب سمعة سيئة» ، وقد وقعت منذ عدة شهور واحدة من الحوادث التى كثيرا ماتقع فى الجنوب : تصادم قطار يحمل كيماويات مع اوتوبيس مزدحم عند مزلقان ، وقد قتل، فعليا كل الركاب ، وفقد طفل فى الخامسة كل عائلته وأصيب بحروق من الدرجة الثالثة، وكان تيرى يزوره فى المستشفى كل يوم مدة خمسة شهور ويشترى له اللعب والهدايا ، ويبث فيه إرادة الحياة ، وشفى الطفل وتوجه إلى جدته فى القرية ، إن تيرى يتصف بالكرم مع العائلات التى تعيش فى الأماكن المكتظة والقذرة حيث يعمل هنالك متطوعا ، إن الصبية الأكبر سنا فى ذلك المكان المكتظ والقذر ، يجيئون إلى شقته للحصول على وجبة أو للاستحمام ، إن تيرى يحب الذين تتراوح أعمارهم مابين السادسة عشر والثامنة عشر ، ولكن لاعلاقة له بأى امرئ يضع أصبعه على طفل .

إن للباحثين عن الجنس فولكلورهم الخاص بهم ، والذى يدور الكثير منه حول التسامح المعلن للجنس فى تايلاند ، رغم أن الحكومة عبرت عن نيتها فى اتخاذ إجراءات صارمة ضد تجارة الجنس ، «إن تايلاند متسامحة بسبب البوذيين ، الرأس مقدس ، والأقدام غير نظيفة ، لكن الأعضاء التناسلية محايدة»، هنالك قصة عن ايقاف الشرطة لـ «توك توك»* ، كان يمتطيها سائح ومعه يافع يبدو صبيا بطريقة تثير الشبهة، وأمروا الصبى أن يفتح سستة سرواله ، وعندما تحققوا من أن لديه شعر عانة، تركوا التوك توك تذهب فى حرية إلى هدفها . «إنهم يحبون ذلك» ، تبرير عام للعلاقة الاستغلالية . «إنهم يبتسمون دوما» ، «إن ذلك يمنحهم عملا» ، «إنه أفضل من كسر ظهورهم الكاحل فى طين حقول الأرز» ، إنها كلمات تبدو ، فى بعض الأحيان ، وكأنها أصداء كلمات أصحاب الطواحين فى القرن التاسع عشر ، وهم يبررون الأنماط الصناعية للعمل .

حلت راشيل بتايلاند مبكرا منذ الستينيات ، كانت رجلا من قبل ، وقد هربت من انجلترا خلال الأيام التى سبقت إلغاء تجريم الشذوذ الجنسى ، كانت، شاذة بصورة واضحة ، إنها الآن تقوم بالتدريس فى رياض الأطفال ، وتدير واحدا من أكثر أسواق الشذوذ صعودا فى «باتبونج» ، هى تقول ، أنها قد أُجبرت على المنفى وأنها لن تعود البتة إلى انجلترا ، «إنك لاتحس بالأمن البتة فى تلك الأيام بسبب الذين يضربون بعنف غريب ، والشرطة الاستفزازيين والمبتزين ، ليس هنالك من شئ افتقده فيما يتعلق بانجلترا ، ومع ذلك فهنالك مايفتقده المرء – إننى افتقد أنوا ع الجبن التى يمكنك الحصول عليها ، لكننى لن أعود من أجل ذلك» .

الناس هنا ، كما تقول راشيل ، يتقبلونك ، «إنهم لاتقلقهم بذاءة الجسد البشرى ، إن مشكلة غالبية الصبية فى هذا العمل ، أنهم غير متعلمين ، لقد جاءوا من أفقر أجزاء البلاد ، وعندما يفقدون جاذبيتهم للرجال ، فإنه يبحثون عن فتاة بار كى تبقى عليهم ، إن عمر الفتيات فى مجال العمل هذا عمر أطول ، إن كان فى وسع بعض الصبية أن يعيدوا توحدهم مع المجرى العام ، إلا أن البعض الآخر يجد صعوبة فى تحقيق ذلك ، إن هذه الحياة تفسدهم حيث أنهم قادمون من خلفيات ريفية ، إنهم يحصلون على نقود تصل إلى ١٠٠٠ باهت فى الليلة ، ثم يجيئون إليك فى اليوم التالى ويشتكون من أنهم جوعى ، ليس لديهم إحساس بالمستقبل ، قد يحصل البعض منهم على وظيفة فى فندق ، أو يسوق مركبة توك – توك . إن أشدهم جاذبية يمكن أن يكسب حتى ٣٠٠٠٠ باهت شهريا ، غير أن ذلك لايظل لسنين طويلة .البعض يذهب إلى المنزل ويتزوج ويعمل فى أرض العائلة .

---

* دراجة بخارية متعددة المقاعد (المترجم).

إن غالبية الصبية فى نوادى الشواذ محددى الاسعار ، إنهم قبل أن يظهروا على المسرح للعرض يستخدمون مايثير جنسيا بشدة ، وبصورة مباشرة ، استعدادا لعملهم ، ويزيدون من حجم عضوهم الذكرى باستخدام منفاخ خال من البلاستيك . الصبية لايرتدون شيئا غير باقات ورباطات عنق ورقية ، ورقم فوق اعضائهم التناسلية. فإن رغب مقامر فى واحد منهم ، فإنه يدفع إلى البار ، ويصطحب الصبى إلى حجرة علوية ، إن مايحصل عليه الصبى خاضع للتفاوض ، والبعض لايدفع شيئا ، لأنهم يعتقدون إنهم قد دفعوا بالفعل مايكفى للبار ، إلا أن الكثرة كرماء معهم ، يقول جريج ، وهو مدرس معتزل من كندا ، «يجب الا تتوقع شعورا بالامتنان ، عليك أن تعيش ليومك. هنالك دوما صبية أكثر عددا من الراغبين فيهم ، إنه سوق للمشترين» .

إن «الماجيك بار» لايزال ، فى الساعة الثانية صباحا ، فى قمة تأرجحه وتمايله ، هنالك ممر ضيق فوق الحاجز ، والجدران تحدها مقاعد طويلة جلدية حيث يجلس الزبائن ، وهنالك فوق المسرح خيوط وأشرطة خضراء وفضية تقول عيد ميلاد سعيد ، والتاريخ ٢٤ مارس . وامرأة تضع جسدها مقوسا عبر الممر الضيق ، ويدها وقدمها على الأرض ، ومعدتها إلى أعلى ، وتشعل سيجارتين وتضعهما فى مهبلها ، وتبدأ تدخينهما حتى العقب ثم تقف وتقذف بعدد من البيض من مهبلها فى كوب بيرة حيث يتكسر . وتشعل شمعة وتدع الشمع الساخن يتساقط قطرات على ثدييها وبطنها وفخذيها ، حيث يتجمد . وهى تفتح فمها وتمسك به على لسانها .

يتضح أن الرجل الجالس الى جوارى لاجئ حقيقى من «ميانمار» ، ويسألنى عما اعتقده ، وأكثر اشمئزازا ، قال إنه فر من طغيان ميانمار إلى الحرية فى تايلاند ، لقد كان هذا الهروب ، كما يقول ، هروبا من الكبت إلى الفساد .

إن «إك» يعمل فى بار يدعى «ماى واى» ، نادى صغير ، به مقاعد بار وأرائك صلبة، ذات مساند جلدية حمراء ، ليس هنالك من عروض جنسية ، هنا فقط الراقصين النشطين والمبدعين ، المسرح منصة دائرية ، ذات قوائم ثلاثة من الصلب ومرآة من خلفه ، الصبية يتأرجحون حول الأعمدة ، يتشقلبون ، يرقصون على السقف ، يدورون فى سرعة ، ويغوصون ويتسلقون القوائم بزاوية قائمة ، مستخدمين أيديهم فقط ، إن إك راقص آسر ، إن له وجها عريضا وعظام وجنتين عاليتين ، وابتسامة واسعة ، كان أبوه عاملا فى خدمة الولايات المتحدة خلال حرب فيتنام ، وقد تزوجت أمه فيما بعد وأنجبت بنتين ، وقد زودت زوجها بتاكسى ،فى «ايسان» حيث يعيشون من المال الذى تلقته من صديقها الأمريكى ، وسقط الأب مريضا ، فجاء إك بالتاكسى إلى بانجوك ليتكسب عيشه منه ويساند العائلة ، ووقعت له حادثة بعد عام ، حيث قضى على التاكسى ، وأمضى ثلاثة شهور بالمستشفى ، وقد أصيبت رجله ووجهه ، «بينما كنت أسوق سألنى «كاتوى» (صبى سيدة) ، لماذا لا أعمل فى ناد بما لدى من سمات

ومظهر، ولذا علمت نفسى الرقص باستخدام كاسيت مسجل وكتاب ، وعلمت نفسى الانجليزية من الأشرطة» ، إنه الآن أفضل راقص فى النادى ، إنه يوفر كى يشترى تاكسيا جديدا ، وهو يمتلك الآن ١٠٠٫٠٠٠ باهت - حوالى ثُمن كمية النقود التى يحتاجها ، إنه يكره الرقم الذى يرتديه ، والذى يعلن للزبائن أنه متاح ، غير أنه يستمتع بالرقص ، هل هو شاذ؟ إنه يقول بين بين ، إنه يود أن يكسب مايكفى ليبدأ السواقة مرة أخرى ، ثم يعود الى منزله ويتزوج ، إنه يقول لوالديه أنه كابتن - بار ، إنه يأخذ المائتى الباهت التى قدمناها له ، مستريحا إلى أنه لم يفعل شيئا مقابل تلك النقود غير الكلام ، الصبية والبنات الذين واللواتى لم يجدوا ولم يجدن زبائن ، مازالوا يقطعون الشوارع ، فى الخامسة صباحا ، حيث مازال هناك عدد قليل من سياح الجنس يبحثون عن اتصال وتلامس ، يقول جريج: ، «إن الشئ الطريف ، فيمايتعلق ببانجوك ، إنك لاتحتاج أبدا للشعور بالوحدة ، ماعليك إلا أن تخرج فى أى وقت من النهار او الليل وسوف تجد بالطبع أحدا» ، ثم يقول مفكرا ، «إنها ليست علاقة ، فالشحاذون لايمكن أن يختاروا ، ونحن جميعا شحاذون ، ألسنا كذلك؟ شحاذون اقتصاديون ، أو شحاذون عواطف وجنس ، ذلك ياعزيزى ، هو السبيل الذى ينهجه العالم» .

إن تايلاند هى واحدة من بلدان جنوب آسيا التى ينادى بها ، باعتبارها موقع معجزة اقتصادية أخرى ، لقد كان النمو خلال الخمس سنوات الماضية ١٠٪ وبلغ معدل دخل الفرد ٤١٠٠٠ باهت عام ١٩٩١ (٩٤٢ جنيها استرالينيا) ، إن هذا النجاح يخفى حقيقة أن هناك ليس فقط دينا قدره ٢٦ مليار دولار ، وعجز فى الحساب الجارى قدره ٨٫٥٪ من الناتج المحلى الإجمالى ، لكن الأكثر أهمية هو أن النصيب الذى كسبه الـ ٢٠٪ الأثرياء من الدخل مابين ١٩٧٥-١٩٨٨ قد زاد من ٤٩٫٣٪ إلى ٥٥٪ تقريبا ، بينما النصيب الذى ذهب الى أفقر ٢٠٪ هبط من ٦٫١٪ الى ٤٫٥٪ . إن الزراعة مازالت تستخدم ثلثى الناس ، ومن المتوقع أن ينمو إنتاج المزارع بطريقة أكثر بطئا من باقى الاقتصاد خلال السنوات الخمس القادمة ، إن هذا لايعنى غير أن المزيد والمزيد من الشباب سوف يهاجر إلى المدن ، واستمرار صناعة الجنس باعتبارها مستخدما كبيرا للعمالة ، سوف تتوقف على الخوف من الإيدز ، واتاحة عمل بديل ، وفاعلية حملات مقاومة صناعة الجنس .

مقاومة تجارة الجنس

إن فكرة «صناعة الجنس» توحى بأن التصنيع يحد نفسه ، بأى وجه من الوجوه فى حدود الصناعة الآلية ، لكنه عمليه أكثر شمولا بكثير، عملية لاتترك غير مناطق قليلة من الخبرة الإنسانية دون مساس ، إن الدعارة ، بالطبع لها تاريخ طويل سابق على المجتمع الصناعى ، غير أن تنظيمها للإستهلاك الكبير أكثر حداثة ، وتركيزها على مدن بذاتها ، نتيجة تغير التقسيم العالمى للعمل ، حديث للغاية ، حقا.

إن السياحة الجنسية تطور طبيعى لاستخدام تايلاند كمركز لراحة واستجمام قوات الولايات المتحدة أثناء حرب ، فيتنام هنالك الآن عدة آلاف من النساء اللواتى يعملن فى منطقة باتبونج فى بانجوك. لقد خصصت باتبونج فى الأساس كى تكون وول ستريت بانجوك ، غير أنها لم تنهض أبدا كمركز مالى. لقد جاءت صناعة الجنس لتملأ الفرا غ، كما أن الجنس يعنى نقودا سريعة ، وليس هنالك حاجة لاستثمارات كبيرة. ورغم أنه يجب طبقا لقانون تايلاند أن تكون ٥١٪ من الأعمال مملوكة لتايلانديين ، فإن ذلك أمر يسهل تجنبه باستخدام أسماء تايلاندية وأموال غير تايلاندية .

وقد أرادت الحكومة العسكرية بعد الانقلاب الدموى عام ١٩٧٦ ، تقديم صورة جيدة للعالم الخارجى، حدث هذا عند بدء تعزيز الترويج للسياحة لأول مرة ، بأنها سوف تربح عملة أجنبية ، وتقدم تايلاند باعتبارها ملعبا دوليا ملائما ومعقولا.

هناك ، على أى حال مقاومة متزايدة لهذا الحط من دور تايلاند . إن شانتاويبا ابيسوك يعمل مع المفوض (الامباور) ، وهو قد كان مع النساء فى البارات والنوادى والردهات منذ عام ١٩٨٥، «إن المزيد والمزيد من النساء يدخلن صناعة المؤانسة واللهو. إنها لاتقتضى أى تدريب أو مهارات ، إن كثيرا من النساء تركن المدرسة فى سن الثانية عشر والثالثة عشر ، وذهبت العمالة الماهرة إلى المصانع المملوكة للأجانب ، وجاءت الصناعة غير الماهرة إلى «باتايا» أو باتبونج .

«إن الرجال والنساء فقراء ، بنفس القدر ، فى المناطق الريفية ، غير أنه توجدأمام الرجال فرص أكثر فى المدن – التشييد والسواقة والصناعة– إن قدرتهم على الكسب أكبر ، وتُبين أعمال المسح أن ٦٠٪ من المصانع تدفع للنساء أقل من الحد الأدنى للأجر ، كما أنه من اليسير عليهن الانتقال الى صناعة الجنس» .

كذلك يَسهل استغلالهن ، إن الكثيرات من النساء لاتستطعن قراءة العقود ، إنهن لاتعرفن شيئا عن حقوقهن ، أو عن مثل تلك الحماية القانونية ، إن وجدت ، إنهن لاتستطعن الجهر ضد العنف والإساءة التى تتعرضن لها ، إن «المفوض» يساعدهن

على التحكم بصورة ما فى حياتهن - معرفة القراءة والكتابة والتعامل مع البنوك والتفاوض مع أصحاب البارات والزبائن ، «وقد اكتشفنا ، فيما بعد ، أن الحاجة لم تكن قاصرة فقط على التعليم الرسمى ، ولكن أيضا على التعليم الجنسى حول الإيدز والأمراض التى تنقلها العلاقات الجنسية ، وقد أوجدنا منذ عام ١٩٨٦ برنامجا تعليميا حول الإيدز ، وأعددنا ورقة للنساء خاصة ، نخبرهن فيها بالكيفية التى يقللن بها المخاطر التى يتعرضن لها ، ولحماية أنفسهن ، فالمسألة ليست مسألة عدم اعطاء الإيدز للرجال».

إن «المفوض» يحاول أيضا العثور على عمل بديل وحماية حقوق الإنسان للعاملين فى صناعة الجنس ، «الدعارة مؤسسة كبرى . إنها ليست مشكلة شخصية أو مجتمعية، إنها مشكلة دولية ، إن العالم الخارجى لايرى غير النساء ويوجه اللوم لهن ، إن الدعارة فى تايلاند مرتبطة بموضوعات سياسية واقتصادية ، من الذى قرر أن يكون دور التايلانديين ، هو خدمة الجنود الأمريكيين خلال الحرب الفيتنامية ؟ وحتى خلال حرب الخليج ، سُمح للجنود الأمريكيين بالحضور إلى هنا دون تأشيرة دخول أو جواز سفر ، ومع كل منهم ٢٫٠٠٠ دولارا لإنفاقها خلال أسبوع ، وهو مبلغ كاف لشراء امرأة ؛ عشرة نساء» .

يقول شانتا وبيا: عن صناعة الجنس ، «إن الفقراء يقبلونها ، لأن هذا مايريده الأثرياء ، إن الفقراء يقبلون بما يفعله الأغنياء باعتبار أن مايفعلونه هو معيار أساسى، وهذا يسهل عليهم اتباع ذات السبيل ، إنهم يرون الناس يجيئون من ماليزيا الى «فوكيت» فى رحلة يوم واحد من أجل الجنس ، ويجئ اليابانيون فى نهاية الأسبوع ويجئ الأوروبيون أحيانا لشهور.

«عندما تكون الأعمال سيئة ، كما حدث أثناء حرب الخليج ، تعود النساء الى أوطانهن باعتبارهن فاشلات ، ونقص المناعة ايجابى ، وهن خاليات الوفاض دون نقود، هل يمكن أن تتصور مصيرا أكثر بشاعة؟ لقد استهلكن مثل أية سلعة فى السوق ، ثم ألقى بهن بعيدا ، وقد رفضتهن بعض العائلات».

وقد حاولت حكومة تايلاند إقرار قانون للإيدز لحجز المرأة المصابة ، ولاجراء اختبار جبرى للمجموعات الأكثر عرضة للمخاطرة ، ليست هنالك سياسة لمعاونة المصابين بنقص المناعة ، فقط سياسة للتحكم فيهم ، لقد قالت وزارة الصحة فى مؤتمر وطنى فى مارس ١٩٩١ ، أنه ليس هنالك من أمل فى العلاج الطبى ، ومن ثم يجب أن يستخدم القانون لحماية الأمة ، إن القانون يبيح للسلطة القانونية دخول أى منزل يعتقد بوجود خطر فيه ، وقد جرت مناقشات رسمية كثيرة حول الاختبار الاجبارى للمجموعات المعرضة للمخاطرة ، وتسجيل المومسات ، إن القواعد التى تسير عليها البارات

والنوادى والردهات صارمة للغاية ، إن ساعات العمل العادية هى تلك التى مابين السادسة بعد الظهر حتى الثانية فجرا ، فإن جئن متأخرات يخصم باهت واحد من راتبهن عن كل دقيقة ، وإن فشلن فى أخذ دورهن على المنصة ، ساعة أن تبدأ الموسيقى بالضبط ، فإنهن يفقدن ٥٠ باهتا، حتى إن كن فى دورة المياه ، وهن يذهبن مرتين فى الشهر إلى الطبيب ، ويجب عليهن أن يدفعن من أجل فحصهن وإلا فقدن مرتبهن ، وهن مجبرات على الذهاب مع الزبائن أربع مرات ، على الأقل ، فى الشهر ، فإن فشلن فهنالك المزيد من الخصومات ، عندما يأخذ زبون فتاة ، فإنه يدفع للبار ٣٠٠ باهتا وتتفاوض الفتاة على نصيبها ، إنها تفصل إن لم تحقق للبار ١٢٠٠ باهتا شهريا.

«يجب أن تكون المرأة فى الثامنة عشر على الأقل حتى تعمل فى صناعة الجنس ، إنها عشرين فى القانون ، غير أن ذلك يمكن تجنبه بسهولة ، غير مسموح نظريا لمن هم دون العشرين بالوجود فى البارات ، لاتدخل امرأة دون حماية ، لاتوجد بارات بالطبع للسحاقيات ، لا أحد يخبر امرأة بأنها عجوز للغاية ، إنها تعرف ذلك بنفسها ، وهن يعدن حينئذ إلى منازلهن ويتزوجن ، ويدرن عملا ، العديدات منهن لايستطعن جمع الأعداد ، لايعرفن كيف يستخدمن البنك ، ومن الأمور الشائعة للغاية وضع الواحدة منهن نقودها فى حساب صديق ثم يجئ الوقت الذى ترغب فيه سحب نقودها غير أنها لاتملك حقا قانونيا لفعل ذلك .هذا مجتمع استغلالى ، الناس فيه يخدعون بعضهم البعض ، من الصعب معرفة العدو من الصديق ، يستغل الكبار الصغار ، ويبيع الأقارب الأكبر أبناء وبنات الأخ أو الأخت باعتبار ذلك عملا تجاريا».

تصطحب العديد من النساء الأكبر سنا ، فى الفنادق السياحية ، فتيات صغيرات فى ساعة متأخرة من الليل ، الأكبر سنا داهيات يقظات ، والأصغر سنا عصبيات ، «مزادات اللحم تجرى علناً ، بعض النساء الأكبر سنا تصبحن عميلات تقمن بالمساومة، هنالك أيضا مساومات مترتبطات بالبارات وبخطوط الطيران إلى اليابان أو ألمانيا ، يبعن الفتيات إلى المواخير.

«إن التحكم فى النساء لايقدم بديلا عن وضع الاستغلال ، وإن غدت النساء قادرات على التحكم فى الزبائن وملاك البارات ، فليس هنالك من مشكلة علينا إن نحترمهن ، إن كان ذلك ما اخترنه».

إن قواعد البارات أقوى بالنسبة للنساء من قوانين الدولة . لأنهن إن لم يفعلن كما يطلب منهن تعرضن للضرب أو حتى للقتل ، عدد المومسات فى تايلاند يقدر بـ ٧٠٠,٠٠٠ إلى ١,٠٠٠,٠٠٠ ، فإن كان ذلك صحيحا ، فإنه يعنى حوالى ١/٦ المجموعة العمرية من ١٨ الى ٢٥ . تقول السيدة ابيسوك ، إن الأرقام أقل أهمية من

كونهن يملكن حريتهن أم لايملكنها ، «إن لدينا ثقافة مختلفة ، ومعتقدات مختلفة ، وكذلك بالمثل ألوان جلود مختلفة عن هؤلاء الذين يجيئون إلى هنا كسواح ، يجب على الرجال القادمين من الخارج أن يتصرفوا مع نساء تايلاند كما يتصرفون مع زوجاتهم، إن لقضايا المرأة ذات أهمية القضايا العسكرية والسياسية ، إن صناعة الجنس هى قضية المرأة وليست قضية المومسات .

«إننى استطيع التحكم فى حياتى ، إلا أن الكثير من النساء لايستطعن ، وطالما أنهن لايستطعن ، فإننى لست حرة بالمثل ، لقد تعلمت الكثير من ابنتى ، عندما كانت فى السادسة أخذتها كى تستحم ، بكت وتوسلت أن أنزل معها فى الماء ، أنا نفسى لم أكن أستطيع السباحة ، ومع ذلك كنت أجبرها على فعل ذلك . وأدركت أننى يجب أن أفعل ذلك «معها» ، وأن أتعلم «معها» ، وذلك مافعلناه مع نساء باتبونج ، ذهبنا الى البارات وجلسنا إليهن وتحدثنا معهن ، كان مشروعنا الأول أن نعلمهن الانجليزية ، حتى يمكنهن التعامل بندية مع الزائرين ، وأن يكتبن ويقرأن التايلاندية . وغدونا صديقات ، شاركناهن طعامهن وحياتهن، وقد تعلمت الكثير منهن ، وأننى أشكرهن واعترف بجميلهن».

«ناتى» راقص ، تطوف مجموعته بنوادى الشواذ فى تايلاند ، تدعيما للرسالة التى تدور حول الجنس الآمن وخطر الإيدز ، إنه يقول ، أن أقلية فقط من العاملين فى مجال الجنس الذكورى ،على غير مثال النساء ، يرسلون نقودا إلى عائلاتهم ، إن غالبيتهم يرون أن حياة النوادى تسير فى يسر ، وينفقون كل مايكسبونه على الشراب والقمار والملابس ، وهم عليهم ،عندما يبلغون الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين أن يعودوا إلى منازلهم ، ويتزوجون أو يجدون عملا آخر فى اقتصاد المدينة.

«إن للعمل الذى نقوم به غرضين : تشجيع ظهور هوية الشواذ، كى نفتح أنفسنا ، ونكون راضين عن كوننا شواذ ، إن الأثرياء عموما حريصين للغاية على الظهور كشواذ، ولدى الفقراء مشاكل عديدة عليهم أن يهتموا بها ، وهدفنا الثانى هو وقف الإيدز ، وليس فقط فى أوساط الشواذ ، إن هذا قد منح الشواذ هدفا جهاديا فى تايلاند ، هو أمر أكثر ايجابية بكثير من مجرد تسول الرضى والقبول ، إن حساسية الشواذ الغربيين ليست مناسبة للتايلانديين ، إن المجتمع التايلاندى مجتمع محافظ ، إننا لانستطيع التظاهر فى الشوارع ، إن المجتمع المستقيم يهاجم الشواذ ، حيث ينظر إليهم باعتبارهم متجاوزين للحدود ، إنهم يرتدون ملابس الجنس الآخر ويسلكون مسلكه ، إنهم يشوشون العلاقات الجنسية ويغرون الشباب على الفسق والمجون ، إننا نحاول فعل شئ يصحح هذه النظرة الخاطئة ؛ لكن لابد من تقييدنا حيث أن البهرجة فى تايلاند مسألة فاشلة .إننا نود إقامة مجتمع الشواذ وغير الشواذ بطريقة متكاملة .

«هنالك أسباب ثقافية جيدة وراء تطور صناعة الجنس فى تايلاند ، هنالك مجموعتان فى المجتمع التايلاندى - المجموعة الأخلاقية المستقيمة الجيدة ، والآخرون الذين هم هناك ليستخدمون ، الثقافة تقبل بهذا ، الناس هنا يحسون بالخجل من كونهم فى صناعة الجنس ، الشبان الذين يعملون فى البارات لايخبرون والديهم بما يفعلون ، أن تحب صناعة الجنس فتلك مسألة خيالية ، إننى أود أن يفهم العالم أننا نفعلها لأننا فقراء ، السياح يتصورون أن كل التايلانديين متاحون - يجيئ الشبان من مجتمع فلاحى فقير ، وفجأة يجدون أنفسهم بين مسرفين ومبذرين كبار ، إنهم يجدون صعوبة فى التحكم فى حياتهم ، إن أبناء المجتمعات الريفية لايستخدمون فى الاقتصاد النقدى.

«إننا نشطاء الشواذ مهتمين بدمج الصبية فى المجتمع ، أن يواجهوا المشاكل عندما يعودون الى حقول الأرز ، إنك عندما تمتطى النمر ، لاتستطيع أن تهبط من فوقه، وقد انتهى الأمر ، إنه أيسر على غير الشاذ والخنثى أن يعودوا ، وأن تعزيهم الفكرة الدينية بالرضى بما لديهم ، إنه أمر صعب ، لكنهم يستطيعون التكيف مع الأوضاع المخفضة ، إن وعى الشواذ يتغير ، إنهم لايستطعون التكيف ، والوعى غير قابل للنقض ، ربما يبحثون عن «فاهرانج» يرعاهم ، إننا نخبرهم أن كونهم شواذ مسألة لها شأنها فى ذاتها، وليس عليهم الاعتماد على فاهرانج .

«هنالك حوالى ألفان من الذكور يعملون فى الصناعة فى بانجوك ، رغم أن العديدين مروا بها وخرجوا منها ، وعملوا ستة أشهر أو عام فى وقت واحد ، أن عدد النساء العاملات فى تجارة الجنس فى المدينة يتراوح مابين ٦٠٠٠٠ ، ٧٠٠٠٠ وهكذا يمكنك معرفة نسبتهن.

«إن مجتمع الشواذ هو أول من تحدث عن الإيدز ، وهذا ماجعل وضعنا جيدا مع الرأى العام الأوسع ، إن الأخوة من أجل وقف الإيدز» (إف إيه سى تى) قد لعبت دورا ايجابيا. لقد قمنا بتعليم الشواذ ، ووزعنا قراب الذكر المطاطى (الكبوت) ، وتحدثنا عن الجنس الآمن من خلال التمثيليات والأعمال الدرامية - الآن ، إن رفض زبون الكبوت ، يلقى به خارج نوادى الشواذ، لقد كان الزبون فيما مضى ملكا ، لكننا غيرنا ذلك، إن معدل الزيادة فى عدد الناس المصابين بالإيدز أو الـ إيه آر سى (المجموعة المرتبطة بالإيدز) ونقص المناعة ، أقل فى الحقيقة مما هو موجود فى أى مجموعة أخرى.

«إن الحكومة تريد تخفيض صناعة الجنس ، لقد قالوا إنهم يريدون إرجاع رجال تايلاند عن ميراث استخدام المومسات لاكتساب الخبرة ، إن أكثر الطرق فاعلية من أجل التخفيض هى ضمان بديل لتحقيق الرزق للفقراء فى داخل البلاد ، والذين يغذون صناعة الجنس بالهجرة إلى بانجوك ومراكز حضرية أخرى .

«إن مهمتنا هى أن نحكم على الناس طبقا لما إذا كانوا أناسا طيبين ، وإذا ماكانوا الآن مختلفين ، إننا نقول: ، «كن أى شئ ، ولكن كن انسانا طيبا» ، لقد بدأت هذا العمل ، لأننى كنت أحس بالراحة لأننى شاذ ،كان علىّ أن أناضل من أجل انجاز ذلك، من أجل العثور على هوية شاذ ، لأننى أصغر أبناء أسرة صينية ، والصينيون فى المجتمع التايلاندى أشد صرامة من التايلانديين ، لقد قمت بتحقيق أشياء جيدة حتى أبين لأسرتى ما أستطيع انجازه ، لقد أوضحت أنه يمكن للمرء أن يفعل فعلا طيبا ويكون شاذا ، وهم قد قبلوا ذلك ، بعد معركة طويلة ، إن كنت مستقيما فإن ٧ من عشرة جيدة بما يكفى ، ولكن إن كنت شاذا فإنه يتوجب على المرء الحصول على احدى عشرة أو اثنى عشرة من عشرة حتى تكون جيدا بما يكفى ، عندما أخذت ، فى البداية المرور على الأندية ، موضحا الحاجة إلى استخدام العازل المطاطى ، كان هنالك قدر كبير من العداء ، كانوا يعتقدون أننى سأخيف الصبية . وكان ذلك أمرا سيئا ، فيما يختص بالعمل لقد تغير كل هذا الآن ، إن خطورة الحالة واضحة للغاية ، يجب ألا تخضع صحة الناس لحاجة كسب عملة أجنبية» .

ماهى التنمية؟

أصوات من الجنوب

د.ل. شيت مدير مركز دراسة المجتمعات النامية ، نيودلهى

«يبدو أنه لن يمكنك البقاء ، أكثر من ذلك ، كدولة - أمة ، دون قروض صندوق النقد الدولى، ووصاية المؤسسات الاقتصادية الغربية ، يساورنى بعض الشك ، أن شروط صندوق النقد الدولى وقروض سوف تحقق ماوعدت به ، إحصائيا على الأقل . سوف ترتفع الصادرات ، وربما يصبح ميزان المدفوعات محتملا ، ربما نخرج من مصيدة الديون ، وسوف يجئ مايحفز الاقتصاد ، وسوف ترى المكاتب الحديثة تجئ الى دلهى . وسوف يعمل الهاتف بطريقة أفضل.

«ومن الناحية الأخرى ، ليس هنالك من وعد بأن التوظيف سوف يزداد ، كما أنه لاتوجد هنالك شبكة أمان للفقراء ، وسيكون هنالك تضخم يتراوح قدره من ١٢ الى ١٥٪ وربما أكثر ، لن ترتفع الأجور التى لن تجارى التضخم ، ويتكون ثلثى الاقتصاد الريفى من عمال بلا أرض ، ومن يتكسبون دخلهم من الأجر ، ليس أمامهم طوال العام غير ٢٢٠ يوما للعمل ، وحتى إن ضمنوا الحصول على الحد الأدنى من الأجور ، وهذا امر بعيد الإحتمال ، فإن هنالك اثنين فقط يكتسبان دخلهما من الأجرفى عائلة مكونة من ستة أشخاص ، مما يعنى ٤٠ روبيه مدة ٢٢٠ يوما فى العام ؛ أى ٨٠٠٠ روبيه فى العام لتغطية الحاجيات اليومية اللازمة للبقاء : الوقود ، زيت صالح للأكل ، العدس الأرز ، الملح والملابس ، يقينا أن القاع الذى تتراوح نسبته مابين ٢٠ . ٣٠٪ سوف يغوص أكثر ، إنهم لن يستطيعون ملأ بطونهم كما هى ، ولندع جانبا إمكانية العثور على المواد الغذائية الضرورية للإبقاء على الصحة ، إن هؤلاء الناس سوف يدفعون أكثر من الفقر والعوز إلى الإملاق والعدم ، وسوف يلى ذلك اضطراب اجتماعى لأن القضية هى قتال من أجل البقاء ، سوف يكون هنالك المزيد من الجرائم ، والمزيد من الدعارة ، مع المزيد من اناس يموتون فى الطرق والشوارع ، ربما لن يصنع الأمر أخبارا ضخمة، لأنها لن تكون مجاعة جماعية ، إن جسدين مضافين أو ثلاثة يوميا فى شوارع كل بلد أو مدينة لن يكون بالأخبار الضخمة ، سوف تكون الأخبار أكثر امتلاء بقصص النجاح الاقتصادى ، وسوف يقود الاضطراب إلى مزيد من العسكرة ، ومزيد من الارهاب ، ومزيد من الانفصالية ، مع المزيد من سك النقود ، والقليل من النقود للفقراء، فإن هؤلاء الذين سيظلون أحياء لن يجدوا مصدرا آخر يستندون إليه فى القرية : أما وقد خصخصت الأشياء التى كانت على المشاع ، ولم يعد فى وسع الفقراء أخذ حزمتين من أوراق الشجر ، من شجرة شخص آخر ، دون أن يتعرضوا للتجريم .

«إن الاقتصاديين نادرا مايربطون خططهم العلاجية بالنتائج الاجتماعية ، إنهم يتصرفون وكأن رؤاهم تعمل فى مجال منفصل تماما عن ذلك الذى يجب أن يعيش الناس فيه».

أشيس ناندى ، مؤلف العدو الحميم: خسران النفس واستعادتها فى ظل الكولونيالية

«عندما أسمع كلمة «التنمية» ، فإننى أفكر فى المزيد من الصناعات ، والمزيد من المدن ، والتلوث ، والاستئصال والعنف المنظم ، إن ما يجب أن يحدث ، هو المزيد من التنمية الحضرية المحدودة ضيقة النطاق ، والأقل قصفا للأحاسيس والمشاعر ، والتى توفر المزيد من الوقت لنتأمل أنفسنا والعالم ، والمزيد من الوقت للناس كى يمتعوا أنفسهم ، وضغوطا أقل من الدولة ، إن من يدافعون عن التنمية الجارية يفقدون معركة الكلمات ، إلا أن لديهم تقنية الإكراه لفرضها على الناس ، إننا نرى انتصار الاقتصاديات فى ذات الوقت الذى تنحدر فيه سلطتها ويخفت الإيمان بها ، من الواضح تماما أنهم قد خسروا ، إن مجادلاتهم مجردة ، ماهو معدل النمو اللازم للهند، طبقا لمعاييرهم من أجل الوصول إلى الأشد فقرا؟ إن الأمر يقتضى مائة عام إن كان معدل النمو ٣٠٪ ، ما الذى سوف تكون عليه تكلفة البلاد ، وأهلها وبيئتها ، والتماسك الاجتماعى فى ذات الوقت؟ إن ذلك سوف يقود إلى مستويات غير محتملة من الحرمان والإنهيار ، إن هذا النظام لايمكن الحفاظ عليه ، حيث يتمتع ربع الهند الذى تم تغريبه بالسيادة ، بينما يتمتع الثلاثة أرباع الأخرى بحقوق التصويت فقط» .

الابهات ، جمعية تشغيل المرأة ذاتيا (سيوا) . أحمد آباد

نظمت «سيوا» ، منذ حوالى عقدين ، ودعمت مجموعات من العاملات ، كان من المعتقد فيما قبل ، بعدهن عن مجال التنظيم ، لقد بينت «سيوا» أن الاعتقاد بعدم امكان الوصول الى القطاع «غير الرسمى» مسألة كاذبة ، لقد أوضحنا عمليا ، أن كثيرا من النساء يمكن أن يعملن معا ، من أجل تغيير جذرى ، ضد موجة التنمية الجارية .

«إن النساء ، غالبا مايشتغلن ذاتيا ، لقد ابتدعن لأنفسهن عملا ينلن عنه أدنى مستويات المكافأة ، إن أرباحا عديدة قد تحققت من عملهن غير المنظور ، إنهن صانعات الشندى (اللحاف) وبائعات الخضار ، وصانعات «البيدى» (السجائر) ، وعاملات الطباعة على الكتل الخشبية والحاملات للأشياء فوق الرؤوس ، وبائعات الملابس سابقة الاستعمال وصانعات «ألياباد» أو «الاجاراباتى» ، وعاملات الصناعات اليدوية والسكر ، كما أنهن من يعيد تشغيل الورق والمعادن والبلاستيك والخرق. فإن ظللن غير مرئيات ، خفيات بالنسبة للاقتصاديين والمخططين ، فإن وجودهن كان واضحا للغاية للوسطاء وتجار الجملة الذين استفادوا من عزلتهن كي يدفعون لهن أجورا بائسة ، إن واحدة من أعظم الأمور كبحاً لقدراتهن للنهوض بعملهن ومهارتهن ، كانت عدم اتاحة القروض مما أدى للاعتماد على مقرضى النقود ، إن اقامة بنك سيوا ، فى السبعينات ، قد حول حياة الكثيرات من أمثال تلك النسوة .

«لقد وجدت سيوا أن المهارات التقليدية قد فقدت أو تدنت عبر التنمية ، إن العديد من السيدات تعرفن جيدا أن التغيير التكنولوجى قد دفع بهن الى الخارج ، وأن التنمية قد جردتهن من وسائل مستقرة للحياة ، فالبائعة مثلا التى تقترض ٥٠روبيه يوميا لشراء خضراوات ، وتعيدها ٥٥ روبيه كل مساء ، ربما تكون قد أُجبرت على ترك الأرض ،بعد أن انحطت بسبب تدفقات النهر ، إن ذكرياتها عن دورها الزراعى تعيش فى تعاملاتها فى الخضراوات ، وعاملة الزراعة التى اعتادت نسج الثياب قد استبدلت بماكينة ملابس أكثر رخصا ، وأصبحت هى جامعة خرق ، إيماء إلى عملها السابق ،إن العاملات فى البامبو لم يعد فى وسعهن شراء البامبو ، حيث بيع إلى مصانع الورق ، إن ساكنة الغابة والتى كانت تحصد العشب وتجمع البذور والعسل قد حُرمت الغابة عليها الآن.

إن سيوا تؤمن بأن أعضاءها سوف يعملون تدريجيا بنجاح ، انطلاقا من ادراك لأشكال الاستغلال والقيود المحلية على حياتهن ، ليفهمن من تلك ، طبيعة قوى الاستغلال الأوسع ، وطنيا ودوليا ، إن ما نستطيع قوله هو أن ٩٠٪ من العاملات فى الهند واللواتى لم يكن منظمات ، لم يعدن الآن بحاجة لتعدادهن خارج الوكالات العاملة من أجل التغيير ؛ إنهن يبيّن إمكانية التغيير بواسطة هؤلاء اللواتى لم توضعن البتة من قبل فى الاعتبار ، فى برامج التغيير الجذرى» .

«كانت آثار «التحديث» و«التنمية» على النساء غامضة ومتناقضة ، هنالك نفوذ لأيديولوجية تحررية تستلهم الغرب ، وتلك قد أثرت أساسا فى النساء الحضريات المتعلمات ، ولها استخدامات متنوعة فى الهند ، رغم أنها أيديولوجية أخرى مستوردة ، وبالمثل على أى حال ، بلغة الفعالية الشعبية ، فإن كثيرا من الحركات قد الهمتها النساء وقادتها ، وخاصة تلك التى تدور حول الحفاظ على قاعدة الموارد..

«عندما ثار موضوع «الساتى» (انتحار الأرامل) قريبا فى راجاستنا ؛ فإن كثيرا من المجموعات النسائية رأت فيه رد فعل للإثنية ، إن مؤشرات التنمية فى هذه القرية لم تكن مؤشرات فقر وتخلف ، كان هنالك مستوى عال من التعليم ، أعلى من المتوسط، وكانت هنالك مدارس للفتيات . كانت هنالك بلغة الأعمال ثروة ، وعائلات تجارية صاعدة الى أعلى ، كانت هنالك روابط بمناطق حضرية ، وخاصة كلكتا ، التى كانت العائلات التجارية ترسل الأموال منها، أين تقع التنمية ، فى عوامل خارجية أم فى الداخل؟

لن يحدث تحول اجتماعى حتى يحدث التغيير داخل العقل ، ربما يكون لديك الكثير الذى يثير الراحة فى حياتك ، ولكن حتى يجئ باعث التغيير ذاك من الداخل ، فإن أى شئ يلعب دوراً فى التغيير ، ماهو إلا عامل سطحى ، إن صعود الأصولية ، بصورة ما، إنما هو فى حد ذاته ، رد فعل لأشكال من التعبير خارجية ومفروضة ، وسيلة لإعادة تأكيد الهوية ، من وجود مايبدو وكأنه هجوم ضار ضدها .

«لقد كانت النساء موجودات ، وقمن بتحويل العديد من الحملات والحركات داخل الهند : شيبكو ، بهو بال ، باليا بال ، إن شجاعة المقاومة إنما هى من قوة المرأة،إن غريزة الرجل هى القتال أو الفرار ، بينما غريزة المرأة هى المقاومة والثبات ، إنها فى مجملها وقفة أكثر فاعلية وشجاعة ، وهذا هو الذى غذى الكثير من الإنجازات فى الهند فى السنوات الأخيرة .

«يصعب مع أعمال القتل بسبب البائنة ، القول إذا ماكان وقوع تلك الوفيات قد زاد ، أم إذا ماكان يجرى الآن ، ذكر تلك الأحداث على نطاق أوسع ، عندما يذكر الشئ ، فإنه يصبح حينذاك مرئيا ، من المؤكد أن هنالك رجالا أُدينوا لقيامهم بالقتل من أجل البائنة . لقد كنا نعتقد أنها ظاهرة مرتبطة بالطبقة الوسطى الدنيا ، تستخدمها مجموعة تتحرك صاعدة للحصول على نقود سهلة لتوظيفها فى مجال الأعمال ، غير أنها ظاهرة تمر عبر الطبقات بل وحتى المجتمعات ، هنالك سبل «للتنمية» يمكن أن تجعل الوضع أكثر سوءا .

إن اختراق اقتصاد محلى عتيق بواسطة النقود ، يمكن أن يجعل اغراء القتل من أجلها مسألة يصعب مقاومتها ، عندما تزداد كثافة سك العملة فى الاقتصاد الهندى.

«الشرطة بالطبع ، تحجب أعمال القتل بسبب البائنة ، حيث يمكن أن يدفع لهم كى يلزموا الصمت ، لقد أقامت الحكومة حجيرات للبائنة فى مراكز الشرطة مع وجود ضباط لمساعدة النساء ، ومحاكم غير رسمية لتقديم النصيحة ، إن الضباط لم يحصلوا على أى تدريب ، ومن ثم فإنهم يجبرون النساء على العودة الى منازلهن ، ويحثونهن على الوصول إلى تسوية للنزا ع ، وهى مسألة مضادة لما استهدفته المبادرة.

«ونفس الأمر صحيح أيضا فيما يتعلق بالاغتصاب ، إن حملة مجموعات النساء ضد الاغتصاب ، قد أدت الى تغيير فى القانون الذى كان يبلغ عمره ١٥٠ عاما ، هنالك نصوص جيدة فى القانون ، غير أن التطبيق يواجه الفشل ، إن النساء مايزلن لايبلغن خشية أعمال الانتقام ، فإن كنت أنت من فئة اجتماعية أدنى فإن الشرطة سوف تكون عنيفة وعدوانية ، لقد كان هنالك تغيير فى القانون ، فيما يتعلق بالاغتصاب، أثناء الحجز ، إذ لو ارتكب الجريمة موظف رسمى عام أو ضابط شرطة أو بالحكومة ، وقد ثبتت الجريمة من خلال أدلة طبية ، فإن عبء الجريمة يقع على الرجل حتى يثبت براءته ، وأقل عقوبة على ذلك عشر سنوات ، وقد جاءت أول حالة كبرى فى «هاريانا» ، إذ اغتصب اثنان من رجال الشرطة امرأة شابة ، وقد أدين الرجلان فى المحكمة الدنيا والمحكمة العليا ، على أساس الدليل الطبى واعترافهما ، وقد خفضت العقوبة على أية حال ، فى المحكمة العليا الى خمس سنوات ، بناء على عدة أسس . كانت المرأة فاسدة الأخلاق والسلوك ، وكان الرجلان فقيران ، والوحيدان القادران على الكسب فى اسرتيهما ، والتحفظ عليها مدة عشر سنوات لن يفيد أحدا .. الخ ، وطالبنا بمراجعة الحالة ، ورفض القاضى قائلا أن الطب الشرعى ، عبر العالم كله ، قد أجمع على أن النساء معلوم عنهن الكذب ! إن المرء يصاب باليأس، عندما يتحدث موزعو العدالة هكذا.

«إن اجراء تحليل للسائل المحيط بالطفل ، هو مثال على التقنية الحديثة التى أدت الى تقليد ضار للغاية ، إن هذا التحليل يتيح للناس معرفته إن كان «الجنين ذكرا أم أنثى مما أدى الى عمليات اجهاض للمواليد الإناث . وقد سُن قانون فى «ماهاراشترا»يحرم فعل ذلك ، إن أى شئ يزيد من نقصان الإناث سوف يجعل الأمور أكثر صعوبة . لقد كان هنالك فى الهند ،عام ١٩٠١ ، ٩٧٢ ، امرأة لكل ١٠٠٠ رجل ، وفى عام ١٩٦١ ، ٩٤١ ، وفى عام ١٩٧١ ، ٩٣١، وفى عام ١٩٨١ ، ٩٣٣ . وينعكس هذا فى وفيات الأطفال ، حيث تشكل الفتيات ، فى أماكن كثيرة فى الهند ، ثلثى وفيات الأطفال مابين سن صفر و٤ سنوات ، هنالك الآن ٤١٧,٦ وفاة لكل ١٠٠٠٠٠ مولود ، وغالبية هؤلاء من الفتيات» .

راندى دافيد ، قسم دراسات العالم الثالث
جامعة الفليبين

«يعيش نظام السوق احتفالا مطولا ، لاقيمة له ، لقد اشتبكنا ، فى الفليبين فى مناقشات حول تجديد الاشتراكية قبل سقوط الشيوعية بزمن طويل ، وقد بدأنا ذلك كرد فعل لفشل الرأسمالية ، إذ أن الرأسمالية فشلت فى العالم الثالث، إن انهيار شرق أوروبا لايمكن مقارنته بما حل بالفليبين من خيبة وعنف وفقر ، إنهم عندما ذكروا انتصار الرأسمالية فى تايوان وكوريا وسنغافورة وهونج كونج ، فإن تلك الأمثلة لم تكن البتة أمثلة للرأسمالية ، لقد لعبت الدولة هنالك ، الدور الحاسم ضد منطق السوق ، لقد جانبهم الصواب تماما ، عندما أشاروا إلى انتصار قوى السوق فى تلك الأماكن .

«لقد كنا نبحث عن نموذج بديل ، لايضحى بالديمقراطية أو بحقوق الإنسان أو الطبيعة من أجل التنمية أو النظام الاشتراكى أو الاشتراكية ، إننا نعتقد أنه فى الإمكان تطوير نماذج من التدخل السياسى ، وبالمثل انعاش المجتمع على امتداد الخطوط التى تقترحها الحركات الاشتراكية ، والمنظمات غير الحكومية – قديمة وحديثة، وكذا النضالات الشعبية المحلية ، إن سياسات الحركات تميز نفسها عن سياسات العالم الثالث التقليدية ، عن كل من الإرث الكولونيالى والإقطاعى ، وبالمثل عن السياسات الثورية المعتادة .

«لقد كانت سنوات ماركوس ، من نواحى عدة ، سنوات موفقة ، حيث بيّنت نماذج من التدخل بديلة عندما جاء ماركوس إلى السلطة عام١٩٦٥ ، وأعلن الأحكام العرفية ضد حكومته هو عام١٩٧٢ ، كانت فى ذهنه فاشستية كوريا الجنوبية ، كانت تلك هى ملهمته فى الثورة من أعلى ، وقد جذب ذلك المشروع الانتلجنتسيا ، إلا أن ماجذب المثقفين فى مشروع ماركوس ، رغم أنه كان فاشستى الطبع ، هو أنه قدم لهم وسيلة الى دهاليز السلطة ، إن كل المثقفين يغذون تفعيل النماذج التى يستطيعون عادة تدريسها أو الحلم بها فقط . كانت الفكرة الأساسية هى أن كل الذين حرصوا على الالتحاق به ، منحوا الحرية الكاملة لاستكشاف حدود أحلامهم ، إنت إن استطعت بيع فكرة إلى ماركوس ، فإن السلطة المطلقة قائمة . كان «كاميلوت» على طريقته ، نمط العالم الثالث ، إن غالبية الناس تُولى الديكتاتوريات ، والشخصيات السلطوية تحتفظ بالسلطة لأنها تسيطر على العسكر، ذلك جزء من القصة فقط ، فالجزء الآخر هو أن أعضاء المجتمع الثقافى يقرضونها ، فى جميع الأحوال ، الشرعية وعقولهم ، وكان هذا النمط من الحكومة السلطوية التكنوقراطية جذابا للغاية للعديد من المثقفين ، المتلهفين للغاية فقط، للتوقيع على المشروع الاحتفالى بالرأسمالية ، رغم أنه يستعبد ويدمر الجنوب .

«إننا مواجهون الآن بالأصولية الغربية ، هل نحن فى حاجة إلى عقيدة بديلة حتى نتعامل معها ؟ لقد طرحنا هذا السؤال على أصدقائنا الأندونيسيين ، بعد مذبحة الحركة الشيوعية عام ١٩٦٦ ، حيث ذهب كل النشطاء ، حينذاك للعمل السرى ، وكانوا مجبرين على استخدام وسائل أكثرا تعقيدا ، وهذا هو السبب فى أن التدخلات الإبداعية والخلاقة ، فى كل من أندونيسيا والفلبين ، قد حدثت على مستوى المجتمع . فإن كنت أنت واحدا من النشطاء ، تواجهك دولة قوية ، يدعمها بدورها نظام عالمى ، يكاد يبدو نظاما لايقهر ، فإنه ليس أمامك من خيار غير العمل فى المجال الذى تتحكم فيه بصورة ما ، إن للتفكير بصورة عالمية والعمل بصورة محلية رنين قوى فى العالم الثالث ، إنك بينما تعمل على المستوى الصغير ، عليك أيضا أن تفكر فى أشكال كبيرة، محلية ، إقليمية ، وطنية وعالمية ، إن المثال البديل موجود بالفعل ، ينتظر التفسير والإفصاح عنه بالطريقة الصحيحة ، إن ذلك سيحدث عندما ترى غالبية الناس أيضا ، ظلم واستحالة تنفيذ النموذج الذى يحاولون العمل به .

لقد وصف الجنرال ماك آرثر الفليبين عام ١٩٠٢ ، بأنها «بناء ملحق تعليمى» للولايات المتحدة ، وهذا ماظللنا عليه ، لقد ظلت القومية ، بالنسبة لنا ، مشروعا غير مكتمل ، انظر الى مهزلة حكومة أكينو ، وهى تسعى للإبقاء على القوات الأجنبية ، الفكرة هى أننا لانستطيع الوقوف على أقدامنا ، ليس الآن على الأقل ، الوقت غير مناسب ولن يكون مناسبا أبدا.

«إننا مازلنا أكبر مُصدر للناس ، وقد سألت مسئولين ، ألا يبعث اعتماد اقتصاد بلدنا ، على تصدير أناساً ، الرعشة فى ظهوركم ؟ وكان ردهم ، «إن أناسنا مطلوبون فى الخارج ، الى هذاالحد ، بسبب معرفتهم للغة الإنجليزية».

«إننى قادم من «بيتس» فى «بامبانجا» ، إنها مركز حرفة الخشب فى بامبانجا ، النقش التقليدى وصناعة الخشب التى تتسم بالمهارة . إن ٩٠٪ من هؤلاء الرجال يعملون الآن فى الخليج كعمال بناء ، وكانت نتيجة ذلك ، كما رأينا ، اندثار هذه المهارات الحرفية ، وتحول عمالها الى أعمال الطوب والنجارة لدول الخليج الغنية ، إن هؤلاء الرجال فنانون ، إن مانراه هو الحط من ثقافة ، من الذى يُقيّم تكلفة تلك الأشياء؟ لقد ورثوا مهارات نفيسة من أسلافهم ، من خلال الملاحظة والتدريب ، وهم يفقدون مهاراتهم تلك مع كل يوم يقضونه فى الخليج ، إن أيديهم تصبح أكثر بلادة مع كل يوم يقضونه فى البناء والتشييد ، إنهم لن يستطيعوا توريث تلك المهارات لأبنائهم ،لأنهم لايرونهم وهم يكبرون ، إن ميراث الأسلاف هذا ، لايعنى شيئا فى وجداننا ، عند مقارنته بما يكسبونه كبناة قرميد ، إن هذه التكاليف لاتدخل البتة حساب التفاضل والتكامل الاقتصادى ، إن كل مايسجل من هذا العنف والبطش هو الحوالات المالية فى النظام المصرفى الرسمى ، ليس لدينا وسيلة حساب مناسبة للألم لقياس تلك العمليات.

تلك هي التكاليف التي يجب علينا وضعها في الحسبان ، في تكامل مع أي تقييم للتنمية».

«شئ واحد حظي باهتمامنا هو تأثير هجرة العامل المتعاقد فيما وراء البحار على الأسرة الفليبينية ، هل هنالك من يحرص على الإهتمام؟ قالت لي زوجة ، «لقد ظلت الدنانير تصل رغم أنها لم تكن كافية ، في بعض الأحيان ، لدفع أقساط القرض الأصلي الذي أُخذ من أجل الدفع لمن قام بتوفير العمل ، إنه أمر مقبول أن يذهب دخل العام الأول للدفع الى مقرض النقود ، ليس من المفروض أن يرهق من يوفرون العمل ، العمال ، غير أن الناس متلهفين للغاية للذهاب، إن معدل مايدفع للحصول على الوظيفة فقط يتراوح مابين ٢٠,٠٠٠ ، ٣٠,٠٠٠ بيزو . لقد قالت نفس المرأة أن زوجها يعمل نجارا ، وأنه قد بنى منزلهم ، إن أكثر ماكان يحبه هو أن يتشاغل في حديقتهم الصغيرة ، كان يجب زراعة زهور الأوركيدا والورود، وهو يربي الخنازير في ذات الوقت. إن غالبية العمال لايكتبون خطابات ، الكثيرون لايستطيعون على أي حال من الأحوال فعل ذلك ، إلا أنهم يرسلون أشرطة صوتية وقد طلب هذا الرجل من زوجته ، أن تسجل له قباع خنازيره ، وصفير الريح في أشجار البامبو ، وبالمثل أيضا أصوات العائلة.

«لقد استولوا على كل ثرواتنا الوجدانية ، لقد استعمر الاقتصاد المجتمع ، وهذا يعني أن المجال غير الاقتصادي للحياة البشرية يتقلص ، وأنه على المنطقة المتضائلة أن تمتص التكلفة الغالية والعالية للألم والخسران ، والظلم والاستغلال الذي تسببه الاقتصاديات ، ربما كان يطلق على هذه ، يوما ما ، تناقضات الرأسمالية ، إلا أن تلك التناقضات لم تعد تحتسب بل وحتى لم يعد يلحظها أحد ، إذ أن الرأسمالية يعاد الآن تأهيلها ، إن عودة العنف الذي يقع أثناء العمليات وتحديده ، إنما هو شرط أساسي لأي بديل يمكن أن يحل محل مافي الشيوعية من جمود ، لم يعد الاقتصاد نظاما ثانويا، لقد غدا نظاما سائدا .

«لقد كنت في اليابان مدة عام حتي مارس ١٩٩١ ، في جامعة كيوتو. وكانت هنالك قصة في الصحافة المحلية ، «فليبينية تحتاج الى المساعدة» ، لقد أصيبت هذه المرأة بضربة ، لم يكن في وسعها أن تتكلم ، كانت تبدو يابانية ، بما يكفي حتى أنهم لم يسألوها عن جنسيتها ، عندما أُخذت الى المستشفى ، هنالك شك في علاجهم لها ، إن عرفوا أنها فليبينية ، فالفليبينيون نادرا مايكون لديهم تأمين صحي . وظلت حية ، على أي حال ، لكن القلق حل بهم خشية ألا تدفع الفاتورة ، عندما اكتشفوا أنها لاتستطيع الحديث باليابانية . إن نصف الفليبنيين في اليابان غير مسجلين ، وموجودون بطريقة غير قانونية ، إن السفارة اليابانية في مانيلا تصدر سنويا ٣٢,٠٠٠ تأشيرة دخول للفليبينيات ، وليست تأشيرة هجرات وهذا يجعلنا أكبرمصدرين للعاملين في مجال اللهو في العالم .

«لقد زرت هذه المرأة فى المستشفى وقلت لها «بالتاجالوج»* ، هل أنت فليبينية؟ فنظرت إلىّ وقالت ، «هاى» باليابانية ، قلت ، «حسنا إننى فليبينى» . فبكت وأمسكت بيدى وانهارت ، لقد كانت مدرسة فى «كوباو» ، مانيلا ، وهى متخرجة من جامعة الشرق الأقصى ، إن لديها سبعة أطفال ، وقد تركت أسرتها منذ عامين لتعمل فى مجال اللهو والتسلية فى اليابان ، وهى فى سن الثالثة والأربعين ! إن فرصتك فى البقاء ، فى مثل هذا العمر ، محدودة ، بسبب منافسة النساء الأصغر سنا، وأصبحت عاملة يومية فى مصنع للبلاستيك ، كانت الزوجة العرفية لسائق لورى يابانى ، حيث يقدم لها ذلك بعض الحماية ، وعندما اكتُشِف أنها فليبينية ، عرفت أنهم سوف يرحلونها باعتبارها أجنبية تجاوزت الإقامة .

«ولكن يجب دفع الفاتورة أولا ، وبدأ صديقى اليابانى جمع تبرعات من الجمهور قال إن الناس تجئ من الفليبين لخدمتنا ، إننا مسئولون عن رعايتهم ، وانهالت الهبات، كان هنالك مايكفى لدفع الفواتير ولإرسالها إلى بلدها ، وعادت الى الفليبين فى سبتمبر ١٩٩١، فكرت فى العودة الى التدريس هنا ، لكنها لم تكن تعلم كم ارتفعت الأثمان عاليا خلال العامين اللذين كانت بعيدة فيهما عن هنا ، وقالت ، «إننى لا أتصور كيف يمكننى وزوجى إعالة أبنائنا بأجورنا تلك ، إنه سائق سيارة جيب ، وأنا لن أعود ثانية الى التدريس ، ماذا إذن ؟ «سأعود إلى اليابان».

«إن ٩٠٪ من الفليبينيين فى اليابان يحملون أسماء وهمية ، لأن جمعيهم ينوون البقاء أكثر من تأشيرة دخولهم كزائرين ، سوف يُرحلون ، أنت ، فى الحقيقة إن أحسست بحنين للوطن ، فإنك سوف تسلم نفسك إلى السلطات ، التى تأخذ صورتك واسمك ، ومن ثم فإنك تستخدم إسماً وهمياً . وبذا يمكنك أن تعود ، دوما ، تحت اسم آخر ، ولذا قالت هذه المرأة أنها سوف تحصل على جواز سفر آخر وتعود ، وقد قدمت إحدى بناتها ، فى تلك الأثناء ، طلبا للعمل فى مجال اللهو والتسلية باليابان».

فاندانا شيفا ، عالم فيزيائى وعالم ايكولوجى

«يجب أن نجعل تلك الارتباطات التى كانت مخفية ، مرئية ، يجب على أى مقالة نقدية للتنمية أن تنظر للتكلفة الكلية ، بقدر مايمكن قياسها ، وإلا تسمح ، ببساطة للإيديولوجية المهيمنة أن تحصى النواحى المختارة القليلة التى يقدمونها فى حساباتهم الختامية .

---

* لغة جزر جنوب الباسفيكى (المترجم).

«إن جعل الأمور مرئية يعنى قبل أى شئ ، تضمين عمل النساء ، إن على النساء أن يبقين مستترات ، فيما يتعلق بدعم الإنتاج : إنهن لايستطعن دخول السوق ، لأن السوق قد اعتمد على بقائهن خارجه وعلى جهودهن للإبقاء على الأشياء متحركة فى نجاح. إن على النساء أن يعشن حياتهن حيث لاتباع مساهماتهن ولاتشترى . إن عملهن غير المرئى قد ساعد النظام على تخليد ذاته ، النساء يعرفن أنه لايوجد السوق الذى يمكنه احتواء الجميع ، إن دور النساء هو العمل فى مناطق الطرد التى يخلقها السوق ، يجب أن يتحملن أحمال أكثر من الانحطاط الذى ابتليت به الأرض والناس ، وكلما غدت الجراح الاقتصادية أعمق كلما ازداد دور المرأة الشافى ، ولكن عليها أن تعمل فى مساحات تضاءلت بسبب امتداد قوى السوق ، علينا أن نجعل التماثل بين عالم الطبيعة والنساء والعالم الثالث مرئيا فى خطة برنامج هذه الأشياء ، إن تدنى هذه الثلاث كلها ، إنما هو دليل على التكاليف غير المحسوبة والتى يجب أن يتحملها العالم ثمنا لنجاح اقتصاد السوق ، ولسوف نقع فى مصيدة جديدة للإذلال والتطويع ، مالم يفصح الجنوب عن نفسه ، فيما يتعلق بالبحث النقدى النسائى ، عما هو متماثل وماهو متشابه .

إن جذور العنف فى البنجاب مثلا يمكن تتبعها إلى الطريقة التى يجب أن تتحول بها المادة البشرية ذاتها فى تواز مع الطريقة التى حُول بها استخدام الأرض والمدخلات، لقد نُظر الى الثورة الخضراء باعتبارها نضالا بين المزارع صاحب المشروع والمزارع المتخلف ، يجب أن يعاد بناء العالم فى كيانات تنافسية ، إن طاقة جديدة قد أطلق عنانها صاحب المشروع المغامر مطلق العنان ، هؤلاء الذين كانوا مزارعين بالاسم فقط ، مزارعى أرز وقمح فقط، ماذا يحل بهؤلاء الذين يصبحون فائضين عن الحاجة ، الصبية الذين يتركون المزارع إما لأن أباءهم قد حققوا ثروات كبيرة وإما لأنهم أصبحوا عمالا لا لزوم لهم ؟ ويتأثر بذلك فقراء وأغنياء جيل جديد ، إنها عملية انفجارية ، الشباب يحسون بالظلم ، وهم يفصحون عن هذا الشعور ، كلما اتيح لهم ذلك -المشاعية، والتحرر عبر نضالات ذات طابع عسكرى- إنهم يتعلمون من الحالة التى تشكل المجرى الرئيسى ، والتى لابد حينئذ وأن تتحكم فى نتاجها هى ، فى خلقها وإبداعها .

«إن البنجاب نتاج تخطيط جيد ، تخطيط حقق ثماره بطريقة رائعة ، إنهم حتى الآن، مازالوا يقولون: أن الثورة الخضراء قد فعلت فعلها ، حيث فصلوا نتائجها وجعلوها خارجية ، إن المشاكل ينظر الآن إليها باعتبارها مشاكل خارجية – يقف وراءها السيخ المتعطشون للدماء ؛ إنهم لاينظرون إليها باعتبارها محددة اجتماعيا ، كرد فعل لتحطيم التنوع الذى كان صفة الهند الخاصة بها ، إن هذا التنوع يُعرف

الآن، فى الحقيقة ، باعتباره هو المشكلة ذاتها ، ومن ثم يخلق ذلك حينئذ سببا للانفصال والقضاء على مزيد من التنوع . إن الانفصالية رد فعل للدولة التى تريد التحكم عسكريا فى المجتمعات ، أو التحكم عن طريق الاقتصاديات دون أن تتحكم عضويا فى نفسها .

راجمو هان غاندى ، عضو الراجياسابها ، حفيد المهاتما غاندى

يتحدث صندوق النقد الدولى والبنك الدولى عن اندماجنا فى الاقتصاد العالمى، والحقيقة أن الغالبية العظمى من الهنود غير مندمجين حتى فى الاقتصاد الهندى ، أن أحدا لاينكر أن قطاع الدولة لم يكن ناجحا ، إلا أن القطاع الخاص فى الهند ليس مثال الفضيلة ، سواء من ناحية دفع ماعليه من ضرائب ، أو مراعاة قوانين التلوث والحد الأدنى للأجور ، وقوانين العمل ، والبحث والتنمية والتخطيط طويل المدى ، إن المزيد من عدم التنظيم لن يكون غير برنامج عمل للكارثة .

«هنالك فى الهند ٧٢ مليون قَبَليا و ١٢٠ مليون منبوذاً ، إن التيسيرات فى المناطق القبلية غائبة ،والمدارس غير مناسبة ، والمدرسون يكرهون الأماكن التى يخدمون فيها ، إنهم يحسون عندما يذهبون إلى هناك بأن ذلك عقاب لهم وحط من قدرهم ، إنهم يزورون المدرسة مرتين خلال الشهر ، ليأخذوا رواتبهم ، وهذا كل مافى الأمر ، إن عدد الهنود الذين يريدون الهجرة مائة ضعف عدد هؤلاء الذين يودون الذهاب إلى صحارى فى الأجزاء الداخلية من البلاد.

«قد كانت خسارة الاتحاد السوفيتى خسارة فادحة ، كنا مبهورين اعجابا بالحلم السوفيتى ، الغرب يسير الآن ، فى هذا الفراغ ، بالوان خفاقة ، أحس الآن بالأسى ، فقد تحطمت تخيلاتى ، حاولت أن أبث فى نفسى الثقة والقوة ، غير أن ذلك لم يكن سهلا . إن اختفاء أحلامنا التى تلاحق الحرية مسألة محزنة ، الهند لم تعنى لنا ، مافكرنا أنها قد تعنيه . الكثير للغاية من الأسى ، والكثير للغاية من الدموع، والكثير للغاية من قطرات الدم ،والكثير للغاية من الجوع ! إن غضبى وخيبة أملى مصوبة ، قبل كل شئ ، نحوى ونحو المجتمع الهندى، إن المساهمة الهندية لوضعنا الحالى مساهمة كبيرة ، إننى أعتقد أن مانسبه جدى إلى البريطانيين فيما يتعلق بويلات الهند ، تجاوز مالهذه الويلات من تعليل ، إن الوجود البريطانى فى الهند لم يكن بأية حال ، هو العقبة الوحيدة الكبرى أمامنا» .

انيل اجاروال ، مركز العلم والبيئة
نيودلهى

«ليس هنالك من خطأ ، كما يبدو لى ، فى خلق ثروة عبر الإقدام البشرى على فعل الأشياء ، غير أن ذلك يصبح مدمرا ، عند تجاوز نقطة معينة.

يجب أن تكون هنالك أعمال ضبط ورصد متضمنة عبر نظم للقيم ، وهذا ما يضيع منا ، إن القيم قد لحقت بها قيم السوق وغمرتها ، إن الأشياء بذاتها ، والتى يجب ضبطها ، ينظر اليها كمصدر للقيم ذاتها ، إن الغرب يلوم الجنوب دوما بسبب الفساد، غير أن انتهاز الشركات متعددة الجنسيات الفرص من أجل الربح الفاحش ، هو ذات الشئ ، ولكن فى ثوب آخر ، إن نظام الفساد قد شُرع فى الغرب .

«لقد كُتب الكثير من الهراء عن التنمية المتواصلة ، إن الطبيعة لايمكن أن تظل كماهى لكل أجيال المستقبل ، من الذى يُقرر ، ما الذى يتواصل ؟ من الذى يستطيع أن يعرف؟ ، إن كل المجتمعات تستخدم البيئة وتغيرها ، حتى تظل باقية ، الزراعة غيرت البيئة بعمق ، التواصل يكمن فى السرعة التى يمكن بها لأى مجتمع تصحيح أخطائه ، إن أى مجتمع سوف يقع فى أخطاء وهو يستخدم الموارد ، وأفضل من يستطيع تصحيح الخطأ هم الذين يعانون من نتائج تلك الأخطاء ، ومن ثم ، فإنك إن أردت التواصل ، أو حتى نظاما أعلى للتواصل ،عليك أن تمكن عناصر المجتمع التى لها مصلحة مكتسبة فى التصحيح الذاتى.

«المشروع حر ، ولكن ليس إلى حد اغتصاب تحكم الناس فى مواردهم ، إنهم عندما يقررون السماح للمشروع باستخدام مواردهم ، فإن عليهم أن يعيشوا متحملين ماينتج عن ذلك ، فإن عانوا وواجهوا مساوئ بعيدة المدى ، فإنهم سيقولون ، توقف ، هذا يكفى ، التكاليف عالية للغاية ؛ إن التكاليف الإجتماعية والبيئية سوف توضع فى نموذج المشروع وتحقيق الثروة ، إن وضع التكاليف فى النماذج ، مسألة غير متروكة لأصحاب المشاريع ، أو الإقتصاديين والخبراء ، فقط للناس الذين يزرعون المحاصيل ، يحصدون الأرض ويراعونها .

«لماذا يدمر الناس الآن الغابات التى يعتمدون عليها ؟ والسؤال يجب أن يكون ، ما الذى أعطاه لهم أى أحد ، فى أى وقت ، الحكومة أو الأعمال ، فى مقابل مالديهم من معرفة أو تنوع حياتى أو عناية حريصة على الغابات ؟ إنهم لم يحظوا أبدا بمكافأة هؤلاء الذين يجيئون ليأخذوا مالديهم من معرفة وموارد، متى دُفع الثمن لأناس غابات

الأمـازون ، مقـابل مسـتودعـات الثـراء والأدوية والمحـاصيل والتنوع الوراثى ، مـقـابل مـاتقـدمـه تلك الغـابات من كينين ودواء مـخـدر يؤدى الى ارتخـاء العضـلات ، وقـمـح و كمثـرى التمسـاح؟ إن غابات الأمازون قد غدت الطعام عابر القوميات والصناعات الدوائية ، وكان يجب أن تتلقى ، أو بالأحرى كان يجب أن يتلقى أناسـها حصتـهم عن كل حـبـة بطاطس أو طمـاطم مـزروعـة فى العـالم ، إنهم لو كـانوا قـد حـصلوا على مستحقاتهم ، لكان هنود الأمازون هم أغنى مجتمع فى العالم ، إن مافعلناه هو سرقة معرفتهم ، والحصول على براءة اختراعها فى المعامل ، ثم بيعها لهم مرة أخرى ، لقد ذهبنا الى الغابات نحمل البنادق حتى ننتزعها منهم .

«نحن الذين ننتمـى الى تقليد «شـبـيكو» ، كنا نقـول بأنه يجب علينا الحـفـاظ على الغـابات ، لأن فـعل ذلك ، أمـر فى صـالحنـا على المدى الطويل ، إننا سـوف نفـعل ذلك بطريقة تضمن بقاءها ، إننا من يعمل فى خدمة التواصل ، إن رجال القبائل قد غدوا علفاً صناعياً للأفران ومصانع الصلب والمناجم ، لأن غاباتهم قد دُمرت ، إنهم لو كانوا قد تلقوا الأثمان والتكاليف الحقيقية التى كان يستحقونها ، لما تدنت حياتهم إلى حد أن العمل فى أوضاع مرعبة ، فى مكان مكتظ قذر فى المدينة ، بدا بديلا مقبولا.

«إن النظام المالى متواصل . والسؤال الوحيد هو ، من الذى سيدفع الثمن عن مَن تميزوا بتواصل ثرائهم ونمط حياتهم ؟ إنهـا قضـية عدالة اجتماعية ، عدالة التوزيع ، غير أنه لايمكن القول حتى الآن ، أن النظام الحالى لايمكنه الاستمرار لوقت أطول ، إنه سينطوى على تجريد أكثر للفقراء ، وسوف يكون هنالك المزيد من كوارث تدمير الطبيعة ، والمزيد من التمدين والمزيد من التدنى بكل معنى».

أرون كومار ، اقتصادى ، جامعة جواهر لال نهرو نيودلهى

«لقد قال وزير المالية ، الذى يتفاوض مع صندوق النقد الدولى ، أننا سوف نغير فى الجـولة القـادمـة من المفـاوضـات ، السـيـاسـات ، إن رأينا ذلك مناسـبـا ، لكن الوقت ، حينذاك ، سيكون متأخرا البطالة ، التضخم ، التوترات الاجتمـاعية ، رد فعل العمال ، المزارعون – كل ذلك يمكن أن يكون أسوأ بكثير ، عندما تحدث الاجتماعات التالية ، حيث أنه لم تعد هنالك خيارات متروكة ، وأشـار الوزير ، فى ذات الوقت ، إلى التحرير قائلا ، أنه ليس هنالك من عودة للوراء ، قد تكون هذه العمليات ، التى لاتنقض أو ترد ،

هى التى بدأت الحركة عن طريق قرارات اقتصادية ، سوف تُدرك نتائجها فى الحلبة الاجتماعية والسياسية.

«إن التصحيحات المطلوبة يجب أن تتعامل مع الأزمة فى كل أبعادها ، اجتماعية وسياسية وبالمثل اقتصادية ، يجب أن نضع فى حسباننا البطالة والمشاكل الاجتماعية والتوترات المتزايدة ، وتلك التى تشتمل على الإرهاب والهجرة والعنف الاجتماعى ، إننا عندما نقيس فقط المؤشرات الاقتصادية ، فإنه لن تكون لدينا صورة واضحة فيما يفعله الاقتصاد بالمجتمع ، إن المشكلة التى تواجه الهند ، فى كل هذه الأبعاد ، عميقة للغاية، إن تصور إمكان تعامل التصحيحات الاقتصادية مع النتائج الاجتماعية العميقة لتلك التصحيحات ذاتها ، إنما هو وهم وشذوذ وعبث ، إن لم يكن كما هو محتمل مفجع للغاية.

«لقد رأت الثمانينيات ، طبقا لأرقام لجنة التخطيط ، زيادة فى السكان قدرها ٢.١٪ سنويا ، بينما كان توظيف الجيل بمعدل قدره ١.٥٥٪ وذلك يعنى ٠.٥٪ زيادة فى البطالة سنويا. ولاتضع تلك الأرقام فى حسبانها هؤلاء الذين أجبروا على القيام بأى نوع من العمل ، كالخدمات التى هى ليس تشغيلا حقيقيا ، وبطالة المتعلمين ، إن العاطلين رسميا ٣٥ مليون ، وحساب البطالة الجزئية أشد صعوبة ، وكذا الناس الذين يقومون بأعمال غير مناسبة اجتماعيا ، خاصة المتعلمين ، هذه آلية تغذية مرتدة هامة للمستقبل ، إن آمال المتعلمين لايمكن الوفاء بها من خلال نظام التوظيف ،إن الشباب ، الراغبين الآن تماما فى التعليم ، محكوم عليهم بخيبة الأمل ، ماذا يحدث عندما تستفحل تلك الضغوط الاجتماعية؟ لقد نُميت الآمال من خلال التليفاز ووسائل الإعلام ، وأصبح الناس فى المناطق الريفية واعيين لفقرهم ، وأصبح الذين فى مناطق لم يمسسها الوعى ، واعيين بالعالم الخارجى- وكلما ازدادت الرفاهية فى منطقة ، كلما ساء الوضع فى المناطق المضطربة ، وخاصة إن كان التوزيع غير متساو ،انظر الى البنجاب.

«إن القاعدة الأساسية للطبقة الحاكمة تضيق ، وذلك يعنى المزيد من المشاكل الإجتماعية ، فى الماضى ، كان تحالف رجال الأعمال الكبار والمتوسطين والصغار ، والمزارعين الأثرياء ، والمزارعين متوسطى الدخل ، واللوبى الحضرى ، والعاملين فى الحكومة والعمل المنظم ، يوفر قاعدة قوية لدعم «حزب المؤتمر » ، لقد ضاقت القاعدة الآن ، وسوف تضيّقها حزمة صندوق النقد الدولى أكثر ، إن هذا يمكن أن يقود فقط إلى الأصولية من ناحية ، وزيادة سلطوية الدولة من ناحية أخرى ، هنالك سيناريو أمريكا اللاتينية .

«إن هؤلاء الذين يجيئون من صندوق النقد الدولى ليخبروننا ماذا نفعل هم أناس مجردون من القيم الإنسانية والعاطفة الإنسانية . مثال ذلك ، أن الدعم هو امتياز لمجموعة ما: خذ دعم المخصبات ، الذى يفيد الفقراء بشكل غير مباشر ، حيث أنها تزيد انتاج الطعام ، وتحافظ على الأسعار منخفضة - هنالك بعض الفائدة للفقراء ، مهما كان رفض المرء كثيرا للمخصبات الزراعية - ولكن لماذا يأخذ الأثرياء كل هذا الامتياز على ممتلكاتهم (٤٠٠٠٠ كرور* روبيه أو أكثر)، بينما التخفيض الخاص بالمخصب قدره ٤٠٠٠ كرور فقط؟ إن عشرة أمثال هذا المبلغ يمكن تحقيقها من ضرائب الثروة ، ومن الاقتصاد الأسود ، والذى يصل إلى حوالى ٣٠٪ من الاقتصاد الرسمى ، إن تخفيض الدعم الموجه للفقراء يوضح أن الاقتصاد السياسى يتغير ، يوضح أن الحكومة تعمل لحساب الأثرياء .

«إن النخبة الهندية ترتبط أكثر فأكثر بأثرياء الغرب ، ومن الواضح أن الهند لاتنقصها الموارد ، إننا لسنا بلدا فقيرا ، ومع ذلك فإنه ينظر الينا كشحاذين ، إن الأثرياء يسيئون استخدام الموارد، إن مدخل صندوق النقد الدولى يشكل هجمة أيديولوجية على النظام الهندى ، إن اصحاب الملكية فى الهند خونة ، خونة اقتصاديون. لقد كانت الثروة محفوظة هنا ، على الأقل ، أثناء «حركة الحرية» . إنها الآن تتسرب بعيدا ، إن طبقة رجال الأعمال لم تعد بعد وطنية النظرة ، لماذا لم يعارض رجال الأعمال الهنود انفتاح الاقتصاد ؟ إنهم لابد من الخاسرين فى هذه العملية ، لكن الحقيقة تكمن فى أنهم يحتفظون برؤوس أموالهم فى الخارج ، ومن ثم فإنهم قد تغيروا، إن هذاهو مايعنيه الاندماج فى الاقتصاد العالمى، إنهم يعيشون فى مقاطعات خمسة نجوم ، محروسين ومحميين ، إن رأس المال المحلى قد أمّن قاعدته الآن خارج الهند ، ومن ثم كف عن أن يكون وطنيا ، لقد دمج نفسه فى الشبكة العالمية للثروة والقوة، وهو مُعَدُ لترك الفقراء وشأنهم ، إن هذا لن يقود إلا إلى التحلل والاضطراب والعنف ، وهم لايبالون .

«إننا نحتاج إلى الوحدة بين العمال ، العاملين والعاطلين ، المنظمين وغير الرسميين يجب أن يضم العمل السياسى العديد من هؤلاء الذين يمكن رؤيتهم خارج الحلبة السياسية - النساء وأهل الريف ، يجب حشد الغالبية ضد مايفعله الأقوياء بهذا البلد ،وضد ما أصابهم من عمى ، والذين سوف يقودوننا إلى الدمار إن سُمح لهم بمواصلة هذه الحماقة الإجرامية».

---

* الكرور يساوى عشرة ملايين روبيه. (المترجم)

ليونور بريونس ، الرئيس، التحرر من ائتلاف الديون ، الفليبين

«إن حقوق الانسان تقمع باسم السوق ، سوق بعيدة عن الحرية ، بأى حال من الأحوال . إننا نضحى بالفقراء على مذبح اقتصاديات السوق.

«إن أول شئ فى حالة الفليبين أو بيرو ، التى هلهلتها الأزمات والفقر ، هو دوما العودة بالبلد إلى اقتصاد السوق ، والدفع عن ذات الإجراءات شديدة القسوة ، إنهم يقتلون من أجل صالح السوق ، إنهم لن يستمعوا إلى صوت العقل ، وحتى بعد «بيناتوبو» ، الأشد فظاعة فى الكوارث الطبيعية ، رفض وزير المالية تعديل رقم واحد من هدف صندوق النقد الدولى للإستقرار ، بغض النظر عن عدم الاستقرار الاجتماعى الذى سينجم عنه .

«حتى رجال البنوك ، ماكانوا يتوقعون البتة قبول حكومة أكينو الكلى لديون ماركوس ، إنهم لم يصدقوا ، دون شك ، حسن طالعهم ، كان المفترض فى ادارة أكينو أن ترفض سلب وشراهة ماركوس ، كان فى وسعها ، على الأقل ، الإعلان عن الديون المخادعة ، لكنها اختارت أن تتخذ وقفة بطولية، لقد ارتفع الدين رغم برامج تخفيض الدين ، لأن هذه البرامج كانت تمول بنفس طريقة الديون ذاتها ، بواسطة قروض أخرى. إن صفة أزمة الديون قد تغيرت الآن كنا نقترض فى السبعينيات لنمول «التنمية» ، ونحن نقترض الآن لنسدد الدين ، الأمر الذى لايمكنا تحقيقه .

«إن دفع الديون يقود مباشرة إلى الإساءة إلى حقوق الإنسان ، التنمية حق من حقوق الانسان. حق تضمنه الأمم المتحدة ، إنه ليس فقط الحق الطبيعى فى الحياة ، المأوى المناسب والطعام والتعليم والمشاركة ، رغم أن تلك الحقوق يتم تجاهلها أيضا.إن مانراه فى الحقيقة ، هو انتهاك حقوق الإنسان باسم التنمية . لاشئ يمكن تصوُره أكثر من ذلك فسادا ، إن المناطق التى سوف تُنمى ، تجرى عسكرتها : إن التنمية عند طرف البندقية هى أكثر أشكال الرفض الفاضحة للتنمية.

«إن برامج صندوق النقد الدولى للتكيف ، تكاد تَقْهَر ، بشكل ثابت حقوق الإنسان ، لقد رأينا إخلال صندوق النقد الدولى بالأمن فى بولندا وفنزويلا ، فالاستقامة الاقتصادية قبل رفاهية البشر ، ما نوع الأنظمة التى نخدمها ؟ يجئ صندوق النقد الدولى إلى بلادنا ، ولايسمع شئ علنى إذ يتم تجاهل الهيئات التشريعية ، إنها كلها معادية بعمق للديمقراطية ، إنها تنتهك كل المعايير البشرية.

دهيرندرا شارما ، مدير ، مركز العلم الأسيوى وسياسة البحث الصناعى ، نيودلهى

«تنفق بلدان العالم الثالث مجتمعة نسبة أكبر مما تنفقه البلدان الغنية من اجمالى ناتجها القومى على الأسلحة ، كما أنها تستورد اسلحة دمار شامل ، من البلدان الثرية، فى حدود ٥٠ مليار دولار أمريكى سنويا ، حتى تحارب الواحد منها الأخرى . إن الهند مثلا تنفق أكثر من ٦٥٪ من ميزانيتها الخاصة بالعلوم والتكنولوجيا ، على البحث وجهود التنمية المرتبطة بالنشاطات الدفاعية ، إن الصين وباكستان تحول من ٦ إلى ٨٪ من إجمالى ناتجها القومى إلى نشاطات تقوم على الحرب ، تقوم على عدم الثقة وعدوانية جيرانهما ، لقد أبقتنا العدوانية والتنافسية مقسمين لقرون عدة ، ولم يستفد من هذه الحماقة أحد غير تجار الأسلحة».

إن تجارة الأسلحة تدعم الكيانات الوطنية ، وشبه الكيانات التى هى فى جزئها الأكبر من خلق الكولونيالية الغربية ، والتى تمنع وحدة العالم الثالث ، والمقاومة الفعالة للأشكال المتأخرة من الكولونيالية ، إن تمديد المنافسات القومية ، والكثير منها قد نشأ بطريقة مصطنعة ، وتتشكل فى صورة القوميات ، هى أكثر الوسائل قوة ، حيث يمكن للغرب ، وفقا لها ، أن يمنع محاولات جادة لتعاون الجنوب ، إن بعث الأمة ، الدولة ، والتى هز نموها بعنف اوروبا منذ فترة قريبة فقط ،كان مصدر نزاع وحمام دم، ومجزرة عبر الجنوب كله . كان المفروض أن تجتث «التنمية» تلك العداوات فى أوروبا ، رغم أن الميزة التى يتشارك فيها الأوروبيون ، فى اللحظة الحالية ، هى نبضهم التوحيدى القاعدى، لقد حقق الأثرياء دوما أفعالا جماعية وتضامنية بين بعضهم البعض ، رغم أنهم شجبوا ، وحظروا ، وسحقوا بوحشية نفس الاتجاه حينما ظهر ، محليا ودوليا بين الفقراء ، إن مبيعات الأسلحة مسألة أساسية ، فيما يتعلق بجعل مهمة الغرب عالمية باعتبارها أيديولوجيتها الاقتصادية .

دهيرندرا شارما

«إن كان على الاقتصاد الهندى ان ينفتح ، فيجب أن يحدث ذلك فى إطار معايير معينة ، فإن شاءت الشركات الأجنبية الحضور إلى هنا ، فإن عليها أن تمدنا بالبنية التحتية اللازمة لدعم منتجاتها ، فإن شاءت صناعة السيارات مثلا ، أن تجئ وأن

تنتج ٢٠٠.٠٠٠ سيارة سنويا ، فإن على هذه الشركة أيضا أن تقدم موارد تكافح بنجاح أعداد الحوادث المتوقعة والأمراض الناجمة عن التلوث ، يجب اقامة بنوك دم ومستشفيات ، وبالمثل تليفونات حتى يمكن الإبلاغ عن الحوادث يجب أن يوفروا مضخات بترول وطرق وطيران منخفض ، عليهم أن يخبرونا عن مستويات الرصاص التى يتحمل اضافتها للهواء ، إنهم إن استطاعوا إعطاءنا كل ذلك ، علينا أن نقول: ، «تقدموا» . هل تعتقد ، لو أن «اتحاد الكاربيد» ، حدد الأخطار مقدما كان قد دخل البتة الهند؟

مثال آخر : المبنى الجديد «للهندوستان تايمز» ، هنا فى دلهى ، والذى هو مبنى شديد الارتفاع ، شُيد دون أن يعرف أى امرئ أنه لاتوجد خدمات اطفاء حريق فى دلهى قادرة على الوصول إلى ناطحة سحاب ، وأنه لاتوجد خدمات تتجاوز الطابق الرابع أو الخامس ، لم يكن هنالك ضغط فى الصنابير ، ولا خراطيم مياه تصل الى هذا الارتفاع ، كان المبنى مكونا من عشرة أو اثنى عشرة طابقا ، ونشبت النيران فى المستويات العليا من المبنى ، ولم يعمل مصعد الحريق ، ولم يكن فى الإمكان انقاذ الناس . واستدعى الجيش ، فاحضروا طائرة هليكوبتر، لم تفعل شيئا غير أنها نشرت اللهب على شكل مروحة ، بسبب الريح التى أوجدتها مراوحها ، لقد حاولوا عبثا حمل براميل مياه فى طائرات هليكوبتر ، وكان فى الجوار مبنى تحت التشييد فقام المواطنون من الشارع ، بانقاذ الناس من تلقاء انفسهم ، مستخدمين سلالم وحبال البناءين ، وانهارت خدمات اطفاء الحريق والإدارة ولم تستطع القيام بمهامها ، يجب علينا القول بأنه يتحتم على بناة الفنادق وأبنية المكاتب الضخمة ، أن يوفروا كل البنية التحتية للأمان ومكافحة الحريق ، إن كانوا سيرسخون أنفسهم هنا.

«وينطبق ذات الشئ على الصناعة النووية ، المولد الأعظم بتكاليفه غير المرئية وخسائره الخفية ، إنك لاتستطيع اكتشاف من الذى يتعرض للتسرب ، ومن ثم لن تستطيع رصد الآثار ، إن مخاطر التقنية مجهولة ، لأنه ليس لدينا البنية التحتية لقياس الآثار ، ومن ثم ، ليس هنالك مسئولية أو محاسبة ، هنالك مستوى عال من التسرب الاشعاعى من محطات الطاقة النووية ، إن التقنية غير متقدمة ، وغالبا مايكون قد بطل استعمالها ويحدث تسريب فى وصلات الأنابيب ، إن العاملين فى المناصب العليا والمهندسين هم فئة عليا . إن ٨٠ الى ٩٠٪ من الشخصيات العلمية من النخبة العليا ، إن أعلى ١٠٪ منهم من البراهمة، فإن كان هنالك تسرب ما ، فإن البراهمة لن يقتربوا منه ، وكذلك المهندسين ، إنهم يقولون ، «إن أنت عرضتنى لأكثر من الجرعة المسموح بها مدة سنتين ، فإنك لن تكون قادرا على استخدامى . ولذا يجب حمايتى»، وتضمن وحدة القمة الصغيرة إنها لن تتعرض ، بهذه الطريقة ، للتسرب ، ومن ثم «تستخدم الفئة الدنيا من الناس والفئات المتخلفة والقبليين والمجرمين والجنود ، يجب أن يكون

لدى كل امرئ تؤجره المؤسسة عداد جيجر وملابس واقية ، يجب أن يحظى هؤلاء الموجودين فى كشوف الرواتب المنتظمة على تغطية صحية أيضا ، إن عمال العقود هم الذين يقومون بالأعمال الدنيا ، العمل يعطى إلى مقاول ، أما عن كيفية انجازه فلا أحد يبالى بذلك . إنه يستأجر أناسا بأجور يومية يصل أعلاها الى ٢٠٠ روبيه ، بينما يصل المعدل العادى الى ٤٠ أو ٥٠ روبيه ، إنه يجئ بالعشرات منهم فيقومون بالعمل، وقد يتعرضون للإشعاع ، ثم يصرفون ، ويعطى لهؤلاء الذين يتعرضون لأكثر مما هو مسموح به ٥٠٠ روبيه ، ويعادون الى بيهار ، أوريسا ويختفون ، إن أكثر من ١٠٠٠٠ شخص ، من أمثال هؤلاء ، قد تعرضوا للإشعاع خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية ولا أحد يتابعهم ، إنهم لايعرفون القراءة أو الكتابة ، فإن انجبوا أطفالا مشوهين ، فإنهم سيقولون أن ذلك قدرهم ونتيجة أفعالهم ، وليس هنالك من دليل على تعرضهم للإشعاع . وبهذه الطريقة ، يمكنك دفن النتائج الخبيثة للنشاط الإشعاعى فى معتقدات العامة من الناس ، وقد تكون تلك واحدة من أكثر الطرق ابداعا لدفن تكاليف التنمية الصناعية، وهى تبين أيضا كيف يقام «التحديث » و«التنمية» ببساطة ، فوق أنماط من الاستغلال والضرر أكثر قدما ، ويُنظر إلى هذا باعتباره تقدما - توليد الكهرباء ، وتوليد الطاقة هو لب التقدم ، لاشئ عن التكاليف الاجتماعية والتكاليف البيئية ، إن القيمة السالبة لاتحسب فى التكاليف أبدا، إنهم لايرون أو يحسبون النتائج.

«ربما افتقد العلماء أنفسهم ، الشعور بوجود هموم اجتماعية نتيجة مافعلوا، غير أن هذا لم يعد ممكنا بعد هيروشيما ونجازاكى ، ربما رأى العلم نفسه ، حتى حينذاك، كمستكشف للحقيقة الموضوعية ، غير أن العديد من العلماء رأوا ، بعد القنبلة الذرية ، الدرجة التى امتهنوا بها أنفسهم ، تحالف غير مقدس مع السياسات ، وطاقات تدميرية تربطهم بالدولة والعسكر ، لقد قال اينشتاين نفسه ، إنه كان يفضل لو كان بائعا للخضراوات ، لم يكونوا واعيين بالسياق الذى سوف تستخدم فيه قوتهم ، ما أن خرج الجنى من القمقم ، حتى عجزوا عن وقف القوى الصناعية والعسكرية والسياسية ، لقد عجزوا عن فعل أى شئ ضد مفكرى الولايات المتحدة المحافظين الذين قالوا : «الآن سوف نجعل العالم يرى المعنى الواضح للقضاء والقدر» .

«إن حركة النقد العلمى، بدأت ترتاب فى النموذج العلمى ، إن الـ سى إن دى ، الـ إى إن دى والعلماء المهيمنين فى الولايات المتحدة ، قد غذوا جميعا الحركة المدافعة عن البيئة فى السبعينيات والثمانينيات ، لن تكون هنالك يد مطلقة بعد الآن ، ولن يكون هنالك منع للتساؤل ، ولن تكون هنالك مزاعم الموضوعية المجردة من الهوى، الناس تسأل الآن ، ماذا تفعلون؟ وماهى المزايا والملابسات والأضرار؟ وماهى التكاليف الاجتماعية والبيئية؟.

«إننى لست ضد العلم والتقنية ، كما أننى لست معارضا للتنمية فى ذاتها ، إن التنمية والتغيير ضروريان لاستمرار الحضارة البشرية ، ليست كل الأفكار الجديدة جيدة، وليست كل الأفكار القديمة شريرة ، كما أن العكس ليس صحيحا . هنالك مخاطرة فى أن يقع الناس ، بسبب رد فعلهم المفرط ضد اساءة استخدام العلم ، فى شكل آخر من أشكال الأصولية ، عبادة ماهو تقليدى ، والذى يمكن أن يكون مدمرا ، مثله مثل الجرى وراء الجديد ، والذى يتسم بضعف التمييز».

أنيس الرحمن ، بنجلاديش

«إن العديد من الناس قد أجبرتهم القوى الخالصة لمحاولة «التنمية» على تسليم معرفتهم وحكمتهم المتراكمة ، لقد ركزت تلك القوى السلطة والتمييز والثروة فى أيد قليلة قادرة على استغلال واخضاع الكتل العريضة ، واستأصلت أعدادا كبيرة من الناس ، من حياتهم التقليدية ، وأنماط حياتهم ، ليصبحوا مواطنين أدنى فى بيئة غريبة .

«ليس هنالك مشكلة فى الاتفاق مع هذا النقد للتنمية ، إن ذلك لايعنى ضرورة ، أن نتخلى عن الكلمة ، لأنها ببساطة قد أسئ اليها ، إنها فكرة ثمينة ، ما الذى تعنيه التنمية للناس الذين لم يفقدوا إحساسهم بالهوية ، ويعبرون عن أنفسهم من خلال مساعى جماعية موثوق بها ؟ كيف يمكن لمثل ذلك الاحساس بالهوية والتعبير الذاتى الجماعى أن يُعادا لهؤلاء الذين فقدوهما؟

«إن النموذج الموجود يعطى الأسبقية للاقتصاديات ، إن النموذج الاقتصادى يعالج بالاهتمام «عدالة التوزيع» ، إن تكوين المرض الاجتماعى ، فى المجتمعات المتطورة ، يتجاوز التحكم البشرى ، وهذا يشكل قيدا آخر.

«التنمية نمو من الداخل . ومع ذلك فإنه ينظر اليها اليوم باعتبار انها ستتغلب على مشكلة الفقر ، وبذا تختزل الطموحات البشرية إلى الحصول على خدمة من السلع الاقتصادية ، لايمكن علاج الفقر عن طريق تعريفه أنه المشكلة التى يلزم حلها حيث يخلق ذلك حافزا سلبيا.

«إن كثيرا من الناس أضفوا صفة ذاتية على نظرة الأغنياء للفقراء ، بحيث تصبح الكرامة الإنسانية والإحلال الذاتى والاحترام هى جذر «المشكلة» ، إن النوعية البشرية للناس مسألة مستقلة عن وضعهم الاقتصادى .

«يجب أن تشتمل عناصر البديل على نمو ينبع من الداخل ، على علاقات لاتقوم على التسلسل الهرمى ، إن نشوء المعرفة ، يعنى أن الحقيقة المناسبة إنما هى مسألة يمتلكها الناس ، وهم وحدهم الذى يمنحونها شرعيتها ؛ إنها استعادة التاريخ ، والناس فيه هم الممثلين الأساسيين ، واعطاء الأسبقية لقيم الناس وثقافتهم، المعرفة غير قابلة للنقل أو التحويل ، إنها يمكن حفظها عن ظهر قلب للتطبيق الآلى ، غير أن التعليم هو دوما فعل من أفعال البحث الذاتى والاكتشاف .

«إن سقوط البدائل الحقيقية الأولى للرأسمالية العالمية (فى صورة كل من الاشتراكية فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية ، أو انهاء الاستعمار فى *العالم الثالث*) ، لايبرئ الرأسمالية ، بأى حال من الأحوال ، من سجلها العالمى السلبى ، فى الماضى والحاضر ، بما فى ذلك الاستعمارية ،والعنصرية والاستغلال والاستبعاد واساءة استخدام الموارد وتدمير الطبيعة والحرب ، وقد أضفى النموذج المهيمن ، بصورة ما ، كل الانحرافات والتشوهات على البدائل».

مانيكا غاندى ، الوزيرة السابقة للبيئة
نيودلهى

«تتلقى مدينتا دلهى وبومباى الآن قرابة ٣٠ . . . لاجئا بيئيا شهريا . عندما كنت وزيرة ، كانت أفران الآجر تقام وتنمو فى دائرتى الانتخابية ، كان الناس يبيعون أرضهم لصناع الآجر بمبلغ إجمالى قدره ٥٠ , . . . روبيه ، ثم تُجرف الأرض إلى عمق ٨أو ٩ أقدام ، ويغادر صناع الآجر بعد عامين ، وقد ذهب الجزء العلوى من التربة ، إن غالبية الملاك الصغار الذين باعوا حصلوا بنقودهم على رأس مال للاستثمار ، لقد اشتروا دراجة بخارية أو بنوا منزلا ، الأموال استهلكت ، وأدركوا بعد عامين أن الأرض قد ضاعت إلى الأبد ، وأنهم أفقر مما كانوا من قبل ، إنها أعراض رابحو اليانصيب ، يحس الناس أنهم أثرياء فيشترون لمرة واحدة حياة مرفهة ، ولاشئ يسد النقص ثانية ، وكما يحدث مثل ذلك تماما على *المستوى الفردى* ، فإن *هذا النموذج* هو النموذج الذى نتبعه محليا ودوليا.

«إن كل أوتاربراديش الغربية تقدم الدرس العملى فى *كيفية افتقاد التنمية* ، إن زراعة التفاح وقصب السكر هى وسيلة فعالة لتصدير المياه ، ثم هنالك مليون زجاجة من مياه هيمالايا المعدنية تذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية كل عام ، إنه الجنون ،

كان عليّ ، بالأحرى ، أن أُصدر دما ، لأن ذلك هو مايساويه ومايعادله ، إن أفضل منتج لنا يُصَدر إن الهنود يستَخدمون فضلات الشاى ، المسحوق الذى يتبقى عندما تذهب أفضل الأوراق ، لقد تحولت منحدرات جبالنا الهشة الى حدائق للشاى ، يقول المنتجون انهم يخضرون الجبال ، أى هراء، إنه الاعتماد على زراعة المحصول الواحد، والمواد المبيدة للآفات التى يستخدمونها تجرى إلى الأنهار والمجارى المائية ، إن تكاليف حكايات النجاحات الاقتصادية مرعبة ، حتى قبل النظر إلى قصص الفشل.

«لقد أخذنا من اليابان ١٦٥ كرور روبيه حتى نجعل جبال أرافالى جبال خضراء ، وهى التى تعرت تماما ، ولم تزدهر أية أشجار ، ذلك لأنهم فشلوا فى تسوير الأماكن الخضراء ، والتى كانت مناطق تربية للماعز ، كانوا يسقطون البذور هوائيا ، وأُنفقت مليارات الروبيات، ولم يحدث شئ ، كان يجب وقف تربية الماشية على تلك الجبال ، لماذا ، على أى حال ، نربى الماعز لنصدر اللحوم الى الشرق الأوسط؟ لقد اقترضت الهند من اليابان ١٦٥ كرور روبيه ، حتى تكسب ٢٠ كرور روبيه.

«لقد حصلنا على قرض ، فى صورة معونة من السويد لزراعة أشجارمن التاميل نادو» ، فما الذى حدث لما تُسمى بالمعونة ؟ أولا تنفق الدولة المانحة ٣٠٪ منها على سفر المنفذين ، يجب أن يتمكنوا من تقييم الوضع فى موضعه ، إنهم يصرون على تشغيل مواطنيهم ، هم أناس يودون الحضور لرؤية الهند ؛ إن النقود لا تأتى الينا. نجح التخطيط بمعدل ٩٪ وكانوا يودون القيام بمراجعة فى منتصف المدة ، وكان معنى ذلك سفر المنفذين الى السويد . قلت: ، افعلوها هنا . كيف تتوقعون أن يقوم أناس من السويد بتقييم مثل تلك المشروعات؟ ، ورفضنا سداد هذا القرض.

«إن العاملين فى وزارة البيئة يتوقعون السفر الى الخارج ثلاث مرات فى الشهر . إنهم يدمنون السفر الى الخارج ، وعلى الوزير آن يحافظ على الموظفين سعداء وإلا فإنهم سيفشون حقيقة الطريقة التى يسير العمل بها ، ولن يكون ذلك مناسبا البتة ، إن ثلثى كل الملفات التى رأيتها فى الوزارة كانت حول سفريات الى الخارج.

«إن النظام الذى لدينا نظام سخيف وغير معقول ، إن شركة خطرة مسممة يمكن أن تعمل فى أى مكان طالما أنها بعيدة عن المناطق الحضرية بـ ٢٠ كيلو مترا . حسنا ، إذ ما أن تقام شركة كبيرة ، على بعد ٢٥ كيلو مترا ، مثلا من «مظفر نجار» أو «ميروت» ، حتى تجئ الشركات المعاونة والخدمات بالقرب منها ، ويعيش العاملون قرب أماكن عملهم، وتبنى المتاجر والمدارس والمنازل ، وسرعان ماتصبح هى ذاتها ، فى وقت سريع للغاية ، منطقةحضرية ، مرتبطة فى الغالب بشبكة متصلة من المجتمعات الحضرية.

«ثم تعرض الحكومة تخفيضا قدره ٥٠٪ من ضرائب الشركة التى تذهب إلى المناطق القبلية لأن أبناء القبائل لايشكون ، بل وحتى لايحصلون على عمل ، إن

مايحدث هو ظهور جزء من الثراء حيث يعيش عمال الشركة ، إن الشركة تجرد أبناء القبيلة من هوائهم ومائهم النظيف وأرضهم النظيفة ، ولاتقدم لهم مايحل محل ذلك ، وكل مايحصلون عليه هو العمل ك «شوكيدار» (خفراء) وبناة طرق . إنها تستعبد أبناء القبيلة.

«لقد صغت قانونا يقول أنه يجب على أى شركة تستخدم كيماويات خطرة ، أن تقوم بالتأمين ، حتى إن وقعت أى حادثة أو نكبة ، لأى شخص يعيش فى جوار المصنع ، أو أدنى المجرى الذى حدث فيه التلوث ، فإنه يكون فى وسعه المطالبة بالتعويض ، يجب أن تكون هنالك غرامة قدرها ١٢.٠٠٠ روبيه للإصابة و ٢٥.٠٠٠ روبيه للوفاة ، ربما لاتبدو تلك مبالغ كبيرة ، لكنها إن حدثت يوما بعد يوم ، فإن الشركة سرعان ماتنهى أعمالها ، إن الشركة سوف تغلق أبوابها بعد المطالبة الخامسة عشر ، إن هذا سوف يحدث عبر شركة التأمين التى لن ترغب ، فى الإستمرار فى الدفع ، وقد أقر هذا القانون فى يناير ١٩٩١ ، وطبق فى ١١ أبريل ، ثم جاءت الحكومة الجديدة ، والوزير الجديد رجل أعمال ، فأوقف العمل بالقانون ، وقال أنه يثير قلق أصحاب الأعمال ، وكما يعلم كل شخص ، فإن الاقتصاد الآن هو الذى يجب حمايته ، كذا البيئة الاقتصادية والاستثمارية وليست البيئة الحقيقية،حماية مناخ الأعمال وجو الثقة ورهافة أحاسيس السوق وليس المناخ العالمى وليس الهواء الذى نستنشقه وليس أحاسيس الناس.

سوامي أجنيفيش ، رئيس جبهة تحرير العمل المرهون

«إن خبرتنا فى تحرير العمال المرهونين تبين أن غالبيتهم لم يولدوا فى العبودية ، إن النظام يقوم أولا بافقارهم ، بكل السبل ، إن شروط التجارة بين القطاعات الريفية والحضرية ، بين الصناعة والزراعة ، بين الشمال والجنوب تعنى ان المزيد والمزيد من المزارعين سوف يهمشون ، إن عدم امتلاك الأرض يتزايد ، وبالمثل كذلك عدم امتلاك أشياء ثمينة . وتلقى الآلية بالمزيد من النساء خارج العمل ، إن هذا يخلق جوا مواتيا لنظام العمل المرهون كى يخلد نفسه.

«هنا يتدخل مقرضو النقود : القروض اللازمة لمواجهة الاحتياجات الاستهلاكية ، ويستغل مقرض النقود الأمية والتخلف الاجتماعى والاقتصادى للمزارع الصغير ، كى يحقق أقصى استغلال ، وحتى يضعه فى مصيدة الدين ، وربما العبودية ، إن معدلات

الفائدة مصاغة بتلاعب ، حتى أن المقترض لايمكنه الإفلات أبدا من المصيدة ، القرض يتم بشروط الدائن ، والأجور التى يتلقاها العامل الخاضع للضمان يتحكم فيها الدائن، إنه نوع كولونيالى من ممارسة التجارة ؛ الأمر الذى له صداه فى العلاقة بين الشمال والجنوب على المستوى العالمى.

«إن الشمال فى جنوبنا يحاول اللحاق بالغرب ؛ وفكرة التنمية التى يروجون لها تسبب أخطارا فادحة لشعبنا ولمصادرنا الطبيعية ، إن السياسة الاقتصادية الجديدة ، كما يطلق عليها ليست بالجديدة تماما ، إنها النتيجة المنطقية للطريق الانتحارى الذى تبناه الغرب لنفسه ونيابة عنا.

«إن للعمل المرهون أصل سابق على الكولونيالية ، غير أن اللورد كورنواليس قدم له العون والمساعدة بخلق نظام حق ملكية الأرض ، والذى فرق بين المالك ومن لا أرض له، إن الثقافة الاقطاعية الكولونيالية والرأسمالية التى جاءت فيما بعد ، قد عُرفت وحددت باعتبارها تنمية.

«الأزمة الحقيقية فى الغرب ؛ وهم قد جعلوه قدرا محتوما أن نحلها لهم ، الغرب يحتاج العون منا ، إن لدينا تقاليد غاندى وبوذا التى يمكن استدعاؤها ، تقاليد الحياة البسيطة ، والسمو ، ليس بفائض من الاستهلاك ، ولكن بالحد الأدنى الذى يمكن أن نأخذه لحاجاتنا ، الغرب فى حاجة لمساعدتنا ، لأنه خلق نظاما مغلقا ، ولايرى مخرجا عبر المأزق الذى بلغه ، غير تكثيف وتوسيع عمليات التجريد التى جعلتنا والغرب تعساء.

«إن فى وسعنا رؤية الخطوط المحددة لإقطاع عالمى جديد يقوم فيه السادة بالسلب والنهب ، كما يريدون . وعندما يجئ الإنهيار ، فإن الغرب هو الذى سيعانى ،لقد عاش ثلاثة ارباع الناس فى الهند دون كهرباء ، ودون مايسمى بالمسرات الحديثة ، ولكن أن يكون المواطن الأمريكى المتوسط دون كهرباء ، فتلك مسألة لايمكن التفكير فيها ، إنهم عرضة للمخاطرة أكثر منا ، لأننا استخدمنا براعتنا حتى نستطيع العيش ، وهم استخدموا براعتهم فى العثور على المزيد من السبل التى تجعلهم معتمدين على الغير.

«إننى أود أن ارى العالم الثالث وقد ارتفع الى مستوى الأحداث ، وأن يقول لا لسداد الدين ، إن العامل المرهون الذى يوقع عقدا بديونه ، يؤدى عملا أكثر بكثير مما يعادل القيمة المقترضة ؛ لقد دفعنا أضعاف أضعاف ما اقترضناه ، ولقد أخذ الغرب منا أكثر بكثير مما أعطانا فى أى وقت ، لقد وقعنا كبلد فى العبودية بالفعل ، وكما يوجد تاريخ فاصل عازل، عندما يقف العامل المرهون ويقول: ، الدين مسألة زائفة وحيلة استخدمنا فيها ، وأننى لن أرد الدين ، فإنه يجب على الجنوب ان يفعل هكذا ، إننا فى حاجة إلى إعادة توجه مجتمعنا نحو «سفاديشى» ، الاعتماد على الذات، إن التشغيل الكلى يجب أن يكون هو المبدأ الذى يرشدنا ، ويجب أن تكون له الأولوية على

كل النشاط الاقتصادى ، إن استخدام معايير أخرى مثل الربح والمنافسة والتحديث ، سوف يحكم على جماهير الناس فى الهند بعدم الفعالية ، ثم الاحتجاج والعنف.

«يوجد فى شاتيسجاره ، مصنعان للأسمنت بالقرب من «بهيلاى» ، المصنع الأقدم والذى تملكه «تاتا» ، هو شركة الأسمنت الأسيوية ، والذى يستخدم ١٨٠٠ عاملا إنه ينتج ٣ لاخ (أى ٣٠٠٠٠٠) طن من الأسمنت سنويا ، وجاءت أعمال جديدة ، «أسمنت مودى» ، وهو ينتج ١٠ لاخ (أى مليون) طن سنويا ، ويوظف ٣٠٠ عاملا فقط ، وقد التقى احد اصدقاؤنا هنالك ببعض الخبراء الذين يقومون بتركيب الآلات ، وقال لهم ، «ماذا تفعلون ؟ إنكم تستخدمون ٣٠٠ عاملا فقط. إنكم توظفون أقل وتنتجون أكثر» ، فقيل له ، «إن لدينا التقنية التى تمكننا من أنتاج ١٠ لاخ طن بواسطة ثلاثة عمال فقط، لكننا وظفنا ٣٠٠ عاملا » ، إن القول بضرورة أن تسحق ماتسمى بالفاعلية أسباب الرزق والعيش إنما هو قول يشكل عبء ثقيل شرير.

«إن (جبهة تحرير العمل المرهون) ، مرتبطة بالجمعية المعادية للعبودية فى بريطانيا، ربما علينا أن نوسع أعمالنا غربا ، إن العبودية تتبدى فى بعض المظاهر الغربية ، الناس هنالك مستهلكين مرهونين ، مقيدين بالدين الى الاستمتاع الخبيث بأشياء يدفعون من أجلها مرة بعد أخرى» .

الخاتمة

الناس فى كل أنحاء العالم يتعرضون باسم «التنمية» والتقدم أو «تكوين الثروة والتكيف الاقتصادى» إلى حالة دائمة من الاضطراب والتغيير الجبرى ، فالمناظر الخلوية لبلدان بكاملها ، قد خربت ، وسكان بأكملهم اقتلعوا بالإكراه، خدمة لأعمال السلب والنهب النبيلة تلك ، إن احساس البشر وإدراكهم قد أُعيد تشكيله بعنف وقوة ، وفقا للتغييرات القاسية التى تقتضيها تلك الأعمال . إن نفسية الفلاحين والقبليين قد أُعيدت صياغتها من أجل تحويلهم الى مواطنى حضر وعمال مصانع ؛ إن نظرة العالم للعمال قد فُككت وأُعيد بناؤها فى صورة «صناعات الخدمات » أو المستهلكين» ، إنها تجربة لاترد ولاتقاوم ، إذ لايوجد هنالك ، كما يبدو ، مكان فوق الأرض للاختفاء فيه ، ولافى تلك المجتمعات المسماة «نامية» ، أو تلك التى يعلن عنها باعتبارها «متقدمة».

إن اللاجئين والمهاجرين الذين سخروا من الحدود الوطنية ، معسكرين فى الصحارى وأرض غير مملوكة لأحد ، يعيشون فى المدن المكتظة القذرة محتجزين فى معسكرات ومراكز توقيف واعتقال ، يمثلون فقط الجزء المرئى ، بصورة أكثر من الإنسانية التى تطرد وتنتقل وتزعج وتقتلع بلا انقطاع ، إن الناس على امتداد العالم كله يحرمون من الأمان والمكان الذى يمكن أن يستريحون فيه ويربون أطفالهم ، دون أن يكونوا عرضة للأذى ، محميين من الحاجات الاقتصادية التى يمكن أن تدفعهم للبحث عن تحسينات غالبا ماتتحول إلى أوهام.

إن تجربة التغيير القاسى هذه لها ملابسات بالغة الأهمية ، بالنسبة لأولئك الذين دافعوا دوما عن التغيير باعتباره أساس السياسات الراديكالية ، إنهم يخاطرون ، إذ يسئ فهمهم وينبذهم ، هؤلاء الذين تعذبت حياتهم تحديدا بالتغيير المتصل ، والقائم على التجريد ، إن تخريب أساليب الحياة والبيئة والثقافات والتقاليد والأساليب المتواصلة التى تلبى الحاجة البشرية ، كانت فى صالح الإبقاء على شئ واحد فقط ، هو صيانة الثروة والسلطة حيثما تتركز الثروة والسلطة.

التغيير فى حياة الناس ، إذن ، هو بلوى ، غرضها فى النهاية الحفاظ على الامتياز، ولايهم ، خلال عملية الحفاظ هذه ، ماهى الخبرات والممارسات التى اكتسحت، إن مقاومة هذه العملية يبحث عنها بالكاد فى مناشدات تسعى مع ذلك لمزيد من التغيير . إن المعارضة الآن تعنى ، بالأحرى ، تشييد أماكن للإيواء وأماكن للإستقرار للاطمئنان والسلام ، حيث يمكن للناس أن يعيشوا حياتهم بكفاية مؤكدة ولائقة ، إن هذا ما يحاول الناس فعله ، التمسك بالصلات التقليدية ، بروابط الاعتماد على الذات ، بالقرابة بالقرية والجيرة .

وهم عندما يُحضون على اتباع وصفات ايديولوجية «للتغيير» ، فهل هنالك مايثير العجب فى أنهم لايكادوا يتحركون؟ ، إنهم فقط يحاولون الحفاظ على تحكمهم فى حياتهم ، وتقوية هذا التحكم والإبقاء عليه ، كما يحاولون تقييم السبل التقليدية فى الحياة فى العالم ، والتى يهددها تصنيع يمكن ألا يترك شيئا فى حاله ، التصنيع لايعترف بالملاءمة ولا بالكفاية ولا بالاستقرار ، لكنه يحفزنا للبحث عن أشكال من الثراء، هى دوما مصحوبة بالعقم وفقدان الاعتماد على الذات والعنف، مهما كانت الطيبات التى تحققها .

إن صراعا راديكاليا حقيقيا يقتضى ، فى مثل ذلك السياق ، الانسلاخ من الارتباط الوثيق بالاستيلاء الجائر على الخبرة الإنسانية ، وتقدير قيمتها نقداً ، ثم بيعها إلينا مرة أخرى ، إن ذلك يعنى معارضة هذه العملية الخبيثة حيثما تكون المعارضة ممكنة ومناسبة ، إن المعارضة تعنى تعظيم واسترجاع طرق تلبية الحاجات ، خارج نطاق اقتصاد السوق ، واكتشاف كل مايمكننا فعله وصنعه وابداعه لأنفسنا ، وللواحد منا للآخر بحرية ، إن ذلك سوف يعنى المطالبة باسترداد أعظم هبة لإنسانيتنا ، إن فشل الاشتراكية فى العالم لم ينشأ عن بعدها الراديكالى للغاية عن التنمية الرأسمالية المحددة ، ولكن لالتصاقها الوثيق للغاية بوصفاتها المدمرة ومحاكاتها .

هذا هو سبب أن المزيد والمزيد من الناس يبحثون ، فى نهاية القرن العشرين، عن قيم الشعوب الأصلية ، والمجتمعات القبلية ، وقاطنى الغابات ، والمزارعين الذين يعملون من أجل ضرورات العيش ، والذين يشعرون أن لديهم شيئا حيويا يقولونه للعالم ، خاصة إن كان العالم جادا فى الحفاظ على ، وادارة وحصاد ، قاعدة موارد الأرض بحذر وحكمة ، إن هذا لايعنى محاولة الحياة مثل هؤلاء الناس ، إن مثل ذلك الطموح مستحيل بشكل واضح ، غير أنه يشتمل على محاولة رؤية كيف أن القيم التى يحملونها ، يمكن أن تطبق فى سياقنا المختلف غاية الاختلاف.

لابد من توقع رؤية الرسل المتلهفين دوما على توسيع التصنيع ، وحوارى التغيير اللانهائى ، وهم ينظرون الى البحث عن قيم قادرة على المزيد من الصبر والمعاناة باعتبارها نسخة من علة الحنين إلى الوطن ، لايجب السماح لشئ يكبح جماح التحولات التشنجية ، والتى سوف تحول نصف سكان العالم ، فى حدود العقدين القادمين ، إلى قاطنين حضريين ، إن تلك التغييرات سوف تقدم للإنسانية ، كما هو متوقع ، أفضل أمانيها : إن الحقائق الكئيبة ، لمن جرحتهم أعمال التجريد المتعددة ، وأشكال الفقر الجديدة الصادرة عن ذات الثروة التى كان ينبغى عليها أن تنقذهم ، لاتفعل شيئا يقلل من حماس الذين يبشرون بتوسيع الاقتصاد العالمى ، إن أى شئ يقف فى طريق تلك التحولات الشرهة والمدمرة والتى تجرى فى العالم ، سوف يقولون عنه أنه نظرة متخلفة وعتيقة وعقبة أمام «التقدم» ، الذى لم يُحدد أو يُعرف بعد ، لكنه

مدون فى قساوة وخشونة الآلة الاقتصادية ، لقد غدا «الاقتصاد» كيانا له استقلاله الذاتى ، ولم يعد بقادر على العطاء تلبية لحاجات بشر ، والعلاقة بين ذاك الاقتصاد وتلك الحاجات علاقة متناقضة .

إن الرغبة فى الحفاظ على ماهو جيد ، ليست مسألة عودة إلى الماضى ، ولا هى ، فى أقل القليل ، مسألة أسطورية تتسم بالتجانس والاستقرار ، إنها مسألة الأخذ من ثقافات مرت بدروس ثمينة فى الاعتماد على الذات والكفاية ، وإعادة تلك إلى عالم متلاف مُهدد يجب أن تقوم قاعدة موارده بدعمنا جميعا ، إن المدافعين عن تصنيع بلا نهاية هم الذين يقودننا إلى عالم خرافى ، حيث أن عالمهم وَهَمْ ، ويُبقى عليه إيمان بأن العلم والتقنية سوف يخلصان البشر من نتائج أفعالهم هم ، إن هذا بوضوح مشروع يقوم على الإيمان؛ مشروع شرد من نطاق الدين ، إن وصم المحافظة باعتبارها علة الحنين إلى الماضى ، إنما هى محاولة لإزاحة كل المعوقات من طريق التنمية ، التى غدت الأهداف والقيم الإنسانية بالنسبة لها مسائل «خارجة» عنها حقا.

إن التواصل فى قاموس الغرب الآن ، يعنى تواصل مزايا الغرب ، إن هذا يعنى الحفاظ على شكل من خلق الثروة ، شكل يجعلنا نتضاءل ، ويمزق الإنسانية إلى أجزاء عن طريق المظالم التى يفرضها ، فى ذات الوقت الذى يقطف فيه الغابات والمناجم والمحيطات ، وينهب فيه الأرض ويخمد الحضارات ، ويدمر كل القيم ماعدا تلك التى يمكنه قياسها بالنقود.

إننا فى حاجة للتفكير فى علاقة مختلفة بين المحافظة والراديكالية ، مختلفة عن تلك التى حكمت ، ولمدة طويلة للغاية خطابا باليا فارغا ، إننا فى حاجة للتفكير فى سبل للحفاظ على ماله قيمة واجتثاث ذلك الذى يستعبد فقط . إن مايستعبد ، أكثر من أى شئ آخر ، هو التقدم العنيف للتصنيع ، والذى لايعرف حدودا ، ولايتوقف عند حدود العالم المادى ، بل يغزو ويستعمر ويصنع أعمق حاجاتنا ، أعمق رغباتنا ؛ ذلك الذى يعيد ترتيب المناظر الخلوية الداخلية ، بينما ينشر خرابه على سطح الأرض.

إن صراع اليسار ضد اليمين كان يقوضه دوما إيمان بإمكانية تطبيق أشكال خلق الثروة القائمة على نهايات أكثر نفعا ، إن ماتعانى الأزمة الآن منه هى ذات أشكال خلق الثروة تلك ؛ إنها حقا تعريف الثروة والأدوات التى تقاس بها أو يحكم بها عليها ، وكذلك بالمثل ملكيتها وتوزيعها ، إن الأنظمة التى تختزل كل الثراء الحى ، كل كثرة وتنوع العالم ، إلى محصول واحد عقيم من النقود ، إنما هى أنظمة مفسدة بحق للهدف الإنسانى ، يجب ، كى نقف ضد هؤلاء ، أن تكون راديكاليا ومحافظا فى ذات الوقت ، ولكن أكثر راديكالية من السعى إلى مجرد تغييرات فى ملكية وسائل الانتاج ، وأقل محافظة من هؤلاء الذين لايرون خطأ فى أنماط التمييز القائمة ، يجب أن تكون

أكثر محافظة بحق من هؤلاء الذين يرفعون رايات محافظة تعلن الارتياح إلى ما يقومون به من أعمال تمزيق وتقطيع عنيفة ، وأن تكون أقل راديكالية من هؤلاء الذين يسعون الى اختزال كنوز الأرض إلى معيار نقدى.

يمكن رؤية أن ضحايا «التنمية» ومن يقاومونها ليسا مجرد بقايا تكنسها جانبا قوى التقدم أو التاريخ ، أو أى تجريد آخر يمكن استخدامه ، إنهم يفصحون بطريقة مستترة عن شعور قوى ومتنامى ، بأن الاقتصاديات «والتنمية» التى تخدمها ، ليسا غير أدوات ثالة ، يُفرض بها الإذعان والصمت على الإنسانية ، وتُفرض علينا أشكال من «التحسين» تؤدى إلى الإفقار والتعجيز ، إن أيديولوجية الغرب الاقتصادية مصممة لتخلد امتيازات ولتمد فى أجل الظلم الاجتماعى ، وهى تطبق فى العالم بخشونة لارحمة فيها .

إن مزيجا ديناميكيا جديدا ، من الطاقات ، آخذ فى الظهور ، هنالك استخدام تخيلى لمزيد من الموارد البشرية فى البلدان الغنية واعتماد اقل على الموارد المادية ؛ وهنالك فى البلدان الفقيرة مدخل متزايد إلى الموارد المادية ، واساءة أقل قليلا إلى طاقاتهم البشرية ، إن هدف هذا الشكل من التنمية ، الذى اعيدت اقامته ، هو الكفاية للجميع ، مكان للإبداع وللعبقرية البشرية بهدف العثور على اجابات من أجل الوفاء باحتياجاتنا واحتياجات الآخرين.

إنها لحظة غير عادية ، إن حلفاءنا فى مغامرة المطالبة بتنمية بشرية من عملية خلق الثروة موجودين فى كل مكان ، إن نحن عرفنا كيف نتعرف عليهم وننضم إليهم فى نضالهم ، الذى هو فى النهاية نضالنا .

المشروع القومي للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت شوقي جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت أحمد الحضري
٥ – ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكي
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لوسي سميث	ت أشرف رفيق عفيفي
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت محمد مصطفى بدوي
١٨ – الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت ماجدة العناني
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت سيد أحمد علي الناصري
٢٣ – تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت بكر عباس
٢٥ – مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	ت إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت نخبة
٢٨ – رسالة في التسامح	جون لوك	ت منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣ – التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب ديكسون	ت خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدى أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف آ فاين	ت أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتى
٤٩ - الإسلام فى البلقان	هـ . ت نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف · محمد الجوهرى
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت · مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت المهدى أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت . أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت · عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت محمد عبد الله الجعيدى

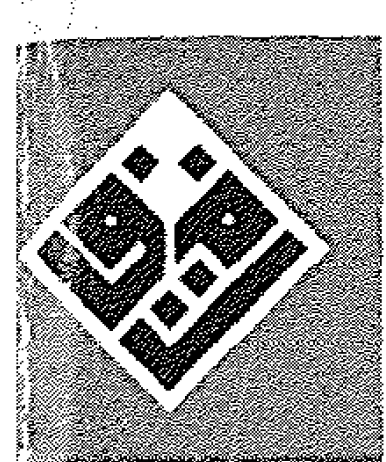
١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ت ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت نسيم مجلى
١١٥ - عرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الجندى . وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الانسان	جوزيف فوجت	ت منيرة كروان
١٢٣ - الامبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيثل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورب ديڤى	ت سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت . عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس آسيس جاروته	ت محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج كيمب	ت أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت س إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت . كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤليا تاروني	ت . وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريتشارد ڤاجنر	ت مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث — كارلوس فوينتس — ت أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء — ميجيل دى ليبس — ت على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة — تانكريد دورست — ت عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية) — إنريكى أندرسون إمبرت — ت على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس — عاطف فضول — ت أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية — روبرت ج. ليتمان — ت منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) — فرنان برودل — ت بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى — نخبة من الكُتاب — ت محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة — فيولين فانويك — ت فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت — فيل سليتر — ت خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر — نخبة من الشعراء — ت أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى — جى أتيال وآلان وأوديت فيرمو — ت مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين — النظامى الكنوجى — ت عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢) — فرنان برودل — ت بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية — ديڤيد هوكس — ت إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة — بول إيرليش — ت حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى — اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا — ت زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة — يوحنا الآسيوى — ت صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١ — جوردون مارشال — ت بإشراف محمد الجوهرى
١٦٤ – شامپوليون (حياة من نور) — چان لاكوتير — ت نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب — أ. ن أفانا سيفا — ت سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل — يشعياهو ليڤمان — ت محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور — رابندرانات طاغور — ت شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة — مجموعة من المؤلفين — ت شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية — مجموعة من المبدعين — ت شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق — ميغيل دليبيس — ت بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد — فرانك بيجو — ت هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس — مختارات — ت محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال — ولتر ت . ستيس — ت إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء — ايليس كاشمور — ت أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية — لورينزو فيلشس — ت وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية — توم تيتنبرج — ت جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف — هنرى ترويا — ت حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث — نخبة من الشعراء — ت محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب — أيسوب — ت إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد — إسماعيل فصيح — ت سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى — فنسنت . ب . ليتش — ت محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و. ب. ييتس	ت ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت فتحي العشري
١٨٤ - القاهرة . حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت دسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بزرگ علوی	ت علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دي مان	ت سعيد الغانمي
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازي السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغي	ت محمود سلامة علاوي
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكي	مجموعة من النقاد	ت ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	ت جلال السعيد الحفناوي
١٩٨ - الاتصال الجماهيري	إدوين إمري وآخرون	ت إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	ت جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠ - ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	ت فخري لبيب

رقم الإيداع ١٦٧٢٤ / ٢٠٠٠
I.S.B.N.
977-305-274-5
مطابع المجلس الأعلى للآثار





Victims of Development

Resistance and Alternatives

JEREMY SEABROOK

إن طريق التنمية الغربي ، مهما كانت مزاياه ، قد جلب ، على الأقل ، مشكلتين عسيرتين : المشكلة الأولى منهما ، هي ازدياد الظلم الاجتماعي تفاقما ، واتساع الفجوة بين أثرياء العالم وفقرائه . والثانية هي الضرر الذي أصبح من غير الممكن إبطال أثر بعضه بالفعل ، والذي وقع على الموارد الأساسية للأرض ، تلك الموارد التي تعتمد عليها كل أنظمة التنمية .

لقد أقام المؤلف كتابه ، في الأساس ، على شهادات الشهود ، من أطراف العالم المختلفة ، من مانيلا ودلهي ، إلى ريودي جانيرو وساو باولو مع تركيز خاص على الهند ، ولمحات أوروبية ، مع ذكر خاص لبريطانيا ، وتكاد الشهادات أن تتماثل ؛ فنموذج التنمية الذي يطبق واحد ، ومن هنا تماثلت نتائجه ، ضحايا في كل مكان ، آلاف وآلاف من البشر ، بدو ورعاة وأبناء قبائل وصيادو أسماك وساكنو غابات وفلاحون وعمال وفقراء الحضر ، تطاردهم وتطردهم المشروعات الكبرى : السدود والمشروعات الكهرومائية والمطارات والمدن السياحية ، والتقنية في الزراعة وارتفاع أسعار المدخلات وتزايد الآلية في الصناعة . كل هؤلاء يطردون من مواطنهم ليدفع بهم إلى الأحياء الحضرية المكتظة القذرة .